تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ISBN : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أرْوِقَة لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّـان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مَجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلّامة الشيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلّد السادس

تفسير سورة لقمان إلى نهاية سورة الزخرف

اعتنى به وقدّم له

محمد أحمد مكي

أروقة

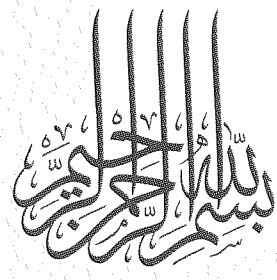
بسم الله الرحمن الرحيم



مكية إلا آيتين[١]، وهي أربع وثلاثون آية

وملخَّص موضوعها: أنَّ العقل السليم يهدي إلى مثل ما يهدي إليه القرآن العظيم.

وقد جاء فيها أقسام ثلاثة:

الأول: التنويه بحكمة القرآن.

الثاني: في حكمة لقمان.

الثالث: في دعوة المشركين إلى الإيمان بما اتَّفقت عليه الحكمة المنزَّلة والحكمة المأثورة عن الحكماء.

وقيل لأعرابي: ما حملك على التعجيل بالإيمان بمحمد؟ فقال: يا قومِ، لم أر محمداً يقول في شيء: افعل، والعقل يقول: لا تفعل، ولم أر محمداً يقول في شيء: لا تفعل، والعقل يقول: افعل، فكيف لا أعجِّل بالإيمان بمحمد؟!

* * *

(١) وهما الآية ٢٧ والآية ٢٨.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارته إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به. ومنه هنا: قوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه السورة أو آيات القرآن هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ أي: المشتمل على الحِكَم والمصالح للدنيا والأخرى، أُنزِلَ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ أي: الذين يميلون بطبيعتهم السالمة من التَّحريف إلى الإحسان، فيجدون بُغْيَتَهم في تعاليم هذا القرآن.

ثم ذكر أميزَ صفاتهم التي هي أثر ذلك الإحسان، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

أي: يأتون بها مُقامةً بحضور القلب فيها، كما قال ﷺ: «الإحسان: أن تَعبُدَ اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١)، وقال أيضاً: «إن أحدكم إذا قام يُصلِّي إنما يناجي ربَّه، فَلْيَنظُرْ كيف يناجيه»(٢).

فالمُحسِنون هم الذين يقيمون الصلاة على هذه الصفة، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ طيِّبةً بها نفوسُهم، ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾(٣) وهذا الحَصْر إنما هو بالإضافة إلى مَنْ يدَّعي أنه يؤمن بالآخرة من المِلَلِ الأخرى الذين صَوَّروا لأنفسهم آخرةً شكَّلتها لهم خيالات آبائهم الأوَّلين، كالمصريين القدماء وغيرهم. وقد جَهلوا الأسباب المؤدِّية إلى السعادة فيها لضياع كتبهم السماوية وعبثهم بها، فاختَلَق لهم رؤساؤهم عقائدَ وعباداتٍ وأعمالاً، أوحَتْ بها أوهامُهم الضالَّة، وجعلوها بزعمهم سبباً لنيْل تلك الآخرة، وهكذا ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ثم سجَّل بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين كان هذا القرآن هُدىً لهم ورحمة؛ إذ هَداهُم إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالآخرة على الوجه الصحيح، وما ينبعث من ذلك من أخلاق عالية، كالصدق والأمانة والتآخي وغير ذلك من الفضائل، فجَنَوْا من هذه الهداية ثمراتٍ أصبحوا بها مُثلاً عُليا في سُموِّ النفوس وعُلوِّ الهِمَم والتعاون على

---

(١) سلف تخريجه (٣: ٢٥٧).

(٢) رواه ابن خزيمة (٤٧٤)، والحاكم (١: ٣٦١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه على هذه السياقة، ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

(٣) الإيقان: الاعتقاد الجازم الذي لا يقبل الشك، لانبعاثه عن المنطق البرهاني، أو الوجداني، أو كليهما، فيملك النفس وتظهر فيها آثاره وتعمل بمقتضاه، ولا تجد عنه منصرفاً. والقرآن الكريم عند تدبُّره يبعث في النفس هذا اليقين في أمر الآخرة، حتى لو كُشِفَ لها الغطاء ما ازدادت يقيناً. (المؤلف).

فعل الخيرات وعمل المبرَّات، أولئك هم الذين ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ أي: الفائزون بكلِّ مطلوب من سَعَادة الدنيا والأخرى.

ثم ذكر مَنْ يقابل هؤلاء، وهم غير المهتدين بهذا القرآن، والمعارضون له، السَّاعون بالدعاية ضدَّه، فقال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال أبو مسلم: لهو الحديث: السخرية بالقرآن. أقول: فالمراد إذن بالآية: ما ينفقونه في سبيل المشاغَبات والدعايات للصدِّ عن سبيل الله، وترويج الأباطيل والمغالطات، والعَبَث بالعقول؛ للتنفير عن القرآن. وقد يكون بعض ذلك بطريقة الهُزْء والسخرية به. والله أعلم.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيه زيادة في النقد والتضليل؛ إذ لو افتكر قليلاً وتنزَّه عن الغرض الباطل والتقليد الأعمى؛ لاهتدى إلى الحقِّ بأدنى تدبُّر في دلائل هذا القرآن المبين، وأيقَنَ بأنه كتابٌ منزَّل من رب العالمين.

وهذه الآية في الكلام عن المشركين شبيهةٌ بما جاء عن اليهود في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ...﴾ [البقرة: ١٠٢] في ترويج المشاغبات ضد الدعوة إلى الدين المبين.

وقيل في معنى الآية أيضاً: إنَّ الله سبحانه ـ لما ذكر أن القرآن كتاب حكيم، يشتمل على الحِكَم والمصالح لسعادة الدارَيْن ـ بيَّن مِن حال الكفار أنهم يتركونه مُعْرِضينَ عن سبيل الهدى، مُقْبِلين على الباطل المُلهي عن الحق، فهم يستبدلون هذا بذاك.

وقيل: إنَّ النَّضْر بن الحارث كان يأتي الحيرة مُتَّجِراً، فيشتري كتباً فيها من خرافات الأقدمين وأسمارهم ولهواتهم، ويُحدِّث بها أهلَ مكة، ويقول لهم: إنَّ محمداً يُحدِّثكم أحاديثَ عاد وثمود، وأنا أحدثكم أحاديثَ فارس والروم، أليس محمد يتلو من أساطير الأوَّلين ما أتلو؟ فيستمع له المشركون.

فسجَّل عليهم سبحانه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾، وإهانتُهم بالعذاب جزاءٌ لإهانتهم هذا القرآن العظيم.

ثم تابع الكلام في بيان حال هذا الصنف من الناس، فقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ عن هذه الآيات الحكيمة مُبالغاً في الإعراض عنها والنفور ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾، وفي هذا الوصف لطفُ إشارة إلى أنّ مَنْ سمعها لا يُتَصوَّر منه التولية والإعراض. ثم علَّل ذلك بهذا التمثيل، فقال: ﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي: صَمَماً، وهذا التمثيل لزيادة المبالغة في تصوير الإعراض. فتوعَّده سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾، واستعارةُ البشارة للإخبار بالعذاب من أبلغ الاستعارات التهكُّمية الساخرة. وقيل: بل الكلام على الحقيقة، لأنَّ التبشير هو الإخبار بما تتأثَّر منه بشرة الوجه، حزناً أو سروراً.

ثم قرن وعيد الكافرين بوعد المؤمنين، على طريقة القرآن في المقابلة بين مصير الصِّنفَيْن؛ تبشيراً للمؤمنين وزيادة تنبيهٍ للكافرين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ لا يغلبه شيءٌ عن إنجاز وَعْدِه أو تحقيق وعيده، ولا يفعل إلا ما تقتضيه الحِكمةُ والمصلحة، ولا يُنجِزُ وعدَه ووعيدَه إلا في الأجل المضروب له.

ثم ذكر ما يُؤيِّد عزَّته وحكمته، فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ أي: بغير عَمَدٍ مرئية، وهي الجاذبية العامَّة. ونفي الصفة تتحقَّق في نفي الموصوف، وقد مرَّ تفسير هذه الآية في سورة الرعد[1]، ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي: وجعل في الأرض جبالاً شوامخ كأوتاد تصُونها عن الاضطراب بمن عليها، يُوازن بها الجانب

(١) في الآية الثانية منها.

المقابل، ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: أوجد في الأرض أنواعاً من الحيوانات، وسَخَّر الكثير منها للإنسان؛ لمنافعه العديدة.

ثم غيَّر الأسلوب من الغيبة إلى التكلُّم؛ لزيادة التحسيس بنعمته تعالى على البشر، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾ به ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ من أنواع النبات. والعرب تطلق هذا الوصف على الجودة في كلِّ شيء.

فذكر سبحانه وتعالى خمس آيات كونيَّة تدلُّ على قدرته وحكمته وبديع صُنعه وعظيم إتقانه، ثم عقَّبها بهذا الإلزام الواضح والإفحام الفاضح للمشركين، فقال: ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذُكِرَ هو ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ الذي تُدْعَوْنَ لعبادته وحده، ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الذين اتَّخذتموهم شُركاء له سبحانه وتعالى في العبادة، حتى استحقُّوا به أن يُعبَدوا!

ثم سجَّل عليهم الضلالَ مُعلِّلاً به إصرارَهم على الكفر، وعَماهم عن واضح الهدى، فقال: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ بما أفسدوا من فِطَرِهم، وطمسوا من بصائرهم، فأصبحوا لا يُميِّزون الحقَّ من الباطل، على وضوحه وجلاء أمره.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ذكر قصة لقمان، وكيف اهتدى بعقله إلى التوحيد وعبادة الله، وإلى الآداب الصحيحة، بمحافظته على سَلامة فطرته ونور بصيرته، مشيراً إلى أن تعاليم هذا الدين ـ لأنها منطبقةٌ على الواقع، ملائمةٌ لفطرة الإنسان ـ يذكرها كلُّ حكيم سالم الطويَّة بعقله بكل سهولة، ويقدرها حقَّ قدرها، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي الدقَّة في النظر، والإتقان في العمل، والسَّداد في الفكر، وذلك من خصائص طبيعة الإنسان ما لم تُحرَفْ بالتربية الفاسدة، وهي تكشف عن أمر الله سبحانه، وتبعث على التفتيش عن شريعته، إذ لم يَخْلُ زمانٌ منها.

ثم فسَّر مؤدَّى تلك الحكمة بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ والشكر: استعمال المواهب والنِّعم فيما خُلِقَت لأجله، وهو اعترافٌ بالحقيقة الإلهيَّة، وخضوعٌ لها، ووقوفٌ عند الحدود التي يرسمها الله.

ثم علَّق سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾، فأرشد سبحانه وتعالى عبادَه إلى أنَّ الشاكر إنما ينفع نفسَه بشكره، وهو سبحانه لا تنفعه أقوالُ العباد وأفعالها، ولا تضرُّه، وإنما دعاهم إلى شكره بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه؛ ليسعدوا أنفسهم بذلك؛ إذ لا يأمرهم إلا بما ينفعهم، ولا ينهاهم إلا عمَّا يضرُّهم في الدنيا وفي الأخرى. وهو غنيٌّ عن حَمْدهم وشكرهم؛ لأنه المحمود بذاته، تحمَدُهُ آثاره الدالّة عليه.

وأتى بصيغة المضارع في الشكر للدلالة على طلب الاستمرار في هذا الفعل، وتجديده على الدوام.

ثم بيَّن عزَّ وجل نصائحَ لقمان لابنه، مبتدئاً بأهمها، وهو التوحيد الذي أقرَّ به العقل السليم والعلم الصحيح، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾، وأيُّ ظلم أعظم من غَمْط حقِّ الله، وقدره الجليل، ومن تسوية بعض عباده أو أحطِّ شيء من مخلوقاته به تعالى في عبادته، وجَعْلهم بمنزلته، أو قريباً من منزلته بالاستعانة بهم أو الطلب منهم؟!

ثم استطرد سبحانه وتعالى لبيان فظاعة الشِّرك، بما أوصى به الوَلَدَ من إطاعة والدَيْهِ في كلِّ شيء إلا بالشرك، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ ولو كانا مُشرِكَيْن. ثم بيَّن دواعي هذه التوصية، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: ضعفاً على ضعف، وذلك لأنَّ المرأة أضعف من الرجل خِلْقة، وزادت بولدها ضعفاً على ضعفها الطبيعي، فقد تغذَّى من دمها حتى وَضَعتْهُ، فأخذت تُغَذِّيه بلبنها عامين، إلى أن فَطَمَتْهُ، كما قال تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: فطامُه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾، وقد قاسَت من شدائد حَمْلِهِ وصعوبة تربيته عُسْراً ونَصَباً.

وإنما خصّ بالبيان أمر الأم هذا دون غيره من الأمور، ودون أحوال الأب الموجبة لهذه الوصيَّة، زيادةً في تحسيسه بهذا الأمر العسير.

ثم فسَّر تلك الوصيَّة بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، فأمره أن يبرَّ بوالدَيْه معاً، لِـمَا لهما عليه من الفضل العظيم والتعب المرير، وجعلهما سبحانه في ذلك يتلوانه في استحقاق الشكر، على جلالة إحسانه وعِظَم نِعَمِهِ المستحقَّة لذلك.

ثم ذيَّل الكلام بما يحمل على التمسُّك بما سبق، والعمل به، فقال: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ أي: فأُجازي كُلاً بعمله.

ثمَّ مهَّد بهذا البيان لِعَظَمةِ الظلم بالشِّرك، وفظاعته المقصودة من البحث، فقال:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾ ولا يَخْفى ما في اختيار هذا اللفظ من بيان المبالغة في المقاومة، والمعنى: وإن اشتدّا في الإلحاح بك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ وهذا القَيْدُ لزيادةِ التفظيع والتجهيل، أي: إنْ قاوماك أشدَّ المقاومة لتتَّبعهما في هذا الجهل المبين والظلم العظيم ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك.

فاستثنى من تلك الوصيَّة للوالدين بالطاعة المُطلَقة التي قرنها بوصيَّته بشكره تعالى، حثاً على المحافظة عليها والتمسُّك بها؛ استثنى منها أمر الشرك إذا دَعَواه إليه، فنهاه عن إطاعتهما فيه، لأنه جهلٌ شنيع، وظلمٌ فظيع.

ثم أمره بالدوام على الإحسان إليهما فيما عدا ذلك، فقال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: بحسب ما يقتضيه العُرْفُ من الإحسان إليهما، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ في أمر الدين والإيمان، ولا تَتَّبع سبيلَهما وسبيلَ الذين لا يعلمون.

والمعنى: إذا بَذَل أبواك المشركان الجُهْدَ لِيَحْمِلاك على أن تؤمنَ بشريكٍ لي؛ تقليداً لهما، فلا تُطِعْهما في ذلك، ولا يمنعك مخالفتُك إيَّاهما في الدين أن تُصاحِبَهما في الدنيا مُصاحَبةً حَسَنة، يستحسنها العُرف ويرضى بها الشرع، فلهما دينُهما ولك دينُك الحقُّ الذي ينبغي لك أن تَتَّبع فيه طريقَ الراجعين إلى الله تعالى بالطاعة وطلب الثواب.

ثم ذيَّل الكلام بما يحمل على التمسُّك بهذه الوصية، وضمَّنه التهديدَ للمشركين، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾، وعبَّر بالإنباء كناية عن المجازاة، على نهج القرآن في ذلك.

وهذه الوصية بالوالدين جاءت معترضةً أثناء حكاية موعظة لقمان لابنه، استطرد القرآن بها لبيان فظاعة الشِّرك والنَّهي عنه، فهي استئنافٌ من كلام الله تعالى، وتعليقٌ على ما قبلها، على نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم بعد انتهاء الاستئناف، تابع البيان في تكميل حكاية وصية لقمان لابنه مُبيِّناً له صفات الله الكبرى، من دقَّة العلم وسَعَة القدرة، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾ أي: فِعْلة الإنسان من خير أو شر. وعَوْدُ الضمير على ما يُفهَمُ من السياق معروفٌ في اللغة، ومن نهج القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). أي: إنَّ تلك الفِعلةَ ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ وهذا تمثيلٌ للتناهي في الصِّغَر، ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ وهذا تمثيلٌ للتناهي في الخفاء، ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا تمثيلٌ للتناهي في البُعد أو الشَّتَات، ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ولا يضيع شيءٌ من ذلك، لك أو عليك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ أي: عالمٌ بخفايا الأمور مهما دَقَّت، محيطٌ علماً بالمتشعِّبات المشتَّتة كيفما كانت.

وبعد أن بيَّن له عَظَمةَ الله تعالى ودقَّة محاسبته، أمره بالإنابة إليه والتَّوجُّه لعبادته والتَّمسُّك بما يرضاه من الأخلاق والآداب العالية التي يتمُّ بها أمرُ الاجتماع فيما بين البشر في هذه الحياة، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: تَوَجَّهْ إلى الله تعالى واعبُدْهُ حقَّ عبادته.

ولا شكَّ أنَّ الصلاة بوجهها الصحيح تُربِّي في النفس أجمَلَ الأخلاق التي يحتاجها البشر في نظام الاجتماع، وأكمَلَها من الصِّدق والأمانة والحياء ومراقبة النفس ومَنْعِها من كلِّ قبيح، خشيةً من الله، فلا يعتدي على الغير، ولا يتجاوز حقوقه. وفي ذلك أتمُّ نظام في الاجتماع.

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: المُتَعارَفِ بين الناس السالمي الطباع، وهو الخير والفضائل، وأعلاها وأكملها: التعاليم التي جاءت في تضاعيف هذا القرآن، ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ بين هؤلاء الناس، وهو الشرُّ والرذائل، فإنَّ الطباع البشريَّة السليمة تنكرها، وقد جاء النهيُ عنها في تضاعيف القرآن.

ثم خصَّ الأمر بالصبر من بين الفضائل؛ للاهتمام بشأنه وبيان امتيازه، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾[1].

ثم نوّه بشأن هذه الأعمال، فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ أي: مما ألزم اللهُ به الناسَ إلزاماً من الأمور الجليلة القيِّمة، ذات الشأن الخطير، والأثر البعيد، في حياة الإنسان في الدنيا، ومصيره في الأُخرى.

ثم تابع الوصيَّة بمكارم الأخلاق، فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ والتصعير: الإعراض بالوجه تكبُّراً واستحقاراً. أي: لا تتكبَّر على الناس وترفَّع عنهم، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: بطراً وخُيَلاء؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ أي: يَتباهى بين الناس بنفسه، ويُدِلُّ عليهم بما أعطاه الله من جاهٍ أو مال. والوَيْلُ كل الويل لمن لا يُحبُّه الله.

وبعد أن نهاه عن تلك المشية، بيَّن له أدبَ المشي، وضمَّ إليه أدبَ الصوت؛ تكميلاً

---

(١) أي: مما تتأكد ممارسته ويتحتَّم عمله، وقد قال ﷺ: «الصبر عَوْنٌ على الخطوب».
فالعاقل يصبر على الخطوب والحوادث، ويقابلها برباطة جأش وقوَّة عزم وسعي حثيث؛ لتلافيها ودفع أمرها والتغلب عليها. أما الجاهل ضعيف الإيمان إذا ما حدث له من حوادث الدهر التي لا يخلو منها زمان، فإنه يضطرب ويندهش ويضعف عن المقاومة ويَسْتسلم، فيؤثر فيه الحادث أثره البليغ. ولولا الصبر ما نجح عامل بعمله، حربياً كان أو مدنياً، دنيوياً كان أو أخروياً؛ لأن كلَّ عامل لا بدَّ وأن تعترضَه عَقَبات، وتقفَ في طريقه صعوبات، فإن لم يكن صبر كما ذكرنا، لا يصل ذلك العالم إلى غاية، ولا يكون لحل تلك الأزمة نهاية.
فالخير كل الخير للصابرين على الصعاب، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. (المؤلف).
والحديث ذكره الماوردي في «أدب الدنيا والدين» ص٢٨٦. بلفظ: «الصبر ستر من الكُرُوب وعون على الخُطُوب».

للآداب، فقال: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ أي: توسَّط فيه، فإن في ذلك الحشمة مع النشاط، وفي الإسراع طَيْشٌ وخِفّة، وفي الهُوَيْنى الخمولُ والتكبُّر. والوسط هي الفضيلة بين رذيلَتَي الطرفَيْن، إذ التطرُّف رذيلة ممقوتة.

ثم أمره أن يخفض صوته حينما لا يكون داعٍ لرفعه، فقال: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾، ثم علَّل ذلك بما في رفعه من البشاعة والقبح وشَبَهٍ بالحمير، فقال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾، وهذا تعليلٌ مُنفِّر، على أبلغ وجوه التنفير وأشدِّها تأثيراً على النفوس؛ لأنَّ الحمار مَثَلٌ في الذم القبيح، سيَّما نهيقه.

وأفادت قصةُ لقمان: أنَّ الغريزة البشرية ـ إذا رُبِّيت تربيةً صحيحة ـ تصل إلى الحكمة وإصابة الحق في كلِّ شيءٍ، لا سيما في الإلهيَّات، لأنها مطبوعة على ذلك، وتُسمَّى الغريزة الدينية، فليس الاعتراف بالخالق مما يتوقَّف على النبوَّات[1]. وأفادت أنَّ هذه الأمور التي أوصى بها لقمانُ وَلَدَه معروفةٌ عند مَنْ سَلِمَت طباعُهم من الإفساد، ولو لم يعرفوها من الأديان، وهم يتواصَوْن بها لأنها مغروسة في الطبيعة.

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

(١) هذه مسألة فيها خلاف طويل، والمؤلف رحمه الله يميل إلى قوله المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين ـ كما مرَّ في مواضع من هذا التفسير ـ، ومؤدّاه ترتيب الثواب على ما يُحسِّنه العقل، وترتيب العقاب على ما يُقبِّحُه، ولو من غير رسول، سواء في العقيدة أو العمل، أما أهل السنة فإن إلزام العباد عندهم ببعثة الرسل دون أحكام عقولهم. نعم، قال الماتريدية ـ من أهل السنة ـ بوجوب معرفة الله تعالى خاصة ـ دون غيرها من مسائل العقيدة أو من الأعمال ـ بالعقل ولو من غير بعثة رسول أو بلوغ دعوة.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم عاد إلى السياق بعد أن انتهت وصيَّة لقمان التي اعترض بها فيه، وهو بيان دلائل القدرة والمنَّة وتفنيد الإشراك بالله، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم وغيرها، تستفيدون من ضيائها ومن نورها وغير ذلك، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الرياح والسَّحاب والبحار والأنهار والنبات والحيوان وغيرها، ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أي: أوسعَ ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: منها ما تعرفونها لظهورها، ومنها ما لا تعرفونها لدقَّتها وخفائها.

﴿وَ﴾ رغماً عن ذلك كلِّه ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في وجوده وتوحيده وتنزيهه، وفيما بيَّنه للناس في الكتاب، بما فيه الحشر والحساب، يجادل في ذلك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مُستفادٍ من دليل، ﴿وَلَا هُدًى﴾ من جهةِ رسول، ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ أنزله الله سبحانه، أي: غيرَ مُتَّبعٍ في مُجادلته طريقاً من طرق المجادلات الصحيحة؛ إذ لا يرجع ذلك إلى معقول ولا إلى منقول، ولكنه الضلال والسفاهة.

وأيُّ ضلال وسفاهة أضلُّ وأسفَهُ من رأيهم هذا الذي حكاه سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، فأنكر عليهم سبحانه بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي: يدعو أولئك الآباء ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾، فرأيُهم هذا يُبيِّن لك عقولاً مفسودةً لا تعرف للمنطق معنىً، ولا للنظر الصحيح وجهاً. وذلك أنهم يُدعَوْنَ إلى التفكير للتوصُّل إلى خالق هذا الكون، واتِّباع ما

أنزل الله في هذا القرآن من الدعوة إلى رَشَاد الإنسان، فيقولون: بل نتَّبع الطريقة التي وَجَدنا عليها آباءنا، فورثناها عنهم. فهم يريدون أن يفكروا بعقول آبائهم لا بعقولهم:

صُوَرُ العَمَى شتّى وأقبحُها إذا نَظَرَتْ بغيرِ عيونهنّ الهامُ[1]

ما أقبَحَ التقليد الأعمى، وما أشدَّهُ جهالة! يُدعَوْنَ إلى الهدى فيُعرضون، ويتَّبعون ما وجدوا عليه آباءهم الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، فهم يتَّبعون وساوس الشيطان، وهو يدعوهم إلى الكفر والشرك، وأسوأ الأحوال المؤدية إلى عذاب السعير، وسُوء المصير.

وفي وصف الكتاب بالمنير ـ أي: الواضح ـ إلماعٌ إلى أنه لا يجوز الاستدلال والتمسُّك بالآيات التي فيها خَفَاء، والتي هي محلُّ تأويل، فإنَّ التمسُّك بمثل هذه الآيات قد أضلَّ كثيراً من الناس، وتعلّق صاحبُ كل مذهب في الاستدلال على رأيه بأحد الوجوه، فتعدَّدت المذاهب والفِرَق، كلُّ واحد يدَّعي أن الكتاب ناصِرُه، وأنه مع الحقِّ لا يفارقه ولا يحيد.

وبعد أن بيَّن حالة هؤلاء الضَّالِّين الجاهلين، وضلالهم المبين في تقليدهم الأعمى لآبائهم أتباع الشياطين، بيَّن الطريقَ المستقيم؛ طريقَ الهدايةِ والسَّداد، واتِّباع سبيل الرَّشاد، فقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ومَنْ يُخْلِصْ دينَه لله ويقصد في أعماله التقرُّب إليه؛ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فيها، يفعلها بموجب العلم ومقتضى الشرع، ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد تعلَّق بعروة وثيقة لا يخشى انفصامَها، يريد: أنه قد تمسَّك بما فيه نجاحُه وفلاحُه. والإحسان هو: كلُّ ما يُحقِّق شيئاً من المُثل العليا، وعكسه: الإساءة.

---

(١) البيت لأحمد شوقي، وهو في «الشوقيات» (١: ٢٣٢).

ثم ختم الكلام بما يتضمَّن الوعدَ والوعيد، فقال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ فيُجازي المُحسِنَ بإحسانه، والمُسيءَ بإساءته.

ثم سلَّاه عن كفرهم وعنادهم متوعِّداً إيَّاهم بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ ونعاقبهم عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ لا يخفى عليه منهم خافية.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ في الدنيا، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾، أعاذنا الله وأرشدنا إلى ما فيه رضاه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن جهلهم وضلالهم في هذا الشِّرك المناقض للعقل، وأثبت ذلك عليهم بما لا ينكرونه ولا يستطيعون إنكاره، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولكنهم جهلاء مُعاندون، فلا يحملهم ذلك على الإقلاع عن الشرك.

ونتيجةُ هذا الدليل: أنَّ مَن انفرد بخَلْق السماوات والأرض، يجب أن ينفرد بالألوهية. وقد أقام مقامَ هذه النتيجة قولَه: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على هدايته لك إلى النظر الصحيح. أو المعنى: إذن هو وحده المستحقُّ للحمد على إيجاده وإبداعه وما ينتج عن ذلك من نِعَمٍ للإنسان، وإذن فهو وحده المستحقُّ للألوهية والعبادة والرجاء. ولذلك أضرب إلى قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أنَّ مَن انفرد بأفعال الألوهية

يجب أن ينفرد بالمعبوديَّـة. ويجوز أن يُعَلَّق «الحمد» أيضاً على ظهور صِدقِـهِ وكذبِ مكذِّبيه.

ثم قَرَنَ الإلزام بالتقرير، فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، فلا يستحقُّ العبادةَ فيها سواه.

ثم بيَّن تعالى استغناءَه عن إقرارهم بذلك وعن عبادتهم له، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: عن عبادة مَنْ لا يعبدُه من خَلْقِه، ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ بذاته وبآثاره العظيمة الشأن.

ثم أجمل البيان عن عَظَمة تلك الآثار الدالة على حَمْده، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[1] أي: لو جُعِلَتْ أشجارُ الأرض كلُّها أقلاماً، وجُعِلَت البحار حِبراً، وأُضيف إليها سبعةُ أمثالها، ما نَفِدَ ما في هذا الكون من مصنوعات الله وسُننه الكونيَّة، فأيُّ عجب في جانب هذه السُّنن العظيمة الكثيرة؛ نَـتْقُ الجبل كأنه ظلة، وخَلْقُ عيسى من دون أب، ونَقْلُ ذي القرنين لمنطقة الظهور الدائم، ونَقْلُ عرش بلقيس بطرفة عَيْن، وغير ذلك من السنن

---

(١) فالمراد بالكلمات هنا: بدائع صُنْع الله من ذكر السبب ـ وهي كلمة: (كن) ـ وإرادة المسبَّب. وقد نُقِلَ هذا المعنى عن بعض السلف، فقد روي عن قتادة أنه قال: لنفد البحر قبل أن تنفد عجائب ربي. وهذا المعنى متَّسق جداً مع السياق، إذ بعد أن بيَّن أنه خالق السماوات والأرض، وله كلُّ ما فيها خلقاً وملكاً، بيَّن أن مبدعاته لا تقف عند ما تعرفون وتدركون، ولكنها لا حدَّ لها ولا نهاية. قال الفيلسوف نيوتن: إنَّ الناس ـ مع كل ما بلغوه من المعرفة وتوصَّلوا إليه من الاكتشافات ـ ليسوا إلا أولاداً صغاراً يلتقطون الأصداف والأعشاب التي يقذف بها بحر الحقائق، ينبذها خِضَمُّ المجهولات من حين لآخر. (المؤلف).
وكلام قتادة: ذكره الطبري في «تفسيره» (٢٠: ١٥١-١٥٢).

الكونيَّة[١]، لو أريد إحصاؤه والكلام عنه وعن فوائده ونِعَمِه فيه؛ إذ ما ترفع الريحُ ورقةً في الجوِّ إلا كان ارتفاعها وانخفاضها بقانون مضبوط وسنة كونية، وما يُلقى جسمٌ في الماء إلا كان غَوْصُه وسَبْحُه بقانون كذلك، وما ينبثق من الأرض نبات إلا كان تطوُّره وثمره شكلاً ولوناً وطعماً بقوانين كذلك، وهكذا الأمر في جميع الأشياء، كبيرها وصغيرها، مُهِمِّها وضئيلها. فما أعظم شأنَ الله وأعماله! جلَّت قدرة الله العلي القدير.

فالمراد من الكلمات: كلماتُه التكوينيَّة، أو المراد: كلماتُ عِلمِه في ذلك[٢]. وعدد السبعة يأتي في لغة العرب في مثل هذا للتكثير لا للتحديد.

ثم ختم السياق مع هؤلاء المنكرين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إنَّ إمهالَه لهم لم يكن عن عَجْز من القدرة، ولكن لحكمة اقتضت ذلك.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) تقدَّم التعليق على ما ذكره المؤلف هنا أمثلةً على السنن الكونية العجيبة، وبيان أنها من المعجزات الخارقة للقوانين والسنن الكونية، خلافاً لما يدّعيه المؤلف من أنها واقعة بسنة كونية غير معلومة لنا. وقد تقدَّم بيان ذلك في كل مثال من المذكورات هنا في موضعه من هذا التفسير، فارجع إليها هناك.

(٢) كلماتُ الله تدلُّ على عِلمِه الشامل الذي لا نهايةَ له لكلِّ معلوم مهما دقَّ أو صَغُر، فلا تختلطُ معلومةٌ بأخرى، ولا تشتبه كلمةٌ بأخرى شبيهة بها. وتقدَّم التعليقُ على معنى «كلمات الله» في تفسير الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

ثم تابع السياق ببيان كمال قدرته على البعث وسهولته عليه، وأدمج فيه توعُّدَهم، فقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ في السهولة عليه والانقياد له سبحانه، وسهولةُ البعث كسهولة الخلق عنده تعالى، يُصوِّر بذلك هَوْنَ البعث عليه، وأنَّ قدرته فوق ذلك.

ثم بيَّن أنه يُحصي لهم وعليهم جميعَ أعمالهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: لا يخفى عليه من أمركم خافية، وسيأخذ كلٌّ جزاءه، ويعلم كيف يكون البعث، كما علم كيف يكون الخلق.

ثم تابع السياق في دليل القدرة واختصاصه بالألوهيَّة، مُستَشهِداً على قدرته على البعث وسهولته عليه بما يعرفونه له من أعماله العظيمة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ فيزداد وينقص كلٌّ منهما تبعاً لحركة الأرض السنويَّة في فلكها ومَيْلها على محورها، ذلك النظام البديع الدالُّ على علم الله العظيم وحكمته البالغة وإتقانه السديد، ﴿وَ﴾ بهذا النظام ﴿سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينتهي به عُمُرُ هذا الكون وتقوم قيامتُه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ فيُجازيكم على خيره وشرِّه.

ثم مَخَضَ النتيجة من هذه الأدلة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ العملُ العظيم المختصّ به سبحانه وتعالى، ينادي ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ الإلهُ ﴿ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من الآلهة هو ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ الفاضحُ لسَخافة عقولهم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾، ما أعظم هذا الإلزام! وما أكبر هذا الكلام!

ثم تابع دليلَ القدرة والإبداع الدالَّ على استحقاقه الإلهيَّة وحده، مُبكِّتاً لهؤلاء المشركين الضَّالِّين، ومُنبِّهاً إلى نظام عَوْم السُّفن العظيمة في البحر، وفوائدها العميمة،

فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ وهي خَلْقُ الاستعداد في الماء لحَمْل الأجسام الثقيلة، إذا كانت على وضعيَّة خاصَّة، ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ وهو عَوْمُ هذا الفُلْكِ العظيم على الماء، ولولا ذلك لتعطَّل الإنسان من منافع هذه البحار الواسعة المدى، التي هي أكبرُ مساحةً من اليابسة، وعَجَزَ عن السَّير فيها والانتقال من بلد إلى بلد على حوافيها، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ فالذي يصبر على مَشَاقِّ الأسفار في البحار النائية، ويتحمَّل شدائدها، يشاهد من عجائبها ما يدلُّه على عَظَمة الله، فإذا كان شكوراً محافظاً على سلامة فطرته علم من تلك العجائب استحقاقَ الله سبحانه أنْ يُعبَدَ وحده دون سواه.

ويجوز أن يراد بالصَّبَّار الشكور: المؤمن؛ لأنَّ الصبر على البلاء والشكر على النَّعماء من خصائصه، والمؤمن مُسْتَعدٌّ للنظر والتدقيق في آيات الله؛ لأن الإيمان يُنير القلب ويُجْلي البصيرة، إذ يكون صاحبه محافظاً على سلامة فطرته ونور بصيرته.

ثم أشفع الدلائل العقلية والكونية على التوحيد، بدليل الفطرة عليه، وساوق به البحث، فقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ جمع ظُلَّة، وهي ما يُستَظَلُّ به من الحرِّ أكبَرُ من الخباء، أو السُّحُبُ المظللة، أي: إذا غشيهم هذا الموج العظيم، وأحاط بهم الخوف من كلِّ جانب؛ انصهرت نفوسهم، وتجرَّدت من الغش العارض، وعادوا بفطرتهم الصحيحة إلى معرفة الحق في الله، وأنه هو الصَّمَد، فأنابوا و﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ دون سواه من شركائهم؛ لِزَوال ما ينازع الفطرة من الهَوَى والتقليد، بما دهاهم من الخوف الشديد.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وزال عنهم الخطر واستَقرَّت نفوسهم من زلزالها؛ عاد العارض على نفوس المشركين لانطباعهم عليه، وغفل المؤمنون بعض الغفلة أيضاً،

كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: جارٍ في طريق القَصْدِ والاعتدال، وهو المؤمن الكامل، أو معتدلٌ في ذلك الإعراض، وهو المؤمن الغافل، ومنهم مُغَالٍ جاحد، وهو الكافر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: غدَّار بعهده، جاحد لنِعَم الله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وبعد أن ذكر هذه الأدلةَ المتعاقبةَ بأساليبها المتنوِّعة التي تُلمَسُ منها قدرة الله البالغة لَـمْساً، والتي ثبت بها أساسا الدين، وهما: استحقاقُ الله وحده لأن يُعبَد، وقدرتُه على إعادة الموتى وحَشْرها للحساب، مَخَضَ النتيجة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبينه وقايةً من عذابه، وذلك بأن تَتمسَّكوا بما يأمركم به، وتجتنبوا عمَّا ينهاكم عنه، فلا يفقدكم حيث أمركم، ولا يراكم حيث نهاكم، ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ أي: لا يُغْني فيه أحدٌ عن أحد، بل كلُّ امرئ تـهمُّه نفسُه ومَـجْزيٌّ بعمله، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلْفَ فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ قيل: هو الشيطان، وقيل: هو كلُّ شيء يغرُّك في معصية الله.

وبعد أن ذكر هذه الآيةَ الواعظةَ الزاجرةَ إثْرَ سَرْدِ تلك الأدلة الملزمة، خَتَم السورة بما هو مزيجٌ من الوعظ والاستدلال على القدرة والتَّمَجُّد بعظيم الأعمال، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فتَجوَّز بالعلم وتوسَّع به عن إيقاعها، وعن قُدرة الله في ذلك.

أي: إنَّ الله هو الذي يقيم الساعة في أجلها المعيَّن الذي استأثر الله بعلمه، فلا يعلمه أحدٌ سواه.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ بمقتضى سُنن الله الكونية الدالة على عظيم قدرته.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ فيعلمُ أيَّ حيمن من الملايين في النطفة لقَّح البويضة، ويعلم سائر صفاته، ذكر أو أنثى، وملامح الوجه، ولون العينين، والشعر والطول، إلى غير ذلك من المشخصات، وهو علّام الغيوب، وكذلك يعلم ما سيفعل من أعمال السعادة أو الشقاء، وأعمال الجنة أو النار.

وقد تجوَّز بالعلم أيضاً عن عِظَم الأنظمة ودقائق الأوضاع في الرَّحِم، وبدائع الانفعالات في عمليّاته تلك التي لم يتهيّأ للعلم الحديث على جلالة قَدْره حلُّ كثير من أسرارها الغامضة وخفاياها.

ثم ساوق الكلام عن علم الله، مدمجاً بيان عجز الإنسان في العلم عن ألصق الأشياء به، وأقربها إليه، وأهمها لديه، ولا يعلم ذلك إلا الله سبحانه، فقال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾، وقد استأثر بعلم ذلك كلِّه واختصَّ به تعالى، فلا يعلمه أحدٌ سواه، وعِلْمُ ما كان وما يكون ما انفكَّ عنه سبحانه من الأزل إلى الأبد، فهو عالمٌ بذلك كلِّه علماً واحداً، فما أجهَلَ المشرك ومَنْ والاه!

* * *



مكيَّة، وهي ثلاثون آية

وقد جاء في هذه السورة:

ـ إثباتُ تنزيل القرآن.

ـ والحثُّ للمؤمنين أن يصبروا على أذى المشركين، وسيُجازيهم على ذلك بما جازى به الأئمة الصابرين من بني إسرائيل.

ـ ثم بيَّن عاقبة مَنْ آمن ومَنْ كذَّب بالدين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها، اهتماماً به. ومنه هنا: قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا ريب أنه مُنـزَّلٌ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

يُقـرُّون بذلك ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؟ فساقَ هـذا العطفَ على المقدَّر مَساقَ الإنكار عليهم، والتعجيب منهم؛ لظهور بطلانه، واستحالة كونه مفترىً. ثم أضرب عنه إلى بيان حقيقة ما أنكـروه فقال: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، ثم ذكر الغاية من تنزيله فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: لم يأتهم نذيرٌ منذ زمن طويل[1].

---

(١) أو المعنى ـ وهو الراجح ـ: لتنذر قوماً الشيءَ الذي سبق أن أتاهم من تعاليم الدين، وهو ما جاء به إليهم إسماعيل بن إبراهيم، واستمرَّ مُتوارَثاً فيهم، حتى غيَّروا وبدَّلوا.

وعبَّر بالنفي المطلق؛ لأنهم كانوا في آخر عَهْدِ مَنْ سبقه من الأنبياء، حيث يَضْمَحِلُّ الأمر، ولم يبقَ له تأثير. فأفاد بهذا التعبير شدَّة الحاجة إلى تجديد العهد لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

ولما كان أهمُّ ما في هذا الكتاب المُنزَّل الدعوةَ إلى معرفة الله تعالى واختصاصه بالألوهيَّة، نَبَّه إلى اختصاصه بأفعالها وصفاتها، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: خَلَقَ السماوات والأرض في ستَّة أدوار[1]، ثم أخذ يُدبِّر أمْرَها. فعبَّر بالملزوم عن اللازم؛ لأنَّ الاستواء على العرش يستلزم تدبير أمر المملكة، فأصبح كنايةً عنه، والله سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم، تقريباً للأفهام. وقد مرَّ تفسير هذه الآية في سورة الأعراف[2] وغيرها.

ولما كان قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يتضمَّن السلطان المطلق، عقَّبه بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ إذا جاوزتُم رِضَاه، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ الأمرَ فتتَّقوه؟!

---

(١) تفسير الأيام بالأدوار لا نوافق عليه المؤلف رحمه الله تعالى، ولا حاجة لتأويل الأيام بالأدوار بحال من الأحوال. ويُحمَلُ المُطلَق في هذه الأيام على المُقيَّد الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وفي قوله عزّ وجل: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، فأحال العدد في الآيتين إلى مدّة تقدَّر في زماننا بألف سنة، فيطَّرد ذلك في جميع التقادير الزمنيَّة التي يذكرها سبحانه على نسبة التقدير من أيام هذا الزمان في كل المناسبات، كما قال سبحانه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أي: ممَّا تعدُّون. والله تعالى أعلم.

(٢) في الآية ٥٤ منها.

ثم ذكر شأناً من شؤون الله سبحانه يدلُّ على سُلطانه العظيم، لتربية المهابة والخشية منه تعالى، فقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مدَّة عُمُر الدنيا حتى قيام الساعة، ويُحصي عليكم ما تعملون، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمرُ ويرجع إليه دون سواه، إذ ينقطع التصرُّف الظاهريُّ للبشر، وذلك ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾[1]، والألفُ في عُرْفِ تَخاطُبِ العرب للمدّة الطويلة، لا لمفهومه المحدود، والمراد به: يوم القيامة أو يوم الحساب؛ ليحكم فيه بأمره، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحاكمُ العادل ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليه من أمر الناس خافية، وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعجزه شيءٌ من الأعمال، ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾ في جميع أعماله والمتفضِّل فيها بالإحسان.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ بمقتضى الحكمة والمصلحة، ﴿وَ﴾ من ذلك أن ﴿بَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ حيثُ خلق أصلَه ـ وهو آدم ـ من سُلالة من طين، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾، وهذا الوصف لزيادة التحسيس بعَظَمةِ قدرةِ الله، حيث خَلَقَ من هذا الماء المهين مخلوقاً هو في أحسن تقويم. والسلالة: الصفوة التي تَنسَلُّ من غيرها، ويُسمَّى ماء الرجل: سلالة؛ لانسلاله من الغُدَدِ المُفرِزة له، والأغذية المكوِّنة له.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: جَعَله بَشَراً سوياً مُسْتعداً لقَبول الرُّوح، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي: التي هي من أشرف مخلوقاته سبحانه وأكثرها وجوداً. وإضافتُها إلى نفسه إضافةُ ملك واختصاص على وجه التشريف، للإيذان بأنها من أخصِّ مخلوقاته وأمْيَز

---

(١) مفهوم الزمان لا وجود له في غير عالمنا من العوالم الأخرى، فالمدد الطويلة تعدُّ قصيرة فيها، والله أعلم. فيجوز أن يُرادَ به يوم الحساب. (المؤلف).

بل المراد به: الأمور التي تكون في مدة الحياة الدنيا، أما يوم الآخرة فقد جاء في الآية ٤ من سورة المعارج: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

موجوداته، كما يقال: أعطاه من لآلئه، أو من مجوهراته، ولإفادة أنها خَلْقٌ عجيب وصُنع عظيم؛ إذ كلُّ شيء عظَّمه الله تعالى أضافَهُ إلى نفسه، فقال: بيت الله، وناقة الله، وروح الله، وللإيماء إلى أنَّ الإنسان فيه ناحية مَلَكيَّة؛ إذ إنَّ الـمَلَكَ مخلوقٌ من مجرَّد هذه الروح. والله أعلم.

والتعبير بالنفخ عن خَلْق الروح ـ والله أعلم ـ للإشعار بأنه جسمٌ خفيفٌ لطيف، وأنه مستقلٌّ عن البدن لا مـمتزج به، وأنَّ البدن له كالظرف والغلاف، وعلى شكله ورسومه.

ثم أتبع الامتنان بنفخ هذه الروح فيه بذكر أعظم مواهبه له، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ فخصَّ هذه المواهب بالامتنان؛ لأنها أهمُّ المواهب الإلهية في الإنسان بعد الروح، ولأنها في ذوات الأرواح كالإنسان وسائل للعقل الذي مركزه الروح. والله أعلم.

وغيَّر الأسلوب إلى الخطاب لزيادة التحسيس بعِظَم الـمنَّة، أو لِيُوجِّه الكلام إلى المشركين فقط، ثم أنَّبهم على كفرهم بهذه النعم، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ والقلَّة ليس لها سلطان على القلوب، فهي في حكم النفي. والتعبير بها دون النفي المطلق لِتحرِّي الصِّدق الدقيق، على نهج القرآن في ذلك.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۢ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ثم ذكر من كفرهم إنكارَهم للحشر، وقَـرَنَه بالردِّ عليهم، فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: إذا انحَلَّت أجزاؤنا واختَلَطت بأجزاء الأرض وذرَّاتها وضاعت فيها ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ أي: نُجمَعُ ونُعاد، ونحيا ونُبعث. ينكرون ذلك ويُكذِّبونه ويستبعدونه، ولم يعتبروا بكثرة الأدلة المثبتة له، ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠﴾، ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

فأجابهم ببيان الحق الواقع، رداً على زعمهم الباطل، فقال: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ وفيه تنبيه إلى أن الوفاة ليست بأقلَّ عَجَباً من البعث لو تشعرون. ووجه الردِّ: أنَّ الرجوع طَوْرٌ من أطوار الإنسان كالوفاة، ولازمٌ من لوازمه، فما وجه إنكاره واستبعاده؟ والتعبير بقوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ مُؤْذِنٌ بأنَّ الروح لا تنعدم، ولكن تُسْتَرجَعُ مُسْتوفاةً لا ينقص منها شيء.

ثم ذكر ما يكون من أمرهم بعد رجوعهم إلى الله تعالى، فقال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ﴾ هؤلاء ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ حياءً من إنكارهم في الدنيا لهذا الموقف، وخوفاً منه، لِـمَا اقترفوا من القبائح في الدنيا، قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ ونتلافى ما فات، ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ الآن بما كنَّا نكفر به من قبل[1].

ثم بيَّن تعالى أنَّ عصيانَهم له وكفرَهم به ومعارضَتَهم لرسله، لم تكن قَسْراً للإرادة الربّانية، ولا عن عجز في القدرة الإلهيّة. ولو أراد أن يخلقهم مقسورين على الطاعة لفعل، فقال: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾، وذلك أن يخلق البشر مُسيَّراً للهداية

---

(١) وجواب (لو): لرأيتَ أمراً فظيعاً. أي: لا يستطيع مخلوقٌ تقديرَ ما فيه، لأنه أفظع ممَّا رأى وسمع أو خطر له.

مَقْسُوراً عليها، كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ولكن الحكمة الإلهيَّة شاءت في خلق الإنسان أن يكون ذا علم واسع، ودراية وافرة، وعقل، يتصرَّف في الأمور، ويعمر الأرض، ويستفيد من خيراتها، ولا يكون ذلك إلا بعلم واسع، ولا يحصل إلا بالاختيار، كما يُؤْذِنُ بكلِّ ذلك آيةُ البقرة[1] مع الملائكة في هذا الشأن لمن يتدبَّرون. والله أعلم.

وهذا النوع من الخلقة لا يكون صاحبه إلا مختاراً في تصرُّفاته، فيكون طوْعَ إرادته، ويندفع إلى الخير أو الشر باختياره، ويُنمِّي استعداده لأحدهما بصنعه حسب نشأته وتربيته. وقد هداه الله للخير بهدايتين: بطبيعته الميَّالة إلى الخير ما لم يفسدها بمفاسد التربية والتقليد الأعمى، وبالرسل الذين يُرسلهم لهدايته. فمنه مَنْ يتَّبع الهدى، ومنه مَنْ يُعرض عنه ويُعارضه، فيستحقُّ الأول النعيم، ويستحقُّ الثاني الجحيم والعذاب الأليم، استحقاقاً طبيعياً[2]، وقد عبَّر عن هذا بقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: من الذين ظلموا أنفسَهم بتردية استعدادها للخير، وتنمية استعدادها للشر، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧، النحل: ٣٣].

وبعد أن استطرد بهذا الاستدراك، وبيَّن طبيعة الإنسان، إيذاناً بأنَّ هؤلاء المجرمين إنما أوقعوا أنفسَهم في هذا البلاء بصنعهم وانحرافهم، عاد إلى السياق وردَّ عليهم وبال أمرهم، ونَعَى عليهم، وبالغ في إيلامهم بقوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ هذا العذابَ الأليمَ الذي

---

(١) يعني الآية ٣٠ منها وما بعدها.

(٢) ترتُّبُ الثواب والعقاب على عمل الإنسان ترتُّبٌ شرعي لا طبيعي، يعني: أنه محكوم بالنص الوارد فيه، ليس له سبب غير أن الله تعالى حكم به في شريعته التي أنزلها على عباده، لا أن له سنة كونية أو قانوناً طبيعياً، فتنبه.

هيَّأتموه لأنفسكم ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فلم تؤمنوا به ولم تأخذوا حِذرَكم منه وتعملوا له، ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي: إنا تركناكم اليوم في العذاب الدائم تَرْكَ الشيء المَنْسيّ. وعبَّر بهذا للمشاكلة، وللإيذان بإبقائهم في العذاب، وحرمانهم من النعيم المقيم.

وقد تابع هذا المعنى مُوَضِّحاً لهم بأن هذا العذاب من نتائج أعمالهم، ومُترتِّب عليها ترتيباً طبيعياً، فقال: ﴿وَذُوقُوا[1] عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾، فجعل هذا خلاصةَ الرد، وأضاف إلى العذاب وَصْفَ الخلد.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم استأنف الكلام لبيان المؤمنين وأحوالهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ﴾ لم يُفسدوا فِطَرَهم ويطمسوا نُورَ بصائرهم، فهم ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي: بالآيات ﴿خَرُّوا سُجَّدًا[2] وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: نزَّهوه عن كلِّ ما لا يليق به، وحَمَدوه على جزيل

---

(١) أي: تحسَّسوا وتحمَّلوا أهوال العذاب بكل ما أنتم عليه. والذوق يكون باللسان وجميع الحواس، وفي تكراره معنى التوكيد.

(٢) أي: سقطوا سجَّداً ملاصقين وجوههم للأرض. وأصل الخرور: السقوط على الأرض بدون =

نَعْمائه، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ عمَّا يستكبر عنه المشركون.

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ [١]﴾ وهذا أكبرُ وَصْفٍ لهم بتهَجُّدهم الطويل، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا ﴾ من عذابه ﴿وَطَمَعًا ﴾ في رحمته ونعيمه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ في وجوه البرِّ والإحسان. فيقابلون الرزقَ بالشكر والامتنان.

ثم سَجَّل لهم هذا الوعدَ الكريم والجزاءَ العظيم بقوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: لا يعلم أحدٌ عِظَمَ ما خُبِّئ لهم مما تقرُّ أعينُهم به. وهذا أبلَغُ عبارة في تفخيم ذلك الجزاء. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سَمِعَت، ولا خطر على قلب بشر»[٢] ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم قرَّر البحث عن المصيرَيْن، وأعاده بأسلوب آخر مسبوك على التعليل والمفارقة، فقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: خارجاً عن طريق الإيمان، بالكفر والعصيان، وأردف الإنكار بالنفي فقال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾.

ثم فصَّل نتيجة التباين، فقال: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ لأنها هي المأوى والمُسْتَقَرُّ الحقيقي، والدنيا منزلٌ مُستودَعٌ ومُرتَحَلٌ

= نظام ولا ترتيب سابق، كما في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ ﴾ [النحل: ٢٦]، وتستعمله العرب في السجود على الأرض لإعلان الخضوع التامّ، كما في قوله تعالى: ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وفي قوله تعالى: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [مريم: ٥٨].

(١) تتجافى: أي تترك وتبتعد وترتفع. والجنوب: جمع جنب، وهو طرف الإنسان. والمراد: جسم الإنسان كله. والمضاجع: جمع مَضْجَع بوزن: مصنع، وهو مكان النوم.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.

عنه. وقد أعدَّها الله لهم ﴿نُزُلًا﴾ أي: ثواباً مُعَجَّلاً ـ وهو في الأصل ما يعدُّ مستعجلاً للضيف النازل من الطعام والشراب، شبَّه به دخول الجنَّات المعدَّة للمؤمنين ـ ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾، اللهمَّ اجْعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ ثواب الآخرة مُرَتَّبٌ على أعمال الدنيا الصَّالحة ترتيباً طبيعياً[1]. وكذلك العذاب، كما قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الإيمان إلى الشِّرك والعصيان ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، ثم صوَّر خلودهم وشدَّتهم فيها بقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وفي هذا القول تأنيبٌ لهم وتَنْديم.

ثم بيَّن تعالى أنه يذيقُ المشركين شيئاً من عذاب الدنيا، ليحملهم على الرجوع إلى الهُدى، فقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ[2] لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: يرجعُ مَنْ بقي منهم ويعتبر، أو يرجعُ مَنْ وراءهم. لأنَّ الكلامَ عن الصنف كلامٌ عن مجموعه؛ سابِقِه ولاحِقِه.

ثم أجمل السياق بما هو كالتعليل المبرِّر لإذاقتهم العذاب، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض بعد التذكير واستفظاعه. وقد أردف الإنكار بتقرير الحكم والوعيد، فقال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: آخِذُوهُم بالعذاب. وقد يُستعمل الانتقام في عُرف التَّخاطُب بمعنى التَّشفِّي بالعقوبة، وهو بهذا المعنى مُحَالٌ على الله سبحانه، فالمراد به مجرَّد التعذيب.

---

(١) تقدم التعليق على مثل هذه العبارة قبل صفحتين.

(٢) أي: وأقسم لنُذيقَنَّ هؤلاء الفاسقين المكذِّبين بعضَ العذاب الأقرب الأصغر من مصائب الدنيا ومحنها وأسقامها قبل العذاب الأكبر يوم القيامة، حيث يُعذَّبون في نار جهنّم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق بما يُسلِّيه ﷺ ويُثبِّته تجاه هؤلاء المشركين المجرمين وإعراضهم ومعارضتهم، وأدمج فيه إلزامَهم بما لا ينكرونه، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كما آتيناك، ولقي بذلك أذىً ممَّن أُرسِلَ إليهم، ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ والضمير: إما أن يعود إلى الكتاب، إذ المراد به جنسُ الكتاب السماوي، على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٦]، وإما أن يعود إلى ما لقي موسى من الأذى، نتيجةَ تبليغ الكتاب، بمعنى: أن ذلك سنةٌ من سنن الاجتماع لا بدَّ أن يلقاها الرسول المبلِّغ عن الله. فقوله: ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: من مثل لقائه. قال الحسن: فلا تكن في شكّ من لقائك ما لقيَ من الأذى.

وعلى الأول، يكون مُحصَّل المعنى: فلا تكن في مِرْية من لقاء القرآن، أي: من تلقِّيه عن الله، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، يريد: إنا آتينا موسى مِثلَ ما آتيناك من الكتاب، فلقيتَ من الوحي مِثلَ ما لقي موسى، فلا تكن في شكٍّ من أنَّك لقيتَ واستقبلتَ كتاباً مِثلَه، ونظيره: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]،

ويكون هذا خطاباً للأمة وللمعارضين في شخص النَّبيِّ ﷺ، على نهج القرآن في مثله[١].

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ الذي آتيناه موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَ﴾ بذلك ﴿جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ بما في تضاعيف ذلك الكتاب من الحِكَم والأحكام ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيَّاهم بذلك، أو بتوفيقنا لهم على ذلك ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ على مقاساة الشدائد في نصرة الدين، ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ والمعنى: لَنَجْعَلَنَّ كذلك الكتابَ الذي آتيناكَهُ هُدىً لأمتك، ولَنَجْعَلَنَّ منهم أئمةً يَهْدُونَ مثل تلك الهداية[٢].

ووجه الإلزام في الآية: أنا أرسلنا لهم موسى كما أرسلناك، وأنزلنا عليهم التوراة كما أنزلنا عليك القرآن، فما وجه إنكارهم عليك؟ وما كنتَ بدعاً من الرسل!

ثم توعَّد المعارضين بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأنبياء ومعارضيهم من أممهم، وبين المشركين المعارضين لك؛ يقضي بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ من أمر الأديان واختلافهم فيها، ويُجازيهم على ذلك جزاءً وفاقاً.

---

(١) أو الخطاب للمُنكِرين رسالةَ محمد ﷺ بدلالة السِّياق قبل هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ...﴾ [الكهف: ٥٧]، والمعنى: أؤكِّد لك ـ أيها المُنكِرُ رسالةَ محمدٍ والمكذِّبُ بالقرآن ـ أننا آتينا موسى كتابَ التوراة من قبل بعثة محمدٍ وإنزال القرآن عليه، وجعلنا موسى والتوراة هدىً لبني إسرائيل، فلا تكنْ في شكّ من لقاء موسى يوم القيامة، وتعلم حينئذ يقيناً أنا أرسلناه وأنزلنا التوراة هدىً لبني إسرائيل، كما أرسلنا محمداً وأنزلنا عليه القرآن هدىً للعالمين.

(٢) أو المعنى ـ على أن الخطاب لمنكري رسالة محمد ونزول القرآن عليه ـ: فإذا آمنتُم بمُحمَّد ﷺ وبالقرآن المُنزَّل عليه، وصبرتُم وأيقنتُم، جعلنا منكم أئمّةً هداةً دعاةً إلى الخير، يأتمُّ الناسُ بهم.

ثم قرن التهديد بالتقريع، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ[1] يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾، وقد ضمَّن ﴿يَهْدِ﴾ معنى: يكشف ويُجَلِّي، فعدَّاها باللام، على نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة الثانية، وفي النوع الثاني عشر من المقدِّمة السادسة في أنواع مجازات القرآن). أي: أو لم يُجْلِ لهم الأمرَ كثرةُ ما أهلكنا قبلهم من القرون لـمّا كذَّبوا الرسل، فجعلناهم أحاديث، ومزَّقناهم كلَّ مُمَزَّق، وهم يَمرُّون بديارهم ويَرَونها بأعينهم أثناء أسفارهم، كديار صالح عليه السلام بين مكة والشام، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ[2] لَآيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ هذه الآياتِ سماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظ؟!

ثم قَرَنَ التهديدَ بدليل القدرة والمنَّة تحقيقاً لإنجازه، وسبكه على الامتنان فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: المحصودة، وأراد بها: مُطلَقَ اليابسة التي لا نبات فيها، مِنْ ذِكْرِ الخاصِّ وإرادةِ العامِّ للمبالغة في الوصف، أي: نسوقُه إلى الأرض القاحلة ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ذلك، فيُدركون به قدرتَنا على إعادة الموتى؟! لأنَّ الفِعلَين متشابهان، فقد جاء في الحديث ما معناه: «إنَّ الله سبحانه يُرسِلُ يوم القيامة ما يُشبهُ المطر، فيَنبُتُ به عجبُ الذنب كما تنبت الحِبَّةُ في حَميل السَّيْل»[3]، وعجب الذنب: جزء دقيق لا يُدرَكُ في مُؤخَّر صُلْب الإنسان، لا يفنى أبداً، وهو نواة الحياة، والله أعلم.

---

(١) أي: الأمم الخالية المُقترنين في زمن واحد.

(٢) أي: في مواطن المُهلَكين السابقين، وبقاء بعض آثارهم فيها، لدلالاتٍ يُستَدَلُّ بها على سُنّة الله في إهلاك الكافرين المكذِّبين.

(٣) رواه الحاكم (٤: ٥٤١) من حديث طويل بلفظ: «كنا عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فذكر عنده الدجال... فيرسل الله ماء من تحت العرش كمني الرجال فتنبت لُحمانُهم وجُثمانهم من ذلك الماء كما ينبت الأرض من الثرى... »، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

ثم أردف هذا بإصرارهم على الإنكار واستهزائهم بالوعيد، وقرنه بالرد والتهديد الشديد، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: النصرُ علينا أو الفَصْلُ بيننا، أو إعادتُنا بعد الموت لينتقم منا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أنَّ الله ينصركم علينا أو يفصل بيننا وبينكم بحكمه؟

فأجابهم بما فيه ردٌّ وتقرير ضمن التيئيس من النجاة حينذاك، فقال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ إذا أرادوا أن يؤمنوا حينئذ جزعاً من العذاب، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: يُمْهَلون كما يُمْهَلون في الدنيا.

وبعد أن بيَّن لهم المسائل، وأتقن لهم الدلائل، فلم ينتفعوا بكلِّ ذلك، قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تُبالِ بتكذيبهم، ولا تُناظِرْهم بعد ذلك، بل قاتِلْهم ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ إهلاكَهم ونُصْرَتَك عليهم، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ هلاكَكَ وغلبتَهم عليك، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

* * *



مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية

جاء في هذه السورة ذِكرُ أحكام تتعلق بالنبيِّ ﷺ، نزلت زمن غزوة الأحزاب، ولذلك قُرنت بقصتها.

وأهم تلك الأحكام: إبطال التَّبنِّي، وكان عادةً مستحكمةً، فأمره أن يقوم بإبطالها بصورة فعلية، وإن صَعُبَ عليه ذلك؛ لِـمَا سيقارنها من المشاغبات، ولهذا ابتدأت السورة بأمره بتقوى الله، وأن لا يهتم بالأراجيف، ويخشى الكافرين والمنافقين وتقوُّلاتهم، فهي هَباء وهُراء.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، ثم علَّل هذا الأمر والنهي بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾[1]، أي: فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة، ولا ينهاك إلا عمَّا فيه مفسدة، ولا يحكم بشيءٍ إلا لأنَّ الحكمة البالغة تقتضيه.

---

(١) يتبع القرآن هذا الأسلوب، والسامع إما أن يكون متمسِّكاً به مثل النبي ﷺ، وإما أن يكون جاهلاً به، وإما أن يكون معارضاً له. فالصنف الأول: يتنوَّر قلبه بموافقة سلوكه لما يرضى الله. والثاني: يتعلم منه ويتبعه. والثالث: يزدجر، وربما تنفعه الموعظة. والحاصل أن مثل هذا إنما هو أسلوب من أساليب القرآن، يسمعه من يوافق ما في نفسه ـ وهو الرسول ـ فيأنس لذلك، ويسمعه من يخالفه فيرتدع، ويسمعه المقصر فيه فيكمله ويحرص عليه. (المؤلف).

ومثل هذه الآية تأتي في القرآن لوناً من ألوان شدّة البيان، لا يراد بها حقيقةُ معناها؛ إذ يستحيل عليه ﷺ أن لا يتـقي الله، أو أن يطيع الكافرين والمنافقين. ويجوز ـ وهو الأظهر ـ أن يكون الكلام مجرَّد تشجيع وتهييج له ﷺ على تنفيذ الإبطال لأحكام هؤلاء الكفار وتشريعاتهم التي سيأمره بإبطالها في هذه السورة، وهي التبنِّي والظِّهار، فتكون براعة استهلال لذلك، ولـهذا أردفها بقوله: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾، ثم بالغ بالـحَمْل على التمسُّك به على الوجه المطلوب، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ ﴾، ولفظة ﴿ كَانَ ﴾ هذه لتحقُّق الوقوع، جيء بها للمبالغة في التحذير.

ولما كان مقتضى هذا الأمر ـ وهو إبطال التبنِّي ـ مظنَّـةَ هياج الكافرين والمنافقين عليه، ثبَّته تعالى بقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ ﴾ أي: حافظاً وموكولاً إليه كل الأمور، فلا تَـهَبْ أحداً في نشر دعوتك، وإنجاز كلمتك، وتحرير قضيتك. ويجوز أن يكون الكلام تعليقاً في عتابه على تَباطُئِـهِ في التزوُّج بزينب لإبطال التبنِّي، خوفاً من إثارة فتنة، وتقوُّلات من المشركين والمنافقين، وضمَّن سبحانه بأن الله يضع الأحكام عن علم دقيق وحكمة بالغة.

ثم ردَّ على المشركين ومَهَّد له بقوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ قال أبو مسلم: أي: ليس لأحد قلبان يؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر، وإنما هو قلب واحد، فإما أن يؤمن، وإما أن يكفر. والمعنى: أنه لا يمكن الجمع بين اتِّباعَيْن متضادَّيْن: اتِّباع الوحي والقرآن، واتباع أهل الكفر والطغيان. فكنّى عن ذلك بذِكرِ القلبين؛ لأن الاتِّباع يصدر عن الاعتقاد، والاعتقاد مصدرُه القلب في عُرف العرب، فكما لا يجتمع قلبان في جوف واحد، لا يجتمع اعتقادان متضادَّان في قلب واحد.

وقد مهَّد بهذه الجملة للحكم الآتي، وهو إبطال تشريعين ابتدَعهما هؤلاء الكافرون

الذين نهاه عن إطاعتهم، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ كان الرجل في الجاهلية يقول لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، فكانت تكون عندهم أماً له، تجري عليها أحكام الأم من ميراث وتحريم، فأنكر عليهم سبحانه وتعالى هذا الحكم الجاهلي، وشنَّع عليهم به. وقيل: بل تكون الزوجة عندهم بذلك معلَّقةً، لا زوجة ولا مطلّقة، فتُقاسي أشدَّ التعاسة. وقد جعله الإسلام في حكم الطلاق.

وكذلك كان أحدهم يتبنّى له ابناً لغيره، فيجري عليه أحكام الابن الصحيح، من ميراث وتحريم وتحليل، وتنقطع صلته بأبيه الحقيقي، فيكون عنه في حكم الأجنبيّ. ومن سيِّئاته: مشاركة المتبنَّى للوَرَثة الحقيقيين في الميراث، وعِشرَتُه لبنات المتبنِّي وزوجته بصفته ابناً لها وأخاً لهنّ. هذا هو حكمهم الجاهلي في هذين الأمرين.

وقد أبطل الله سبحانه هذين الحكمين في هذه الآية، وسخَّف وجهة نظرهم فيهما، وإني ألمح من نَظْم الآية ـ والله أعلم ـ شعاعَ تنظير يزيد قوةً في إبطال هذين الأمرين، أي: كَما لم يجعل الله لرجل قلبين في جوفه، لم يجعل زوجَ الإنسان أماً له، ولا ابنَ غيره ابناً له. أي: لم يجمع الله بين زوجية وأمومة في امرأة، ولا بين أن يكون الشخص دَعِيّاً وابناً حقيقياً، كما لم يجعل قلبين في جوف واحد، ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ فحكمه هو السَّداد، وهديُه هو الرَّشاد، فاتركوا أحكامكم واتَّبعوا أحكامَه.

﴿ ٱدْعُوهُمْ ﴾ أي: مَنْ تَتبَنَّونهم، ادعُوهُم ﴿لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي: انسبوهم إليهم وخصُّوهم بهم، فذلكم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا تنسبوهم لأنفسكم، ولا تُجروا عليهم أحكام الأبناء الحقيقيين. وكلمة ﴿أَقْسَطُ﴾ لم يُقْصَد بها التفضيل، وإنما قُصِدَ بها المبالغة في الوَصْف، حثاً على التمسُّك بالحكم الذي أكمله بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾

لأنهم مجهولو النسب ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ فادعُوهُم بذلك، وأجْرُوا عليهم حكمَه، والأول والثاني في العبيد.

ثم قال في إتمام التشريع: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ فنسبتموه إلى المتبنِّي ظانِّين أنه ابنه حقاً، أو بطريقة السهو والنسيان وسَبْق اللسان، ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ﴾ به ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ في ذلك النَّسَب والانتساب، فهو الذي يؤاخذكم به. وفي هذا التغليظ تُدرك حرمة الانتساب لغير الأب والعشيرة أيضاً.

ثم ختم الحكم بما يختم به أكثر الأحكام المبدِّلة لأحكام الجاهلية، وهو العفو عما سلف، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ أي: يغفر ما صَدَرَ منكم قبل هذا، رحمةً بكم. وكذلك ما كان بعده عن سهو أو خطأ غير متعمّد.

ثم أقرَّ أمْرَ النَّسَبِ الدينيّ بين أفراد المؤمنين، وأُخُوَّتَهم الدينيةَ تحت أبوَّة النبيِّ ﷺ وأمومة أزواجه، دفعاً لِـمَا عساه يَرِدُ على الأفكار من كراهية ذلك بعد بيان هذا الحكم والتغليظ فيه. فذكر أنَّ النَّسَبَ الديني ثابتٌ مقرَّر، ولكنه نسبٌ أدبيٌّ فقط، لا تجري عليه أحكام النَّسب الحقيقي من ميراث وتحريم وتحليل، إلا في حرمة نكاح زوجات النبيِّ ﷺ؛ لثبوت ذلك بأمر خاصّ سيأتي في هذه السورة، فقال: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هو أحرصُ على مصلحتهم الدنيويَّة والأخرويَّة من أنفسهم، يحرص عليها حرصَ الأب على مصالح ابنه، فهو كالأب لهم، ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ والمسلمون كلُّهم سواء في أبوَّته وأمومتهنّ لهم. وهذا ترشيحٌ وتقويةٌ لأمر هذا النسب الأدبي، وهو نَسَبٌ مشروعٌ بحكم إلهيّ، يدلُّ على أخوة المؤمنين واتِّصال بعضهم ببعض، وأنَّ للدين رابطة كرابطة النَّسب في التكاتف والتعاضد، وسهر الأفراد وحرصهم على مصلحة المجموع.

وقد كان لهذا النسب الديني أثرٌ كبيرٌ ومظهر عجيب وفائدة جُلَّى، وحبَّذا لو عاد المسلمون وتمسَّكوا بهذا النسب ـ الذي لا تنقطع صلتُه، ولا تنفصم عُراه ـ وتوادُّوا وتحابُّوا وطرحوا من قلوبهم الحقد والبغضاء والحسد، وطهَّروا سرائرهم، وأخَذَ كلٌّ منهم بيد أخيه، وأحلُّوا محلَّ ذلك كلِّه الحبَّ الخالص من قلب مملوء بالإيمان، لو فعلوا هذا لعزُّوا بعد الذل، واجتمع شَمْلُهم بعد أن تفرَّق، وهابهم الغير، ودانت لهم الرقابُ، كما كان ذلك وافراً في الصَّدر الأول.

ثم بيَّن تعالى ـ على سبيل الاحتراس[1] وتحرير الحق ـ أنَّ هذا النَّسَبَ لا يتجاوز إلى أحكام النسب الحقيقي، فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: فتجري عليهم الأحكام من الميراث والتحريم والتحليل حسبما ذكر في كتاب الله. أما قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ فهو إما بيانٌ لـ«أُولي الأرحام» أو صلةٌ لـ«أُولي»، نسخ بها حكماً كان مؤقّتاً بصلة التآخي الذي وضعه ﷺ بين أفراد من المهاجرين والأنصار في مبدأ الهجرة. وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ استثناء منقطع[2]، قال السُّدِّيّ: عَنَى بذلك وصيَّةَ الرجل لإخوانه في الدين أو مواليه[3].

ثم ختم هذه الأحكام بما يحثُّ على العمل بها، فقال: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ أي: ثابتاً في القرآن أو مقرَّراً عند الله.

---

(١) الاحتراس: هو أن يؤتى ـ في كلام يوهم خلاف المقصود ـ بما يدفع ذلك الوهم، سواء وقع الاحتراس في وسط الكلام أو في آخره.

(٢) أي: (إلّا) جاءت بمعنى: (لكن)، أي: وأولو الأرحام بعضهم أَوْلى ببعض، لكنْ لا بأس أن تفعلوا إلى أوليائكم الذين ليسوا بأولي الأرحام منكم معروفاً.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٤: ٣٧٦).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

ثم عقَّب هذه الأحكام المقرَّرةَ بما يزيد في الحمْل على التمسُّك بها، على نهج القرآن في ذلك، وصاغ الكلام من مادة تتناسب مع مطلع السورة وترتبط به، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين القيِّم، وإجراء أحكامه، لا يخشون في ذلك أحداً إلا الله.

ثم ذكر أبرز الأنبياء بطريقة عَطْفِ الخاصِّ على العام، للاهتمام بشأن الخاص، فقال: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، ثم أعاد أخْذَ الميثاق ليصفه بالغلظة تهويلاً فيه، وليُعَلِّق عليه ما بعده، فقال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾، وذلك ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي: الأنبياءَ عن تبليغهم، والمؤمنين عن تصديقهم، وقد يكون السؤال أمام الكافرين تقريعاً لهم، ولذلك أردفه بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ

لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

ثم ذكَّرهُم سبحانه وتعالى بنعمته عليهم وحفظه لهم في واقعة الأحزاب، حيث خَذَّل عنهم المشركين المُتحزِّبين عليهم لاستئصالهم والقضاء عليهم، وكان ذلك الإنجاء نتيجةً لأثر هذا التمسُّك بالمواثيق والدين المبين، المربِّي للنفوس على الصبر وحُسْن اليقين، والمعين على التكاتف والتآزر والقوة والثبات، وأدمج في الكلام التأديبَ لعموم المؤمنين، والتشنيع على المنافقين، والثناء على المخلصين.

وقد ابتدأ بتصوير حَراجة الموقف، ليتبيَّن قَدْرُ هذه النعمة، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ خَبطتهم خَبْطاً واضطرَّتهم على الرحيل، ﴿وَ﴾ أرسَلْنا عليهم كذلك ﴿جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أوقعت بينهم الخُلْفَ، وحملتهم على التخاذل والتفرّق، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ من الأعمال والأقوال الصَّادرة من شدَّة الخوف.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾[1] وهذا تصويرٌ لتجمُّعهم عليهم

---

(١) عندما تجمَّعت قوى الشر وحاصرت المدينة، اتَّصل يهود بني النضير ـ الذين هاجموا المدينة مع =

وإحاطتهم بهم، وقد صوَّر شدَّة رُعبهم منهم بقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وهذه حالةٌ تعرضُ للبصر من شدَّة الخوف؛ إذ يصيبُ أعصابَ العيون ارتخاءٌ أو شيء من هذا القبيل، فيختلُّ النظر. وقال في إتمام هذا التصوير: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ وهذا كناية عن أقصى مراتب الرُّعْب وشدّة الكَرْب، قرنه بقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ من أنَّ وَعْدَ الله بالنصر لم يكن حقّاً، أو تكون الآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] فارجع إليها.

ولا شكَّ أنَّ هذه الحالات الثلاث إنما كانت من ضعاف الإيمان والمنافقين، وهي تُصوِّر شدَّة الموقف وحراجته أكبر تصوير. وفي إسنادها إلى هذا المجموع تجوُّزٌ يُعرَفُ مثلُه في خصائص اللغة وفي أساليب القرآن، للإيماء إلى وحدة الأمة وتكافلها، ومسؤولية بعضها عن بعض. ويجوز أن تكون الحالة الثالثة على المعنى الأول خاصَّةً بالمنافقين.

والآياتُ تُصوِّر شدَّة هذه الغزوة وخطرها على المسلمين، وأنه كان من شأنها أن تعصفَ بالإسلام لولا تأييد الله وثبات رسوله، لا سيما وأنها جاءت بعد وقعة أُحُد التي كانت الدائرة فيها على المسلمين، وذلك يجعل موقف الدسِّ والتثبيط من المنافقين أشدَّ خطراً، وأبعَدَ نكاية وأذى.

= المهاجمين ـ بيهود بني قريظة الذين لم يزالوا في المدينة، ودبّروا مؤامرة من أعنف المؤامرات؛ ليضرب بنو قريظة المسلمين من الخلف، وليوقعوهم بين شِقَّي الرَّحى، واستجاب يهود المدينة لهذا الغدر الذي أوقع المسلمين ـ عندما علموا به ـ في حالة من الذعر والقلق، تُصوِّرُها الآياتُ أدقَّ تصوير، ولكن الله سبحانه نجَّى المسلمين من هذا الطغيان، وردَّ الذين كفروا على أعقابهم مخذولين. وأمر سبحانه بإنجاز الجزاء الأليم في بني قريظة، فقُتِلَ مقاتلهم، وسُبِيَ ذراريهم ونساؤهم. (المؤلف).

ثم أجمَلَ الكلام بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ أي: امتُحِنوا امتحاناً قوياً، تميَّز به المؤمن من المنافق، وقويُّ الإيمان من ضعيفه، حيثُ ثبت القويُّ كالجبل الراسي، وتزلزل الثاني بعض التزلزل.

وأما المنافقون فقد شَرَح الله سبحانه حالتَهم بقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وقد اختلفوا في هذا الوصف؛ فقيل: المراد به الشك، فيكون من عطف الصفة على الموصوف[1]. وقيل: بل المراد ضَعْفُ الإيمان. وضعفاء الإيمان صنف آخر غير المنافقين، والأول أنسب بقولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ لأنَّ مثل هذا القول لا يصدر إلا من المنافقين. وقد قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: إنَّ المنافقين قالوا في محاصرة الأحزاب للمدينة: يَعِدُنا محمد أن نفتح مدائن كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء، هذا والله الغرور[2].

ثم حكى ما كانت تقوله وتفعله فِرَقٌ أخرى منهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ يُخَذِّلونهم؛ ليهربوا من عسكر رسول الله ﷺ، ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ﴾ آخرُ ﴿مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ في الرجوع إلى المدينة، ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ليست بحريزة وحصينة، فلا نأمن على أهلينا. فكذَّبهم الله سبحانه وشنَّع عليهم بقوله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

ثم فَضَحَهم سبحانه وتعالى ببيان حالتهم الفاجرة، ومعذرتهم الكاذبة، وجرأتهم

---

(١) الصفة هي: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ معطوفة على: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، فالفريقان جماعة واحدة متصفة بالنفاق ومرض القلب في آن واحد، وليسا جماعتين اثنتين.

(٢) هذا الذي نسبه إلى ابن عباس هو من قول قتادة، كما في «تفسير الطبري» (٢٠: ٢٢٣)، وكذلك حكاه السُّدِّيُّ فيما رواه ابن أبي حاتم. ينظر «تفسيره» (٢: ٣٨٠).

في الحروب الجائرة أيام جاهليتهم، وخذلانهم في الحروب العادلة في سبيل الحق أيام الإسلام، فقال: ﴿وَلَوْ﴾ كانت في الحقيقة عورةً على أخطر الوجوه حتى ﴿دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ﴾ سائر ﴿أَقْطَارِهَا﴾ أي: من جميع جوانبها ونواحيها، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي: دُعوا أيامَ جاهليتهم للنَّجْدة في الباطل، حسب قواعدهم في الجاهلية، ﴿لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ﴾ أي: بالبيوت ﴿إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ ريثما يأخذون أسلحتَهم وأُهبَتَهم للنجدة، ولم يهتموا بأمر البيوت. يفضحهم في كذب معذرتهم ونفاقهم.

وخلاصة البيان: أنهم كانوا يخجلون من مثل هذا العذر ولو كان صحيحاً، فما كانوا ليعتذروا به في جاهليتهم إذا دُعوا للنجدة على تلك الأمور الباطلة، ولا يخجلون منه اليوم في الإسلام لنجدة الحق وتأييده، مع أنَّ هذا العذر كذبٌ وبهتان.

ثم زاد على هذا النقد اللاذع والتكشيف الفاضح بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ حيث عاهدوا رسول الله ﷺ، أو يوم أحد حين فشلوا: أن لا يعودوا لمثل ذلك، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ ولكنهم نَقَضوا العَهْد، وأخلفوا الوَعْد، واعتذروا بالمخازي والأباطيل.

ثم أنَّبهم بخطأ المنطق في الجبن والهزيمة، فقال: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ بالحياة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾، وهذا بمعنى:

قل للجبانِ إذا تأخَّر سَرْجُهُ ... هل أنتَ من شَرَكِ المنيَّة ناجِ[1]

ثم تابع المعنى بقوله: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾، وقولُه: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ تكميلٌ للكلام لبيان سلطان الله العام، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ يدفع عنهم ما أراد الله بهم من سوء. وقد تضمَّنت الآية ـ مع التوبيخ

---

(١) البيت لجرير، كما في «ديوانه» ص٧٤.

لهم ـ الإرشادَ بصورة عامة للاتِّكال والاعتماد على الله، تقويةً للعزيمة، وتنميةً للقوة المعنويَّة أوقات الخطر.

ثم توعَّد المُخَذِّلين الذين يَنْشُرونَ الخوفَ في الجيش، ويُؤَثِّرون على الضعفاء، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: المثبِّطين للناس عن نُصْرة رسول الله ﷺ، والمُخَذِّلين لهم، ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ من المنافقين: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاء القائلين كانوا خارجين عن المعسكر مُتوجِّهين نحو المدينة عائدين إليها، ويَدْعُونَ إخوانهم أن يلحقوا بهم.

ثم ذكر لهم أمراً آخر فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ قال السُّدِّيّ: أي: يخرجون للحرب قَدْرَ ما يُوهِمُون أنهم مع الجيش وأنهم مؤمنون، ولا يخفى على الله منهم خافية.

ثم ذكر لهم أمراً ثالثاً، فقال: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاءَ عليكم في المشاركة بالنفقة على الجهاد في سبيل الله.

ثم صوَّر جُبنَهم المفرط؛ تهجيناً لأمرهم فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: كنظر المغشيِّ عليه من معالجة سكرات الموت، جُبْناً وخَوَراً ولِوَاذاً بك، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وحِيزَت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وقالوا: وفِّروا قِسْمَتَنا، فإنا قد شهدنا معكم وقاتلنا، وبمكاننا غَلَبتُم عدوَّكم، وبنا نُصِرتُم عليهم. والسَّلق: البسط بقهر باليد أو باللسان. يفعلون ذلك ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: بخلاء بالغنيمة، يُشَاحُّون المؤمنين عند القِسمةِ بألسنةٍ حداد. فالآية تُصَوِّر شدَّة جبنهم وهَلَعهم عند القتال، وشدَّة سفاهتهم عند الأمن وشحِّهم بالمال.

ثم ذكر علَّة ذلك فيهم وعاقبتَه عليهم، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بإخلاصٍ ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ حتى خروجهم للجهاد معكم، وذلك بظهور هذا النفاق فيهم، فلم يكن للأعمال أثرٌ في نفوسهم، إذ لم يقصدوا بها سوى التمويه على المؤمنين، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباطُ لأعمالهم ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ إذ ليس فيه إجحاف، بل هو الحق الموافق للعدل والإنصاف.

ثم تابع المعنى في تصوير شدّة هَلَعِهم وجُبْنهم، فقال: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي: لشدَّة خوفهم لا يصدِّقون أنَّ الأحزاب قد انهزموا، بل يظنون أن ابتعادهم مكيدةٌ منهم، وسيعيدون الكرَّة على المؤمنين، ففرُّوا خوفاً منهم إلى داخل المدينة، ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ أي: وإن فُرِض أن يعودوا كرةً ثانية ﴿يَوَدُّوا﴾ حينئذ ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أي: يتمنَّى هؤلاء المنافقون حينذاك لو أنهم خارجون إلى البادية بعيدون عن المدينة ومركز القتال، ويسألون من بُعدٍ عن أخباركم كلَّ قادم من المدينة، يستطلعون ما جرى عليكم من الأحزاب. وهذا تصويرٌ بليغ لوصفهم بمنتهى اللؤم والجبن والهلع. وقد أكمل هذا الوصف بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم﴾ وكان قتالٌ ﴿مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ رياءً وخوفاً.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ

﴿ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

ثم أردف هذا بالإرشاد العام، حاثاً على الصِّدق في الجهاد والصبر عليه، على نهج القرآن في ذلك، وهو تعقيبُ النقد بالإرشاد والدعوة إلى الرَّشاد، وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوةٌ صالحةٌ في الجهاد وغيره، تفعلون فِعلَه، وتسيرون سَيْرَه. ثم أبدَلَ من عموم قولِه: ﴿لَكُمْ﴾ قولَه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ للإشارة إلى أنَّ المؤمنين الذين يقرنون بهذا الرجاء ذِكرَ الله على الدوام، هم الذين يتأسَّون برسول الله ﷺ، ويُخلصون النيَّة في الجهاد، بخلاف هؤلاء المنافقين.

ففي الآية تقريعٌ لهم وتعريض، وفيها حثٌّ على التأسِّي به ﷺ في الصبر والثبات عند الشدائد وملاقاة المكاره.

ثم قابل حال المنافقين وضعافَ الإيمان في وقعة الأحزاب، بحال المؤمنين الخُلَّص، على نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ يعنون بذلك قولَه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوا من بأس الأحزاب وكَثْرتهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله تعالى وبمواعيده، ﴿وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ لأوامره ومقاديره.

وهذا تصويرٌ لمنتهى الإيمان بالله والوثوق به، ولا شكَّ أنَّ الإيمان الصحيح تظهر آثاره في الأقوال والأفعال ظهوراً طبيعياً، لأنَّ العقيدة هي التي تُسيِّر الإنسان في كلِّ شيء فيتمسَّك ويتصرَّف حسبما يرسمُه له الاعتقادُ في الأمور.

ثم إنَّ من أجَلِّ الأوسمة التقديريَّة للصنف الآتي من المؤمنين ـ إنْ صحَّ هذا التعبير ـ هذا الوسامَ الجليلَ من العَلِيِّ الكبير، للتأنيس لهم والتقدير، حيث يقول: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ ﴾ من عَهْدِهم ﴿تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، بل ثبتوا عليه راغبين في وسامٍ ـ والله ـ تَقشَعِرُّ لجلاله الجلود، وتخشع لحامليه القلوب. يهنئهم بالفوز بالسعادتين، ورضوان من الله أكبر، وهكذا النفوس العظيمة تستهينُ بصعاب الأمور في طاعة الله، فتنال الجزاء الجليل من فضل الله وعظيم إحسانه. وهل يمرُّ تالٍ أو سامعٌ بهذه الآية ولا يقشعرُّ جلدُه إكباراً وإعظاماً لأولئك المؤمنين، رضوان الله عليهم أجمعين؟!

ثم بيَّن سبحانه وتعالى حُكمَه في الفريقين، فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ وذلك إذا بقوا على نفاقهم، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ إن تابوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

وليس المعنى: أنَّ مشيئتَه في التعذيب أو التوبة عليهم تجري جزافاً واعتباطاً، كلا، وإنما تجري مشيئتُه سبحانه بالحقِّ والعدل، وفي سُنَن مُطَّردة وقانون ثابت، فلا يشاء سبحانه إلا تعذيبَ مَنْ يستحقُّ العذاب، ورحمةَ مَنْ يستحقُّ الرحمة والرضوان، إذ قد سبقت مشيئتُه الأزليَّة أن يُعذِّب من أفسد فطرته ودسَّاها وهو الكافر والعاصي، وأن يرحم من حافظ على سلامتها وزكَّاها وهو المؤمن الطائع، وأن يكون لكلِّ نفس ﴿مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف ١٤٧، سبأ: ٣٣]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وجاءت بذلك الأنبياءُ والكتبُ المنزلة، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ثم بيَّن تعالى ما كان من فشل الأحزاب وخذلانهم، مُنبِّهاً إلى النعمة العظمى من النِّعم الكثيرة التي نالوها بتمسُّكهم بميثاق النبيين وهذا الدين المبين، ذلك المعنى الذي ابتدأ به السياق، وختمه بمُحَصَّلِه، فقال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ وإنما آبُوا بالفشل حين أرسل عليهم الريح فخبطتهم خَبْطاً، إثْرَ ما أرسل عليهم جنودَ التفرقة والتشبيط، فأفسدت ذاتَ بينهم، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي: إنَّ الأحزاب الذين تحزَّبوا لاستئصال النبيِّ ﷺ وأتباعه انخَذَلوا وتفرَّقوا وعادوا إلى أوطانهم، من دون أن يصيبوا المؤمنين بأذى ولا قتال، ولم يقاتلهم المؤمنون ويصرفوا عليهم جهداً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: غالباً على أمره، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ثم بيَّن سبحانه وتعالى ما فعل باليهود من بني قُريظة الذين نقضوا العَهْدَ الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ، واتَّفقوا مع الأحزاب على مقاتلته، واشتركوا في محاصرة المدينة، فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: ناصروا المشركين ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: من اليهود. واتفق المفسِّرون على أنهم بنو قريظة، أنزلهم ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم المنيعة، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ بحيثُ أسلموا أنفسَهم للقتل، وأهلَهم وأولادَهم للأسر بعد حصار لم يَطُل، ونقضوا العَهْدَ الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ في أحرج المواقف، فأمره الله بقتلهم، كما حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾.

وأما قوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ فقد ذُكِرَ تكميلاً للكلام، على صورة الوعد بما سينالون من فَتْح الممالك كفارس والروم، وتعجيلاً بالتبشير في نَيْل ذلك من البلاد النائية التي لم تطأها العرب. وهذا من إخبارات القرآن بالغيب، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ لا يُعْجِزُه فِعلُ شيء أبداً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

وبعد أن أتمَّ الكلام عن وقعة الأحزاب التي استطرد بها لبيان نِعَم الله تعالى على المؤمنين، ونَصْره المبين لهم على الكافرين، نتيجةَ التواثق بينهم والتآزر على هذا النَّسَب الجديد، وهو نَسَب الدين، عاد إلى ما بدأ به السورة في أمر الزوجات والأدعياء.

فبعد أن ذكر أمْرَ الظِّهار الناجم عن النِّزاع بين الزوجين وأنَّبَ عليه، ذكر نظام تأديب الزوجات ومعاشرتهنَّ وبعض أحكامهن، وبدأ البحث بالكلام عن زوجات النبيِّ ﷺ.

ثم انتقل إلى قصة زينب التي كانت لإبطال التبنِّي الجاهلي الذي هو أحد أغراض هذه السورة، وذكر أمْرَ التوسعة على الأنبياء في بعض الأحكام المدنية لِـمَا تَقْتضيه المصلحة والحكمة في بعض الظروف والحالات الاجتماعية أثناء نشرهم الدعوة.

ثم ذكر شيئاً من أحكام النكاح والطلاق ونظام الزوجات، وبيَّن ما خصَّ اللهُ نبيَّه ﷺ من التوسعة في هذا النظام، حسبما اقتضته الحكمةُ والمصلحةُ الاجتماعيَّـة في سَيْره وخطَّته التبليغية؛ لأنَّ زواجه ﷺ لم يكن لمجرَّد مَيْل، ولكن لمصالحَ اجتماعية أو سياسية.

ثم أكمل نظام الزوجات بأحكام البيوت والحجاب وما يتبع ذلك، ثم أنهى السورة بتهديد المشركين، وبيَّن حالة الإنسان الـمُعْرِض عمَّا أراده الله منه، مخالفاً في ذلك لسائر المخلوقات، وقَرَنَ ذلك بالتأنيب، وبما يحمل على التمسُّك بهذا الدين.

ومُجمَلُ الربط: أنه لـمّا كان الظهار والطلاق يتأتَّى غالباً من نتيجة أخلاق النساء ومعاملاتهنَّ مع أزواجهنَّ، تصدَّى السياق لتأديبهنَّ، وابتدأ في تأديب زوجات النبي ﷺ وتثقيفهن، وافتتح البحث بآية التخيير، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: السَّعَـةِ والتنعُّم فيها وبزخارفها، ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: أُعطيكُنَّ المتعةَ وأُطلقكنَّ طلاقاً من غير ضرار، فتطلُبْنَ الدنيا عند غيري.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وذِكْرُ الله عز وجل للإيذان بكرامته ومنزلته ﷺ عنده تعالى، ثم عطف عليه عطف المسبَّب على السبب قوله: ﴿وَ﴾ تُرِدْنَ بذلك ﴿ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: نعيمَها الذي لا وزن معه للدنيا وما فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ لا يُقدَرُ قَدْرُه.

قال المفسِّرون في سبب نزول هذه الآية: إنَّ أزواج النبي ﷺ سألنَه شيئاً من عَرَض الدنيا، وطلَبْنَ منه زيادةً في النفقة، وآذينَه لغيرة بعضهنّ على بعض، فآلى رسول الله ﷺ منهنَّ شهراً[١]. فنزلت آية التخيير هذه.

وقيل في تحرير هذا السبب وتفصيله: لـمّا تبدَّلت حال المسلمين، وعادت فتوحاتهم عليهم بالغُنْم الكثير، حَسِبَتْ أزواج النبي ﷺ أنهُنَّ كسائر المسلمين، ومن حَقِهنَّ أنْ يَسْتَفدنَ من هذا الرخاء، فتَقَدَّمن جميعاً إلى النبيِّ ﷺ يَلتَمِسْنَ حَظَّهُنَّ من هذا الخير، فأغضب ذلك النبيَّ ﷺ وهَجَرَهُنَّ شهراً، فنزلت آية التخيير هذه، تُخيِّرهن بين رضائهنَّ معه بما تطمئنُّ به نفسُه ولا يتعارض مع مهمته وخلقه، وبين انصرافهنَّ عنه، فاختَرنَ البقاءَ معه والانصرافَ عن مباهج الحياة الدنيا. والسَّراحُ الجميل: الطلاق من غير خصومة ولا مُشاجَرة بين الزوجين.

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يُـخيِّر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكرٌ لك أمراً، فلا عليك أن لا تَعْجَلي حتى تستأمري أبوَيْك»، قالت: وقد علم أنَّ أبوي لا يأمراني بفراقه. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ ...﴾. فقلت: في هذا أستأمر أبوي؟! فإني أريدُ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة. ثم فعل أزواجُ رسول الله ﷺ مِثلَ ما فعلت»[٢].

ولما خَيَّرَهُنَّ النبيُّ ﷺ اختَرْنَ الله ورسوله، أدَّبهُنَّ سبحانه بهذا الوعيد الأدبي الرفيع، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٢٥١-٢٥٢).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥)، عن عائشة.

﴿ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ لا يَمنَعُه منه كونكنَّ نساءَ النبي. والمراد بالفاحشة: كلُّ ما يخالف تعاليم الله التي جاءت في تضاعيف هذا القرآن. يعرِّض بموقفهنَّ هذا من رسول الله ﷺ، ويُهدِّد عليه. وفي هذا إشارة إلى أنَّ أحكام الله تعالى لا مُحاباة فيها ولا إغفال.

وهذا النوع من التأديب إنما هو للإيذان بمكانتهنَّ العظيمة في المجتمع، وبأنه يجب أن يكُنَّ مَثَلاً أعلى للنساء، وقد قابل ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: تُدِم الطاعة لهما، ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرةً عن عملها الشخصي، ومرةً لصَيْرورتها قدوةً لغيرها من النساء، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ أي: هيَّأنا لها ذلك في الجنة، زيادةً على أجرها المضاعف. وقد قابل بهذا ما طلبنَه من التوسيع عليهنَّ في رزق الدنيا، وعوَّض به عنه. وتذكيرُ الفِعل باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، وتأنيثُه باعتبار معناها.

ثم أدَّبهُنَّ في كيفية مكالمتهنَّ للأجانب من الرجال، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في الفضل والشرف وعُلوِّ المنزلة والقدوة لغيركنَّ من النساء. ولفظ (أَحَدٍ) في النَّفي يستوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، أي: فإنكنَّ قدوةٌ لهنَّ يَقْتدينَ بكنّ، فتأدَّبنَ بما يأتي من عُلوِّ الأدب، وهو ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ غائلةَ المخاطب ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أثناء المكالمة معه، ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: مُتعارَفاً خالياً من الخشونة والجَفْوة، ومن الضعف واللين المُطمِع. فأوجبت الآية عليهنَّ في مكالمة غير المحارم أن تكون صورةُ المكالمة بلهجة الحشمة والوقار، ليس فيها لينٌ مُطْمِعٌ ولا شراسة مُؤْذية، ويُندَبُ أن يكون هذا خُلُقَ كلِّ مؤمنة[1].

---

(١) بل يجب هذا في حقِّ كلِّ مؤمنة، لأنه إذا وَجَبَ في حق أزواج النبي ﷺ ـ وهن أمهاتُ المؤمنين اللاتي لا يحلُّ نكاحهن بعد رسول الله ﷺ ـ فوجوبه في حق سائر المؤمنات من باب أَوْلى. وليس هذا مما ورد فيه ما يدلُّ على الخصوصية بأزواجه ﷺ، فلزم القول بالعموم فيه.

ثم بيَّن لهُنَّ ما يجبُ عليهنَّ من قلَّة المخالطة والابتعاد عن التبرُّج، فقال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال. وقال مقاتل: كانت المرأة في الجاهليَّة تلقي الخمار على رأسها، ولا تشدُّه لتواري قلائدها وقرطيها، فيبدو ذلك منها[١]. وقال قتادة: التبرُّج: التبختُر والتكبُّر في المشي[٢]. وقيل: التبرُّج: إظهار المحاسن مطلقاً. والمعنى: لا تخرجن على عادة النساء في الجاهلية، ولا تُظهِرْنَ زينتكُنَّ كما كُنَّ يُظهِرْن، ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

ثم بيَّن الغاية من هذا التأديب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ والمراد من الرِّجْس: ما يُدنِّس الشرف. واللقب بأهل البيت: لبيان موضع الشرف، إثارةً للنخوة والمحافظة على الوقار. والمراد به: النبيُّ ﷺ وأزواجه فقط[٣]، لأنَّ الآيات فيهنَّ، ويؤيِّده قوله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ وقد قيل: المراد بها: أحاديث النبي ﷺ.

هذا هو الظاهر من أهل البيت، لأن السياق نصٌّ فيهنَّ. وأما ما جاء عن عمر بن أم سلمة أنه قال: لما نزلت هذه الآية في بيت أمِّ سلمة، دَعَا فاطمةَ وحَسَناً وحُسَيناً فجلَّلهم بكساء، ثم قال: «اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي فأذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ وطهِّرهم تطهيراً»[٤].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٨٥٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٢٥٩).

(٣) يعني: المراد به في هذه الآية: هؤلاء فقط، أما المراد بوجه عامّ فهو: النبيُّ ﷺ وأزواجُه وذريته، لا سيما علي وفاطمة والحسن والحسين، رضي الله عنهم. وللفقهاء تفصيل في ذلك ليس هذا محل بَسْطه.

(٤) رواه الترمذي (٣٢٠٥) وقال: حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة.

أقول: فالظاهر أنه ألحقهم بأهل البيت، ودَعَا اللـهَ سبحانه أن يجعلهم منهم. وقوله لأم سلمة: «أنتِ على خير»[1]، يريد به: أنتِ من أهل البيت، والله أعلم.

ثم ختم الآية بما يبعث على التمسُّك بما سَبَق، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ واللطف: دقَّة العلم في الأشياء، فهي تشير إلى أنَّ هذه الأحكام مبنية على دقَّة علم الله.

فإن قيل: لم قال: ﴿عَنكُمُ﴾ و﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾، ولم يقل: (عنكنَّ) و(يطهركنَّ)؟

قلنا: فيه تغليب المذكَّر على المؤنَّث، وذلك من خصائص اللغة، لأنَّ صاحب البيت هو رسول الله ﷺ، وإذهاب الرِّجْس عن نسائه إذهابٌ له عنه. فأراد بأهل البيت: النبيَّ ﷺ وأزواجَه الطاهرات. فالتأديبُ للزوجات، والغايةُ لهنَّ ولصاحب بيتهنَّ.

ويؤيِّد اختصاصَ كلمة ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ بالنبيِّ ﷺ وأزواجه مخاطبةُ امرأة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

ثم أردف الكلام بما تُؤدِّي إليه الفضائل على وجه العموم من رضا الله تعالى والأجر العظيم، مبالغةً في الترغيب بما تقدَّم من الآداب، على أسلوب القرآن في تعقيب الأمر الخاصِّ بالأمر العام ليشمله وغيره، مُؤدِّباً عمومَ النساء لما مرَّ من اقتضاء السياق ذلك، تعقيباً للإرشاد ببيان الجزاء، على نهج القرآن. وإنَّما صرَّح بذكر النساء ولم يكتف بذكر الرجال حسب منهجه، اهتماماً بهذه الأوصاف، ولتكون علَّةً للحكم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ أي: المداومين على الطاعة، ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ أي:

---

(١) رواه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٧٦٨).

المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم، ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد أن أدَّب نساءَ النبي ﷺ بما أدَّبهنَّ به، وأشار إلى كرامة هذا البيت بكرامة رسول الله ﷺ، وطلب منهنَّ أن يكُنَّ مُظْهِراتٍ لِـمَا يُتلى في بيوتهنَّ من آيات الله والحكمة، ثم أدَّب عموم النساء بذِكرِ أوصافهنَّ العالية التي تُرضي الله سبحانه، وتوثِّق علاقات الزوجية طبعاً؛ لأنها تقوى بالأخلاق.

بعد ذلك كلِّه عاد إلى الموضوع الذي بدأ به السورة، وهو إبطال التَّبنِّي، فشَرع في قصة زينب، مُبيِّناً أنها إنما كانت لهذا الغرض؛ لأنَّ الفعلَ التشريعيَّ الذي تجد فيه الأمة غَضَاضةً حسب تقاليدها الموروثة، يجب أن يُباشِرَه المصلحُ الأعظم بنفسه، ويجرأ هو عليه قبلاً، ليقتدوا به ولا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً منه. وأراد سبحانه أن تكون هذه المرأة زينبَ بنتَ عمة رسول الله ﷺ؛ لذلك مهَّد له سبحانه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ

ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ إذ قد ذكر المفسِّرون أنها نزلت في زينب رضي الله عنها، وكانت بنتَ أُميمةَ بنتِ عبد المطلب عمَّةِ رسول الله ﷺ، فخطبها رسول الله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، فأبت وأنكرت ذلك، وقالت: أنا ابنة عمَّتك، وكذلك قال أخوها عبد الله. أي: فكيف تزوِّجني من مولى؟ فنزلت الآية فَرَضِيا وأطاعا[1].

ويدلُّ السياق على أنَّ هذه الخطبة كانت بأمر الله، وأنه قضاء مُقدَّر لإبطال التَّبنِّي، كما يدلُّ على ذلك ما انتهت به القصة من التعليل الآتي، وأن الرسول ﷺ كان يخشى غائلة المنافقين، ويُحاذر أن يفترصوا هذا الأمر للمُشاغَبات ضدَّه وضدَّ دعوته، وربما يَصِمُونَهُ بما هو منزَّه عنه، فكان يَتَراخى في هذا الأمر خشيةً منه[2]، حتى نزل بعتابه قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالتَّحرير وحُسْن التربية ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

قال الأستاذ الإمام[3] وأبو مسلم ـ واللفظ للأستاذ من تفسيره لبعض آيات: أرغم النبي ﷺ زينبَ بنت عمَّته من أشراف قريش أن تتزوَّج بزيد مولاه؛ لأنه ﷺ يجد

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٢٧١-٢٧٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) لم يثبت تراخيه ﷺ في هذا الأمر، فقد كان زيد يأتيه يشكو إليه زينب، ويخبره بعزمه على طلاقها، فيقول له ﷺ ـ وهو يعلم أنه سيطلقها آخر الأمر، وأنها ستكون زوجته ـ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، لا يقوله ﷺ تراخياً في أمر الله، بل قياماً بواجب النصيحة، وعملاً بظاهر الحال، أما قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فمعناه: تُخفي في نفسك الآن الأمرَ الذي سيُبديه الله في المستقبل من وقوع الطلاق وتزوُّجك بزينب. وهذا الإخفاء لا إشكال فيه، إذ لم يؤمر ﷺ بإظهاره، وأما قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ فإخبار عما كان يدور في نفس النبي ﷺ من الخشية على دعوته؛ لِمَا أن المنافقين سيستغلون هذا الأمر ويتخذونه مثاراً للشبهة، مع عزمه ﷺ على تنفيذ الأمر دون أيِّ تراخ. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ فهو خطاب للأمة في شخص النبي ﷺ كما سيأتي.

(٣) يعني: الشيخ محمد عبده.

في نفسه أنَّ هذا الزواج مقدِّمة لتقرير شَرْع وتنفيذ حكم إلهي. وبعد أن صارت زينب إلى زيد، لم يسكن إباؤها الأول، ولم يَسْلس قيادها، بل شَمَخت بأنفها، وذهبت تؤذي زوجها، وتفخر عليه بنَسَبها وكَرَم أصلها. إنْ كان الزواج قد حَدَث قبل نزول إبطال التبنِّي يكون قد اشتدَّ كرهها له بعد هذا الإبطال، إذ بعد أن كان يُدعى: زيد بن محمد، أصبح يُدعى: زيد بن حارثة، ويعتبر مولًى من موالي المسلمين الذين ليس لهم نَسَبٌ عالٍ يَتَباهَوْنَ به حسب النزعة العربية.

وعلى كلٍّ، فكانت أو أصبحت عشرتُه معها عشرة رجل مع امرأة كارهةٍ له مترفِّعة عنه. فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ المرَّة بعد المرَّة، واستأذن منه أن يطلِّقها ليتخلَّص من إبائها، فيقول له: أمسِكْ عليك زَوْجَك واتَّق الله، رغماً عما قام في نفسه بإلهام الله أن يتزوَّجها إذا طلَّقها؛ ليبطل بنفسه هذه العادة الجاهلية الراسخة، ويَصْرفه الحياء وخشية مشاغبات المنافقين إلى التَّريُّث في تنفيذ حكم الله[1]، فيُخْفي في نفسه ما هو مقرَّر لهدم تلك العادة المتأصِّلة في نفوس العرب[2]، وهي أنَّ الأدعياء بمنزلة الأبناء في التحريم.

وكان يخشى ﷺ من المنافقين أن يشاغبوا ويقولوا: تزوَّج بامرأة ابنه، وهو نفسه ينهى عن نكاح حلائل الأبناء، وتفعل هذه المشاغبة فعلها، ولو إلى حين. ولهذا يَتَراخى ويقول: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، حتى عاتبه الله على هذا الخوف، فقال: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ من أن يقولوا: تزوَّج امرأة ابنه، ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ وتُسرع في تنفيذ مطالبه[3].

---

(١) بل كان يقول ذلك ﷺ إجراءً للأحكام على ظواهر الأحوال، كما كان يفعل ﷺ بوصفه قاضياً أو مفتياً أو مُرشِداً ناصحاً، لا من باب الحياء والخشية! حاشاه.

(٢) بل كان يُخفي في نفسه ﷺ أمراً غيبياً أطلعه الله عليه، وهو أن الطلاق سيقع وأنه سيتزوج زينب بعد زيد مولاه، وهذا أمر غيبي أطلع عليه نبيه، ولم يأمره بتبليغه، فلا عِتابَ عليه فيه.

(٣) قوله: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ جاء على أسلوب خطاب الأمة في شخص النبي ﷺ ليكون الأمر=

فلما نزلت هذه الآية سمح ﷺ لزيد بطلاقها بعد أن مَضَّه العيش معها ولم يبق له وَطَرٌ بها. ثم تزوَّجها رسول الله ﷺ بتزويج الله إيَّاها له، ولم يكن مثل هذا التكريم في غير زينب من زوجاته صلوات الله عليهن، فكانت تفاخرهنَّ بقول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وقضاء الوطر: الفراغ من الشيء على التمام. والمراد به هنا: أنه لم يبق له فيها رغبة، وأعقَبَ ذلك إعراضُه عنها، ثم طلاقُه إياها وانقضاءُ عدَّتها. فمعنى الآية: أنَّ زيداً لم يبق في قلبه مَيْلٌ إليها ولا وحشةٌ من فراقها؛ لكثرة ما كان يسمع منها من كلمات التَّرفُّع عليه ومعاملتها له بمقتضى ذلك، فكان عيشُه معها عيشةَ الكاره.

وفي الآية دَفْعٌ وصَفْعٌ لما يَرِدُ على بعض الأوهام، أو ما يتقوَّله الـمُغْرضون من أنَّ ذلك كان بطريق الإكراه لزيد، ولعلَّ فحوى الآيات يدلُّ أيضاً على أنَّ هذا الأمر لم يصعب على النبيِّ ﷺ وحده، بل صعب على زينب أيضاً، من المشاغبة بأنها زوجة ابنه، فاحتوت الآيات على عبارات قوية في سبيل الحضِّ على الرضا بما أمر الله، وتنفيذ هذا الإلهام الرباني للنبي ﷺ في إبطال هذه العادة الجاهلية إبطالاً فعلياً، وهدمها هدماً قوياً.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ تصريحٌ في أنَّ الباعث على ذلك إنما هو إبطال التَّبنِّي.

= أشد تأثيراً في نفوسهم، وأورده هنا بمناسبة السياق، يعني: لما ذكر الله تعالى أن الخشية دخلت إلى قلب النبي ﷺ في هذا الأمر مع عدم تأثيرها على استجابته لأمر الله وتنفيذه لحكمه، ناسَبَ أن يُنبِّهنا إلى ما يدخل إلى نفوسنا أيضاً من مثل هذه الخشية التي قد تؤثر في استجابتنا لأمر الله وتنفيذنا لحكمه، فأدخل في سياق القصة هذا التحذير، وأجراه على خطاب النبي ﷺ ليكون أوقع في نفوس الأمة.

وقد حمل المؤلف رحمه الله عدة آيات في هذا التفسير على أسلوب خطاب الأمة في شخص النبي ﷺ، فيُستَغرَبُ منه كيف تركه هنا!

والمعنى: إنَّما فعلنا ذلك تَوسِعةً على المؤمنين كي لا يتأثَّموا أن يتزوَّجوا أزواج أدعيائهم الذين يَتَبنَّونَهُم إذا قضى الأدعياءُ منهُنَّ وَطَراً، ولم يبق لهم رغبة فيهنّ وفارَقُوهن. والغرض من هذا: أن لا يجري المتبنَّى في تحريم امرأته إذا طلَّقها على المتبنِّي، مجرى الابن من النَّسَب أو الرضاع في تحريم امرأته إذا طلَّقها على الأب.

ثم أردَفَ هذا ببيان أمر التوسعة على الأنبياء في بعض الأحكام المدنية، لِـمَا تقتضيه المصلحة والحكمة في بعض الحالات الاجتماعية أثناء سيره في خطته التبليغية، على نهج القرآن في تعقيب الحكم بما يشمله وغيرَه، فقال: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: فيما قَسَمَ له وخصَّه به من التوسعة في بعض الأحكام الاجتماعية، ومن ذلك: تعدّد الزوجات إلى غير حدٍّ معيَّن، لأسباب تقتضيها. وقد دفع بهذا ما يُشَاغبون به من قولهم: ما باله يُكثِرُ الزواج؟ وقد أبان سبحانه بأنَّ اختصاصه ﷺ من بين الأمة ببعض الأحكام، أو التوسعة فيها، لِـمَا تقتضيه المصالح والحِكَم إنما هو من سُنَّة الله في الأنبياء قبله، فقال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: كما هي سُنَّة الله في الأنبياء الماضين، فقد وسَّع عليهم في بعض الأحكام الاجتماعية مراعاةً لذلك، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: مُقدَّراً ومنطبقاً على ما تقتضيه المصالح والحِكَم، لا محاباة ولا مراعاة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثم بيَّن جرأة أولئك الذين خَلَوْا من قبل، في تنفيذ عسير الأحكام، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[1] في تبليغها وتنفيذها،

---

(١) وتعقيب الآيات بهذه الآية مما يدلُّ على ما ذكرته سابقاً من أنّ الخطابَ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ خطابٌ للأمة في شخص النبي ﷺ، فقد وصف الله عز وجل هنا حَمَلةَ رسالاته ـ وهم أنبياؤه ورسله، وفي مقدمتهم محمد ﷺ ـ بأنهم لا يخشون في سبيل تبليغ الدعوة أحداً إلا الله. وعليه فمعنى قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: تخشى مشاغبتهم على الدعوة مع عدم =

فبهداهُمُ اقْتَدِه، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ فلا تَـخْشَ سواه، ولا تلتفت إلى غيره من القائلين، ولا تَخَف مشاغبةَ المشاغبين. وفي وصف الأنبياء بهذا الوصف تعريضٌ به ﷺ، وتشجيعٌ له على المضيِّ في هذا الأمر، وأن لا يخشى مُشاغَبةَ المشركين.

ثم ألمع إلى تقرير الحكم السابق في إبطال التبنِّي بما هو كالتعليل له، فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾(١) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ فلا يضعُ أحكامَه إلا بحسب علمه وحكمته، ومن مقتضيات ذلك: أن

= التراخي في تبليغها، فهي خشية فطرية محمودة؛ لِما سيتبعها من التدبير والاستعداد لمواجهة هذه المشاغبة. وتبقى خشية الله وحده هي الخشية المستقرة في قلب النبي ﷺ.

(١) جاءت الشرائع السماوية من لدن آدم إلى نزول القرآن متَّحدةً في العقيدة وأصول الدين، متدرجةً رقياً في صور الأعمال والعبادة وفي التهذيب والثقافة نحو الرفعة والكمال، كما يتدرَّج الصبي في العلم والعمل، حتى إذا بلغ أشدَّه واستوى ألقي إليه العلم العالي ومقاليد الأعمال ذات الشأن والشمول، وطُلِبَ إليه القيامُ بها والسعيُ في إنجازها، وكذلك كان النوع الإنساني في الشرائع الإلهية، من مبدئه البدائي إلى أول تكامله وبلوغ رشده في العلوم والمعارف يحبو نحو الكمال وتحبو معه الشريعة كذلك، وتُنسَخُ شريعة بأخرى أعلى منها في التهذيب والثقافة، حتى وصل إلى أول كماله، أنزل الله عليه الشريعة الكاملة التي كان يَعِدُه بها في الشرائع السابقة، وهو هذا القرآن العظيم على نبيِّه الكريم محمد ﷺ، وختم بها الأنبياء والشرائع، وأصبحت هذه الشريعة الغرَّاء شريعة الناس أجمعين إلى يوم الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكان من واجبه أن يتعلم مع لغته: اللغة العربية؛ ليكون دينُ البشر واحداً، ولغته واحدة، وثقافته واحدة، ويعيش بهذه الوحدة سعيداً في دنياه وأخراه، ولكن شياطين الإنس والجن اجتالتهم إلى ما لا يحمد عقباه، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وقد جاء عنه ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا مَوْضعَ لَبِنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجَّبون ويقولون: لولا موضع اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين». (المؤلف). والحديث متفق عليه، رواه البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧)، عن جابر.

يتزوَّج نبيُّه ﷺ بالزوجة التي قضى منها وَطَراً دعيُّه، ويُبطِلَ أحكام التَّبنِّي الجاهلي، تكميلاً لشريعته هذه.

أما وَجْهُ جَعْلِه ﷺ خاتمَ النبيين، فلأنَّ الله سبحانه أرسل الشرائع السماوية متدرِّجة بحسب رُقيِّ النوع البشري في العلوم والثقافة، على طريقة النسخ والتبديل، فكان كلَّما ترقَّى عقلُه المكتسب في العلم والمعرفة بتَمادي الزمن، يُبدل الله له تفهيم معاني الإنسانيَّة بصورة أدقّ وأرقى، وكانت كل شريعة من هذه الشرائع تَعِدُ بأن الله سبحانه سيُرسل في آخر هذه الشرائع للبشر شريعة كاملة عالية المفاهيم، شاملة لكلِّ الضروريات والكماليَّات، تكون خاتمةً لهذه الشرائع، وتبقى مستقرَّةً إلى نهاية الدنيا، وآخر ما بشّر بها الإنجيل، ومعناه في السريانية: البشارة، سُمِّي به لهذه الغاية. فقد جاء يُبشِّر بقُرب مَجيء هذه الشريعة، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

ثم جاءت هذه الشريعة العظيمة الغرَّاء على لسان محمد ﷺ، فكانت خاتمة الشرائع السماوية، وكان ﷺ خاتماً للنبيين.

والحاصل: أنَّ الشرائع تدرَّجت في الرُّقيِّ بتدرُّج النوع الإنساني في العلم والمعرفة، فابتدأت بآدم وهي صغيرة، وانتهت بمحمد ﷺ وهي على أكمل صورة.

وقيل في وجه ذلك أيضاً: إنَّ النبيِّين صلوات الله وسلامه عليهم كانوا مِثلَ المصابيح يُضيء كلٌّ منهم حُجرةً لا يضيء سواها، فلما جاء ﷺ بهذه الشريعة الكاملة، لم يبق هناك حاجة إلى هذه المصابيح؛ لأنَّ شريعته ﷺ مِثلُ الشمس تُضيء الأرضَ كلَّها.

وقد جعلها عالميةً وبعث بها ليجمع هذه الأمم، ويجعلها أمة واحدة متكافئة

متساندة مرتبطة برابطة الإخاء واللغة الواحدة، ولو تمسَّك البشر كلُّهم بها لَمَا كان اليومَ بينهم مِثلُ هذا التطاحن والشقاء، لدخولهم في السِّلم كافَّة بشريعة ولغة عالميتين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وغير ذلك من الآيات، ولا تُفهَمُ هذه الشريعة ولا تتمُّ إلا باللغة العربية، وحكمُ الوسائل حكمُ المقاصد، فكانت اللغة العربية عالمية أيضاً، تصحب سائر لغات العالم.

وقد حفظ الله شريعتَه هذه من كلِّ تحريف جَرَى على ما سبقها من الشرائع، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

هذه هي صفة الشريعة التي جاء بها ﷺ، فإرسال شريعة أخرى على غرار هذه الشريعة نفسها ـ وهي كافلة بحاجات البشر ـ محضُ تكرار وعَبَث، يتنزَّه الله تعالى عنه. لذلك كان ﷺ خاتم النبيين، جاء بآخر هدايةٍ للناس، لا تَخْلَقُ جِدَّتُها، ولا يَضْؤُلُ نورها، مهما طال الزمن وتَبَدَّلت الأحوال وتغيَّرت الأطوار؛ لأنها تُساير الطبيعة البشريَّة، وتكفل لها حاجاتها الروحية والبدنية على الوجه الصحيح. وقد صِيغَتْ نصوصُها بحيث لا يؤثِّر عليها مرور الزمن، وفيها من المرونة ما يمكن تطبيقه على كلِّ حالة تحدث، ولذلك كانت غيرَ قابلة للتغيير والتبديل.

وقد جاءت كاملةً من كلِّ الوجوه، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فهي صحيحة الاعتقاد، شاملةٌ لأمور الدُّوَل والأفراد والجماعات، تنظم الأحوال الشخصيَّة والمعاملات،

وشؤون الحكم والإرادة والسياسة وغير ذلك، وقد صِيغَت بدرجة من السُّمُوِّ لا يُتَصوَّر فوقه سُمُوّ، أرادت للإنسان أن يبقى على إنسانيَّته، ولا ينحط إلى دَرَكة الحيوانيَّة، وأن يحافظ على الفضائل، ولا يَتسفَّل إلى الرذائل والأوحال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾.

ثم عقّب البحث بالموعظة في مراقبة الله، على نهج القرآن في تعقيب آيات الأحكام بالمواعظ الحاملة على التَّمسُّك بها والاهتمام لها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٤٢﴾ وقد ذكر طرفي النهار مُنكَّرَيْن ليدُلَّا على عموم الأوقات، فيكون المعنى: سَبِّحوه على الدوام. وذكرُ الله سبحانه إنما يكون بالخوف من عقابه، والطمع في ثوابه، والعمل بمقتضى ذلك. والصلاةُ أعظمُ مهذِّب للنفوس، حاملةٌ على التمسُّك بالأحكام.

ثم ألمع إلى أنَّ تعاليمه كلَّها لهذا الغَرَض، وإلى الحثِّ على التمسُّك بها، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: هو الذي يرحمكم ويرأفُ بكم فيُرسل إليكم تعاليمَه وشرعَه وهديَه بواسطة الوحي من ملائكته ليُخرجكم بذلك من الظلمات إلى النور، ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ يُرسل إليهم بواسطة ملائكته من التعاليم ما يُزكِّيهم ويَقيهم من الرَّدَى والعذاب الأليم. قالوا: وإنما

ذكر الرحمة هنا بلفظ «الصلاة» ليلائم قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾؛ لأنَّ التسبيح والصَّلاة من فصيلةٍ واحدة.

وبعد أن ذكر رحمتَه للمؤمنين ورأفتَه بهم في الدنيا، ألمع إلى رحمته لهم في الآخرة، فقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ وسلامُ الله سبحانه: كنايةٌ عن سلامهم من أهوال الحساب وشقاء العذاب، أو المعنى: أنَّ تحيتهم فيما بينهم في الآخرة أن يُسلِّم بعضُهم على بعض، كنايةً عن التهنئة بالنجاة من الأهوال والوصول إلى النعيم المقيم، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ مما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم أتمَّ الموعظة بما يزيد في الحَمْل على التمسُّك بأحكام الله وشريعته الغرَّاء هذه، وعلى عدم الالتفات إلى تقوُّلات المشركين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَنْ بُعِثَت إليهم، ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ لهم، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ وتيسيره، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ يهدي إلى مناهج الحق وسُبُل الرشاد. فاستَقِمْ في دعوتك، ولا تهتمَّ بالمتقوِّلين.

أما قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فمعطوفٌ على مُقدَّر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام، على نهج القرآن في مثله. والتقدير: فادْعُ إلى هذا النور المبين، وبشِّر المؤمنين ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾، ويجوز أن يكون الواو للاستئناف، وكذلك ما بعدها.

ثم أتى بما فيه مبالغةٌ في تشجيعه ضدَّ أولئك المشاغبين، مُكرِّراً ما افتتح به السورة، فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: لا يحملك ملاحظةُ شأنهم وخوفُ انتقادهم على التريُّث في تنفيذ الأوامر والأحكام، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ ولا تُبالِ به، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه تعالى يكفيكم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ يقوم بالأمر والتدبير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

وبمناسبة تعلُّق السياق بالطلاق والنكاح، ذكرَ شيئاً من أحكامهما تكميلاً للبحث، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي: تَسْتَوفون عَـدَدَها من الزوجات، ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهُنَّ من المال ما يَـتَمتَّعنَ به إلى حين، ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ وهو الطـلاق من غيـر خصومة ولا مُشـاجَرة بين الزوجين.

ولا يخلو تعقيبُ السياق بهذا الحكم من لطف الإشارة وحُسْن المناسبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

ثم شرع في بيان ما خصَّ الله نبيَّه ﷺ من التوسعة عليه إلى غير حدٍّ معيَّن في تعدُّد الزوجات حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة من المصاهرات، أو ضَمِّ من أحوَجَتْهنَّ

الهجرة أو الحروب إلى عصمته من السيِّدات الشريفات، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من أسرى الحرب، فإنَّ ذلك مما تقتضيه المصلحة، ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ وإنما أفرد العمَّ والخالَ وجَمَعَ العمَّات والخالات جَرْياً على العُرف اللغوي عند العرب، فإنها تقول: هم أبناء خالٍ وخالات، تريد: أنَّ كلَّ واحد منهم ابنُ خالٍ أو خالةٍ للآخر. وهكذا تقول: هم أبناء عَمٍّ وعمات؛ لأنَّ من خصائص اللغة أن يذكر المفرد صُحْبةَ الجمع، فيُرادُ به الجمع أيضاً، مثل: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، ومثل: ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِ﴾، ومثل: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨] إلى أمثال ذلك. قال القاضي أبو بكر بن العربي: إنَّ العرب تجري في مثل هذا على إفراد العمِّ والخال، وجَمْع العمَّة والخالة[1].

وقد قيَّد حِلَّهنَّ بقوله: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، لأنها إذا هاجرت ولم يكُن لها مَنْ يُعيلها، فمن المصلحة أن ينكحها، وتبقى في كنفه ﷺ. فهذا القيد للإيذان بأنَّ زواجه ﷺ إنما هو للمصالح الداعية، لا مَيْلاً مع الهوى، وحاشاه من ذلك. ويُؤيِّده أنَّ مفادَه لم يقع، وإنما هو مُجَرَّدُ بيانٍ، وسَنُّ نظامٍ، وإشارة إلى أنَّ زواجه ﷺ لم يكن إلا للمصالح ووجوه الحِكَم.

ثم ذكر صنفاً آخر له وجهٌ آخر من هذا القبيل، فقال: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ عندما يرى ذلك من المصلحة، وقد جعلها الله ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا كذلك مجرَّد نظام لم يقع أيضاً على الأصح.

---

(١) قال ابن العربي في «أحكام القرآن» (٣: ٥٩٣): إن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز، وليس كذلك في العمة والخالة.

والله أعلم. وإنما أراد ببيانه سبحانه الإيماءَ إلى أنَّ زواجه ﷺ لم يكن إلا لمصالح اجتماعيَّة، في حياته التبليغيَّة، لا مَيْلاً مع الداعية الطبيعية. ومن ذلك: ارتباطه بالقبائل والشخصيات، إذ الدعوة تحتاج لمثل ذلك. ولما كان فيه شَرَفٌ عظيم للزوجة، كُنَّ يَرغَبْنَ فيه رغبةً شديدة، فأباح سبحانه له ﷺ في هذه الآية الاستجابةَ لمن شاء منهنَّ إذا اقترنت بها مصلحة من المصالح الاجتماعية.

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ تعليقٌ على ما قبله وتمهيد لِـمَا بعده، على نهج القرآن في مثل ذلك. والمعنى: إنا لم نُهمِلْ ولم نَنسَخْ ما قرَّرناه على الناس من نظام معاملة الأزواج وما مَلَكت أيمانهم، ومن نظام الحِلِّ والحرمة في ذلك. ولكن نريد أن نُفْرِدَك بنظام خاص توسعةً عليك، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ يُعارض المصلحة العامَّة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ فيُوَسِّع النظام أحياناً إذا اقتَضَت الحكمةُ التوسيعَ فيه عليه، رحمةً منه تعالى مقرونةً بالعفو والغفران.

ومن ذلك: نظام الإيواء في زوجاته، فسيُفرِدُه بنظام غير النظام الذي فَرَضَه على أمته. والوجه فيه: أنه ﷺ لم يتزوَّج هذا العدد من الزوجات عن مَيْل بشريّ ورغبة طبيعية، كما تُؤْذن به الإشاراتُ المتقدِّمة، وكما يُؤْذِنُ به نظامُ الإيواء الآتي نفسه. ويُؤيِّدُه اكتفاؤُه بواحدة في شبابه، وهي وحدها أمُّ أولاده، وإنما كان زواجُه ﷺ بهنَّ لحكم ومصالحَ اجتماعية أو إدارية أو سياسية تتعلَّق بنشر الدعوة أو بالمجتمع الحاضر أو بالعائلة التي يتزوَّج منها، أو بشخص الزوجة التي يضمُّها إلى عصمته وكفالته، من الأمور التي يحتاج بيانها إلى شرح طويل وتحليل دقيق.

لذلك سنَّ سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ قانوناً خاصاً في أمر إيواء الزوجات مُوسَّعاً

عن قانون الناس، كي لا يضيق عليه في تنظيم الإيواء الذي لم يكن هو الأصل من هذا الزوج، كما عند الناس، فقال: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: تُؤخِّر مَنْ تشاء وتترك مبيتَها، وتَضُمُّ إليك مَنْ تشاء منهُنَّ، فلا حَرَج عليك في ذلك، وكذلك يمكنك أن تَضُمَّ إليك مَنْ كنت تركتَها إذا ابتغيتَ ذلك. فإذا كانت هذه الرخصة بحكمٍ من الله لا تبتئس الـمُرْجَأةُ منهُنَّ رضاءً بحكم الله ونزولاً عند إرادة الله، لأنَّ النفوس تستسلم وترتاح في تطبيق الأنظمة عليها ـ ولا سيما الإلهية منها ـ وإن كانت شديدة ما لا ترتاح لمثله إذا كان بطريقة الاستبداد، وإن كان ضرورياً لازماً. وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي: أقرَبُ لأن يَرْتَحْنَ به، ﴿وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ولو فُرِضَ أنه فعل ذلك من نفسه ﷺ، ابتأست الـمُرْجَأةُ منهنَّ، إذ تَعُدُّ ذلك إهانةً لها.

فلما بيَّن لـهُنَّ سبحانه وتعالى هذا الحكمَ تَوَطَّنت نفوسُهنَّ للإرجاء؛ إذ تَوَضَّحْنَ به أنَّ زواج رسول الله ﷺ بهنَّ لم يكن لمجرَّد المَيْل إليهن، وإنَّما هو لِحِكَم أخرى.

وقد نظَّمَ سبحانه وتعالى الميلَ الطبيعيَّ من رسول الله ﷺ إليهن بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فإنَّ فيه ما يدعو إلى محاسبة النفس بصورة دقيقة، ومَنْ أمْلَكُ لإربه من رسول الله ﷺ؟ لذلك كان يَقسِمُ بين زوجاته قسمةً عادلة مع وجود هذه الرخصة له بهذا النظام.

ثم ختم البحث بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ للإشارة إلى أنَّ هذه الأحكام موضوعةٌ بحسب العِلْم والحِلْم، وإلى أنه سبحانه لا يُعجِّل بالعقوبة، فهو حقيقٌ بأن يُتَّقى، ولا يغترّ المجرم بالتأجيل والإمهال.

ولما استَتَبَّ الأمر لرسول الله ﷺ، ولم يبقَ له من المصالح الاجتماعية والسياسية

ما يتعلَّق بالمصاهرات، منعَه الله منها بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ بأن تطلِّق واحدةً وتنكح مكانها أخرى. وقوله: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ ذُكِرَ للمبالغة في المنع، لا لبيان الواقع. ثم استثنى من ذلك بطريقة الاستثناء المنقطع قولَه: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ فترك له حكم التسرِّي فقط؛ لأنَّ الفتوحات متواصلة، وإنْ عَلِمَ الله أنه لا يحدثُ من المصالح ما يستدعي ضمَّ بعض السرايا إليه، فالنظام يجب أن يبقى نافذاً ما دام الـمُقتضي موجوداً، ولم يُؤْثر عنه أنه تَسرَّى شيئاً بعد نزول الآية.

ثم كرَّر الكلام فيما يحمل على محاسبة النفس لدى تطبيق هذه الأحكام، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾، كرَّره اهتماماً بما اشتمل عليه هذا السياق من البيان.

وقد تزوَّج رسولُ الله ﷺ إحدى عشرةَ زوجةً؛ أوَّلُـهُنَّ خديجة رضي الله عنها ـ ولم يتزوَّج عليها حتى ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، وأولاده كلُّهم منها، إلا إبراهيم فإنه من جاريته مارية القبطية ـ، ثم سَوْدة بنت زمعة، ثم عائشة بنت أبي بكر، ثم حفصة بنت عمر، ثم زينب بنت خُزيمة ـ وتوفِّيت بعد ضمِّها إليه بشهرَيْن ـ، ثم أم سلمة هند بنت أبي أمية، ثم زينب بنت جحش ـ التي زوَّجه الله بها والتي جاءت قصَّتها في هذه السورة ـ، ثم جُويرية بنت الحارث، ثم أم حبيبة رَمْلة بنت أبي سفيان، ثم صفيَّة بنت حُيي سيِّد بني النَّضير، ثم ميمونة بنت الحارث.

وقد قُبِضَ ﷺ عن تسع منهنَّ، لأنَّ خديجة وزينب بنت خزيمة تُوفِّيتا قبله كما ذكرنا.

وأولهنَّ لُحُوقاً به: زينب بنت جحش، ماتَتْ سنة عشرين للهجرة، أي: بعدما يزيد عن تسع سنين من وفاته ﷺ، وآخرهنَّ موتاً: أم سلمة بنت أبي أمية، توفيت سنة اثنتين وستين للهجرة، أي: بعدما يزيد على اثنتين وخمسين من وفاته ﷺ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ﴾.

وبعد أن أكمل سبحانه نظام الزواج والإيواء في شأنه ﷺ، ذكر نظاماً آخر لدخول بيوت زوجاته، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ أي: غيرَ منتظرين نُضْجَه وتمامَ طبخه، أو حينَه ووقتَه، فلا تدخلوا أو تنظروا على عادتكم، ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ ولا تلبثوا، لا لأمر ما ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ ﴾ أي: من إخراجكم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾.

فنهاهم سبحانه وتعالى عن دخول دار النبيِّ ﷺ بغير إذن، وإذا دعاهم إلى الطعام فعليهم أن يأتوا وقت الأكل، بعد نضوج الطعام، ولا يأتوا من قبلُ ينتظرون إدراك

الطعام، فيطول مقامهم في منزله، فإنَّ ذلك كان يُؤْذي رسول الله ﷺ، ويستحيي أن يأمرهم بالخروج، والله لا يستحي من الحق.

وفي هذه الفقرة تأديبٌ عالٍ، وهو أن لا يُسْتَحَى من الحق أن يُقال. ويدلُّ فحوى الآية على أنَّ المسلمين كانوا يدخلون إلى بيوت النبيِّ ﷺ بإذن وبلا إذن، كما كان شأنُهم فيما بينهم، جَرْياً على مألوفهم، وأنَّ ذلك كان يُؤْذي النَّبيَّ ﷺ ويتمنَّى تغييرَ هذه العادة، وينتظر تشريع الله فيها؛ لأنَّ النبيَّ يشعر شعوراً إجمالياً بما سيأتي من تشريع.

ثم تـمَّم هذا الحكمَ بأمر حجاب زوجات النبيِّ ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: أكثرُ تطهيراً وإبعاداً عن الخواطر والهواجس.

ثم بيَّن فظاعةَ إيذاء النبي ﷺ، وضمَّ إليه نكاحَ زوجاته من بعده، مُعبِّراً بنفي الشأن، للمبالغة في تقرير هذين الحكمين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ وهذا تصريحٌ بالتحريم بأبلغ طرق المنع وأشدِّه. وقرن الإيذاء بالمنع من نكاح أزواجه، إيذاناً بأنهما في الحكم والوصف سيَّان، وجَعَلَه من عطف الـمُسبَّب على السبب.

ثم ختم السياق بما يحمل على الإخلاص في تطبيق ما جاء فيه وفي غيره، فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ فيُجازيكم بما صَدَرَ عنكم مما هو بادٍ أو خافٍ.

وبعد أن أمر سبحانه وتعالى بالحجاب لزوجات النَّبيِّ ﷺ، بيَّن مَنْ يحلُّ لهنَّ أن يُقابِلْنَهم من دون حجاب، استـثناءً من الحكم السابق، فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾، وإنما لم يذكر العمَّ والخالَ لأنَّ كلمة (الآباء) تشملهما عُرفاً، إذ هما بمنزلتهم.

وقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ المراد به: جميع النساء، وليس الضمير للتخصيص، وإنما أتى به للانتساق، إذ قد انتَسَقَ هذا الضمير في الأصناف السابقة كلِّها، فأتى به في هذا الصنف أيضاً، على أسلوب اللغة في مراعاة النسق، لا للقيد، فكأنه قال: ولا جنسهنَّ، والمراد: جميع النساء، فلا جُناح في مقابلتهنَّ لـهُنَّ كيفما كُنَّ. على أنه يجوز أن يكون الضمير للتقييد، ويكون حينئذ المرادُ من نسائهنَّ: الحرائر، أو: نساء الأقارب؛ لأن الاتصال غالباً أو عادةً يكون بهن، أو للإلماع بأن من اللائق أن تقتصر الزيارات عليهن، ولا تتوسَّع. وقد مرَّ تحقيقُ ذلك في سورة النور[1]، وتحقيقُ قوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فقد قيل: المراد به: العبيد والإماء. وقيل: بل الإماء خاصَّة، فيكون قد ذكر الإماءَ بعد أن ذكر الحرائرَ بقوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾.

ثم ختم البيان بما يحمل على التَّمسُّك به بإخلاص، فقال: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أي: في كلِّ ما تأتينَ وتَـذَرْنَ، لا سيما فيما أُمِرْتُنَّ به ونُهيتُنَّ عنه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ لا تخفى عليه من أمركم خافية. وفي هذه الفاصلة حثٌّ على الامتثال، فإنَّ مَنْ يشعر بأنَّ الله تعالى مُشْرِفٌ على أعماله يخافه ويتقيه.

ثم قَرَنَ هذه الأحكامَ الأخيرةَ التي خصَّ بها نبيَّه ﷺ، بما له من الحرمة والتقدير والحشمة والتوقير، لِـمَا قام به من الأعمال، قرنها بالآية الآتية التي جعلها في موضع التعليل لها والإجلال لهذا الرسول الكريم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ فقد أخرج البخاري عن أبي العالية[2]:

---

(١) في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

(٢) رفيع بن مهران الرِّياحيُّ البصري (ت ٩٣هـ) إمام مقرئ حافظ مفسِّر أحد الأعلام، أدرك =

أنَّ صلاة الله على نبيِّه هي بمثابة ثنائه عليه[١].

أقول: فالآيةُ ثناءٌ من الله تعالى على نبيِّه ﷺ، يُثْني عليه بهذه العبارة لِـمَا قام به من الأعمال الجليلة، وأمر المؤمنين أن يُثنُوا عليه كذلك، وقد علَّمهم سبحانه بهذه الآية عبارةً خاصَّة للثناء عليه، وهي الصلاة عليه ﷺ المفسَّرة منه عندما سُئل: «كيف نُصلِّي عليك؟» بقوله: «قولوا: اللهمَّ صَلِّ على محمد وآله»[٢]. وقال ﷺ: «أتاني آتٍ من عند ربِّي عزَّ وجلَّ، فقال: مَنْ صلَّى عليك من أمتك صلاةً كتبَ الله له بها عشرَ حسنات، ومحا عنه عشرَ سيئات، ورفعَ له عشرَ درجات، وردَّ عليه مِثلَها»[٣].

وقد جعل سبحانه وتعالى من جملة تقدير المؤمنين له، احترامَهم له باحترام زوجاته، وذلك بحُرمة التَّزوُّج بهنَّ والنظر إليهنَّ، لأنَّ ذلك يُؤْذيه. وهذا هو وَجْهُ الربط بين الآية والسياق، فقد أقامها مقامَ العِلَّة لهذا الحكم، أي: احترِموه في نسائه ووقِّروه ولا تُؤْذوه؛ لأنَّ الله سبحانه يثني عليه، وملائكتُه تُوقِّره، فأثنُوا عليه ووقِّروه.

وقد توعَّد الذين يُؤْذونه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ وقد جعل سبحانه وتعالى إيذاءَ الرسول كإيذائه، مبالغةً في تفظيع ذلك، وزيادةً في الحَمْل على تجنُّبه. وتعمُّ الآيةُ الإيذاءَ بما تقدَّم، والإيذاءَ بمعارضة الدعوة، وسائرَ أنواع الإيذاء.

ثم ختم الكلام بهذا الحكم العام الذي يشمل ما قبله وغيرَه، وهو حكم إيذاء جميع

= زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه «سير أعلام النبلاء» (٤: ٢٠٧-٢١٣).

(١) ذكره البخاري معلقاً مجزوماً به، قبل الحديث (٤٧٩٧).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧)، عن أبي حميد الساعدي.

(٣) رواه أحمد (١٦٣٥٣)، والطبراني (٤٧٢٠)، عن أبي طلحة الأنصاري.

المؤمنين، وجعله أيضاً تمهيداً لِـمَا بعده، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي: بغير جنايةٍ يستحقون عليها الأذية شرعاً، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

وبعد هذا البيان والتمهيد، ذكر هذا الحكم في الحجاب العام الذي يدفع تسرُّب الأذى، ويحول دونَه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ والجلباب: ثوبٌ أوسَعُ من الخمار، ودون الرداء، تلويه المرأة على رأسِها، وتُبقي منه ما تُرسِلُه على صدرها إذا خَرَجت من بيتها.

وعن السُّدي: تغطِّي إحدى عينيها وجَبهَتَها والشقّ الآخر إلا العين[1].

وقيل: الجلباب: الملحفة وكلُّ ما يُتستَّر به، يغطِّين به وجوهَهن وأبدانَـهن إذا بَـرَزْنَ لداعيةٍ من الدواعي.

والذي يظهر من التعليل الآتي: أنَّ الإدناء يجب أن يكون بحيث يُخفي معظم محاسن الوجه وملامحه؛ لأنَّ ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي: ذلك أقلُّ ظهوراً لملامحهنَّ، وهي محاسن الوجه، وإذا خفيت محاسنُهن ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بالنظرات. والمعنى: أنَّ السلامة من الأذى تكون في إدناء الجلباب بصورةٍ تؤدي إلى أَضْألِ المعرفةِ بمحاسن الوجه، وأقلِّ التمييز فيها، فيَسلَمْنَ من الأذى حينئذ.

وهذا هو الحجاب الذي كان عليه المسلمون، قبل أن يسعى المفسدون في هتكه وتمزيقه؛ لأنَّ سَتْرَ الوجه يُخفي المحاسن، وتَسلَمُ صاحبتُه من الأذى، وتكون في حشمة ووقار، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما دون ذلك من إخفاء المحاسن، ﴿رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ بعبادِهِ في كلِّ الأمور. ومن رحمته: أن يُراعيَ من مصالحهم ما قلَّ أو كَثُر، وما عَظُمَ وما صَغُر.

---

(١) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٣: ٥٧٠).

هذا هو الحجاب الذي حَسَّن السفهاءُ اليوم تمزيقَه ورَفْعَه، وتجريدَ المرأة من وقارها وحشمتها، وجَعْلَها من الكاسيات العاريات، أهلِ النار والشَّنار[1]، مُدَّعين أنَّ الحجاب هو مَنَاعةُ النفوس لا مناعةُ القناع، كأنَّ الشريعة لم تأمر بها مع الحجاب.

قال أحد علماء العصر: يقولون: إنَّ الحجاب هو مناعةُ النفوس لا مناعةُ العقل. وأقول: إنَّ النفس بطبعها ميَّالة إلى الشرِّ إذا أُرخِيَ لها العنان، وإن تقويمها لا يكون إلا بإبعادها عن طريق الغَواية والمفاسد، حتى تنشأ في جوٍّ بعيد عن الاختلاط الذي يجعلها مُعرَّضةً في كلِّ لحظة أن تحيدَ عن طريقها السويّ، وقد دلَّت التجارب على أنه لا يمكن البُرْءُ من الإدمان إلا بالحرمان، كما أنه لا يمكن صيانة الأخلاق إلا بمنع الاختلاط.

أقول: وإنَّ حكمَ الوسائل حكمُ المقاصد، فإذا كان النظرُ إلى المرأة حراماً، فكلُّ وسيلة تؤدِّي إليها وتُسهِّله فهي حرام.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

---

(١) الشنار: العار والعيب. «لسان العرب» (شنر).

ولما كان من جملة أعمال المنافقين الـمُؤذية للرسول والمؤمنين، إيذاءُ نساء المؤمنين بالنظرات والتَّقوُّلات، وكذلك بالمشاغَبات في قضيَّة زينب، أردَفَ الكلامَ عن الحجاب العام والحكم السابق فيمن يُؤْذي الله ورسوله والمؤمنين والمؤمنات بهذا التهديد العام، فقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ باختلاق الأكاذيب والتَّهكُّم والتقوُّلات ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنُحَرِّضَنَّك عليهم، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ حتى نأمرَك بإخراجهم حالَ كونهم ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي: وُجدوا وعُثِر عليهم، ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾، والأحكام الثلاثة في سياق: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، ويشمل هذا التهديدُ يهودَ المدينة من بني قريظة الذين أمر الله بقَتْل الـمُقاتِلة منهم وسَبْي الذراري؛ لخيانتهم العظمى في غزوة الأحزاب[1].

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ أي: إنَّ المشاغباتِ ضدَّ الأنبياء وضدَّ الحق أمرٌ لا تخلو منه دعوة إلى الحق، وقد سَنَّ الله سبحانه في جميع شرائعه قَمْعَ أولئك المعارضين وبَتْرَهُم أو إقصاءَهم. قال الزجّاج في معنى الآية: أي: سنَّ الله في الذين ينافقون الأنبياء ويُرْجفون بهم أن يُقتَّلوا حيثما ثُقِفُوا[2].

ولما ذكر حالتَهم في الدنيا بيَّن حالتَهم في الآخرة، وابتدأها بتحقيق القيامة التي ينكرونها، ثم ذكر ما يكون لهم فيما بعدها من الشقاء، على نهج القرآن في تعقيب الوعيد بدليل القدرة أو إثبات الحشر أو ما شابه ذلك من الشقاء، وفي تعقيب الأحكام بما يحمل على التمسُّك بها من شؤون اليوم الآخر، فقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: عن

---

(١) روى قصة بني قريظه هذه البخاريُّ (٣٠٤٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٢٣٧).

وقت قيامها. وذلك أنَّ المشركين كانوا يسألونه عنها استعجالاً بها على طريق الاستهزاء، ويسأله اليهود امتحاناً؛ لأنَّ الله سبحانه قد عمَّى وقتَها في التوراة، وفي سائر الكتب السماوية، فأمره تعالى أن يُعْلِمَهم أنَّ وقت قيام الساعة لا يعلمُه إلا الله، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يُطْلِعُ عليها مَلَكاً مقرَّباً، ولا نبياً مُرسَلاً.

ثم خصَّه ﷺ بالخطاب عنها بهذه العبارة الدالَّة على تحقيقها والتعريض بالمنكرين، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ فبيَّن له أنها ـ مع كونها غيرَ معلومة للخلق ـ مَرْجوَّةُ المجيءِ عن قريب، وإنما وَصَفها بالقُرْب لأنَّ ما مضى من عُمُرِ الكون أضعافُ أضعافِ ما بقي منه، وإن كان مديداً أيضاً. والله أعلم.

ثم ذكر ما يكون من أمرهم فيما بعدها وعيداً لهم بمصيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: ناراً شديدة الاتِّقاد، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولَّاهم ويحفظُهم منها، ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ يُخلِّصُهم من شرِّها.

ثم فصَّل ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ فلا نُبتلى بهذا العذاب. وهذا كلامٌ ملؤه النَّدَمُ والحَسْرة، أعاذنا الله.

ثم يطلبون التَّشفِّي ممَّن أضلَّهم ووَرَّطهم بهذه الورطة، كما حكى عنهم ذلك بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا، ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: شديداً عظيماً.

وفي مقابلة ما تقدَّم من إيذاء المنافقين للنبيِّ ﷺ، التَفَتَ لتأديب المؤمنين ـ بما فيهم ضِعافُ الإيمان ـ بالأدب الآتي، مُعقِّباً على ما جاء في السياق، ولا سيما قصَّة زينب التي فيها مجال للدسِّ والمشاغبات والتقوُّل، على نهج القرآن في المقارنة والتعقيب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ ويجوز

أن يكون الخطاب عاماً للمؤمنين؛ بما فيهم المنافقون الطاعنون عليه ﷺ بما سَبَق من تعدُّدِ الزوجات وأمرِ زينب وغيره، فيكون الكلام تعقيباً على ما تقدَّم، وحكماً عاماً في نفسه، على نهج القرآن في مثله. ومن ذلك ما قال ابن مسعود رضي الله عنه: لـمّا قسم النبيُّ ﷺ حنين، قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وَجْـهَ الله، فأتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرتُه، فتغيَّر وجهُه. ثم قال: «رحمةُ الله على موسى، لقد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبر»[1].

وقد قالوا في حديث إيذاء موسى أقوالاً: منها: أن قارون دبَّر مع امرأة أنْ تقول في مَجْمع من بني إسرائيل: إنَّ موسى زنى بها. فلما جمع قارونُ القومَ لذلك ارتعبت المرأة من تُهمة موسى، وقالت: إنَّ قارون ائتَمَر معها على هذه التهمة، ففشل قارون، وردَّ الله كيدَه في نحره، وعادَ وبالُه عليه[2].

وقال الرازي: إنَّ إيذاء بني إسرائيل لموسى كثير، وقد ذكر منه القرآنُ قولَهم له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقولهم: ﴿أُوذِينَا

---

(١) رواه البخاري (٦١٠٠)، عن ابن مسعود.

(٢) روى البخاري في «صحيحه» (٣٤٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حيياً ستِّيراً لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يَسْتَتِر هذا التَّستُّر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أُدْرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسَنَ ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه، فلبسه، وطفِق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لَنَدَباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾».

مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، إلى أمثال ذلك(١).

ومعنى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾: أخرَجه عن عُهدة ما طلبوا بإعطائه البعض إيَّاهم، وإظهار امتناعٍ البعض، وعدم جواز البعض، وتفنيد البعض. فقد جعل الرازيُّ هذه الآية مرادفةً لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨](٢)، وقد أمر الله المؤمنين بأن لا يُؤْذوا رسول الله ﷺ بمثل ذلك، وقد ذكر ذلك بمناسبة إرجاف المنافقين في المدينة، وما يَنْبعث عنه من تَبَلْبل الأفكار.

وفي الآية من لُطفِ الإشارة نوعٌ من الرَّدْع للَّذين لا يتدبَّرون القرآن، ويقولون في قصة زينب: إنَّ النبي ﷺ نظر إليها من دون قَصْد فوقعت في قلبه. ولو كانوا قد تمعَّنوا أساليب السورة ومَطْلعها لتبيَّنوا أنَّ زواجه بها إنما كان أمراً مُدبَّراً بوحيِ الله لإبطال التَّبنِّي، ولم يكن ذلك عن مَيْل وهوى، إذ نفسيَّة الأنبياء أجلُّ من ذلك، فلا يقول ذلك

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٥: ١٨٦).

(٢) قال في «المنار» في تفسير سورة البقرة عند تعنُّت بني إسرائيل (١: ٢٧٣-٢٧٤)، ما ملخَّصه: مع كثرة آيات الله القائمة على نبوَّة موسى وصدْق وعده لبني إسرائيل بالتمكُّن من الأرض الموعودة والخروج من الظلم والذل الذي كانوا فيه، لم تستيقنه أنفسهم، بل كانوا على رَيْب من ذلك، وكانوا يظنون أنَّ موسى عليه السلام خدعهم بإخراجهم من مصر، وجاء بهم في البريَّة ليُهلِكَهم. فلذلك دأبوا على إعناته والإكثار من الطلب حتى ييأس منهم، فيرتدَّ بهم إلى مصر والبلاد التي كانوا فيها، حيث ألفوا الذُّلَّ والهوان.

أقول: وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ تصديقَ ذلك الوعد وتحقيقَه. وهذا يلائم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]. (المؤلف).

القولَ إلا مَنْ سَفِهَ نَفسَه، ولم يَقدُرْ مقام النبوة قَدْرَه. ولو جاز أن يكون قد حدث مثلُ هذا التقوُّل في زمانه ﷺ، فلا بدَّ أن مصدره المنافقون والذين في قلوبهم مرض من المشاغبين والمرجفين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

ثم أرشد سبحانه المؤمنين إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ أي: قاصداً إلى الحق.

ثم وعدهم على ذلك بحالَيْن: صلاح الأعمال في الدنيا، وغفران الذنوب في الأخرى، وهما مترتِّبان على الأمرَيْن في الآية ترتيباً طبيعياً، فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ثم ختم هذه الآية بما يحمل على التَّمسُّك بما جاء فيها، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ حيث ينال خيرَي الدنيا والأخرى، بطاعة الله في تعاليمه؛ لأنَّ هدف الشريعة أن ينال الإنسان بواسطتها سعادته في الحياتين: الحياة الدنيا، والحياة الأخرى، ويَتجنَّب الشقاءين: شقاءَ الدنيا، وشقاءَ الأُخرى.

ثم ذكر على طريقة التعليل لمضمون ما سبق من أمر ضلال الإنسان في مصادمة الحق ومعاكسة الخير: أنَّ الإنسان جزء من أجزاء هذا الكون، مَنُوطٌ به أمور وأعمال وواجبات، كما أُنيطت بسائر أجزاء الكون أمور وأعمال ونتائج، وقد قام سائر الكون بواجبه ما عدا الإنسان، فإنه فرَّط بما أريد منه أو قصَّر.

وختم هذه السورة العظيمة بما يحمل على التمسُّك بها بقوة، فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ وهي تكاليف الله لمخلوقاته كلها، وما أراده منها[١] من المطالب العملية، والغايات السنيَّة، عرضها ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾، وإنما أتى بهذه الصيغة من التعبير؛ لأنه لما أراد بالأمانة: تكاليف الله لمخلوقاته، وما أناطه بها من الأعمال والنتائج والأحوال، كان منها ما هو اختياريٌّ، كتكليف الإنسان بما أمره به من شرائع وتعاليم، وما هو طبيعيٌّ قَسْريٌّ، كطبع بقية المخلوقات على ما أراده منها من أعمال وخدمات ونتائج، رجَّح جانب الإنسان؛ لأنه هو المطلوب الأصلي في هذا البيان، وعبَّر مجازاً بصيغة العرض عن الإرادة منها والإناطة بها، ونزَّل غير العاقل منزلة العاقل في الاختيار حتى ينسجم معه في صورة المعنى المراد، ويتهيَّأ التعبير عن قيامها بما خُلقت له وطُبعت عليه من الأهداف والأعمال واستمرارها فيها ودأبها عليها. فعبَّر بالعَرْض حتى يتهيَّأ التعبير بالإباء عن تضييعها[٢]، حيث قال: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: أن يُهْمِلنها ويُضيِّعنها، من قولهم: حَمَل الأمانة؛ إذا خانها. كما جاء في «القاموس المحيط»[٣].

---

(١) يعني: ما طلبه منها وأمرها به، والتعبير بالإرداة في مثل هذا تسامُح.

(٢) الصواب: أن عَرْض الأمانة على السماوات والأرض والجبال كان عَرْضاً حقيقياً، حيث خلق الله لها إدراكاً، وعرض عليها الأمانة، فقامت بها كما ينبغي لها، وأدتها حق أدائها، لِمَا أنها مجبولة على الطاعة والانقياد لأمر الله من غير اختيار كما بيَّنه المؤلف.

وقد تظاهرت الأدلة على إدراك سائر المخلوقات لأمر الله تعالى، مما إذا ضُمَّ بعضه إلى بعض تبيَّن منه بُعدُ القول بالمجاز في مثلها، ولزوم حَمْلها على الحقيقة، وهي غير ممتنعة عقلاً، لكن لم تجرِ بها العادة، وما دامت كذلك فالقول بالحقيقة هو المتعين. ومن ذلك: تسبيح ما في السماوات والأرض لله تعالى الوارد في الآية ٤٤ من سورة الإسراء، وتسبيح الجبال مع داود الوارد في الآية ٧٩ من سورة الأنبياء، وخطاب الله تعالى للسماء والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، الوارد في الآية ١١ من سورة فُصِّلت، إلى غير ذلك.

(٣) ولفظه ص٩٨٧: «وقوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ... وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يخنها».

أما قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ فهو كلامٌ قُصِدَ به تهويلُ أمرها، وعَظَمةُ شأنها.

ومحصَّل المعنى: أنَّ الله سبحانه أمر السماوات والأرض والجبال والشجر والنبات وغيرها من المخلوقات أن تقوم بنظامها الخاص وتؤدِّي الأمر المطلوب الذي أراده سبحانه منها، فقامت على ما أراد، ولم تُضيِّع منه شيئاً، فهي دائبةٌ على عملها وواجبها بكلِّ دقَّة حتى يأتي يومُ خرابها وفنائها، وهو يوم القيامة. أما الإنسان فقد أمره الله بأن يقومَ بواجبات أرادها منه؛ ليتمَّ بها كماله، وتصطلح بها أحواله، ويكون من المخلصين المهديين، وينال بها السعادتين، ويَتجنَّب الشقاءين، فضيَّعها كلَّها أو بعضها، وارتدَّ إلى أسفل سافلين. فنعى عليه ذلك بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1] أي: ظلوماً لنفسه، جهولاً في عمله هذا.

وهذا الحكم عليه بحسب مجموعه وغالب أفراده، لا جميعه، وإطلاق الحكم على

---

(١) إنما انفرد الإنسان عن سائر المخلوقات بخيانة الأمانة مع أنه أشرف المخلوقات وأكرمها وأقومها؛ لمكان الاختيار فيه، حيث جعله الله مختاراً في تصرُّفاته؛ ليتمكَّن من سَعَة العلم وكثرة الإيجاد في هذه الأرض التي جعله الله خليفةً فيها، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا أن يكون مختاراً في تصرُّفاته، كما لا تكون المطر إلا بالغيم، ولا الحياة إلا بالهواء مثلاً. وهذه هي الحكمة في جعله مختاراً في تصرُّفاته. ولو جعله مقْسوراً على الطاعة كالـمَلَك؛ لما أمكنه ذلك.

وقد احتاط سبحانه لهذا الإنسان فهداه بهدايتين من دون سائر المخلوقات: هداية طبيعية، وهداية شرعية، أرسله له بواسطة الرسل، فإنْ حافظ على الهدايتين مثلاً كما كان عليه يوسف عليه السلام، كان إنساناً كاملاً. وإن انحدر إلى السوء ضلَّ ضلالاً بعيداً، ويصل أحياناً إلى أسفل سافلين، كما جاء في سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾، لم يبق للإنسان حجةٌ بعد الرسل، وإرسال الشرائع والتعليمات، ولذلك كان قليل منه للسعادة كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦]، ولهذا سبحانه عقَّب هذه الآية بمبدأ سورة سبأ، فتأمَّل. (المؤلف).

المجموع باعتبار تعلُّقه ببعض الأفراد أو أكثرها هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، وسائغٌ فيهما[١].

وكان من عَدْل الله سبحانه ومنَّته على عباده: أنْ غَفَر للمؤمنين والمؤمنات تضييعَ بعض هذه الأمانة بطريقة الهفوات، وعذَّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، لخيانتهم جميعها، وإضاعتهم لـمعظمها، كما قال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾[٢] للهفوات، يَغفِرُ ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

---

(١) لا يصحُّ تفسيرُ المؤلف لحمل الإنسان الأمانة بخيانتها، إذ هي تشريفٌ وتكريمٌ للإنسان الذي منحَه اللهُ الإرادة الحرّة وقدرات الإدراك والفهم، وبما سخّر له من قوى في ذاتِ نفسه وفي الكون من حوله؛ ليتمَّ امتحانُه في الحياة الدنيا.

ومعنى حَمْل الإنسان للأمانة: أنه يحمل الاستعداد الفِطريَّ الكامل لحمل الأمانة بما منحَه الله تعالى من خصائص التفكير والعقل، ومعرفة صفات الأشياء، والإرادة الحرّة، ممَّا يستطيعُ التصرُّف فيه بفِعل الخير أو بفِعل الشر. فإذا استعمل الإنسانُ ما استودعه الله من إرادة وطاقات فيما فيه ظلمٌ وعدوان، فهو خائنٌ فيما استأمنه الله عليه.

قال العلامةُ ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٢: ١٢٩) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾: معناها استئناف بياني؛ لأن السامع خبر أن الإنسان تحمّل الأمانة يترقب معرفةَ ما كان من حُسْن قيام الإنسان بما حمله وتحمّله، وليست الجملة تعليلية؛ لأن تحمُّل الأمانة لم يكن باختيار الإنسان، فكيف يُعلَّل بأنّ حَمْلَه الأمانة من أجل ظلمه وجهله.

فمعنى ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾: أنه قصَّر في الوفاء بحَقِّ ما تحمَّله تقصيراً: بعضُه عن عَمْد، وهو المُعبَّر عنه بوَصْف «ظلوم»، وبعضُه عن تفريط في الأخذ بأسباب الوفاء، وهو المُعبَّر عنه بكونه «جهولاً». اهـ. وينظر جواب الشيخ تتان في المقدمة.

(٢) اللامُ في قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ هي لامُ العاقبة، قال ابنُ عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٢: ١٣١): «متعلِّق بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، لأن المنافقين والمشركين والمؤمنين من =

اللهمَّ اغفر لنا وارحمنا، وعافنا واعفُ عنا، يا أرحم الراحمين.

❊ ❊ ❊

= أصناف الإنسان، وهذه اللامُ للتعليل المجازي المُسمَّاة: لام العاقبة...، والشاهد الشائع فيها هو قولُه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]...، والمعنى: فعذَّب الله المنافقين والمشركين على عدم الوفاء بالأمانة التي تحمَّلوها في أصل الفِطرة وبحسب الشريعة، وتاب على المؤمنين فغفر لهم من ذنوبهم، لأنهم وفوا بالأمانة التي تحمَّلوها». اهـ.

وقال المراغي في تفسير هذه الآية (٢٢: ٤٦-٤٧): «إنا لم نخلق السماواتِ والأرضَ ـ على عِظَم أجرامِها وقوة أَسْرها ـ مُستعدَّةً لحمْل التكاليف بتلقِّي الأوامر والنواهي، والتبصُّر في شؤون الدين والدنيا، ولكن خلقنا الإنسانَ ـ على ضعف مَتْنه وصِغَرِ جرمه ـ مُستعدّاً لتلقِّيها والقيام بأعبائها، وهو ـ مع ذلك ـ قد غلبت عليه الانفعالات النفسيَّة الداعية إلى الغضب، فكان ظلوماً لغيره، ورُكِّبَ فيه حبُّ الشهوات والميل إلى عدم التدبُّر في عواقب الأمور، ومن ثَمَّ كلَّفناه بتلك التكاليف؛ لتكسر سَوْرة تلك القوى، وتُخفِّف من سلطانها عليه، وتكبتَ من جماحها، حتى لا توقعَه في مواقع الردى.

ثم بيَّن عاقبةَ تلك التكاليف فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ أي: وكان عاقبةُ حَمْل الإنسان لهذه الأمانة أن يُعذِّبَ مَن خانها وأبى الطاعة والانقياد لها، من المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، ويقبلَ توبةَ المؤمنين والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا، لتلافيهم ما فرط منهم من الجهل وعدم التبصُّر في العواقب، وتداركهم ذلك بالتوبة.

ثم علَّل قبولَه لتوبتهم بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾». اهـ.

فاللامُ لامُ العاقبة، وليست لامَ التعليل. وينظر كلامي في تفسير هذه الآية في كتابي «البيان في أركان الإيمان»، وفي تفسيري «المعين»، وفيما علَّقتُه بتفصيل طويل على «فتاوى محمد أبو زهرة».

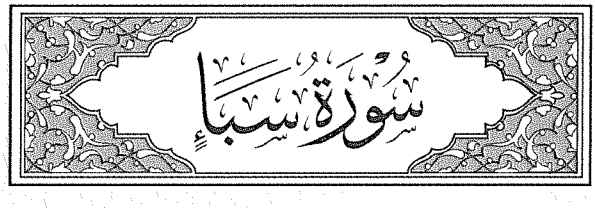

مكيَّة، إلا آية: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ...﴾ [٦]

وهي أربع وخمسون آية

وملخَّص موضوعها:

إثباتُ الساعة التي سألوا عنها في السورة السابقة سؤالَ استهزاء بالبعث والنشور، وردَّ عليهم بأنه لا وَجْهَ لاستبعادهم، ولله سبحانه من القدرة البالغة ما سخَّر به لداودَ الغرائبَ من الأمور، وإهلاكُه لأهل سبأ عندما أعرضوا عن الله وأهملوا تعاليمه.

ثمَّ هدَّدهم بالهلاك كما فعل بأمثالهم، وختم السورة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: أنّه المستحقُّ للحمد على أفعاله الحُسْنى ونِعَمِه العُظْمى في الدارَيْن. وفيه إيماءٌ إلى أنه سبحانه وتعالى سيُنعِمُ بإنعامات جُلَّى في الآخرة أضعافَ أضعافِ ما في الدنيا.

ثم ذكر ما هو كالتعليل لِمَا تضمَّنه استحقاقُه للحمد، من جليل الأعمال وسدادها، فقال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ أي. أنه نظَم أمْرَ السماوات والأرض، وأمْرَ نِعَمِه على الناس فيهما بالحكمة والخبرة، فكانت طِبقَ المراد، ووَفْقَ الحقِّ والسَّداد، ولذلك استحقَّ عليها الحمدَ الجزيل.

ثم أضاف إلى حِكمتِه وخِبْرتِه العظيمتَيْن عِلمَه الواسع، تكميلاً للتعليل وإحصاءً للأعمال، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، وقد شملت هذه الجملة على قِصَرها جميعَ ما في الكون، وما يحدث فيه، وما يذهب منه، ولم يَفلِت عنها من ذلك شيء. جلَّ من هذا كلامُه! وذلك عِلمُه ونظامُه!

وبعدَ أن أومأ باستِحقاقِه للألوهيَّة وحدَه، بيَّن سببَ إمهاله لهؤلاء المشركين المعارضين، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ أي: ولولا ذلك لعجَّل للمنكرين العذاب.

ثم ذكر إنكارَهم البعثَ بعد أن قدّم هذه المقدِّمة الدالَّة بمضمونها على قدرته وخبرته في تحقيق الحياة الثانية مع عِظَم شأنها، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾، يقولون ذلك إنكاراً للحشر والحساب، ونفياً للإمكان بعد أن يكونُوا رفاتاً وتراباً. وقيل: استبطاءً لإتيانها، بطريق الهزء والسخرية.

فأمر سبحانه نبيَّه ﷺ أن يَرُدَّ عليهم بما يَتضمَّنُ التأكيد على أبلغ الوجوه، فقال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ثم أتى من صفاته تعالى بما فيه دلالةٌ على حِفظِ أعمالهم، إيذاناً بالجزاء، وتقريراً لإثبات الساعة، فقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ وهو علمُه[1] الأزليّ الأبديّ السرمدي، لا ينقطعُ ولا يتَجدَّد، ولا يغيبُ عنه شيءٌ مما كان أو يكون.

---

(١) هذا محتمل، لكنْ ثبت في السنة النبوية أنّ الله تعالى خلق اللوح، وأثبت فيه الآجال والأعمال والأرزاق والأقوات وسائر المقادير، وحَمْلُ لفظة «كتاب» الواردة في الآية الكريمة على اللوح المحفوظ أليقُ وأنسبُ من حَملِها على العِلم.

وقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ ...﴾ معناه: لا يَغيبُ ولا يَبعُدُ عنه كلُّ شيء من الأزل إلى الأبد حتى أقلِّه وأدقِّه، وإن كان في أخفى وأبعَدِ مكان. وقالوا: إنما قدَّم ذِكرَ السماء في هذه السورة وأخَّرها في نظيرتها من سورة يونس[1]؛ لأنَّ الآية هنا في سياق ثنائه تعالى على نفسه، ووصفه بإحاطة علمه، فناسب تقديم السماء لأنها أعظم، أما السياق في يونس فكان فيه الكلام عن أهل الأرض، فناسب تقديمها. وقد كرَّر كلمة ﴿لَا﴾؛ مبالغةً في النفي. والجملة مطويَّة على تحقيق أنه يعلم متى الساعة، وعلى التهديد في إحصاء كلِّ شيء عليهم لينالوا جَزاءَه.

ثم صرَّح بالغاية من هذا الإحصاء للصِّنفَين معاً، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بما ألمع له بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾، وفي قطع هذا البيان واستئنافِ ما يدلُّ على أنَّ لهم سعادة الدنيا والأخرى، بلاغةٌ عاليةٌ في زيادة التنويه.

ثم بيَّن جزاء المعارضين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقَدْح فيها وصدِّ الناس عن التَّصديق بها، ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لنا في القدرة على إعادتهم ومغالبين بزعمهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ والرِّجْز: أسوأ العذاب.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ سَعْيَهم في هذا القَدْح والصَّدِّ فاشل، إذ يقاومه العقل والعلم الصحيح، فقال: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أنَّ ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ الجديرَ بالاتِّباع، ﴿وَ﴾ هو الذي ﴿يَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ الله ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾، والتَّعرُّض لهذين الوصفين تعريضٌ بالترهيب والترغيب، وتمجيدٌ للصراط وتسديد.

---

(١) يقصد قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

ثم ذكر شبهةً من شُبَههم في استبعاد البعث أو استنكاره، مَصُوغةً بشكل خادع مُضَلِّل للجُهَّال، بُغْيَةَ الصَّدِّ عن الآيات، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾[1] أي: يُنبِّئكم أنكم تُخلَقون من جديد، بعد أن تَفْنى أجسامكم بالموت وتُـمزَّقون كلَّ مُـمَزَّق. وفي جملة الشرط زيادةُ مبالغةٍ في التَّعجيب والإنكار والاستبعاد.

ثم التمسوا لهذا الإنباء الغريب بزَعْمهم وجهاً، فقالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾؟! فردَّ الله سبحانه عليهم بما فيه بيانٌ لجليَّة أمرهم، وتقريرٌ للحقيقة بطريقة

---

(١) لقد ألمع ما جاء عن رسول الله ﷺ من الأخبار عن كيفيَّة الحشر، بأنَّ الذي يُعادُ منه الجسم يوم القيامة إنما هو عَجْب الذنب وحده، وهو ذرَّة دقيقة محلُّها أسفل الصُّلب من الإنسان، وهذه الذرة تبقى بعد فناء الجسم، ومنها يتكوَّن الجسم الجديد الصالح للخلود، بمعونة ما يشبه مطراً يُمطَرُ يوم القيامة. فيكون موسم الحشر من الطبيعة في إحياء الأجسام، كموسم الربيع منها في إحياء النبات. ويمكننا أن نعبِّر عن هذه الذرة بنواة الحياة. والله تعالى أعلم.

فقد جاء عنه ﷺ: «كل ابن آدم يأكلهُ التراب إلا عَجْب الذنب، منه خُلِقَ، ومنه يُرَكَّب» قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خَرْدل، منه تنسِلون»، وتصويره بحبَّة الخردل إنما هو تعبير عرفيٌّ يُقرِّبه للعقول، ولعله مما لا يُدرَكُ بالنظر ولا بالمجهر أبداً. والله أعلم. وقد جاء في ذلك روايات عديدة في أخبار صحيحة. (المؤلف).

والحديث سبق تخريجه (٤: ٤٢٨).

الإضراب وطَـوْي البيان على التـهديد، فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ عن الحقِّ والصَّواب. وقَـرَنَ بين السبب والمسبَّب، وذلك من إعجاز القرآن.

ثم أوضَحَ الردَّ مستشهداً بدلائل قدرته التي هي نُصْبَ أعينهم، وسبكه على إنكار استبعادهم لذلك، وهم يَرَوْنَ من كمال قدرته ما يَرَوْن، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أفلم يَرَوا ما يحيط بهم من آثار قدرته العظيمة في السماوات والأرض؟ ألا ينتبهون إلى أنَّ فاعل ذلك لا يُعْجِزُه شيء، فكيف ينكرون عليه إعادةَ أجسامهم بعد التَّمزُّق؟!

ثم أتى بهذه الجملة المساوقة للقُدرة، والـمُهَدِّدة لهم بعذاب الاستئصال، فقال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قطعاً وصواعق، كما فعلنا بمَنْ قبلهم من أمثالهم في الأمم الماضية الذين عارضوا أنبياءهم بما جاؤوهم به.

ثم علَّق على الرد بهذا التأنيب والتعريض بهم، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: بما يحيط بهم من آثار القدرة في السماء والأرض ﴿لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ أي: لكلِّ مَنْ يرجع إلى الله ويترك التعصُّب الأعمى والنظرَ القصير، لا لمثل هؤلاء الـجُهَّال الذين قد أفسدوا طبيعتَهم، وطَمَسُوا نورَ بصيرتهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ

﴿ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

ثم ذكر من قدرته البالغة ما يتفضَّل به على المُنيبين إليه من العزَّة والكرامة، وخصَّ منهم داود عليه السلام، وبيَّن ما آتاه الله من فضله وعجائب أمره، مسبوكاً على مثل ما سبق من بيان قدرته التي لا يعجزها شيء، وما الحشر في جانبها إلا يسير، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، وقلنا: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: ارجعي إلى مُراده، بمعنى: ساعديه ولايميه[1] فيما يطلب منك ويريد. يريد بذلك: تسخيرها له في كلِّ ما يتطلَّبه منها، من استخراج معدن أو تعبيد طريق أو اتِّخاذ محلات مُلائمة لمقاعد القتال، واستنباط عين أو غير ذلك مما يحتاجه منها لسِلمِه وحَرْبه. وقوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ مفعول معه لفاعل ﴿أَوِّبِى﴾ أي: شاركي الجبال بالرجوع لمصالحه. أو معطوف على مضمون ما قبله، أي: وسخَّرنا له الطير كذلك لمساعدته بكلِّ ما يتطلّبه منها، ولا سيما في استكشاف أمر العدو، وإرسال الرسائل، كما جاء عن الهدهد في قصة بلقيس مع سليمان.

ورُوِيَ عن الحسن وقتادة: أن معنى ﴿أَوِّبِى﴾: رَجِّعِي معه التسبيحَ[2]. وقد أوسعتُ البحثَ عن مثل هذه الآية في سورة الأنبياء[3].

ثم بيَّن له كرامة أخرى، فقال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ إما بطريق خارق للعادة، أو بإلهام لاكتشاف طريقة مُسهِّلة للعمل السريع المتقن في مصنوعاته.

---

(١) لايميه: من الملائمة، بمعنى المسايرة والموافقة والمطاوعة. ينظر: «القاموس» (ليم).

(٢) رواهما الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٣٥٨).

(٣) في الآية ٧٩ منها. وتقدَّم في التعليق عليها تعقُّبُ المؤلف في تفسيره لتسبيح الجبال والطير مع داود بالتسخير ونحوه، وبيانُ أن الصواب: هو حَمْلُ هذا التسبيح على ظاهره، وذلك خصوصية لداود عليه السلام، ومعجزة خارقة للسُّنن الكونية.

ثم فسَّر ذلك بنتيجته مسبوكة على عِظَمِ منَّته، فقال: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي: دروعاً واسعات لا كالدروع المعروفة إذ ذاك، ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: اقتَصِدْ في زَرْدها ونَسْجها لتكونَ خفيفةَ الحَمْل لا يَتَكلَّف حاملها.

ويظهر من فحوى الآية: أنَّ داود عليه السلام أدخل إصلاحات كبيرة في عمل الدروع أتت من إلانة الحديد له، وأنَّ الدروع قبل ذلك كانت ثقيلة؛ لأنها تُصنَعُ من صَفائح، فلا تتَّخذ سابغةً تشمل البدن كلَّه وتَقِيه، إذ لا يمكن حَمْلها، بخلافها بعد إلانة الحديد وجَعْلها من زَرَد وحِلَق دقيقة، فقد صنعت الآن سابغة منيعة تحيط بالبدن كلِّه، ومع ذلك فهي سهلة الحمل، لا يتكلَّف منها لابسها، وكَثُر وجودها في الجيش، وربما لبسها الجند عن آخره، فامتاز على جيش العدوِّ وتفوَّق.

ولا يلزم من فحوى الآية: أنه كان اكتشف ذلك بنفسه أو كان يصنع ذلك بنفسه، بل يدلُّ على أنَّ هذا العمل كان موفوراً في مملكته ومُخْتصاً بها عمالُه، على نهج اللغة والعُرْف في مثل ذلك، أي: اكتشفَ هذا الأمرَ وتيسَّر له العمل، والله أعلم. وهو الأظهر من السياق، فإنه لما كان الخطاب له مراداً به العموم، أتى بصيغة الجمع عندما قرن ذلك بقوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، وهذا العطف للإشارة إلى أنَّ العمل الصالح هو المطلب الأصلي، وما عداه من مثل هذا التيسير سببٌ له ومُعينٌ عليه.

ثم حثَّ على طلب الإتقان للعمل الصالح والإخلاص فيه، فقال: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعطى لداود عليه السلام من الفضل والكرامة وعَجَائب الأمور، ذكر سليمان عليه السلام وما آتاه من ذلك، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي:

سخَّرنا لسليمان الريح، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: جَرْيُها بالغَداة مسيرةَ شهر وبالعشيِّ كذلك. وقد فصَّلنا ذلك في سورة الأنبياء[١].

ويجوز أن يكون ذِكرُ الشهر للتكثير لا للتحديد[٢]، وأما يجوز أن يكون هذا مقدار قوة هذه الريح وقيامها، يستخدم منها ما يحتاجه؟ والله أعلم بمراده، وهو على كلِّ شيء قدير، وسُنَنُه في كونه لا تُحصى، ولا نعلم منها إلا القليل.

ثم تابع البيانَ عن كرامة الله لسليمان، فقال: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النحاس المذاب. قال المفسِّرون: أساله من معدنه معجزةً له، فنبع نبوع الماء.

أقول: ولا مانع من إرادة التَّجوُّز بهذا التعبير مبالغةً في تسهيله، ويكون المراد مِثلَ ما ذكرته في إلانة الحديد، وفي كل ذلك كرامةٌ وفضلٌ عظيم. والله أعلم[٣].

ثم ذكر معجزةً وكرامةً أخرى، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾

---

(١) في الآية ٨٢ منها.

(٢) هذا بعيد، وفيه إضعافٌ لمعنى المعجزة التي خصَّ بها الله تبارك وتعالى سليمان عليه السلام، وجَعْلُ الأمر قريباً من الوجه المعتاد بين البشر من استغلال الرياح واستثمارها، كما في السنن مثلاً، وسياقُ الآيات ينافي ذلك، بل الأمر معجزة خارقة للعادة.

(٣) إن كان كلُّ معجزة يذكرها القرآن الكريم لنبي من الأنبياء يجوز فيها التجوُّزُ في التعبير، وحَمْلُها على معنى مُساوِقٍ للسنن الكونية، فماذا بقي للأنبياء من خصوصية عن سائر البشر؟ وكيف تثبت نبواتهم على وجه قطعي، وهم لم يأتوا إلا بما يوافق السنن الكونية؟ فمسألة تفوُّقهم في استغلال السنن الكونية واستثمارها لا تقوم دليلاً على صدقهم في نبوتهم، لأن ذلك في مقدور البشر عقلاً، فينبغي أن يأتوا بشيء لا يقدر عليه البشر يكون خارقاً للسنن الكونية غيرَ جارٍ على نظامها حتى يثبت في العقل على وجه القطع أن ذلك الذي أتوا به هو فِعلُ الله تعالى الدالُّ على تصديقهم.

أي: بتيسيره وتسخيره أو بأمره، ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: عمَّا أمرناهم به من طاعة سليمان، ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

ثم فصَّل عَمَلَ الجنِّ لسليمان، فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ يريد: الأبنيةَ العظيمةَ والزخارفَ العجيبةَ في بناء المسجد. مِنْ ذِكرِ الشيء باسم جزئه بطريقةِ المجاز المُرسَل، ويجوز أن يُراد بالتماثيل: بعض القصور العظيمة. وقد مرَّ الكلام على ذلك أيضاً في سورة الأنبياء[1]، ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: صِحَافٍ كالحياض، يُطْعِم بها الجيش، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ كما ترسُو السفن، أي: عظيمات ثابتات على الأثافي[2]، يصنع بها ذلك الطعام. والتعبير بـ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾ للمبالغة في العِظَم.

ثم قرن ذلك بقوله: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ لله، وأراد بهذا الطلب ما أراده في قصة داود بقوله: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١١]، أي: أكثِروا يا آل داود من عمل الخير والصلاح أنتم وأتباعكم شكراً لله تعالى، على ما أوْلاكُم من نِعَمٍ وكرامة. فحذف المفعول به للعلم به، وذكر المفعول لأجله.

ثم ذيَّل الأمر بما فيه نَعْيٌ على بني الإنسان، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

وبعد أن بيَّن عَظَمةَ سليمان وتسخيرَ الرِّيح والرُّوح له، بيَّن أنه مع ذلك لم يخرج عن حدود أضعف خَلْق الله في مَجْرى أحوال الطبيعة، مُدمجاً في ذلك عدَّة أمور، فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ ودابَّة الأرض هذه: حشرة صغيرة تأكل الخشب أكلاً بطيئاً وتنخره بطول الزمن، وتُسمَّى: الأَرَضة. والمراد بالمنسأة: العصا التي يتوكأ عليها وينسأ بها. وإنما عقَّب عظمةَ

---

(١) في الآية ٨٢ منها.

(٢) مفردها الأثفية، وهو الحجر الذي توضع عليه القِدْر.

سليمان بهذا البيان كي لا يتسرَّب إلى ضعاف الأذهان أنَّ سليمان عليه السلام فوق حدود البشرية، سوى أنَّ جسم الأنبياء لا يبلى.

قيل: إنَّ سليمان عليه السلام كان يعتكف في مسجد بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، وأقل وأكثر، يُدخِلُ فيه طعامه وشرابه، ويتعبَّد فيه، ولا يجرُؤُ أحدٌ على التقرُّب منه، فمات وهو مُتَّكئ على عَصَاه. وقد اعتادوا أن يجدوا منه عبادات طويلة قياماً وقعوداً. والله أعلم. فكلَّما رآه الجن كذلك ظنُّوه يَتعبَّد، وهم دائبون في أعمالهم الشاقَّة لتكملةِ بناء المسجد، حتى كمل، ولم يعرفوا بموته حتى أكلت هذه الحشرة عَصَاه التي كان مُتَّكئاً عليها، فسقط على الأرض، ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ من جرَّاء أعمالهم الشاقَّة، أي: فلمَّا خرَّ علمت الجنُّ بموته، وتبيَّن لها من أكْلِ الأرضةِ منسأتَه أنه ميِّت من زمن طويل. ولو علمت بهذا من قبل، لقطعت عملها الشاقَّ في تهيئة البناء وتحضير موادِّه، ولتمرَّدت على ذلك. وكانت تظنُّ أنها تعلم الغيب، فتبيَّن لها أنها واهمة مخدوعة، وأنَّ ما تعلمه غيرُ الغيب، وإنما هو سَعَة إدراك طبيعي فيها، وكثرة معلومات في بعض الموجودات البعيدة والخفيَّة؛ ناشئة من سرعتها في التنقُّل، ودخولها خفايا المداخل وصعابها وصلابها، لا كالإنسان.

وقيل: بل المعنى: تبيَّن أمرُها للإنس، وانكشف لهم أنَّ الجن لا تعلم الغيب كما تدَّعي، وإنما جاء هذا الوَهْمُ من كَوْن الجن تعلم بطبيعتها ما لا تعلمه الإنس، وذلك لأنها أجسام لطيفة سريعة الحركة يمكنها الاطلاع على الأمور البعيدة، والتدخُّل إلى الأمور الخفيَّة، وليس ذلك بغيب، ولا من طرق علم الغيب، وإنما هي أمور طبيعية لها.

وعلى كلّ، ففي الكلام نوعُ استطراد أو استتباع. فقد خَرَج من بيان حال سليمان

عليه السلام إلى بيان وَهْم الجن في ذلك، أو وَهْم الناس فيها بذلك، وعلى هذا يكون قوله: ﴿أَن لَّوْ كَانُوا﴾ بَدَلَ تفصيل من لفظ ﴿الْجِنُّ﴾.

وقيل: إنَّ في صورة موت سليمان هذه أغراضاً جليلة؛

منها: إتمام بناء بيت المقدس على الصورة التي أراد.

ومنها: معرفة أن الإنسان ـ مهما بلغ من الكرامة ـ لا يخرج عن حدود البشريَّة.

ومنها: أن يعلم الجنُّ أنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم مخدوعون واهمون، وما يعلمونه ليس بغيب وإن غاب عن الإنس لاختلاف الطبيعتين. أو أن يعلم الإنسُ أن الجنَّ لا تعلم الغيب، وأنهم في ادِّعاء ذلك كاذبون.

ومنها: أن يُعْلَمَ أنَّ مَنْ حضر أجلُه فلا يتأخَّر، ولو كان جليل القدر مَنُوطاً به أعمال كبيرة لم تتمَّ بعد، إلا أنَّ الله سبحانه يُنظِّم الأسباب لإتمامها ويُهيِّئُها.

ومنها: أنَّ الأنبياء لا تبلى أجسامُهم. والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه حالَ المُنيبين إليه، وما أكرمهم به من النِّعَم والكرامة، وكيف شكروا تلك النِّعم، قابل ذلك بحال الكافرين لنِعَمِه، وكيف سَلَبها منهم، وبحال المُعْرِضين عنها والمُبدِّلين لها، كيف بَدَّل نِعَمَهم نقماً، على نهج القرن في المقابلة، وحكى ذلك في أهل سبأ، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ عظيمةٌ دالَّةٌ على حُسْن عاقبة المؤمن الشكور، وسُوءِ عاقبة الكفور.

ثم فصَّل سبحانه تلك الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: إنَّ ديارهم كانت مغمورةً بالنِّعم على وتيرةٍ واحدة، فكانت البساتين والمزارع عن يمينهم وشمالهم، متَّصلاً بعضُها ببعض.

ثم نبَّههم إلى عَظَمة نِعَم الله ومنَّته عليهم ووجوب شكرها، فقال: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾[1] هذه النِّعمةَ العظمى والمنَّة الكبرى التي وضَّحها بقوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ لِـهَفَوات مَنْ يشكره.

هكذا كان حالهم عندما كانوا شاكرين لِنِعَم الله مؤمنين به، ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ عن الشكر وتمسَّكوا بالكفر ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي: السَّيْلَ الجارف الذي لا يُطاق، من قولهم: عَرَمَ الرجل: إذا شَرِسَ، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم: حق اليقين، ومسجد الجامع، وجماعة الحاضرين، وأمثال ذلك.

وقد قالوا في تفصيل الأمر: إنَّ الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن، وكان هناك جبلان يجتمع ماء المطر والسيول بينهما، فسدُّوا ما بين الجبلين، واتَّخذوا خزَّاناً عظيماً، نظَّموا أخْذَ الماء منه بقدر الحاجة، بواسطة سدّادات فنية. فلما طال عليهم الأمد، وتَبدَّلت

---

(١) الشكر لله: هو الثناء على الله والطاعة والانقياد. ويتبع ذلك كثرة الصدقات والأعمال الصالحات. (المؤلف).

الأجيال جهلاً بعد علم، وخمولاً بعد نشاط، نتيجة تبدُّلهم كفراً بعد إيمان، وإعراضاً وفساداً بعد شكر وصلاح، اخْتَلَّ اليمن وكَثُرَ فساده، واشتدَّت المنازعات والمخاصمات فيه، فقامت فيهم حكومات عاطلة جاهلة، فانصرفت الحكومات المتعاقبة عن تعهُّده والاستمرار في إصلاحه وتقويته، فضَعُفَ ولم يَقْوَ على إمساك السيل الشديد، فكانت العاقبة كما قصَّه سبحانه بقوله: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ ذات اليمين وذات الشمال العامرتَيْن بالأقوات والفواكه الطيبة، ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ خاليتَيْن من ذلك، إلا من منبوتات الأحراش الطبيعية كما قال: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ ممَّا يكثر أمثاله في الديار الخالية من العمران، القليلة السكان، المهملة من عمل الإنسان. والأكل الخمط: الثمر الرديء بشع الطعم، والأثل: الطرفاء، والسِّدْر: النبق. ولجودته في الجملة وصَفه بالقلة.

وقد بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ ذلك إنما كان تعذيباً لهم في الدنيا، بما كسبت أيديهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ للنِّعم، فنسلبها منه جزاءَ كفره بها. وذلك لأنَّ مخالفةَ سُنَنِ الله الطبيعيَّة المادية تُؤدِّي إلى عذاب الدنيا ورداءة العيش، ومخالفةَ سُننه الروحيَّة تؤدِّي إلى عذاب الأخرى تأدية طبيعية بحسب سنة الله فيها، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ثم عاد وتابع الكلام عن بيان ما كان قد أنعَمَ به عليهم من العمران، وما فعلوا به من الكفران، وما حاق بهم من الخسران، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي: الشام ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ والمعنى: أنه قد كان من قصَّتهم: أنا جعلنا بينهم وبين قرى الشام التي باركنا فيها بالماء والشجر قُرىً متواصلة. وكان متجرهم من أرض اليمن إلى الشام، وكانوا يبيتون في قرية، ويقيلون في أخرى، حتى يعودُوا من سفرهم.

ومعنى ﴿ظَٰهِرَةً﴾: أنَّ الثانية كأنها تُرى من الأولى لقُربها منها، وذلك دليل

العمران وكثْرة السكان في تلك البلدان. وهي من أكبر نِعَم الله الدنيويَّة على بني الإنسان. وقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ تفسيرٌ لمعنى ظهورها، أو تقريرٌ له. أي: جَعَلناها متواصلةً عمرانياً، بنتيجة ما ذكر من كثرة السكان وعمارة يد الإنسان.

ثم امتنَّ سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ وفي هذه الآية إجمالٌ لما سَبَق، ونتيجةٌ له، وتمنُّنٌ عليهم. قالوا: وتدلُّ الآية دلالةً إجمالية على أنَّ هذه البقعة من الجزيرة العربية كانت في ماضيات أيامها كثيرةَ الخِصْب عظيمةَ المياه وفيرةَ المحاصيل، فتناولتها النوازلُ الطبيعية بكثير من الجفاف، حتى استحال على الحضارة السالفة أن تبقى معالمها، وعلى العمران أن يبقى لمعانُه، لأن ذلك لا يكون إلا مع الخِصْب وكثرة المياه المنظمة، لذلك تبدَّلت الأرض غير الأرض، وانحلَّت الحضارة، وانهار العمران، وهاجر السكان. وهذا جزاءٌ من الله سبحانه نتيجةَ تبدُّل الطاعة والإيمان بالضلال والعصيان. وهذا يدل على أن الكوارث الطبيعيَّة عقابٌ من الله سبحانه للفرد والمجموع، توفيقَ أقدار لأقدار، ويجوز أن تكون في المتّقين تعظيماً للأجر والثواب، والله أعلم.

وقد أثبت الباحثون من الأجانب أن سَيْل العرم قد تكرَّر حدوثه في هذه الديار، وهو أحد العوامل المهمَّة في خرابها، ولا يَبعُدُ تكرُّره، بل هو المنتظر بعد أن خرب السَّدُّ وتَدَاعى.

وبعد أن حكى سبحانه ما كانوا مغمورين به من النِّعَم، حكى ما تلبَّسوا به من الكفران الذي كان سبباً لزوالها بقوله: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وفي هذا البيان تَـجوُّز بالقول عن الفعل، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، أي: فعلوا ما يستـوجب زوال تلك النعمة المذكورة، ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إذ حَرَموها السعادة بإفسادهم لِفِطَرهم، وما تَبِعَه من فساد أعمالهم وسُوء تصرُّفاتهم، نتيجةَ إعراضهم عن

تعاليم الله وكفرانهم لشريعته وتوجيهاته، فكان ما حكاه سبحانه بقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ بما جرى عليهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ إذ قد تعرَّضت البلاد للخراب، وهجرة أهلها عنها، من جرَّاء هجمات السيول عليها، وفقدان المياه التي تحتاجها المزارع، وما يتبع ذلك من سوء حال.

ثم حسَّس بما في ذلك من عبرة، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما جرى على هؤلاء ﴿لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ أي: صبَّارٍ على مَشاقِّ الطاعات والإعراض على الهوى والشهوات، شكورٍ لِنِعَم الله عليه. والصبر مع الشكر من صفات المؤمن الصادق، والمؤمن مُستعدٌّ للنظر والتفكير في آيات الله وعظاته.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى مَثَار هذا الشر والضلال فيهم، وأقامه مقام العلَّة لما جَرى عليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ﴾ أي: حقَّق ﴿عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾[1] وهذا الاستثناء يدلُّ على أنَّ الله سبحانه يأخذ الأمم بالعذاب إذا كان أكثرهم مجرمين، ولكنَّ الله يأجر هؤلاء المؤمنين بعد الموت أجراً عظيماً كما جاء في الحديث[2].

---

(١) إن الله سبحانه يأخذ الأمم بالعذاب إذا كان أكثرهم مجرمين، ولا يمنع ذلك وجود بعض المؤمنين فيهم، بحكم قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، إلا أن الله سبحانه يعوِّض للمؤمنين يوم القيامة. (المؤلف).

(٢) لعله يريد حديث عائشة رضي الله عنه المتفق عليه، أخرجه البخاري (٢١١٨) ومسلم (٢٨٨٤)، ولفظُه عند البخاري: «يغزو جيشٌ الكعبة، فإذا كانوا ببَيْداء من الأرض يخسف بأوّلهم وآخرهم» قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يُخسَفُ بأوّلهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ومَن ليس منهم؟ قال: «يُخسَفُ بأوّلهم وآخرهم، ثم يُبعَثون على نيّاتهم».

ولفظُه عند مسلم: «إنّ ناساً من أمتي يؤمّون بالبيت برَجُل من قريش، قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبَيْداء خُسِف بهم»، فقلنا: يا رسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس؟ قال: «نعم، =

وظنُّ إبليس: هو قوله تعالى حكاية عنه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وأمثالها من الآيات، أي: حُسْبانُه هذا قد حقَّقه فيهم. وسمَّاه ظناً لأنه لا يتحقَّق إلا إذا أعانه الإنسان على نفسه، بتحريفه لطبيعته وإفقادها الاستعداد الفطريَّ للهدى والرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ لو حافظوا على سلامة فطرتهم؛ لما فيها من المناعة من تأثير الشيطان ووساوسه عليها. فإنما هو فتنة لهم واختبار، يتبيَّن به من حافظ على سلامة فطرته ممَّن حرَّفها وأفسَدَها وسَلَب استعدادها للخير.

وهذا هو مآلُ قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ وهو المحافظ على سلامة خِلقته واستعداده للإيمان بها ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ وهو المُحرِّف لطبيعته المُدَسِّي لنفسه، أفسَدَها حتى أفقَدَها الاستعدادَ الفطريَّ للإيمان والعمل الصالح، ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ فلن تجدَ لسُنَّة الله تبديلاً، ولن تَجِدَ في خَلْق الرحمن من عِوَج ولا تفاوت، ولا نقيصةٍ ولا اختلال، ولكنَّ الفساد أمرٌ طارئ على الإنسان بصنعه وتقصيره، وهو مدخل الشيطان.

وفي الفاصلة إيذانٌ بالوعد والوعيد، وبأنَّ الله سبحانه يُحصي أعمال الإنسان من خير أو شر ويجازيه. والآية تُلمِعُ بمضمونها إلى أنَّ الله سبحانه قد حفظ الإنسان بمَناعة خاصَّة من الشيطان ووساوسه، وهي الاستعداد والميل بفطرته للإيمان والخير والصلاح، ما لم يعبث الإنسان نفسه بمناعته هذه، فإذا عَبَثَ بها وأفسَدَها تسلَّط عليه الشيطان، ووجد طريقاً للعبث به والوسوسة له. والمناعة العامة التي تشمل الروح والبدن معاً وتحافظ على صحتهما: هي التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. والله أعلم.

= فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مَهلِكاً واحداً، ويصدرون مصادرَ شتّى، يبعثُهم الله على نيّاتهم».

فالله سبحانه وتعالى قد خلق في الإنسان غرائز طبيعية سالمة من الزيغ والزلل والعاهات والآفات، فإذا عبث الإنسان بها وأفسدها تحوَّلت عللاً روحية أو بدنية أو اجتماعية، وليست العِلَلُ من الموجودات الأصلية، لأنَّ أفعال الله تعالى كلَّها خيرٌ وصلاح، ليس فيها عِوَجٌ ولا فساد، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، فليست العللُ والمضارُّ إلا أموراً ناتجة من الانحراف عن قوانين الفطرة التي فَطَر الله الناس عليها، والميل عن سُنن الله في مخلوقاته، ويجري ذلك في الجماعات كما يجري في الأفراد، ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، أي: ما أصابك من حسنة فإنما هي لاتِّباعك سُنَنَ الله، وما أصابك من سيئة فلِمَيْلك عن تلك السُّنن وخروجك عليها. وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «لَبَّيْك وسعدَيْك، والخيرُ كلُّه في يديك، والشرُّ ليس إليك»[1]. فالآية ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ ...﴾ التعبير باللازم عن الملزوم، وذلك من خصائص القرآن. والله أعلم.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب.

وبعد أن استطرد ببيان حال الشاكرين وحال الكافرين من تاريخ مَنْ مضى من الفريقين، عاد إلى تفنيد شرك مشركي قريش بالأدلة الواضحة والحُجج الفاضحة، بطريقة المحاورة معهم، وأدمَجَ في البحث تهديدَهُم بمصيرهم في الآخرة، وما سيكون لهم هناك. وقد بدأه بهذا التبكيتِ المُبيِّنِ عجزَ آلهتِهم بعدما سبق من بيان قدرةِ الله البالغة، فقال[1]: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنهم آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2] فيما يهمُّكم من جَلْب نفع أو دَفْع ضر.

ثم أجاب عنهم للإشعار بأن الجواب متعيَّن ولا يقبل المكابرة، فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير وشرّ، ونفع وضرّ، لا ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وإنما ذلك كلُّه لله. وتمَّم الجواب بما فيه تسخيف لهم وتهكُّم بهم، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ليس لآلهتكم نصيب في خلق السماوات والأرض، وليس لله منهم مُعينٌ في ذلك.

---

(١) ويجوز أن نعتبر العودة من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾، أو نجعلها حلقة فَصْل بين العودة والتعليق، والله أعلم. (المؤلف).

(٢) تأمَّل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامعَ الطُّرق التي دخلوا منها إلى الشرك، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وحينئذ لا بدَّ أن يكون المعبود مالكاً للأسباب التي ينفع بها عابدَه، أو شريكاً لمالكها، أو معاوناً له، أو ظهيراً أو وزيراً. فإن انتفت هذه الأمور من كلِّ وجه انتفت أسباب الشرك، وانقطعت موارده، ولم يبق إلا الشفاعة، فنفاها عنهم أيضاً، وأخبر أنه لا يشفع عنده إلا من أذن له، وليسوا هناك. فسدَّ الباب على المشركين أبلغ سدّ وأحكمه، ونقض عليهم شركهم من سائر الوجوه، وهكذا تكون حُجَجُه سبحانه في كتابه الكريم، محكمةً واضحة مُلزِمة، مع قلَّة مقدماتها، والمبالغة في الإيجاز. فتجمع بين صفتي السمع والعقل، فتكون سمعية عقلية معاً. (المؤلف).

ثم تابع التفنيد بالردِّ على رأيهم الدارج فيما بينهم، وهو قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، و«نتَّخذهم شفعاءَ لنا عند الله»، فبيَّن حدود الشفاعة وهيئتَها، وصفة الشفيع والمشفوع له؛ ليتبيَّن لهم سَخافة وبطلان ما يعتقدون من أنَّ شركاءهم من أرباب الشفاعة، وأنَّ المشركين ممَّن يُشفَعُ لهم، فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الرحمنُ وقال صواباً، أي: إلا لمن أذن الله أن يَشْفَعَ، ولمن أذن الله أن يُشْفَعَ له من المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً مع المحافظة على الإيمان بالله وحده والعمل بمقتضاه في كثير من أحوالهم. والكَفَرة بمَعزِلٍ عن ذلك، فهم محرومون منها.

وتـمَّم الكلام ببيان كيفيَّة صدور الإذن، توضيحاً لكونه مَقْصوراً على المؤمنين، وتسخيفاً لاعتقادهم أنهم من المشفوع لهم، وأنَّ آلهتهم من الشفعاء، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ وهذا التعبير يُفهِمُ أن ثمَّ انتظاراً طويلاً للإذن، وخَوْفاً رهيباً من أن يُقبَلَ أو لا يُقبَل، ولمن يُقبَل ولمن لا يُقبَل، فإذا كُشِفَ الفزع بصدور الإذن أقبل هؤلاء المذنبون من المؤمنين على اختلاف جرائمهم يستعلمون عن الإذن الصادر؛ لمن يشمل ولمن لا يشمل، و﴿قَالُوا۟﴾ للشفعاء: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ فأجابهم الشفعاء و﴿قَالُوا۟﴾: قال ربُّنا القولَ ﴿ٱلْحَقَّ﴾، وهو الإذن في الشفاعة للمُستحقِّين، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ فلا مردَّ لقوله سبحانه وتعالى.

وفي هذا البيان تهجينٌ لهم في اعتقادهم أنهم ممَّن يُشفَعُ لهم، وأنَّ شركاءهم من أرباب الشفاعة، ولَطْمٌ لهم على الوجوه.

ثم عقَّب تفنيدَ شركهم ببيان اختصاصه سبحانه وتعالى بأفعال الألوهيَّة وصفاتها، وذكر أهمَّ شيء عندهم، وهو الرزق، وأدمَجَ في ذلك مِنَّته عليهم وعلى الناس، فقال:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ ولما كان الجواب لا يقبل المكابرة أجابَ عنهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، فكيف تُشرِكون بعبادته غيرَه؟!

ثم أردَفَ السياقَ بأسلوب الإبهام التَّهكُّمي من أساليب القرآن، فقال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ وهذا الإبهام الصُّوري التَّهكُّمي ـ بعد أن بيَّن مَنْ هو على الهدى ومَنْ هو على الضلال ـ أبلَغُ من التصريح.

ثم أردَفَه بما هو مُتمِّمٌ له من أنهما لا يسأل أحدُهما عن الآخر، وكلٌّ بما كَسَبَ رهين، فقال: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، والتعبير بـ﴿ما أَجْرَمْنَا﴾ عن إيمان المؤمنين مَبْنيٌّ على اعتقاد المشركين أنَّ محمداً وأتباعَه مجرمون بخروجهم عن دين الآباء، وإحداثهم ديناً جديداً.

ثم أردَفَ هذا بيانَ الواقع وما يوجب النظر والتفكير، وسبكه على الوعيد، فقال: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم الحساب، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يبيِّن الحقَّ المغلقَ عليكم، ويحكم بموجبه، ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ أي: الحَكَم العَدْل، بمقتضى علمه الواسع وعَدْله السديد.

ثم عقَّب بيانَ اختصاصه تعالى بأفعال الألوهيَّة بهذا التبكيت؛ زيادةً في الإفحام، فقال: ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي: أروني ماذا عمل الذين جعلتموهم شركاء لله، ممَّا تقدَّم من الأعمال العظيمة في التخليق والترزيق؟ وعبَّر عن نفي الأعمال بما يُؤْذن بنفي الوجود للعمَّال، مبالغةً في ذلك. ويجوز أن يكون المعنى: أرونيها لأنظر بأيِّ صفة ألحقتُموها بالله الذي هذه صفاته؟ يُسَخِّفهم في ذلك ويُشَنِّع عليهم.

ثم رَدَعَهم عن دعوى المشاركة بعدما أبطل المقايسة، فقال: ﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾، وهو وحده الخالق الرزَّاق كما تعرفون، فهو الإلهُ لا ربَّ سواه، وليس

عملكم عن عَجْزٍ في القدرة، ولكنه مبنيٌّ على ما تقتضيه الحكمة من جعلكم مختارين في التصرُّف.

ثم قَرَنَ النتيجة ـ وهي التوحيد ـ ببيان إرساله ﷺ بذلك، وما يتفرَّع عنه من الوعد والوعيد، ليجمع بين دليل العقل والنقل؛ تتميماً للبحث، ونصَّ على تعميم رسالته؛ تقريراً للإلزام، وإثباتاً لها على الوجه العامِّ، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ[1] بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فيحملهم جَهْلُهم وعنادُهم على الغيِّ والضلال والخسران المبين.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مستهزئين بالحشر والحساب: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾؟ فأمره أن يجيبَهم بهذا الجواب المسبوك على التهديد، وقال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، وصيغة الجواب تُشعِرُ بالوعيد الرهيب، وفي ذكر الاستقدام ردٌّ على الاستعجال.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

---

(١) قدَّم ﴿كَآفَّةً﴾ لتدخل على المقصودِ حَصْرُه، ولو قال: (إلا للناس كافة)، أوهَمَ نفي الإرسال لغير الناس، كالجن، وهو غير صحيح، فقدمت دفعاً لهذا الالتباس، فأراد سبحانه أن يكون الدين الإسلامي ديناً عالمياً، ولأنه يتوقف على اللغة العربية، كانت هي أيضاً عالمية. ثم انظر هذه الفائدة العظمى للبشر، وهي الاتحاد في الدين وتعلّم لغته، يفهمون بها دينهم، ويؤدونه بها، ويتفاهمون فيما بينهم، فأي فائدة ورابطة أعظم من هذا للبشر أجمعين، ولكن أكثرهم لا يعقلون، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. (المؤلف).

ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا السياقَ المتضمِّنَ لإنكارهم التوحيد والرسالة والحشر، ببيان إنكارهم ـ كلِّهم أو بعضِهم ـ لسائر الكتب المنزّلة في ذلك، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المُنزّلة التي تقدَّمته ـ كالتوراة والإنجيل ـ وما جاء بها من أمر التوحيد والرسالة والبعث.

وقد عَلَّق سبحانه وتعالى على قولهم هذا بما يُوقفهم على مصيرهم نتيجةَ كفرهم وتقليدهم، وسَبَكه على التهديد، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المنكرون للبعث ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ للحساب ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يتحاورون فيما بينهم ويتخاصمون ويراجعون القول، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ في الدنيا واستَتْبعوهم في الغيِّ والضلال وهم الرؤساء: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ أي: لولا إضلالكم وصدُّكم لنا عن الإيمان، ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ باتِّباع الرسول.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم الرؤساء ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وهم الأتباع: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾؟ ينكرون عليهم ذلك، ويردُّون عليهم

الوصف قائلين: ﴿بَلْ كُنتُم﴾ أنتم ﴿مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ مِثلَ إجرامنا، يريدون أنهم قد أفسدوا طبائعهم ففقدت الاستعداد للهدى الذي كانت مطبوعة عليه، فتأثَّرت بالإضلال، ولو كانوا محافظين على سلامتها لم تتأثَّر بذلك، يقولون هذا بعد أن كُشِفَ عن الغطاء، وأبصروا ضلالهم في الدنيا من أين جاء على حدٍّ سواء.

فأجابهم الأتباع عن هذا بما حكاه سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مكركم الدائم بنا ليلاً ونهاراً، وفتلكم لنا بالذِّروة والغارب[1]، ﴿إِذْ﴾ تُغْرونا و﴿تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾، فهذا هو الذي أفسد طبائعنا عن رؤية الحق والتأثُّر بالهدى، فضللنا بإضلالكم لنا.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كان من أمر الفريقين، فقال: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من الفريقين، بما أفسدوا من طبائعهم واقترفوه من المعاصي والآثام، ثم نعى عليهم بقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: إنَّ ذلك أثر لازم من آثار كسبهم، بحسب سنن الكون، مهما كانت صورة الكسب، ولم يُخلَقوا على الضلال خَلْقاً، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وكل مولود يولد على الفطرة السليمة.

ثم بيَّن تعالى أنَّ معارضة الـمُترَفين والرؤساء للرسل والـمُصْلحين سُنَّة من سُنَن الاجتماع، وذلك لأنَّ الإصلاح والإرشاد يهدم عليهم كيانهم ومقامهم ومراكزهم، ويحطُّ من جبروتـهم وطغيانهم، فيَسْعَون لمعارضته، ويُضلِّلون الناس عن طريقه،

---

(١) الذروة: أعلى السنام وأعلى كل شيء. والغارب: مقدَّم السنام. وأصل فَتْل الذروة والغارب هو أن يجيء الرجل بالخطام إلى البعير الصعب، وقد ستره منه لئلا يمتنع عليه، فيأخذ في فتل أعالي سنامه حتى يأنس به، فإذا تمكن منه وضع له خطام. والخطام: ما يوضع في أنف البعير ليقاد به. يقال للرجل: لا يزال يخدع صاحبه حتى يظفر به.

ويصرفونهم عن الميْل إليه، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وفيه تسليةٌ له ﷺ بأنَّ أهل قريته هؤلاء قد جَرَوْا على منهاج الأوَّلين في ذلك، بحسب قواعد الاجتماع وسنة الطبيعة المحرَّفة بفساد التربية وسوء التقليد.

ويقول علماء الاجتماع: إنَّ المُترَفين في كلِّ عصر يحافظون على الوضع الحاضر، ويقاومون بكلِّ قواهم الإصلاحَ والتجديدَ حرصاً على مراكزهم.

ثم تابع السياق بعد الاعتراض، وذكر لهم رأيهم الركيك الواهي الذي يتعلَّلون به ويستدلُّون في أنهم على الحق، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أي: نحن أوفرُ حظاً في هذه الحياة منكم، وما ذلك إلا لكرامتنا على الله، إذ لو لم نكن مرضيِّين عنده لَـمَا أعطانا هذا العطاء، فلنا الآخرة كما لنا الدينا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ فيها.

فردَّ الله عليهم ناقضاً لهم هذا الرأيَ وهذا القياس، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يسعى في طلبه بحسب السنن الطبيعيَّة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾[1] على مَنْ لا يسعى في ذلك، ولا يقاس على البَسْط والقَدْر للرزق أمرُ الثواب والعقاب والرضا والغضب

(١) إنَّ الله سبحانه لم يجعل نظام رزق الإنسان كنظام رزق الحيوان فردياً في السعي والحصول عليه، بل جعل نظام رزق الإنسان اجتماعياً لا يتمُّ إلا بتعاون الأفراد. فأما اختصاص كل واحد بمهنة من تلك الحاجيات، فمبنيٌّ على الميْل والعَزْم ونوع التثقيف وغير ذلك من الظروف. وهذا النظام يجعل التفاضل في الرزق أمراً طبيعياً، إذ يكون فيهم التاجر والزارع والعامل والصانع على اختلافهم في المراتب والهمم والميول، ومنهم الغني والفقير، والمأمور والأمير، والجليل والحقير، نتيجةً لميل الإنسان وسعيه ومقدار نشاطه وعزمه. فإسناد البسْط والقَدْر إلى الله تعالى باعتبار هذا النظام، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، فقد جعل الحَرْث وإرادته بالسعي إليه، سبباً للإيتاء. والله أعلم. وقد أمر الغني أن يعاون الفقير بفضل ماله، موازنة لهذا الحال، وتتميماً وتسديداً لهذا النظام. (المؤلف).

من الله تعالى، وإنما هما أمران لازمان لأسباب طبيعية، فمَن تعاطى أسباب الغنى ناله ولو كان أشدَّ الناس كفراً، ومن تقاعد عنها افتقر ولو كان أعظم الناس إيماناً[1]. وكذلك الأمر في الأولاد، إذ لا مُحاباة في سُنن الله تعالى، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فيزعمون أنَّ أسباب بَسْط الرزق هو الكرامة على الله، وأسباب التضييق والتقتير هو الهوان عليه تعالى، نتيجةً للرضا أو الغضب منه تعالى، وهو زعمٌ فاسد.

ثم قرَّر هذا الردَّ وصرَّح به، فقال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾، ثم بيَّن الأسباب المقرِّبة عنده تعالى بطريقة الاستثناء المنقطع، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: تُضاعَفُ لهم حسناتُهم أضعافاً كثيرة ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الصالحات، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: وهم في غرفات الجنَّات آمِنون من المكاره.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يمشون في السعاية بها والمشاغَبة عليها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لنا بزَعْمِهم ومُغالبين ومُعارضين، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ من جرَّاء إجرامهم هذا، ولو كانوا من أرباب الأموال الطائلة، والمراكز العالية.

---

(١) لا شك أن معاطاة الأسباب لتحصيل الرزق أمر ينبغي للعبد مراعاتُه وعدمُ إغفاله، مع توكُّله على الله تعالى؛ إذ لا منافاة بينهما، لكن بَسْط الرزق وقَدْره ليس متوقفاً على معاطاة الأسباب فحسب ـ كما يدل عليه كلام المؤلف ـ، بل الأمر أوسع من ذلك، فكم من متعاطٍ للأسباب ساعٍ في تحصيل الرزق أشدَّ السعي وهو مُضيَّقٌ عليه في رزقه، وكم من مُقصِّر في ذلك وهو مُوسَّعٌ عليه في رزقه، لحكمة يريدها الله تعالى فيهما، فالصواب: إطلاق المشيئة المذكورة في الآية الكريمة، مع عدم إغفال ارتباطها بالحكمة.

ثم إن الإيمان سبب من أسباب تحصيل الرزق، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢]، فقول المؤلف: «ومن تقاعد عنها افتقر ولو كان أعظم الناس إيماناً» فيه نظر. نعم، قد يفتقر المؤمن لحكمة يريدها الله كما سبق بيانه، لكنْ لا ينبغي القول بعدم تأثير الإيمان مطلقاً على سعة الرزق.

ثم أعاد البيانَ عن قاعدة بَسْطِ الرزقِ وقَدْرِهِ تكميلاً لشأنه، فبَنى عليه حَثَّ المؤمنين على الإنفاق ورَغَّب فيه؛ ليسدَّ مَنْ بُسِطَ له الرزق حاجةَ مَنْ قُدِرَ عليه، ووَعْدَ الـمُنْفِقَ بالإخلاف عليه، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

وقال البيضاوي في الفرق بين الآيتين: إنَّ الأولى في شخصين اثنين؛ واحدٌ قد بُسط له الرزق، والآخر قد قُدِرَ عليه، أما الثانية ففي شخص واحد؛ بُسِطَ له حيناً، وقُدِرَ عليه حيناً[1].

أقول: وكلُّ ذلك بحسب الأسباب والسنن الكونية، فـ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩][2].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم ذكر ما يكون من أمر هؤلاء المشركين يوم الحساب وفشلهم والسقوط في أيديهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: الـمُكَذِّبين بك والمكذِّبين بمن تَقَدَّمك من الأنبياء، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الذين كان يعبدهم بعضُ المشركين: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا

---

(١) ينظر «تفسير البيضاوي» (٤: ٢٤٩).

(٢) أي: بسبب منك، فكَسْبُ العبد هو السبب في وقوعه في المصائب والبلايا والسيئات، وهي واقعة بخلق الله وإيجاده، كما أن الحسنة واقعة بخلق الله وإيجاده، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾؟ وهذا الاستفهام لتقريع المشركين وتبكيتهم، على حَدِّ قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ ...﴾ [المائدة: ١١٦]؟

فأجاب كما أجابت الملائكة، إذ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: لا والي غيرك، يقرِّرون بهذه الموالاة براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم. ومضمون الكلام: أنت معبودُنا ومعبودُ كلِّ الخلق، لا معبود سواك.

وبعد أن تنصَّلوا من ذلك، ذكروا حقيقة أمر هؤلاء المشركين، زيادةً في الرد والإلزام، وقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، بمعنى: أطاعوهم في وسوستهم لهم بعبادة غير الله.

أما قوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ فهو من أساليب القرآن في تحرِّي الصدق الدقيق. ومعنى إيمانهم بهم: اعتقادُهم أنَّ ما يُوجِّهونهم إليه من العبادة للغير مع عبادة الله هو الحقُّ الحقيقُ بالقبول. ويجوز أن يُراد من ذلك: استكثار أشرار الجنِّ من أشرار الإنس، كما جاء في سورة الأنعام[1]، فارجع إليه. والله أعلم.

ثم وجَّه القول للمشركين والملائكة وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، وإنما وَجَّه هذا للجميع ـ بما فيهم الملائكة الذين أجابوا بالتَّنزُّه والتبرؤ عما نَسَبَ إليه الكَفَرة ـ إظهاراً لعجزهم، وتَنْصيصاً على ما يُوجب خيبة رجاء الكَفَرة العابدين لهم.

ثم خصَّ الكَفَرة بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم العَبَدة المشركون: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾، وأما المعبودون الذين لا يرضون بعبادة هؤلاء الجَهَلة لهم، فلا إثم عليهم ولا جزاء.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ...﴾ [الأنعام: ١٢٨].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ۚ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ثم تابع الكلام، فشَرَحَ حالهم في الدنيا التي استوجبت هذا البلاء في الأخرى، فقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ بحقيَّة التوحيد وبطلان الشرك، ﴿قَالُوا۟﴾ عن الرسول الذي جاء بذلك: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يُحرِّكون بذلك في قومهم عِرْقَ العصبية، ويُهيِّجون نزعةَ التقليد للآباء. ثم بالغوا في الإغراء والإنكار، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ الذي جاء به ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كلامٌ غيرُ حق، وفي إسناده إلى الله افتراء، فهو ﴿مُّفْتَرًى﴾ ومكذوبٌ على الله.

ثم ذكر لهم في ذلك ما هو أكثرُ صدوداً منهم عن الحق، وأبعَدُ في الضلال والإنكار، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي: قوي التأثير في الباطل. فبيَّن سبحانه وتعالى أنَّ أقوالهم هذه ومعارضتهم لما جاء به الرسول، لم تَبْنِ على

منطق، وإنما هي الـخَطَل[١] والسفاهة، وسَبَك ذلك على التَّهكُّم بهم في شركهم، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ تُنبِّههم أو تُصرِّح لهم بصحَّة الإشراك. فالآية نظير قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١].

ثم قرَّر المعنى وتـمَّمه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾؛ يَهْزأ بهم ويتمرَّد عليهم. وقد عبَّر بهذا النفي عن قِدَمِ عَهْدهم بالنذير وحاجتهم الشديدة إلى إرسال الرسول.

وخلاصة المعنى لقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم ...﴾: أنهم يُكذِّبونكم من غير حُجَّة لهم، أي: أنَّهم لا يرجعون في تكذيبك إلا إلى الجهل والعناد، واتِّباع الهوى والفساد. فالكلام تبكيتٌ مسبوك على التهكُّم والتسخيف[٢].

---

(١) الخطل: المنطق الفاسق. «لسان العرب» (خطل).

(٢) في تفسير الآيات ٤٢-٤٤ وجهٌ آخرُ قويّ، وهو الذي رجّحتُه في تفسيري «المعين» بدلالة السِّياق، وهو أنّ هذه المقولات الخمس من مقولات الكافرين، وقلتُ هناك في تفسير هذه الآيات ص٤٣٣: «وإذا تُتْلى على الكفار طائفةٌ من آيات القرآن حالةَ كونها واضحات، قال المشركون خمسَ مقولاتٍ كاذبات:

المقولة الكاذبة الأُولى: ما محمدٌ إلا رجلٌ يريد أن يَصرِفكم ويُحوِّلكم عمَّا كان يعبد آباؤكم.

المقولة الكاذبة الثانية: وقالوا: ما هذا القرآنُ الذي يتلوه محمَّدٌ إلا كلامٌ كَذِبٌ في نفسه، مُختَلَقٌ ومُصْطَنعٌ عن عَمْد، من حيثُ نسبتُه إلى الله.

المقولة الكاذبة الثالثة: وقال الكفار عن الحقِّ الإعجازي في القرآن لـمّا جاءهم من عند الله: ما هذا التأثير الذي يكون من القرآن في النفوس عند تلاوته، إلا بسبب كونه نوعاً من أنواع السِّحر الظاهر، لا بسبب كونه كلاماً معجزاً مُنزَّلاً من لَدُنْ ربِّ العالمين.

المقولة الكاذبة الرابعة: وزعموا أنَّنا لم نأتهم بكُتُبٍ ربّانيّة يدرسونها، ويُؤمنوا بما جاء من حقٍّ فيها. =

وهذه الآية تُـرشد إلى أنَّ المعارضة والمناظرة يجب أن تسير على طريق منطقيّ صحيح، وأن تستند إلى برهان علميّ أو نقل مقبول، لا أن تكون جزافاً بمقتضى الميل والهوى.

ثم هدَّدهم بما جرى على أمثالهم في الأمم الماضية، وزاد في التهديد والترهيب بأنَّ أولئك كانوا أقوى منهم وأعلى كعباً في هذه الحياة، فلم يمنعهم ذلك من عذاب الله، فقال: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾، وفي هذه الآية زيادةٌ في التهديد لهؤلاء، أي: ما بَلَغَ هؤلاء عُشرَ ما آتينا أولئك من القوَّة والجاه والمال في هذه الحياة، ومع ذلك ما قَدروا على النَّجاة من بطشنا.

ويجوز أن يكون الكلام زيادةً في التبكيت لهم، أي: ما بلغ أولئك الماضون عُشرَ ما آتينا هؤلاء من البيِّنات والهدى، لأنَّ هذا القرآن لا يُدانيه كتابٌ سماويٌّ سابق؛ لأن القرآن من العلوم العالية، فلم يُنزِله سبحانه حتى بلغ النوعُ البشري أولَ كماله في المعرفة والعلوم.

ولـما عارضوا ما جاءهم من الـحق في كُتبهم ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ أنكرتُ عليهم وأهلكتهم. وقد أقام مقام هذه الجملة قولَه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾؟ أي: فكيف كان بطشي بهم؟ وهذا الاستفهام للتهويل والتفظيع. والجملة تهديدٌ لهؤلاء بمثل ما جرى على أولئك. والمراد: أننا أهلكنا أولئك حين كذَّبوا رسلنا، فَلْيتنظر هؤلاء ما ينزل بهم من الهلاك والاستئصال؛ لأنهم أحقُّ منهم بذلك.

= **المقولة الكاذبة الخامسة**: وقالوا: إنَّ الله ما أرسَلَ إليهم قبل محمد ﷺ رسولاً مُبَلِّغاً ومُعلِّماً وهادياً ومُبَشِّراً مَنْ آمن وأطاع بجنّات النعيم، ومُنذِراً مَن كفرَ وعصى بعذاب النار يوم الدين. إنهم يقولون هذا القول مع افتِخارهم بجدِّهم إسماعيل بن إبراهيم، وإيمانهم بأنهما رسولان، وهم يُعلِنون أنهم وارثو مناسك الحجِّ عنهما»؟!

ثم أردف الإنذارَ بالإرشاد والتبصير على نهج القرآن، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: بطريقة واحدة، وهي: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: تقوموا مخلصين النيَّة؛ اثنين اثنين، أو واحداً واحداً، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ والمراد: أن يقوم بالتفكير كلُّ واحد بنفسه، أو متناظراً مع آخر، لأنَّ الحقَّ إنما يتبيَّن بهذه الصورة، لا أن يعتمد على التقليد الأعمى للآباء والأجداد، أو يندفع مع التيار العام الجارف المهوش، إذ ليس في ذلك إلا الضلال والتَّضليل، أما إذا فعلتم ما أقول وناقشتم القضيَّة بعقولكم مخلصين، تَبيَّن لكم أنَّ محمداً رسولٌ صادقٌ، ونذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديد.

والمراد من القيام: الشُّروع بالأمر، وفي التعبير بـ«صاحبكم» تمكينٌ للردِّ، لأنهم يعلمون ماضيَه حقَّ المعرفة، وأنه صادقٌ أمينٌ، وبعيدٌ عن الخرف والجنون. ويجوز أن تكون صلة ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ محذوفة، أي: في أمر محمد، وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ كلامٌ مستأنفٌ لتقرير مضمون تلك الصِّلة.

وبعد أن ذكر لهم كيفيَّة التَّبصُّر بأمره حتى يظهر لهم الحق فيه، أمره أن يُذكِّرهم بأنه بعيدٌ عن تهمة طلب الرياسة بهذه الدعوة، والاستفادة الدنيوية من ورائها، فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، وفي صورة التعبير ردٌّ هازئ، على نهج القرآن في مثله. ومحصَّله: أنه لا يطلب على دعوته أجراً حتى يتَّهموه بأن غَرَضَه منها عَرَضُ الحياة الدنيا، وإنما يطلب الأجر من الله، كما قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ فهو يعلمُ صدقي وخُلوصَ نيَّتي، وعِنادَكم في باطلكم تجاه الحق.

ثم صرَّح بنتيجة ما سبق ـ وهو أن ما جاء به الرسول إنما هو وحيٌ من الله حق، وسينتصر على الباطل ـ يردُّ بذلك على هؤلاء المنكرين المعارضين، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي

﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يلقيه على ما يجتبيه من عباده لرسالته. أو المعنى: إنه يرمي به الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وهو ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾، فأفعاله كلُّها مَبْنِيَّةٌ على الحِكَم والمصالح بحسب علمه الواسع في الأشياء، حاضرِها وغائبِها.

ثم قرَّر هذا المعنى ببيان أنَّ ما جاء به هذا الرسول هو الحق الذي لم يَبْقَ معه للباطل بقاء ولا مجال، فقال: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: جاء الحق، ولم يبق للباطل معه إبداء ولا إعادة، ولا إقبال ولا إدبار، أي: لم يَبْقَ له عمل ولا تأثير، ولا فعلٌ ولا ردّ، لكن بَطَلَ فِعلُه وتعطَّل. وهذا تمثيلٌ لضعف الباطل تجاه الحق، كالرجل الضعيف بمحضر الرجل القويِّ المَهيب، لا يتحرَّك ولا يتكلَّم. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهامية للإنكار عليهم بنفس المعنى المذكور، أي: ماذا يصنع الباطل تجاه الحق؟

ثم أمَرَه أن يُبيِّن لهم الفرق بين عاقبة الضالِّ والمهتدي، مُلمِعاً إلى أنَّ الله سبحانه قد هَدَى الناسَ بالوحي، فمَنْ ضَلَّ بالإعراض عنه فقد ظلم نفسه، وقد جعل الحديث عنه نفسه ﷺ مراداً به العموم، وأدمج في ذلك شُكرَ الله سبحانه على هدايته له ومنَّته عليه فيها، فقال: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ ويرجع وبالُ ضلالي عليها، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فله عظيمُ الشكر وجليلُ المنَّة على ما أوحى به من الهداية. يُنوِّه بشأن ما هَدَاه الله إليه بهذا القرآن، ويبيِّن أن مَنْ ضلَّ عنه خسر خسراناً مبيناً.

ثم قَرَنَ البيان بما يتضمَّن الوعيد لهؤلاء الضالِّين، فقال: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ يسمع كلامي وكلامكم، ويرى فعلي وفعلكم، ويُجازي كلاً بعمله، وإن لم يُجازِ عاجلاً يجازِ آجلاً.

ثم خَتَمَ المناقشةَ بالوعيد، على نهج القرآن، كما بيَّن ذلك بقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ ﴾ أي: ولو تراهم حين يأتيهم العذاب فلا هَرَب منه ولا تحصُّن ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾، وهذا تمثيلٌ لأخْذِهم بشدَّة، لأنَّ البطش من قُرْب أشدُّ منه من بُعْد.

ثم ذكر نَـدَمَهم حينئذ ورجوعَهم إلى رُشْدهم، ولكن لم يُـجْدِهم نفعاً إذ ذاك، فقال: ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ لـما رأوا العذاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾[1]، فأنكر ذلك عليهم وجَهَّلَهم بقولـه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ ﴾ أي: التنـاولُ ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾، فشبَّـه إقـرارهم بالإيمان بعد فوات الوقت ودُنوِّ العذاب بمَنْ يتناولُ الشيء من مكان بعيد؛ في الاستحالة وعدم الإمكان. يريد: أنّ إيمـانهم هذا ليس بإيمانٍ، ولا يُـجْديهم نفعاً، كيف ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ[2] مِن قَبْلُ ﴾[3] وتمكَّن منهم الكفر والطغيان؟ ﴿وَ﴾ كانوا في ذلك الإنكار ﴿يَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ أي: يرجمون بالظنِّ البعيد والشُّبه الواهية في مُعارَضةِ النبيِّ ﷺ وما جاء به، حتى تَـمَكَّن منهم الضلال والعناد. وهذا تمثيلٌ لِشِدَّة سَخافةِ رأيهم في قولهم: لا بَعْثَ ولا جنَّة ولا نار.

ثم بيَّن ما كان من أمرهم في الدنيا، جزاءَ تلك المعارضة، فقال: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من غَلَبتهم لرسول الله ﷺ ومَحْق ما جاء به، وذلك باستئصال أكثرهم، وغلبة المسلمين عليهم، وظهور الحق على الباطل، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أي:

---

(١) أي: آمنّا بالحق الذي جاءنا به الرسولُ وبلَّغَنا إيّاه.

(٢) أي: كفروا بالقرآن وبمُحمَّد ﷺ وأنباء يوم الدين.

(٣) أي: من قبل أن يُعاينوا العذابَ وأهوالَ يوم القيامة.

بأشباههم من كَفَرة الأمم الغابرة ومُعارِضي الرسل الماضية[١]، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: من صحَّة ما جاء به النبيُّ ﷺ من البعث والنشور[٢]. وفيه وجهٌ آخر، وهو التبكيت والتنديم على إنكارهم ما كان يتوعَّدهم به من نزول هذا العذاب الذي نَـزَل بهم واستأصَلَهم.

* * *

(١) ذهبَ المُفسِّر إلى أن ما وقع للكفار من عذاب إنما هو في الدنيا، والأرجح: أن الحديث عن عذاب الآخرة بعد بَعْث الكفار من قبورهم، كما يدلُّ عليه سياق الآيات. والمعنى ـ كما في تفسيري «المعين» ص٤٣٤ ـ: «وأُقيمَ حائلٌ حاجزٌ في الآخرة بين الكفّار وبين ما يشتهون من الإيمان المقبول، والتوبة المُنجية، والرجوع إلى الدنيا، كما فعل اللهُ بنظرائهم ومَنْ كانوا على مثل حالهم من الكفار، فلم تُقبَل منهم التوبةُ والإيمانُ في وقتِ اليأس، وأُدخِلوا في دار العذاب كما أُدخِلَ أشباهُهم من قبلهم».

(٢) والمعنى أيضاً: إنهم كانوا جميعاً في شكٍّ من البعث ونزول العذاب بهم، مُوجِبٍ للقَلَق والاضطراب، يُوقِعُ في تُهمتِهم بأنهم عالمون بالحقِّ وجاحدون به عناداً؛ ودوافعُهم إلى الشكِّ نابعةٌ من أهوائهم وشهواتهم، ورغبات نفوسهم من متاعات الحياة الدنيا.



وتسمَّى سورة الملائكة أيضاً، وهي خمس وأربعون آية

جاء فيها إثبات اختصاصه بالحمد، فيدور الكلام فيها على ما يستحق به الحمد من الأعمال الجليلة، وما يُلابس ذلك.

وكان قد ختم السابقة بقطع رجاء المكذِّبين، وافتتح هذه بما يتضمَّن رحمة المؤمنين.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقِهما ومُبْدِعِهما. وبعد أن ألمع بهذا الوجه من استحقاق الحمد إلى اختصاصه بأفعال الألوهيَّة وصفاتها، أومأ إلى وجهٍ آخر من استحقاقه للحمد، وهو الوحيُ والرسالة، فقال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ يُسْرِعون بها في مهامِّهم وتبليغ رسائلهم إلى الأنبياء والمرسلين. وليست هذه الأجنحة كأجنحة الطير، لأنَّ عالم الملائكة لا يشبه شيئاً من عالم المادة، وغاية ما يمكننا أن نفهمه عنها أنها أعضاء أو هيئات فيهم، لسرعة الانتقال، متناسبة مع خِلْقتهم وأجسامهم، أو هي كناية عن طبيعتهم في سرعة الانتقال ليس إلا[1].

---

(١) في هذا القول عدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز من غير قرينة دالة عليه، والحقيقة غير ممتنعة على الوجه المشروح أولاً، وهو عدم مشابهتها لأجنحة الطيور، فيتعين القول بها، ثم قد ثبتت رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية مرتين، وله ست مئة جناح، وهذا التعدُّد فيها يمنع القول بأنها كناية.

ويتفاوت ذلك فيهم بتفاوت أصنافهم ومراتبهم، وما أُنيط بهم من المهام والتكاليف، وقد عبَّر عن هذا التفاوت بقوله: ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، ينزلون بها ويَعرُجون، ويُسْرعون بها ويقطعون المسافات البعيدة بأوقاتٍ قصيرة لتنفيذ مهامِّهم وأداء أماناتهم التي أُنيطَتْ بهم؛ يردُّ بذلك على مَنْ ينكر الوحيَ من المشركين، لبُعد المسافة بين السماوات والأرضين.

ثم أردف ذلك بهذا البيان العام المُتضمِّن للتمنُّن والتمجُّد، فقال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[1] مما يحتاجه المخلوق من مواهب وأعضاء بمقتضى العلم والحكمة، تكميلاً للأرواح والأبدان. فيزيد في كلِّ جنس عن غيره ما يحتاجه، وفي كلِّ صنف ما يُميِّزه عن سائر نوعه بحسب الحكمة البالغة. فمن تلك الزيادة: اختصاصُ المَلَك بقوَّة السرعة دون البشر، وتفاوت صنف عن صنف في ذلك. ومنها: خصائص رسل الملائكة التي يمتازون بها عن بني جنسهم، وخصائص رسل البشر الروحيَّة التي يمتازون بها على بني الإنسان بنتيجة الكمال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

وبعد أن بيَّن كمالَ القدرة بيَّن نفوذ سُننه ونَفَاذ أمره؛ تنويهاً بشأن قدرته، وتمنُّناً بفَضْلٍ آخرَ من مصادر حَمْده، وهو التأييد لِـمَا يفتح الله للناس من رحمة، ولا سيما ما كانت

---

(١) هذه الزيادة تكون في الأجناس والأنواع والأصناف والأفراد، في الماديات والمعنويات، مثل قوة الأسد، وجمال الطاووس، وجناح الطير، ومخلب البازي، وكمال الأنبياء، وعبقرية النبهاء، وذكاء الأذكياء، وحُجَّة البلغاء، وسلامة التفكير، وجودة التعبير، وقوة ذلك في بعض الأفراد إلى درجة العجب العجاب، ولو أردنا التفصيل لاحتجنا إلى مجلد كبير.

والناسُ ألفٌ منهم كـواحِـدٍ ... وواحدٌ كالألفِ إنْ أمرٌ عَنَى (المؤلف).

والبيت نسبه أبو البقاء العكبري في «شرح ديوان المتنبي» (١/ ٣٨٠) لابن دريد، ولم أقف عليه في ديوانه.

على يد الأنبياء، والتخذيل لمن يعارضها، فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ بمقتضى سُننه العامة ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: لا أحد يقدر على ردِّها ومنعها، ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: فلا أحد يقدر على إطلاقه أو إيجاده إلا بإذنه وسننه الكونية، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعارَض في إرادته، ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ الذي يفعل الأشياء بمقتضى حكمته.

فالآية تردٌّ على مثل مَنْ ينكر أن تكون النبوة في محمد ﷺ دون عظماء قريش، وعلى مَنْ ينكر من اليهود وغيرهم أن تكون النبوة في العرب دون اليهود، فهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وبعد هذا البيان ذكر من مصادر الحمد نِعَمَ الله تعالى على الإنسان، وسَبكَه على اختصاصه سبحانه بصفات الألوهية وأفعالها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ ولما كان الجواب لا يقدرون على إنكاره، قرَّر لازمَه ـ على نهج القرآن في مثل ذلك ـ فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ وتُصرَفون عن هذا الحقِّ الباهر البيان إلى الباطل الظاهر البطلان، فيتَّخذ لكم آلهة تعبدون.

ثم سلَّاه ﷺ عن عِنادهم هذا، وبيَّن أنه سنة كونية اجتماعية لا تَتبدَّل، جَرَت في السابقين، وتجري في اللاحقين، وسَبَك الكلام على توعُّدهم، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤﴾ فيُجازي المكذِّبين بما يستحقُّون من الجزاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾.

وبعد أن قـرَّر التوحيد، أتبعه بتقرير الأصل الثاني، وهو الحشر ـ على نهج القرآن في ذلك ـ مُبيِّناً أنه حقٌّ واقع، فلا ينبغي أن تَغُرَّهم عنه أسباب دنياهم، أو الشيطان الذي هو عدوُّهم اللدود الغرور، فينصرفوا إلى أسباب الدنيا دون أسباب الآخرة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ وهو الشيطان يغرُّكم بوساوسه وأمانيه، ألا ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ولا تسمعوا وساوسه، فإنه ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾، وهذا المعنى النادر الذي أفاده لام العاقبة والمآل هو منتهى البلاغة في مقام التحذير والتنذُّر بعكس الآمال، ويسمَّى في علم البديع بحُسْن التعليل. والجملةُ تقريرٌ لعداوته، وبيانٌ لغرضه من دعوة حزبه إلى ما يدعوهم إليه.

ثم بالغ في التحذير ببيان المصيرَيْن، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾.

ثم علَّل الحالَيْن بما بين الصِّنفَيْن من فرق في الأعمال التي استوجبت ذلك، فقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ بإفساده لفطرته ومَـحْو نور بصيرته حتى رسخ على الضلال، ﴿ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ وتمادى فيه، وعارض الحقَّ وعاداه، كمن هَداه الله للرشاد بمحافظته على سَلامة فطرته ونور بصيرته، فأجاب الحقَّ حين دعاه؟! كلّا.

ثم علَّل الأمرين من الهُدى والضلال بسُنَّة الله العامة في طبيعة البشر وأخلاقه، وجعل الكلام في مقام المعادل للاستفهام، وهو كمن حافظ على سلامة طبيعته، على نهج القرآن في مثله، وقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾[1] وهم الذين ينشؤون على إفسادهم

---

(١) لا يتبادر إلى ذهنك أنَّ الله سبحانه يخصُّ من يشاء بالإضلال قصداً، أو يخلقه ضالاً، كلا، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وإنما المراد: ضلال العبد نفسه بمعاطاة الأسباب المؤدية إليه. =

لفطرهم، وتحريفهم لطبائعهم، فيُعرضون عن أسباب الهدى، ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين يحافظون على سلامة فطرهم ونور بصائرهم، وعلى استعدادهم الطبيعي للهداية؛ إذ قد مَضَتْ سُنَّته تعالى في طبيعة الإنسان، إذا تَـمادَى في شيء وانطبع عليه، أن لا يميل إلى ضدِّه، ولا يراه جديراً بالنظر والتفكير فيه، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ إن لم يؤمنوا؛ إذ لا تغيير لسنَّـة الله في خلقه، وهي أنَّ من تشبَّع بالضلال لا يميل إلى الهدى والرَّشاد، ولكنهم سينالون جزاءهم فيما يعملون؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

وتُلهم الآية: أنها نَزَلت في وقت اشتدَّ فيه الحزن والغمُّ في نفس النبيّ ﷺ بسبب موقف الجحود الذي يقفه قومه من دعوته؛ لأن نفوس المصلحين ـ ولا سيما الأنبياء ـ

= كما يقال: لقد أعماه الله، وما العمى إلا مرض طارئ ينشأ من تقصير الإنسان في قوانين الصحة لحفظ العين والبصر. فالمراد: أنه يَضِلُّ بإفساده لطبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، وكذلك مشيئته سبحانه لا تجري جزافاً واعتباطاً، وإنما هي أزليَّـة جارية بالحقِّ والعَدْلِ في سنن مُطَّردةٍ لا تَتَبدَّل. فقد سبقت مشيئتُه تعالى أنْ ألهم كلَّ نفس هُداها، وعرَّفها بواسطة الرسل فُجورَها وتَقْواها، فكان ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. فمثل هذه الأحكام تكون ذات وجهين في النسبة: تنسب إلى الله سبحانه؛ لأنه واضع تلك السنن الطبيعية، وتنسب إلى الإنسان؛ لأنه هو الفاعل المباشر لها، كما تقول: أيبس الساقي الأشجار، حيث عطشها. وتقول: أيبس الله الأشجار؛ لأنه وضع هذه السنة فيها، وهي أن تيبس إذا عطشت. (المؤلف).

قلت: لكن قوله في أول كلامه: «لا يتبادر إلى ذهنك أن الله سبحانه يخص من يشاء بالإضلال قصداً» الصواب فيه أن يقال: «بالإضلال جبراً»، لأن ما ذكر بعده ينفي إجبار الله تعالى عَبْدَه على الضلال، لكنه لا يخرج عن إرادة الله تعالى، فكل ما يجري في الوجود واقع بإرادته سبحانه.

يُؤْلمهم كلَّ الألم انصرافُ الناس عن دعوتهم الحقّة، على ما فيها من خير واضح، وصلاح باهر، ونور لامع، وعاقبة حُسْنى ليس لها مثيل.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾.

ولما كانت حَسَراتُه عليهم لضلالهم تَتضمَّن إنكارَهم للحشر، أثبته سبحانه بقياس النظير، مسبوكاً على ما يستحق عليه الحمد والثناء الجزيل من مصادر حمده، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي: أخرجنا خُضْرَتها بعد يبسها، و﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ فهو إحياء بعد إماتة، كإحياء الأرض بعد موتها، فهذا نظير ذاك؛ إذ طبيعة الربيع في إحياء النبات بعد اليبس[1]، كطبيعة زمن البعث في إحياء الأجسام من عَجْب الذنب، كما جاء في الحديث[2]. والله أعلم.

---

(١) انظر ما تقدم تعليقاً عند تفسير الآية ٨٣ من سورة المؤمنون.

(٢) سبق تخريجه (٤: ٤٢٨).

والواو في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ ﴾؛ إما للابتداء، أو للعطف على مضمون قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ﴾ [فاطر: ٣]، لأنَّ مضمونه: الله هو الذي يخلق ويرزق ويُنزِّلُ الغيث، أو للعطف على محذوف، على نهج القرآن. والتقدير: الله الذي فعل كذا وكذا، والله الذي أرسل الرياح.

ثم أشار إلى ما كان يمنع الكفار من الإيمان، وهو توهُّمهم أنهم إنْ آمنوا أضاعوا عِزَّتهم ومركزهم، حيث يصبحون تابعين بعد أن كانوا مَتْبوعين، فردَّ عليهم وَهْمَهُم هذا ببيان أنَّ من يطلب العزة يجدها عند الله، وأنَّ حزب الكفَّار مغلوب بالنتيجة مهما دبَّر من المكر والخديعة، فقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾، وقد ضمَّن الآية أيضاً رداً لمثل ما حكاه عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم: ٨١]، فبيَّن أنَّ من يطلب العزَّة فليطلبها عنده تعالى، وَلْيتعزَّ بطاعته، والعمل بتعاليمه المُفْضِيةِ إلى العزَّة والسعادة.

ثم ألمع إلى ما يُطلَبُ به العزّةُ عنده تعالى، وهو الإيمان والعمل الصالح، وجَعَله كالتعليل لِـمَا قبله، فقال: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾[1] أي: القول الصحيح الذي منه

---

(١) هذه الآية حَوَتْ روح الشريعة وزبدتَها؛ لأن المراد من الكلم الطيب: مِثْلُ كَلِم الإيمان بالله وتوحيده وتنزيهه ومناجاته، ومثل الأذكار في الصلاة والدعاء، ولا سيما ما جاء في ذلك من القرآن والحديث. ومثل كَلِم الوعظ والإرشاد، والدعوة إلى الرشاد، وإصلاح ذات البين.
ثم قرن الكلم الطيب بالعمل الصالح، وهو يشمل العملَ بكلِّ ما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله من صلاة وزكاة وصوم وحج ودعوة إليهما.
وقوله: ﴿ يَرْفَعُهُۥ ﴾ فيه رأيان:
الأول: أنَّ الله سبحانه يجعل هذا العمل عنده في مقام رفيع، كنايةً عن القَبول الحسن له، والرِّضاء عنه. =

التوحيد وتعاليم القرآن، ثم ذكر العمل به فقال: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يجعله الله رفيعاً عالياً سبحانه وتعالى؛ إذ كلُّ ما اتَّصف بالقَبول وبالطيب والصلاح يُوصَف بالرفعة والصُّعود، أو المعنى: إنَّ العمل الصالح المُنْبَعِث عن العقيدة الصحيحة والإدراك السَّديد، يرفع شأن ذلك الكلم الطيب في العقيدة ويُعليها، وبذلك تنال العزّةَ الصحيحة والسعادةَ الأبديَّة.

ثم بيَّن شأنَ الكَلِم الخبيث والعمل السَّيِّئ ببيان عاقبتهما، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ بأقوالهم وأفعالهم المكراتِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وذلٌّ وهَوان.

وبعد هذا البيان مخَّض النتيجة ـ وهي غَلَطُ هؤلاء المشركين في حسبانهم أنهم هم الأعزّاء الغالبون ـ وقرَّر فَشَلَهم فيما يُدبِّرون ويمكرون، فقال: ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ أي: هو الذي يفشل ويبطل ويسُوء، لا عمل المؤمنين. واستبدل الضمير باسم الإشارة؛ لاستبعادهم واستحقارهم واستقذارهم، وأتى بالضمير لزيادة التقرير.

ثم تابع دليل القدرة مع العلم، وألمع إلى سهولة البعث، وعطف الكلام على قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [فاطر: ٩]؛ لتقرير اختصاصه بأفعال الألوهيَّة ومتابعة ذلك البيان، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وفيه وجهان: **الأول**: أنه من نسبة ما للأصل إلى الفرع، والمراد به: خِلْقة آدم، إذ موادّ الأصل تبقى في الفرع. **والثاني**: أنَّ المنيَّ يتولّد من الأغذية بما فيها النبات، وهو مُتولِّد من الأرض ومُكوَّن منها. والمعنيان يتلائمان مع قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو المنيُّ، لأنه تطوُّر لذلك التراب على الوجهين، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكراناً وإناثاً، والنطفة واحدة، والرَّحِمُ واحد.

= **والثاني**: أن العمل الصالح المُنْبعث عن هذا الإيمان، يرفع شأن الإيمان، ويجعله ثقيلاً في الميزان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. (المؤلف).

وقد أردف هذا بدليل سَعَة علمه الظاهرة في عظمة الإبداع في نظام تكوين الجنين، فقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، فتَجوَّز بالعلم وكنَّى به عن عِظَم إيجاد دقائق الأوضاع وبدائع الأحوال وسَدَاد النظام في عمليات الأرحام، التي لم يتهيَّأ للعلم الحديث ـ على جلالة قَدْره ـ معرفةُ كثير من أسرارها الغامضة.

ثم تابع المعنى ببيان علمه الواسع، فقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ وعلى سُنَنٍ مُقرَّرة وأسباب مقتضية، ثم بالغ في التنويه بعِظَم قدرته، وهَوَّن تلك المقدورات العظيمة في جانبها فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾، وفي الكلام عن الخِلْقة إثباتٌ لما تقدَّم من أنَّ وعد الله حقٌّ، وليس الحشرُ للأجسام بأعجَبَ من النشأة الأولى، إلا أنها لـمّا كانت مألوفة لم نشعر بعجبها، وأيُّ عجب أعجب من تكوُّن الولد من النطفة، وتدرُّجه في بطن أمه، ذلك التدرُّج العجيب حتى يخرج طفلاً، ثم لا يزال يتدرَّج حتى يتكامل، وقد يكون من أعاظم الرجال، أو أبدع المفكرين والمبتكرين، وأوله من ماءٍ مهين. أليس العَجَبُ من هذا أكثرَ من العَجَب من حَشْر الأجسام وإنباتها من عَجْب الذَّنَب، يربو في الأرض فيُخرج أعضاءَه، ويحقِّق أوضاعَه، كما ينبت البذر ويربو أيام الربيع، وكما تربو الكمأة تحت تراب الأرض، ثم تَتَشقَّق عنها؟! وقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. فقد خلق سبحانه أولَ نوع من الحيوان والنبات من تراب، فلِمَ لا يقدر أن يعيد البشرَ كلَّه من تراب؟! وإن شئتَ فسمِّ عَجَب الذنب: خليَّة، والله أعلم، غاية ما هناك: أنه أمر غير مألوف، وكم في خفايا الطبيعة ونواميس الكون من أمور لم نعرفها ولم نألفها.

ثم تابع دليل العلم والقدرة والمنَّة والحكمة في البَحْرَين وخصائصها ومنافعها، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ العَذْبُ والمالح ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ

أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، والظاهر أنَّ هذا الاستخراج إنما يكون من البحر المالح خاصَّة، فيكون فيه تَجَوُّزٌ يُعْهَد مثله في خصائص اللغة وأساليب القرآن، وهو أن يُذكَرَ أمران ثم يُنْسَبَ لهما ما هو خاصٌّ بأحدهما، على أنه يجوز أن يشترك العَذْبُ بهذه الخاصَّة أيضاً. فقد قالوا: إنَّ اللالئ ـ أو أَمْيَزَ أنواعها ـ إنما تكون عند اختلاط العَذْب بالمالح.

ثم تابع السياق بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي: في كلٍّ منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: تشقُّ الماءَ طافيةً عليه، بما أودع الله في الماء من قوَّة حَمْل الأثقال، إذا كانت على وَضْع خاصٍّ. وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يجوز أن يتعلَّق بـ﴿مَوَاخِرَ﴾ أو بما قبله من الأفعال كلِّها، أي: فَعَلَ ذلك لتبتغوا من فضله، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ هذه النِّعَمَ ولا تكفرونها.

ثم تابع الكلام عن دليل القُدرة والمنَّة والاختصاص بالربوبيَّة في عَظَمة النظام الشمسي، فقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بالتعاقب وبالطول والقِصَر في كلٍّ منهما، بما أودع سبحانه وتعالى من حكمة وسَدَاد ودقَّة وإتقان في النظام الشمسي، ﴿وَ﴾ بهذا النظام ﴿سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينتهي به عُمُرُ الدنيا وتقوم قيامتها، والشمس تجري على محوَرِها، وتجري في فَلَكِها، بجريان النظام الشمسي كلِّه. ولهذا النظام أثرٌ كبيرٌ في حياة الإنسان والحيوان والنبات وسائر الأشياء، ففيه أكبر دليل على اختصاص الربوبيَّة بالخالق سبحانه.

ثم احتجَّ بما ثبت له تعالى من اختصاصه بأعمال الربوبيَّة، على استحقاقه وحدانيةَ الألوهية، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه آثاره هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، فهو الذي يستحقُّ وحده أن يُعبَدَ وأن يكون إلهاً، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ في إيجاد هذه الموجودات، فكيف يكونون آلهة؟ فأراد بالمِلك هنا: القدرة

على الإيجاد؛ لأنَّ المُوجِدَ للشيء هو المالك الحقيقي له. والقطمير: لفافة النواة، يُضرَبُ به المثل في القلة والحقارة.

ثم فصَّل شأنهم في حِطَّتهم ومَهانتهم، وأنهم موضعُ الخيبة بَدَلَ الأمل والرجاء، فقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ إيَّاهم.

ثم أخذ بطريقة التنزُّل مع الخصم في الإلزام والإفحام، فقال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ أي: ولو فُرِضَ أنهم سمعوا ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لأنهم لا يقدرون على شيء، ولتبرُّئهم مما تدعونهم به إن كانوا من الصُّلَحاء، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يُنكِرون عليكم عبادتكم لهم، ويتبرؤون منكم كالملائكة والأنبياء.

ثم ختم هذه الحجج والبيانات بما يزيدها اطمئناناً في النفوس، بعبارة ملؤها السلاسة والبلاغة والإيجاز والتقرير، فقال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾، جلَّ مَنْ هذا كلامه!

ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ في حقِّ الأصنام وشبهها من الجمادات، وقوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ في حقِّ مَنْ يعبدون من الملائكة والصُّلَحاء الذين يمثِّلونهم بالأصنام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ

رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم أردف السياق بالتنبيه والتهديد والتبصير والإرشاد، على نهج القرآن، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في كلِّ شيء مما منَّ الله به عليكم فيما سبق بيانه، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عنكم وعن عبادتكم، ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ في كلِّ ما يفعله معكم من المِنَنِ العظيمة والآثار الجليلة، حتى إنه لا يقطعها عنكم مع كفركم الشنيع، على أنه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ في جانب قدرة الله، فكيف تكفرون ولا تخشون عظمتَه وعُلاه؟!

ثم تابع التهديد بصورة أخرى، مسبوكةٍ على العدل في الجزاء، مؤيسةٍ لهم من الشفاعة والفداء، اللذَيْن يعتمد عليهما كلُّ وثنيٍّ مشرك، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفسٌ إثمَ أخرى، بمعنى: أنَّ كل نفس بما كسبت رهينة، لا تقدر نفسٌ أخرى أن تحمل وِزْرَها وتخفِّف عنها أبداً، كما لا يمكن أن يجوع أحدٌ عن أحد، أو يتوجَّع عنه، أو يشبع عنه، وإنما عبَّر عن النفس الأولى بالوازِرة؛ للإشارة إلى أنها مشغولة بأمرها ووِزْرِها، لأنها لا تخلو من ذلك مهما عَلَت في التقوى والصلاح.

ثم تمَّم المعنى وقرَّره بقوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفسٌ أثقَلَتْها الأوزار؛ إنْ تَدْعُ أحداً ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ليحملَه عنها، أي: إلى حَمْل بعض أوزراها، تخفيفاً لها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ عنها، ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعوُّ لذلك ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ منها. وفي هذا البيان تيئيس من تعاون القرابة هناك، كما في الدنيا.

ثم بيَّن تعالى أنَّ هذه المواعظَ لا يتأثَّر بها الكافرون؛ لأنَّ الإنسان إذا وصل إلى سَمْعِهِ قولٌ مخالف لِـمَا هو دينٌ له أو عادةٌ قد انطبع عليها لا يتدبَّره ولا يراه جديراً

بالنظر والتفكير، وإنما يتأثر بهذه المواعظ المؤمنون؛ لأنَّ عقيدة الإيمان تُنمِّي فيهم سلامةَ الفطرة، واستعدادَ النظر، والتدقيقَ في آثار الله تعالى، والإذعانَ لمواعظه وإرشاده وأوامره ونواهيه. وقد عبَّر بالفعل عن تأثيره، فقال ملتفتاً إلى الرسول: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: إنما يُؤثِّر إنذارُك بالذين يَخْشَوْن ربَّهم بما غاب عنهم من أحوال الآخرة، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتوا بها مُقامةً على أحسن وجوهها، فتُربِّي فيهم خشيةَ ربِّهم ومراقبته، فهم الذين يخشون الله سبحانه خشيةً صادقة.

ثم بيَّن أنَّ ثمرة الاتِّعاظ بهذه الآيات يعود على المتَّعظين أنفسِهم، فقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ بما يأمره الله به لإصلاح شأنه، ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ إذ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ فيُجازي كلاً منهما بما يستحقه من الجزاء.

ثم ضَرَب المَثَلَ للفرق بين الصنفين المُنتَذِرين وغير المُنتَذِرين، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ أي: فكذلك لا يستوي العالم المهتدي المؤمن والجاهل الضالُّ الكافر، فذكر هذه الصفات لهذه الصفات على طريقة التشبيه، وكلمة ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي، وتكريرها على الشقَّين لمزيد التأكيد. والحرور: السَّموم[1].

ثم أجمل الوصف وقدّره بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، فمثَّل المؤمنين بالأحياء، والكافرين بالأموات.

ثم ختم هذا ببيان سنَّة الله في أخلاق الإنسان بياناً ضمنياً، وهي أنَّ مَنْ حافظ على سلامة فطرته يسمع الهدى بطبيعته، ومَن عَبَث بها وتَمادَى في الضلال، لا يسمع أيَّ قول

---

(١) قال ابن منظور في «لسان العرب» (حرر): الحرور: الريح الحارة، وهي بالليل كالسَّمُوم بالنهار.

مخالف لعقيدته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين حافظوا على سَلامة فِطَرهم ونور بصائرهم واستعدادهم للهداية، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ وهم الذين أفسدوا طبائعهم بالتمادي على الضلال، وانطباعهم على التقليد والجَهالة العمياء.

وقد شبَّههم بالأموات المقبورين، ثم سلَّاه ﷺ عن عِنادهم وبُعْدِهم عن الهدى، فقال: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾، فما عليك إلا البلاغ، سمعوا أو لم يسمعوا.

ثم أوضح هذا الحكم بما هو كمسلك العِلَّة له، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، ثم ذيَّل ما تضمَّنه الكلام، وقرنه بالقانون العام، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ من البشر ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[1] أي: كان فيها نذير؛ لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل، فإنْ آمنوا فلأنفسهم، وإن لم يؤمنوا فعليها.

---

(١) وتحرير ما تُلمح إليه الآيات: أن الله سبحانه مَضَت سُنَّته في تاريخ البشر أن يبعثَ لهم في كلِّ فترة من الزمن رسولاً يختاره من أميز أقوام ذلك العصر استعداداً لقبول الرسالة، فيَصْطفي منهم واحداً ممتازاً في خِلقته وأخلاقه، وله تاريخ مجيد بين قومه، فيرسله إليهم، ويُنزلُ عليه صُحُفاً أو كتاباً بلغتهم؛ ليعرفوا صدقه ويفهموا عنه ما جاء به من شريعة الله.

وبعد أن يأخذوا عنه ذلك الدين ويتَّبعوه فيه، ينشره بواسطتهم مدَّة حياته، ثم ينشره أتباعه بعد مماته جيلاً بعد جيل، حتى تنزل شريعة أخرى تنسخه.

هذه هي الخطة المرعية في تاريخ الرسالة، إلا أن نصيب أكثر تلك الأقوام من الإيمان برسلهم كان ضئيلاً، فلم يؤمن منهم إلا النَّزْر اليسير، ولم يلبث نَسْلُ هذا القليل أن يخرج إيمانه بشيءٍ من الوثنية المحلية أيضاً، ثم لا تزال تزداد هذه الظاهرة فيهم مع الزمن حتى يرجعوا إلى وثنيتهم الشنعاء، ولم يَسْلم من ذلك إلا أتباع محمد ﷺ. ولذا قال: «أنا أكثر الأنبياء أتباعاً يوم القيامة». والله أعلم.

ويؤيِّد مضمون هذا ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ...﴾ [فاطر: ٣٢]. (المؤلف).

والحديث المذكور متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢)، عن أبي هريرة بلفظ: «ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أعطي من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً يوم القيامة».

ثم تابع الكلام في تسليته وتهديد المشركين، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من مُشْركي الأمم الغابرة ـ كعاد وثمود ـ بعد أن ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الشاهدة على نبوَّتهم، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم، ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ كالتوراة. ويجوز أن يُراد بهما مفهومٌ واحدٌ مختلفٌ بالوصف. والمعنى: فلمَّا جاءتهم رُسُلُهم بذلك لم يؤمن منهم إلا قليل، فأنجيتُ الذين آمنوا ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقد حسَّس بهَوْل ذلك الأخذ وقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾؟ أي: كيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة؟!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

وقد أردف السياق بدليل القدرة والمنَّة، عَوْداً إلى الأصل في اختصاصه بالألوهيَّة، وتحقيقاً للوعد والوعيد، وتقريراً للتوحيد، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾، والالتفاتُ من الغيبة إلى التكلُّم لإظهار التَّمنُّن، أو لإظهار كمال العناية بالفعل. واختلافُ الألوان يشمل اختلافَ الأجناس والأصناف.

وبعد أن ذكر التنوُّع في النبات ذكره في الجماد، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي: طرائقُ وخططٌ ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ باختلاف موادِّها الكيميائية، فترى فيها القطعة البيضاء والحمراء مثلاً، على اختلاف أنواع البياض والحمرة، ﴿وَ﴾ منها ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي: أراضٍ أو جبالٌ سوداء، فتكون من عطف الخاصِّ على العام، ومنها الأراضي الحَرّة ـ بفتح الحاء ـ، وهي أراضٍ ذات حجارة صلبة سوداء، مخرشة، تُتَّخذ منها أحجار الطواحين القديمة. قال الفرّاء: يقال: أسود غربيب أو أسود حالك.

وبعد أن ذكر ذلك في الجماد ذكره في الحيوان، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾، وإنما اقتصر في العبرة على ذِكرِ الألوان لأنها أظهر من بقية المميزات.

ثم حثَّ على إدراك ما في مخلوقاته تعالى من العِبَرِ الدالة على اختصاصه سبحانه بأفعال الألوهية، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾[١] الذين يعرفون أسرارَ مثل هذه السُّنن الكونيَّة المُلْمَع إليها في السياق، من علوم الطبيعة والنبات وطبقات الأرض وأجناس البشر والحيوان وغير ذلك، وهم الذين يُروِّضون أفكارهم في إدراك الأشياء حتى تصبحَ ناضجةً تَصْلُح لفَهْم كلِّ ما تتناوله فهماً صحيحاً، على أن يكونوا من المؤمنين، فإنَّ تعاليم الإسلام تقضي على صاحبها أن ينظر في خلق الله وآثاره نظراً سديداً، فيدرك قدرةَ الله وعظمتَه ووجودَه ووحدانيتَه إدراكاً صحيحاً واضحاً، كما صوَّرته آية النور[٢]؛ إذ الإيمان يجب أن يكون عن علم ودراية من طريقة آثاره سبحانه، لا عن تلقينٍ وتقليد؛ لأنَّ التقليد يُؤدِّي إلى جمود العقل في تلك الناحية التي يقلّد فيها، وهو مرض عُضال، فكما أنَّ العين إذا اختلَّت لا ترى الأشياء كما هي، كذلك العقل إذا جَمَد في ناحية ما.

---

(١) نشر الدكتور دينرت الألماني بحثاً حلَّل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء الذين أناروا العقول في أربعة القرون الأخيرة، وتوخَّى أن يدقِّق في تعرُّف عقائدهم، فتبيَّن له من دراسة مئتين وتسعين فيلسوفاً: أن عشرين منهم غير مبالين بالوجهة الدينية أو ملاحدة، وثماني وعشرين منهم متحيِّرون لم يصلوا إلى عقيدة ما، ومئتين واثنين وأربعين منهم أعلنوا على رؤوس الأشهاد إيمانَهم بالله. وعليه؛ يكون كل اثنين وتسعين في المئة من كبار الفلاسفة يؤمنون بالله.
وقال الفيلسوف الإنجليزي فرنس بيكون: إنَّ قليلاً من الفلسفة تقرِّب الإنسان من الإلحاد، أما التعمُّق في الفلسفة فيردّه إلى الدين. (المؤلف).

(٢) يعني: الآيتين ٤٣ و٤٤ منها.

فالإحاطةُ بالعلم في أحدثِ ما وَصَل إليه، واتِّخاذُه وسيلةً للنظر في آيات الله: هو سبيل الهُدى إلى الإيمان الصحيح، لمن لم يَجمُدْ عقلُه على التقليد.

والعلماء الغربيُّون ـ على إلحاد الكثير منهم ـ قد قال غيرُ واحد من مكتشفيهم: إنَّ كل كشف جديد يزيد آيات الخالق المبدع قوَّةً وجلاء، ويعرض لك أسباباً عملية تَحمِلُ على الاقتناع بوجود الله.

ثم علَّل ما تَضَمَّنه السياق من صَبْره على هؤلاء المعارضين وأناتِهِ بهم، على شدَّة معارضتهم وإصرارهم على كفرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ فإمهالهم ليس عن عجز في القدرة، ولكنه ﴿غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، فيُمْهلهم رجاءَ أن يتوبوا فيغفر لهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

ولما بيَّن خشية العلماء من الله سبحانه، بيَّن عاقبة العالِـمِينَ بكتاب الله، العامِلين به، لأنهم هم المستحقُّون لهذا الحكم أكثرَ من غيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ حقَّ تلاوته بالتدبُّر والتمعُّن، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على وجهها الصحيح بحضور القلب،

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ وفي هذه الصِّلة تنبيهٌ لمنَّة الله عليهم في هذا الرزق، يبعث على الإنفاق؛ لأنه من الله وإلى الله، يُخلِفُهُ ويثيبُ الله عليه ثواباً جزيلاً، فهم ينفقون منه ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: بوجه عام، ﴿يَرْجُونَ﴾ بذلك ﴿تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: تجارةً عظيمةَ الربح في ثواب الله، كما فسّر ذلك بقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وقد حذف خبر «إنّ»، وأقام مقامه التعليل، على نهج القرآن. ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾، والتقدير: فإنهم سينالون أجورهم أكثر مما يرجون ويُؤمِّلون، لأنه غفورٌ شكورٌ للطائعين المُنيبين إليه. ويجوز أن يكون قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ ...﴾ قائماً مقامَ الخبر، وما بعده تعليلٌ له.

ثم نوَّه بشأن هذا الكتاب المتلو، فقرَّر أنه الحقُّ، أُوحيَ به إلى محمد ﷺ فتحاً ورحمةً عليه وعلى الناس، فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لِـمَا تقدَّمه من الكتب السماويَّة، وهي شاهدةٌ عليه، فالذي يتلوه ويتمسَّك به يتمسَّك بالحقِّ الموصِل للفوز والفلاح.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ فهو أعلَمُ حيث يجعل رسالته، وقد شَرَعَ شرائعَه في هذه الكتب المنزلة بحسب خبرته الواسعة وعلمه المحيط، بما تقتضيه مصالحهم الروحيَّة والبدنيَّة والاجتماعيَّة، مما يُوصِلُهم لسعادة الدارَيْن، والهناء في الحالين، ولا سيما هذا القرآن.

وفي الآية إشارة إلى اتِّحاد الشرائع في أُسُسها الأصليَّة وفروعها الذاتيَّة، لا الفرعيَّة.

وبعد أن بيَّن أن القرآن على وتيرة الكتب السماوية السالفة، وأنه مُصَدِّق لها، وألمع إلى أنَّ تعاليمَها موضوعةٌ حسب علم الله وخبرته بصالح عباده، ذكر سبحانه وتعالى أنه لا زال ينقل جنس هذه الكتب في البشر، فيصطفي للكتاب أمةً يُنزله عليها؛ لتكون هي

الواسطة في نشره بين الناس، وكانوا في قبول تلك الكتب والتمسُّك بها أصنافاً متفاوتة في درجات القَبول والامتناع. ذكر ذلك على طريقة التفصيل بعد الإجمال، ولذلك أتى بـ﴿ ثُمَّ ﴾، على نهج القرآن في مثله، لا ليبيِّن أنه خبر جديد، فقال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ والمرادُ به: الجنسُ الذي يشمل جميع الكتب السماوية، ومعنى الميراث: الانتقال من قوم إلى قوم، أي: نقلنا هذه الشرائع من أمة إلى أمة، ومن نبيّ إلى نبيّ، من ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ لهذا الغرض.

فكانت تلك الأممُ أو أفرادُها ـ في التمسُّك بهذه الكتب الإلهية، وبهذا القرآن من بينها ـ ثلاثةَ أصناف: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ إذ ظَلَمَها بإفساد طبيعتها، ومَحْق استعدادها في النظر الصحيح، فأعرَضَت عن كتاب الله وعَدَلت عن الحقِّ إلى الباطل، فنالت أسوأ الجزاء، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو الذي حرَّف طبيعتَه بعض التحريف، ففَقَدَ شيئاً من نور بصيرته وبقي شيءٌ، فكان من نتيجة ذلك أنْ خَلَطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وتيسيره، وهو الذي كان قد حافظ على سلامة طبيعته ونور بصيرته، فأجاب الحقَّ حين دعاه.

ويجوز أن تكون كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي، وأن يُراد بـ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: القرآن، تعبيراً عن الشيء بجنسه، وأن يُراد بـ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا ﴾: الأمة المحمدية، وأن يُراد بالظالم: المضيِّع للواجبات والمنتهك للحُرمات، وبالمقتصد: المقتصر على القيام بالواجبات وترك المُحرَّمات، وبالسابق: مَنْ أضاف إلى ذلك ما يُقرِّب إلى الله من الحسنات، و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ عليه من الله.

ثم ذكر من تلك الخيرات ما يخصُّ الآخرة، لأنها الأهمُّ، فقال: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ ويظهر ـ والله أعلم ـ أن هذا في مكان وسام التقدير والتلطيف، لأنَّ الأَسْوِرةَ كانت من شارات الملوك، فقد جاء أنَّ

رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست تاج كسرى وسواريه؟»[١]، أو هو من باب أن يُذكَرَ أمران ويُسنَدَ لهما ما هو لأحدهما؛ لأنَّ واو الجماعة هذا يشمل الذكور ويشمل الإناث، بطريق التغليب[٢]. والله أعلم.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا شيء مما في الآخرة يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم[٣]. فقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ وهو لباس عظيمٌ يُشعِرُ بالكرامة والنعيم. والله أعلم.

ثم حكى عنهم من القول ما يدلُّ على منتهى سرورهم وفرحهم بما نَجَوا منه يوم الحساب، وما جاوزهم من العذاب الذي أصاب غيرهم، وبما وصلوا إليه من الكرامة والنعيم، فقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وهو ما أهمَّهم من خوفِ سُوء العاقبة، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: غفورٌ لِـهَفَوات المؤمنين، شكورٌ لهم بالجزاء الأوفى. أو المعنى: إنه مُسْتَحقٌّ للشكر العظيم بما يُنعِمُ من النِّعَم العظيمة.

وهذا القول منهم يُنْبِئ بأنَّ الله تعالى أعطاهم فوق ما كانوا يُؤمِّلون، وقد أوضحوا ذلك بعض الإيضاح بقولهم: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أي: دار الإقامة التي لا انتقال فيها أبداً، وذلك ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وجليل إنعامه، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب وإعياء، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ أي: سآمة وكلال، وإنما هي دارُ راحة ونعيم وسرور مستمر المدى. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

---

(١) رواه البيهقي (١٣٠٣٣).

(٢) تقدم تعليقاً بيانُ ضعف هذا القول الأخير عند تفسير الآية ٦٢ من سورة العنكبوت، وتفسير ٣٦ من سورة سبأ.

(٣) سبق تخريجه (٢: ٤٩).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۚ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

ثم قابل مصير المؤمنين بمصير الكافرين، على أسلوب القرآن في ذلك، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾، ثم استطرد بما هو كالتعليل فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

ثم تابع البيان، فقال: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ[1] فِيهَا ﴾ يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾، فيُجابون من قِبَل الله تعالى بقوله: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ أي: أولم نُعْطِكُم من العُمر مقدارَ ما يُمكِنُ أن يتفكَّر ويعتبر فيه المعتبر بما جاء به النذير[2]، ولكنكم لم تتفكَّروا ولم تؤمنوا، ﴿ فَذُوقُوا۟ ﴾ جَزاء كفركم ﴿ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ثم أيّد استحقاقَهم لذلك بعلمه في أحوالهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ فلا يَخْفى عليه شيء مما استوجَبْتُم به هذا العذاب.

---

(١) أي: يصرخون مُستغيثين، ويصيحون صياحاً شديداً.

(٢) المراد به هنا: الرسول الذي حذّرهم من عقاب الله سبحانه.

وبعد أن قطع الحُجَّة عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾، ساوق المعنى وكمَّله بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ[1] فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فكان على اللاحقين أن يستفيدوا من علم السابقين، فتكون مبادئ الشرائع وتعاليمُ الرسل مشهورةً بينكم راكزةً فيكم، وكان على اللاحقين أن يعتبروا بالسابقين ممَّن استُؤصِلُوا بالعذاب، ولكنكم لم تفعلوا، ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ إذ لله الحُجَّة البالغة عليكم، فقد طبع فِطَرَكم على الرَّشاد والسَّداد، فأفسدتموها بسُوء تصرُّفاتكم فيها، وأرسل لكم الرسل بالهدى ودين الحق، فأعرضتُم عنهم لفساد طبائعكم، وجمودكم على التقليد، وانطباعكم على العَمَى والضلال.

ثم بيَّن وبال الكفر فقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ والله غنيٌّ عن العالمين، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ في أنفسهم ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ في الدنيا والآخرة، وما لهم فيها من نصير. والمَقْت: أشدُّ البغض.

ثم بكَّتهم على كفرهم هذا بتجهيلهم وتسخيفهم، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أخلَقُوا شيئاً من مخلوقات الأرض؟ أم لهم شَرِكة مع الله سبحانه في خلق السماوات حتى يستحقُّوا بذلك شَرِكَته في الألوهية؟

ثم بدَّل أسلوبَ الخطاب لهؤلاء المشركين بأُسلوب التَّحدُّث عنهم، لتجهيلهم ولإرشاد العموم بأنَّ العلم بالشيء لا يحصل إلا بالاستدلال الصحيح أو النقل الصحيح، وقد أبطل الأول على طريقة التبكيت، ثم أبطل الثاني كذلك، وعطفه على مضمون ما

---

(١) جمع خليفة، وهو مَن يَخلُفُ سابقَه في مكان أو عمل أو ملك، أي: خلفاءَ لمن قبلكم من الأمم ومخلوفون ممّن سيأتي بعدكم، تتعاقبون أجيالاً، جيلاً فجيلاً في عمارة الأرض، كما تقدم في الآية ١٦٥ من سورة الأنعام.

قبله، إذ التقدير: أعِندَهُم دليل عقلي؟ كلا، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنا اتَّخذنا هؤلاء شركاء ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾؟ أي: على حُجَّة ظاهرة من ذلك الكتاب في هذا الاعتقاد. فإذا انتفى الدليل العقلي والدليل النقلي فمن أين لهم ذلك، وكيف استنبطوه؟

وبعد هذا التبكيت الفاضح، قرَّر الحقيقة في أمرهم، فقال: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ يريد: تغرير الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع، بأنَّ هؤلاء شفعاء لهم عند الله.

ويجوز أن يعود الضمير من ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ إلى الشُّركاء، ومن قوله: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ إلى المشركين. ولا خلاف بين المعنيين، إذ كلاهما على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]، ومفهومُهما تأنيبٌ مطويٌّ على السخرية والتجهيل، أي: هل أُنزل عليكم أو على شركائكم كتابٌ فأنتم به على بيِّنة من أمركم؟ إذ لا حَقَّ في الدين إلا من هذا السبيل، ولا حَقَّ بالشفاعة إلا بتفويض الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حِطَّة شأن هذه الأصنام والشركاء، وسَخَّف عابديها وأبطله، ذكَر

عظمةَ الله سبحانه وتعالى التي يستحقُّ بها أن يختصَّ بالألوهية، وطوى الكلام على التهديد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: إنَّ الله سبحانه يمنع كلاً منهما من أن تَجنَحَ أو تخرج من مكانها، ولئن جَنَحَتا بإذنه تعالى؛ مَن الذي يَقدِرُ على منعهما من ذلك وحفظهما منه غيرُه؟ يَتَمجَّد سبحانه ويَتَوعَّد بقُدرته البالغة على السَّلب والإيجاب والمنع والإعطاء، واللهُ على كلِّ شيء قدير.

وهذا الإمساك بسُنَّة كونيَّة من سُنَن الله، وهي التعادل في قوَّة التجاذب بين الأجرام، وقوة التسيُّب عن بعضها الناتج من حركتها، فأخذت تدور بتوازن حول بعضها في أفلاك لا تخرج عنها، وقد جاء في الأثر: «بالعدل قامت السماوات والأرض»[1].

ثم ختم الآية ببيان سبب أناته سبحانه بهؤلاء المشركين مع عملهم هذا الإجرام، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ ومن ذلك تأخير عقوبة هؤلاء المشركين رجاء أن يثُوبوا إلى رُشْدهم.

وبعد أن بيَّن ما يدور عليه إنكارهم للتوحيد ودعواهم إلى الشِّرك من السخافة والجهل والضلال، بيَّن ما كان من مُكابرتهم وسَفَههم وصَلَفهم في تكذيب الرسول، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ يعني: كفار مكة، ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: أيماناً مغلَّظة: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: رسولٌ من الله، ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ التي جاءتها الرسل. يقولون ذلك قبل مجيء الرسول تعريضاً بالأمم الماضية التي عارضت رسلها، وتَشَوُّقاً لإرسال الله رسولاً إليهم. وقد كان هذا من علمائهم وعرفائهم، مثل أميَّة بن أبي الصَّلت وأشباهه، لأنهم كانوا يَتَشوَّفون لمجيء رسولٍ إليهم ويَتَشوَّقون.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ من الله ـ وهو هذا الرسول ـ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ نفروه

---

(١) سبق تخريجه (٥: ١٦٧).

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾، فقد غطَّى الحسدُ وحبُّ الدنيا عند هذا الصنف من قريش معالمَ الحق مع وضوحه في أمر الرسول ﷺ، هذا أميَّة بن أبي الصَّلت يقرُّ برسول الله ﷺ، ويقصده لِيُؤمنَ به، ثم يعود فيقول: لا أؤمنُ برسول ليس من ثقيف، ومثله أبو عامر الراهب، وهذا أبو جهل يقول: والله ما كَذَب محمدٌ قط، ولكن إذا كانت السّدانة والحِجَابة في بني هاشم، ثم النبوَّة أيضاً، فما بقي لنا؟ وهذا أبو طالب يرى المعجزات، ويقول: إني لأعلمُ أنك على الحق، ولولا أن تُعَيِّرَني عَجَائزُ قريش لأقررتُ بها عينك. فنعوذ بالله من ظلمة حَسَد، وغباوة كِبْر، وحَمَاقة هوى، تُغطِّي نور العقل، فيُعرض صاحبُها عن الحق الصُّراح.

وقد تَوَعَّدهم سبحانه وتعالى ببيان هذه الحقيقة الراهنة في سنن الاجتماع، فقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، واستشهد على ذلك بالواقع فقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ممن كذّبوا الرسل، وهي الاستئصال بالعذاب، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بغيرها، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ عن سَيْرها، وإنما هي ثابتة لا تتغيَّر[1].

ومن مباحث اللفظ: قوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ قالوا: هو من إضافة الجنس إلى نوعه، مثل: شجر النخل، ومعدن النحاس. والأَوْلى أن تكون من إضافة الموصوف إلى الصفة، مثل: مسجد الجامع، إذ جاءت بصيغة الموصوف والصفة في الجملة الثانية.

---

(١) والمراد بسُنّة الله هنا: نَصْرُه لأنبيائه على مَن كذَّبهم وعاداهم، كما يدلُّ على ذلك صَدْرُ الآية: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، قال العلامة محمد المكّي بن عزّوز: «ومن الخطأ الفاحش تفسيرُ قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأنه القانون الطبيعيُّ في حوادث الكون».
وقد ردَّ الشيخ محمد المكّي بن عزّوز على خطأ الاستدلال بهذه الآية على نفي خَرْق العادة بدعوى مخالفتها لسُنَن الله، متعقِّباً الشيخ محمد رشيد رضا، ونُشِرَ ردُّه في مجلة «المنار» في المجلد ١١ سنة ١٣٢٦=١٩٠٩، وقد أوردتُه في تعليقاتي على رسالة «العقيدة الإسلامية» ص١٥٥-١٥٨.

ثم نبَّههم إلى ما صار إليه المكذِّبون من الأمم الماضية، مستشهداً بمعالمهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ممَّن كذَّبوا الرسل ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، ومع ذلك انخذلوا واستكانوا بالعذاب المهين، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولكن أعماله وتأجيلها أو تعجيلها إنما تجري بحَسَب علمه وحكمته، وليس تأجيلُها عن عَجْز في قدرته، كلا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى رحمته بالناس في تأجيل العذاب، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ مُؤاخَذةَ استعجال ﴿بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي: على ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ تَدُبُّ عليها، لاستحقاقها ذلك. وهذا من ذكر العام مُراداً به الخاص، وهو الإنسان، لأنه هو الصَّالح لقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ رحمةً بهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينقطع به رجاءُ صلاح المفسدين، فيؤاخذهم إذ ذاك. ويشمل الأجلُ الموتَ وما بعده، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ نالوا جَزاءَهم على أعمالهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وكذلك كلُّ قوانينه وسُننه فيهم مَبْنيَّة على علمه وخبرته.

والآية تُلمع إلى أنَّ الله تعالى لا يُؤاخِذُ الظالمين في الدنيا إلا ما قلّ، وإنَّما يُؤخِّرُهُم إلى ما بعد الموت. إذ بالموت، يتحقَّق انقطاع الرجاء من صلاحهم، ولم يبق لهم معذرةٌ ولا عتابٌ، والله أعلم.

* * *

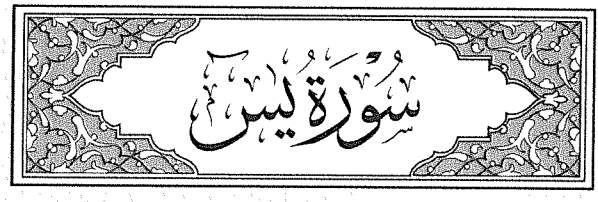

مكية، وهي ثلاث وثمانون آية

جاء في هذه السورة إثباتُ الرسالة وبيانُ الحاجة إليها، ومن ذلك:

إنذار العرب الذين تَقادَمَ العهد بينهم وبين النُّذر الأولى، فحادوا عن الحق إلى الضلال لجهلهم وغفلتهم، فحقَّ عليهم عقابُ الله.

ويدور السياق في هذه السورة على ذِكرِ ما جرى على مَنْ قبلهم من المتمرِّدين على الأنبياء في الأمم الماضية، وما يدلُّ على قدرة الله العليَّة ونِعَمِهِ العظمى.

وكانت قد خُتِمَت السورة السابقة بإنذارهم بالعذاب، فجاءت هذه السورة لإثبات قدرته على ذلك وتقرير الوعيد.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾.

﴿يسٓ ۝١﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكرِ وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا: قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾، و﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ يَصِلُ سالكُه إلى سعادة الدارَيْن، وهو صراطُ هذا القرآن العظيم.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ والتَّعرُّضُ لوَصْفَي العزَّة والرحمة حثٌّ على التمسُّك بهذا المنزَّل ترهيباً وترغيباً، وتمنُّنٌ به. أي: ومن رحمته أنْ أنزَلَ عليكم هذا الكتاب، وعلَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، وهداكم به الصِّراط المستقيم.

وقرئ بالنصب: ﴿تَنزِيلَ﴾[1] على أنه مصدرٌ نائب عن فِعلِه، بمعنى: أنزله العزيز

---

(١) وهي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم. «السبعة في القراءات» ص٥٣٩.

الرحيم عليك ﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، يعبِّر بهذا النفي عن تَقادُم العهد مبالغةً فيه؛ إذ كانوا في آخر عهد مَنْ سبقه من الأنبياء، حيث يَضْمَحِلُّ الأمر، ولم يبقَ له تأثير، فلا ينافي هذا قولَه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1] [فاطر: ٢٤].

وهذه الجملة لبيان شدَّة حاجتهم إلى تنزيل الكتاب وإرسال الرسول، ولذلك قرَّرها بقوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ عمَّا فيه صالحُ أمرهم.

ثم بيَّن تعالى ما كان من أمر هؤلاء القوم بعد أن جاءهم هذا الرسول بما جاءهم به من هذا الكتاب المنـزَّل من العزيز الحكيم، فقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ أي: إنهم عاندوا ما جئتَ به وعارضوه ولم يؤمنوا به، فحقَّ عليهم قولُ ربنا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩، السجدة: ١٣]. ويجوز أن يُراد بالقول: قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠]، والجملتان متلازمتان، إذ التدسية سببٌ للدخول. وملخَّص معناه: أنَّ الإنسان إذا أفسد طبيعتَه حادَ عن إدراك الحق والصواب، والله أعلم. وعلى الأول: تكون الفاءُ لعطف السبب على المسبَّب، وعلى الثاني: تكون لعطف المُسبَّب على السبب.

ثم ذكر سبحانه وتعالى تصويرَ قوَّة هذا الإعراض والمعارضة منهم، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾، والكلام على التمثيل، أي: مَثَلُ هؤلاء المشركين في إعراضهم عمَّا ندعوهم إليه، كمَثَل رجل قامِح برأسه من

---

(١) أو المعنى ـ وهو الأرجح ـ: أنزلنا عليك القرآن؛ لتُنذِرَ قوماً ـ بعد تبليغهم ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ـ الإنذارَ الذي أُنذِرَه آباؤهم من قبلك، فهم غافلون مشغولون في أمور دنياهم، واتباع أهوائهم وشهواتهم، عن الاستجابة لدعوة الرسول. كما تقدم التعليق عليه في الآية ٣ من سورة السجدة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

جرّاء غلٍّ في عُنقه يَضْطرُّه لرفع ذقنه، فهو لا يُبصِرُ موطنَ قدميه؛ لأنَّ المُقْمَح هو الذي يلجأ لرفع رأسه إلى فوق. والمعنى: أنَّ سُنَّة الله تعالى جَرَت في أخلاق البشر وطباعهم: إذا رَسَخ فيهم الضلال، لا يُمكِنُهم أن يَتخلَّوا عنه أبداً، ولا يسمعون قولاً مخالفاً له، أو مُعَارضاً إيَّاه، ولا يَرَوْنه جديراً بالنظر والتفكير، ويظلُّون في غيِّهم وضلالهم مُتَصَلِّبين. ففي الآيةِ إسنادُ الفعل إلى الله من دون تلميح إلى السبب، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم بالغ في التمثيل لتقرير هذا المعنى، وذكرَه على صُورة تمثيليَّة أُخرى في الإعراض وعدم الإبصار، أشدَّ من الأُولى، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾، فشَبَّههم في إعراضِهم عن الإيمان وقَبولِ الحق وفَقْدِ الاستعداد للنظر والتدقيق، بمَنْ أحاط به سدّان منيعان حَجَبا عنه سائرَ الأطراف، فهو لا يُبْصِر شيئاً، فهم لا يُبْصِرون الحقَّ حقاً فيعرفونه، ولا الباطل باطلاً فينكرونه، أي: إنهم قد فَقَدوا الاستعداد للبحث في الحقائق بالنظر والاستدلال، لِـمَا انطبعوا عليه من الضلال، فهم لا ينظرون في هذه الآيات المنزلة الدالَّة على الحق والمُبْرِهنة عليه، ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ فهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾، فبيَّن شأنهم بطريق التصريح، إثْرَ بيانه بطريق التمثيل، على سُنَّة البلاغة العالية في تقرير الحقائق.

ومن مباحث النَّحْو: أنّ ﴿سَوَآءٌ﴾: خَبَرٌ مقدَّم، وجملةُ ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: مسبوكةٌ بمصدر مبتدأٌ مؤخَّر. وجملةُ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: مستأنفة لبيان وجه التَّسوية، شبيهةٌ ببيان وَجْه الشَّبَه في المُشبَّه.

ثم عقَّب ذلك ببيان مَنْ يتأثر بالإنذار ممَّن حافظوا على سلامة فِطَرهم ونور بصيرتهم، فقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وتجوَّز بالفعل

عن مُسبِّبه، أي: إنما ينتفع بإنذارك مَنْ حافظ على سلامة فطرته، فاتَّبع الحقَّ حين دعاه، وخشيَ الرحمن فيما غاب عنه من أمر الآخرة، فعمل لها بمقتضى تعاليم هذا القرآن، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

ثم ذكر تعالى ذلك الغيبَ وشأنه العظيم الذي ينطوي على ما يقتضي الإنذار والتبشير، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من الأعمال، حسنةً كانت أو سيئةً، ﴿وَ﴾ نكتبُ كذلك ﴿آثَارَهُمْ﴾ التي صارت سُنَّة بعدهم يُقْتدى فيها بهم، حسنةً كانت أم سيِّئة، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ أي: في كتابٍ محفوظ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وهو علمُ الله الواسع الدقيق.

اللهمَّ اجعَل أثري هذا خالصاً لوجهك الكريم، وقد قَصَدْتُ فيه طريقةَ محمد ﷺ وأصحابه، فإنْ أحسنتُ فالحمدُ لله، وإنْ أسأتُ فأستغفر الله، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بالله.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم توعَّد هؤلاء المعارضين الذين ضرب لهم الأمثال السابقة، بما جرى على أمثالهم أهلِ أنطاكية، وذكر قصَّتهم فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ أنطاكية ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ وهم رُسُلُ عيسى عليه السلام[1].

---

(١) الظاهر أن المراد بالمُرسَلين: هم رسل الله تعالى، لا وفود عيسى ورُسُلِه، لأن القرآن الكريم يطلق الرُّسُلَ على المُرسَلين من الله تعالى، وتكملةُ الآيات توضِّح هذا المعنى.

وقد فصَّل ذلك بقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: أمرنا بإرسالهما ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾، فأنكروا عليهم و﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، وهذه الشبهة تجري على لسان المشركين، مع أنَّ تاريخ الأديان ظاهرٌ في أنَّ الرسل لا يكونون إلا من البشر.

وقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ يجوز أن يكون مُتمِّماً للشبهة ومُفرَّعاً عليها. ويجوز أن يكون شبهةً مستقلة، بمعنى: أن الله لم يُنزِل شيئاً البتة من الشرائع.

ثم قرَّروا ذلك بقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ثم إنَّ المرسلين لم يَسْأموا ولم يتركوا معالجتهم، بل زادوا في دعوتهم و﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾، فاستَشهدوا بعلم الله على صِدقِ دَعْواهم. وهذا التعبير يجري مَجْرى القَسَم، بل هو أعلى صور القَسَم.

ثم خرجوا على العُهدة بقولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ وقد أدَّيناه.

فلمَّا أُخذ هؤلاء المعارضون بالحُجَّة شَرَعوا بالسَّفاهة على عادة أمثالهم، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تَشاءَمْنا بكم، ومن ذلك أنْ حُبِسَ عنا المطر، و﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن دعوتكم الشائمة هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

فردَّ عليهم الرسل و﴿قَالُواْ﴾ لهم: بل ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: شُؤْمُكم منكم، لا من قِبَلِنا ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ بضلالكم وشقاء مصيركم، ودُعيتُم إلى اسْتبداله بالهُدى والسعادة في الدارَيْن، أإنْ ذكَّرناكم بمثل هذا تطيَّرتُم بنا، وقلتُم هذا القول، وَتَوَعَّدتمونا هذا التوعُّد؟! ما أنتم مُستبصرون، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ في تحريف طباعكم وإفساد عقولكم وضلال أعمالكم.

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ولما كانت الأمة التي أفسدت طبيعتَها برسوخ الضلال فيها، لا تفقد أفراداً بقي فيهم من نور الفطرة وجلاء البصيرة ما يؤهِّلهم للنظر الصحيح، والقول السديد، وقَبول الرَّشاد، والسعي في مصالح العباد؛ قصَّ القرآن هنا أمْرَ واحدٍ منهم بين أصحاب القرية المُسرِفين في الضلال، فقال: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ ويقال لهذا: مؤمن ياسين، كما يُقالُ للذي جاء عنه في سورة المؤمن: إنه أخبر موسى بالمؤامرة عليه، يقال له: مؤمن آل فرعون.

وقد جاء هذا الرجلُ حبيبٌ النجارُ بدافع الفطرة السليمة إلى هؤلاء المعارضين المتوعِّدين المرسلين. وفي قوله: ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ وقوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ زيادةُ مبالغةٍ في تصوير قوة معرفته للحق، وإيمانه به، وحِرصِه على دفع قومه إليه، جاء مُسْرعاً يريد نُصْحَهم وإنقاذَهم من ورطتهم، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾، وقد برهن لهم على صحَّة دعوى هؤلاء المرسلين وإخلاصهم، فقال: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾، فلاحظ في دَعْواهم أمرَيْن استدلَّ بهما على صحَّتها: الأول: أنها طريقة واضحة الهداية، والثاني: أنهم لا يُسألون عليها أجراً، فإذن ليس لهم من ورائها

مآربُ دنيويةٌ يستغلونها. وهذان الأمران هما من أبسط الأدلَّة وأوضحها على صِدْق الدعوى والإخلاص فيها.

ثم بيَّن ما تَـمَلَّكَ قلبَه من وضوح الأمر لديه، وتحقُّق صدق هؤلاء المرسلين عنده، وهو أنّ ما يدعون إليه من عبادة الخالق وحده أمرٌ ظاهرُ الصحة وواجبٌ في العقول، وأنَّ الله سبحانه سيُحاسِبُ المُعارِضين ويُجازي المتَّبعين، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ففي هذا الوصف إشارةٌ للدليل المقتضي للعبادة؛ إذ لا أحدَ أحقُّ أن يُعبَدَ من الخالق، وفي صورة التركيب استبعادٌ لعدمها، وإنكارٌ على المعارضة مع وضوح هذا الحق، وجلاءِ صدقه، ووجودِ الخوف من الصُّدود عنه الذي أشار إليه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: فيُجازيكم على الإعراض جزاءً وفاقاً.

وقد تلطَّف في الإرشاد، بإيراده في مَعرِضِ المُناصَحة لنفسه وإمحاض النُّصْح لهم، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه. والمراد: تقريعهم على تَرْك عبادة خالقهم، وعبادة غيره.

ثم أردفه بفساد نظرية الشرك، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾، وقد أورد هذه الصفة لله مَورِدَ التعليل للإنكار.

ثم زاد في التنصُّل والتفظيع، فقال: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ لا يفعله إلا فاقدُ البصيرة والشعور. وفي هذا تجهيلٌ لهم وتشنيعٌ بليغ، أردفه بالتصريح بإيمانه، تصريحاً بالمدّعى بعد إثباته، ومَخْضاً للنتيجة، ومباشرةً للعمل بعد إقامة الحُجَّة، فقال مُخاطباً للرسل: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾، ولكنَّ قومَه أنكروا عليه ذلك، ووطئوه بأرجلهم حتى مات. روي ذلك عن ابن مسعود[1].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨: ١٢٦) بلفظ: «وطئوه بأرجلهم حتى خرج قضيبه من دبره».

فبيَّن الله سبحانه مصيرَه بقوله: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾.

ثم ختم القصة بموضع العبرة، وكيف أهلَكَ قومَه من بعده، وأنَّ إهلاكهم لم يكلِّفه مؤونة عمل، ولم يَحتَجْ في استئصال الأقوام إلى جيش وأساطيل. والمراد بهذا البيان: المبالغة في التهديد. وقد ذكر ذلك بطريقة التمثيل، وأخذ المعنى من حال المُخاطَبين وشؤونهم في مثله، فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾، أي: وما كنا محتاجين لمثل ذلك، ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾[1] والقصَّة تهديد لقريش بضعفهم تجاه قوة الله.

ثم عقَّب على ذلك بالتأسُّف على العباد، حيث لا يهتدون بالهداة، فقال: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾[2]، وهذا كلامٌ عظيم

---

(١) وهذه الصيحة: هي صَيْحة مَلَك أمره الله تعالى بها، فكان فيها هلاكهم. وهي صيحة حقيقية ليست على التمثيل، ولها نظائر، كالصيحة التي أُهلكت بها ثمود وأصحاب مدين. وهي جندٌ من جند الله تعالى كالريح والماء والنار وغيرها، وقد سخَّر الله تعالى ذلك لإهلاك الأمم الكافرة.

(٢) هذا الكلام يدل بوضوح على أنَّ الله سبحانه أراد الإيمان للكافرين، مع علمه سبحانه أنهم لا يؤمنون. ولا معارضة في ذلك؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته ليكون خليفةً في الأرض يتصرَّف في مواهبها كيف يشاء، وقد ألهمه بطبيعته فُجورَه وتَقْواه، وجعل تزكية نفسه وتدْسيتها باختياره ومَجْراه، فليس عمله في الكفر والشر قسْراً لإرادة الله، بل موافقة لما أراده له من مطلق الاختيار، وبذلك يجري عليه الثواب والعقاب، كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

وإرادة الله سبحانه نوعان: إرادة تكوينية، وإرادة طلبية من الإنسان المختار في تصرُّفاته، والأولى: لا يَتخلَّفُ المرادُ بها أبداً، والثانية: مجرَّد تكليف يُثيب مَنْ أطاعها، ويُعاقِب من عَصَاها. والله أعلم. (المؤلف). =

ورهيب من الله سبحانه، مُستعار من أحوال المُخاطَبين في إظهار التأسُّف، يُمثِّل كمالَ رأفةِ الله بعباده في إرسال الرسل بالوحي لهدايتهم، وشدَّة ضلال الضَّالِّين وإعراضهم عن تلك الهداية القيِّمة. أي: إنَّ حالتهم مما يُوجِبُ الأسف والحَسْرة عليهم. والاستعارة من حال المُخاطَبين كثيرة في القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

= قلت: قوله: «إن الله تعالى أراد الإيمان للكافرين»، الصوابُ فيه أن يقال: طلب الإيمان من الكافرين، ومنحهم الإرادة الحرة، فاختاروا الكفر ولم يؤمنوا، فأراد وقوعه منهم من غير أن يكون راضياً به. وفي هذا احتراز عن القول بإرادة الله تعالى شيئاً مع تخلُّفه في الواقع.

أما ما ذكره المؤلف بعد ذلك من تقسيم الإرداة إلى تكوينية وطلبية، فأمرٌ مخالفٌ للاصطلاح، ولا حاجةَ إليه مع التفريق بين الإرادة والرضا، فالإرادة صفةٌ لله عز وجل لا يخرج عنها شيء في هذا الكون، لأنه هو المتصرف فيه سبحانه، وإلا وقع في ملكه ما لا يريد، وهذا محال، أما الرضا فتابعٌ لطلب الله وأمره، فما أمر الله به عباده رضيه لهم.

ثم أردف ذلك بالتبصرة المسبوكة على التَّهديد، عائداً بالكلام إلى قريش بعد أن ضرَبَ لهم المثل، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾، وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ يدلُّ على المعنى من قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، والغَرَضُ منه: تحسيسُهم بهذه الحالة المحسوسة، تنبيهاً لهم على مَوْضع عِنادهم أو غباوتهم، وفيه من التجوُّز في المعنى ما هو مألوف في اللغة وأساليب القرآن، وهو تنزيلهم بأنهم منهم.

ثم بيَّن رجوعَهم إلى المحشر والحساب، إثرَ بيان عدم رجوعهم إلى الدنيا، فقال: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ للحساب، فينالون الجزاءَ الشديد. وفيه تهديدٌ لهؤلاء المعارضين ووعيد.

ثم ذكر الدليل على الحشر، مسبوكاً بالتَّمنُّن على المنَّة، والتأنيب على كفرانها، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ على البعث والنشور ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾، لأنَّ حياتها واخضِرارَها بعد يبسها وقحولها شبيهٌ بحياة الموتى لمن تَدَبَّر وتأمَّل، وطبيعة الربيع في إحياء النبات بعد اليبس[1]، كطبيعة زمن البعث في إحياء الأجسام من عَجْب الذنب، كما جاء في الحديث[2]. والله أعلم.

ثم تمَّم البيان للدليل بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، فجمع النخيل والأعناب للدلالة على الأنواع المختلفة منهما. وإنما ذكر النخيل دون التمور؛ لاختصاص شجرها بمزيد النفع.

وبعد أن ذكر الجنَّات، ذكر المياه لتوقُّفها عليها، فقال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي: في

---

(١) تكررت مثلُ هذه العبارة عند المؤلف في مواضع، وقد تقدَّم نقدُها تعليقاً عند تفسير الآية ٨٣ من سورة المؤمنون، فانظره هناك.

(٢) سبق تخريجه (٤: ٤٢٨).

الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ ليعيش مَنْ عليها ولتُسقى تلك الجنَّات بها. وأفرد ضمير الثمر في قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ كي يعود إلى جميع ما ذكر.

ثم أكمل البيان بهذا التَّحسيس البارع، والتأنيب اللاذع، فقال: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فهو تجهيلٌ بديع، وهزؤٌ بليغ، أردفه بالمبالغة في التقريع، فقال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ هذه النِّعَمَ الجليلة بعبادة مُبدِعها وحده دون سواه؟!

ثم خلَّل هذا السياق المتضمِّن لشركهم، بتنزيهه تعالى عن ذلك، مُدْمجاً فيه مُقْتَضيات هذا التنزيه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا العطف للمقارنة، بمعنى: أنَّ في النبات ازدواجاً كما في الإنسان والحيوان، وقد أثبت ذلك العِلمُ الحديث، وكذلك قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فقد ظهر في مثل الكهرباء وغيرها الازدواجُ على هذه الوتيرة أيضاً. والله أعلم. وقيل: المراد بالأزواج: الأصناف.

وعلى كلٍّ، ففي الصلة دليلٌ وبرهانٌ على التنزيه والاختصاص بالألوهية، واستعظامٌ لكمال قدرة الله العلية. والمعنى: يُنزِّهُ هذا الخالقُ عن عدم قدرته على الحشر والإعادة، وهو القادر على كلِّ شيء.

ثم تابع الكلام في دليل القدرة، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: داخلون في الظلام، وقد ضمَّن ﴿نَسْلَخُ﴾ معنى: نَنْزع ونَسْتَلّ، فأجراه مجراه في التعدية. وفي صيغة التعبير دلالةٌ على أصالة الظلام وطروء الضياء؛ لأنه يكون بإشراق الشمس، وهو عَرَضٌ زائلٌ بغروبها عن ذلك الموضع من الأرض.

ثم تابع البيان، فقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ وهو تعطُّلها ووقوفُها عن العمل بخراب نظام العالم، كما تستقرُّ حركة دواليب الآلة لخرابها بطارئ يطرأ عليها،

أو باضمحلالها من طول الزمن وكثرة العمل واستمراره، ويُسمَّى ذلك يوم القيامة، وهو يوم مَهُول. والمراد بهذا الجريان: جريانُها ضمنَ النظام الشمسي كلِّه. فقد قال الفلكيون: إنها تسير معه ما يزيد على مليون ميل في اليوم، متَّجهةً نحو كَوْكبة الشلياق التي فيها النَّسْر الواقع. ويجوز أن يراد بالجريان لمستقرِّها: جريانُها على مِحْوَرِها، أو الأمران معاً. ويجوز أن يراد به: مجرَّد أداء واجبها[1]، أي: أنها تعمل عملها دائبةً عليه إلى يوم خراب هذا العالم المشهود. وفي كلِّ هذه المعاني قدرةٌ بالغة، ومِنَّة عُظمى.

ثم تمجَّد بما في هذا النظام من دقَّة وتدبير وإحكام، فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ أي: الغالِبِ بقدرته على كلِّ مقدور، المُحيطِ عِلمُه بكلِّ معلوم.

ثم تابع البيان، فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ في سَيْره حول الأرض، وبذلك تختلف صُوَرُه وأشكاله المضيئة لنا، فهو في كلِّ ليلة على شكل معيَّن في مقدار الضياء الذي يبدو لنا من وجهه، مختلف عن سابقه ولاحقه قليلاً، كما هو مُشاهَدٌ بالعين، فتراه وقد ظهر هلالاً، ولا يزال يتزايد ضياؤه[2] حتى يصير بدراً، ثم لا يزال يتناقص ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ آخرَ الشهر ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾ بتقدير الله العزيز العليم. والعرجون القديم: هو العضد من شمراخ النخل يَعوَجُّ ليبسِه وتقادمه، شُبِّه به القمر بعد إتمام دورته.

---

(١) هذا قولٌ في غاية البُعْد، وتجويز في غير محلِّه، فلفظة «تجري» لا تدلُّ على هذا المعنى ـ وهو أداء العمل الواجب ـ بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز، على أنه لو كان هذا المعنى محتملاً بطريق المجاز لكان حَمْلُ الآية عليه بعيداً أيضاً، لِـمَا قد ثبت من جريان الشمس فعلاً، كما ذكره المؤلف من قبل.

(٢) الصواب أن يقول: يتزايد نوره، لأنه من انعكاس ضياء الشمس على سطحه، وليس له ضياء ذاتي.

ثم بيَّن دقَّة الإتقان والإحكام في النظام الشمسي، فقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فيَصْطدما، ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ على الأرض، ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1] فلا يَصْطدم واحدٌ بآخر، ولا يخلُّ بنظامه فيسبقه، حتى قال بعض الفلكيين: لو طار في فضاء جوِّ الأرض كلِّه عشرُ نحلات فقط، لكان تَصادُمُ اثنتَيْن منها أقرَبَ من احتمال تصادُم نجمين من هذه النجوم التي لا يحصيها العَدُّ في فضاء السماء؛ لسعة ذلك الفضاء وامتداده، وبُعدِ كلٍّ منها عن الأخرى فيه، فتعالى الله العلي القدير.

أقول: وقد استقرَّ كلُّ كوكب منها في مَوْضعه ومَدَاره، وحُفظت النسبة بينه وبين غيره بسُنن كونيَّة أوجَدَها القادر الحكيم، ولولا هذه السُّنن وهذا النظام لتفلَّتت هذه الكواكب السابحة، وصَدَم بعضُها بعضاً، وفنيَ العلم. جلَّت قدرة الله، وعَظُمَت حكمتُه البالغة، ولا إله غيره، ولا ربَّ سواه. وهذه الآية تقريرٌ لإتقان النظام، ونفيٌ لاختلاله، واستدلالٌ على ذلك النفي باستمرار هذه الصورة الناجمة منه على حالها مع مرور الدهور والأحقاب التي لا تُحصىٰ، ولا يكون التصادُمُ إلا يوم القيامة. والله أعلم.

ومن مباحث اللفظ: أنه لـمّا نزَّلها منزلة الآدميين، وأعطاها صفة العقلاء؛ عبَّر عنها بالواو والنون، فقال: ﴿يَسْبَحُونَ﴾، مثل: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

---

(١) علَّق الإمام الغزالي على قول الفلكيين: إنَّ خسوف القمر ناتج عن انمحاء ضوئه لتوسط الأرض بينه وبين الشمس، وكسوف الشمس ناتج من وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس، عند اجتماعهما في العقدتين في سطح واحد. فقال الإمام الغزالي ما محصَّله: مَنْ ظنَّ أن المناظرة في إبطال مثل هذا الرأي هي من الدين فقد جنى على الدين؛ لأن هذه الأمور يقوم عليها براهين هندسية حسابية لا يبقى معها ريبة لمرتاب. فإذا قيل له: هذا كلام يخالف الشرع، لم يَسْترب في علمه؛ لأنه عنده أمر محقّق مضبوط، ولكن يستريب في الشرع.
أقول: والإثم على هذا الجامد الجاني. (المؤلف).

ثم تابع سبحانه الكلامَ في دليل القدرة والمنَّة، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: على قُدرتنا على بَعْثِهم وإعادتهم ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

قال في «مجمع البيان»: الذريَّة: تُطلَقُ على الآباء والأبناء، من قولهم: «ذرأ الله الخلق»، أما إطلاقها على الآباء فلأنَّ الأولاد خُلقوا من الآباء. وإطلاق الذريَّة هاهنا على الآباء مرويٌّ عن الضحّاكِ وقتادةَ وجماعةٍ من المفسِّرين، وهذا جارٍ على قول النُّحاة: إن المصدر يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول.

والفُلكُ المشحون: سفينةُ نوح التي كانت مملوءةً من الناس المؤمنين، ومن بعض الحيوان؛ من كلٍّ زوجين اثنين، فسَلِموا من الغرق، وانتشر منهم كلّ البشر، فسُمِّي نوح: آدم الثاني.

فالآية تشيرُ إلى طغيان الماء بتلك الكثرة البالغة، حتى استوعب البقاع وساكنيها، ولم يَسْلم إلا مَنْ في السفينة بإذن الله، وذلك آيةٌ على أنَّ البعث لا يُعجِزُ قدرة الله تعالى. ويجوز أن يكون فيها إلماعٌ إلى التهديد بأنه سبحانه أنجى المؤمنين، واستأصل أمثالهم المعارضين، كما سيصرِّح.

وأقول: ألا يجوز أن تكون الآية من غيب القرآن عن العصر الحاضر على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، فتكون الآية مشيرةً إلى المراكب البخارية التي تهيّأ اكتشافها لذُرِّيتهم من بعدهم في القرون الأخيرة، تلك المراكب التي حمولتها ألوف الأطنان، فانتفعوا بها انتفاعاً عظيماً، لا سيما في هذه الأزمان، وذلك بما أودع الله في البخار والكهرباء من قوَّة تُحرِّك الأثقال العظيمة، وبما أودع في الماء من قوَّة حَمْل تلك الأجرام الثقال إذا كانت على وضعية مخصوصة. ووَصَفَه بالامتلاء تمكيناً لهذا المعنى؛ لأنَّ ظهوره فيه أجلى. والله أعلم بمراده.

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ قولٌ واسعُ المدلول، يتناول كلَّ ما يحدث من أنواع السُّفن والمركبات والطائرات وغيرها من وسائل النقل والركوب، فإنه سبحانه يعلم بعلمه الأزلي الأبديّ ما كان وما يكون.

ثم تـمَّم الكلام عن بيان هذه النِّـعَم وكفرانها، بتهديدهم بما يناسب السياق؛ بأخذهم بما أخذ به أمثالهم من الأمم الماضية، فقال: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ كما أغرقنا أشباههم من قوم نوح، ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: فلا مُغيثَ لهم، وهذا على اعتبار أنه وَصْفٌ على وزن: فعيل، بمعنى: فاعل، كسَخِيّ وعَدِيّ، مشتقٌّ من قولهم: صَرَخ القوم، بمعنى: أغاثهم وأجابَ صريـخَهم واستـنجادَهم. ويجوز أن يكون مصدراً، يعني: الصراخ والصياح، فيكون المعنى: أنهم لا يتمكَّنون من الصريخ والصياح لتعجيل الغرق عليهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ منه.

ثم استدرك على ذلك بقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ولكن نؤجِّل جزاءهم ونُمتِّعهم في هذه الحياة إلى أجلٍ مُسمّىً رحمةً منا، فإذا جاء ذلك الأجل أخذناهم بَغْتةً فإذا هم مُبْلِسون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ

﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

وبعد أن ذكر نعمتَه عليهم، وقدرتَه على أخْذِهم بالعذاب، وتأنِّيه فيهم، ذكر عِنادَهم وإعراضَهم عن دعوة الداعي لهم إلى سبيل الرَّشاد، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وشقائهما، وذلك باتِّباع هذه التعاليم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، أعرضوا عن الداعي وأنكروا عليه. وقد حذف هذا الجواب على نهج القرآن في مثله، ودلَّ عليه بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم تابع البيانَ عن عنادهم وإعراضهم وجهالتهم في سُنن الله، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ تهكُّماً بهم أو جهالة: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ[1] إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾، ولم يعلموا ـ لبُعدهم في

---

(١) يقولون هذا من جهلهم بنظم الاجتماع التي شاءتها الحكمة الإلهية في الإنسان وأحوال عيشه وحاجته، وهي أن يتَّخذ بعضهم بعضاً سخرياً، يعملون في مجاري الأمور والحاجات، ولكنه سبحانه لم يُجْبر فقيراً على فقره، وإنما يكون ذلك لنوع نشاطه ومَيْله، وقوة تفكيره وضعفه، فيكون من نتيجة ذلك: الغنى والفقر، والسعادة والشقاء. وعلى هذا النظام، أمر سبحانه الغنيَّ أن يسدَّ حاجة الفقير ولا يستغلها، فوضع في تشريعه الأنظمة الاقتصادية من زكوات وصَدَقات وهبات ومساعدات وحثَّ عليها. وجاء في الحديث: «إن الله سبحانه يأمر المَلَكَ أن يكتب رزقَ المولود وأجله، وشقياً أو سعيداً». وذلك بناءً على علم الله الأزلي في نوع نشاط هذا المولود وسلوكه في كَسْبه وعمله من الأمور التي تنتج من درجة معرفته المكتسبة بالتربية والاقتباس، فهو مُخيَّر في طلب رزقه لا مَقْسور، وكذلك في سعادته وشقائه؛ لأنها مبنية على سلوكه وتصرُّفاته. والله أعلم. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. (المؤلف). =

الضلال وحطَّة النظر ـ أنَّ من الحكمة في سُنن الاجتماع ونظامه تَفاوُتَ الناس بالغنى والفقر؛ لتتمَّ الأعمال بينهم، ويُسَخِّرَ بعضُهم بعضاً. وذلك يُوجِبُ عَطْفَ الغنيِّ على الفقير، وإنفاقَهُ عليه، وسدَّ عَوَزِه. ولذلك أمر سبحانه بوجوب الإنفاق سدّاً لحاجة الفقير، وتتميماً لهذا النظام، فلم يكن الإنفاقُ فَضْلاً وإحساناً، ولكن فَرْضاً وتحتيماً، ليتمَّ النظام الذي وضعَه وقَسَمَه سبحانه.

ثم ذكر لهم تهكُّماً ثانياً من تهكُّماتهم، متعلِّقاً بما سَبَق في السياق من توفير الأدلة لقدرته سبحانه على البعث والجزاء، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾؟ يعنونَ وَعْدَ البعث، ويَتَهكَّمون به.

فآذنهم سبحانه وتعالى عن مقدّمته، وهي الساعة بقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: يَتخاصمون في مَتَاجرهم ومعاملاتهم، ولم يكن يخطر لهم قيام الساعة ببال ـ وهذا على حدِّ قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا

= قلت: الحديث المذكور متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٣٣)، ومسلم (٢٦٤٦)، عن أنس بلفظ: «إن الله عزَّ وجلَّ قد وكَّل بالرحم ملكاً فيقول: أي ربِّ نطفة، أي ربِّ علقة، أي ربِّ مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال الملك: أي ربِّ ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه».

أما ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى من حَصْر تقدير الرزق بما علمه الله تعالى من نشاط الإنسان وقوة تفكيره؛ ففيه نظر، لأن تقدير الرزق من الله تبارك وتعالى لا يتقيد بهذا المعنى، فكم من نشيط قوي العزيمة في طلب الرزق حسن التدبير، وقد ضيِّق عليه في رزقه، والعكس بالعكس، والصواب: أن تقدير الرزق من الله تبارك وتعالى إنما يجري تبعاً لإرادته المطلقة، والكلُّ ملكه، وله سبحانه أن يفعل في ملكه ما يشاء، ولكنه سبحانه حكيم في أفعاله، فهذا التقدير هو الوجه الذي تترتب عليه الحكمة، ولو كُشِفَ الحجاب لما اختار العبد لنفسه من الرزق إلا ما قدَّره الله له، لما يرى في ذلك من خفايا المصالح وخبايا الحِكَم.

﴿يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧] ـ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾، لأن الذي في السُّوق لا يقدر أن يصل إلى أهله. أعاذنا الله، بل يموت كلٌّ في محله. والتوصية: أمر يُهيَّأ عادةً قبيل الموت، فذلك محلُّها. أي: لم يتهيَّأ لهم ما كان يتهيَّأ لغيرهم من الأموات، يُعبِّر بهذا عن عِظَم الأمر، وعَجَلَتِهِ، ودَهْشَتِهِ للنفوس، وذهابه بالعقول. وهذا كنايةٌ عن أخذ الساعة إيَّاهم على حين غَفْلة ودون مُقدِّمات منها.

ثم تابع الكلام عما يكون بعدها من البعث والحساب، وشقاء الكافرين وهناء المؤمنين، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: يخرجون ويُسرِعون للحساب. وهذا هو يومُ الحشر، وهذه هي النفخة الثانية التي تُؤْذِنُ بالحشر، وهي ـ كما جاء في الحديث[1] ـ تكون بعد زمن من النفخة الأولى التي هي للإيذان بالقيامة وخراب العالم. وهنا يَرَوْنَ ما كانوا يستهزئون به وينكرونه، فتظهر عليهم شدَّة الفزع، كما حكى سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، وهو استفهامٌ مُشْبَعٌ بالخوف والندم وتوقّع المكروه مما كانوا ينكرون. ثم يقولون نَدَامةً وحَسْرة، أو يُقالُ لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم صوَّر سهولةَ ذلك البعث عليه تعالى بقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

ثم بيَّن ما يكون من العدل الدقيق في ذلك الحساب بعد البعث، وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾، وفيه إيذانٌ بأنَّ الجزاءَ

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٣) عن ابن عباس: «فإذا بلغ الوقت الذي يريد الله أمر إسرافيل... فيأمر الله تعالى إسرافيل بعد النفخة الأولى بأربعين...»، وإسناده ضعيف.

(٢) أي: ما كانت دعوتُهم إلى الخروج من القبور إلا نفخةً واحدةً في «القَرْن»، فإذا هم جميعٌ لدى ربِّهم مُحضَرون، تسوقُهم الملائكة حتى يحضروا مواقفَ حسابهم بين يدي ربِّهم، وفَصْلَ القضاء بينهم.

مُـرَتَّبٌ على العمل ترتيباً طبيعياً[١]، ترتُّبَ المُسبَّب على السبب، وأنَّ العمل مُـؤَدٍّ إلى الجزاء، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر. والله أعلم.

ثم قابل حالَ الكافرين بحال المؤمنين في ذلك اليوم، زيادةَ تنبيه للكافرين، وحثاً لهم على الإيمـان، ووعـداً كريمـاً للمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: مُتنعِّمون مشغولون بأسباب النعيم، ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ والظلال للأشجار ونحوها. والأرائك: السُّرُرُ المفروشة. ولا تنسَ ما يقوله ابنُ عباس من أن «ما في الجنة لا يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم»[٢].

ثم ذكر ما يتمتَّـعون به فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: ما يريدون ويطلبون، من أسباب البهجة ومُوجِبات السرور.

ثم أبدل من كلمة ﴿مَا﴾ ـ بَدَلَ الخاصِّ الممتاز من أفراد العام ـ قولَه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾، إذْ هذا أعظَمُ ما يتطلَّبونه، وهو رضوان الله الأكبر. و﴿قَوْلًا﴾: مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعل هو صفة لـ﴿سَلَٰمٌ﴾، أي: سلامٌ يقوله ربٌّ رحيم، وما أعظَمَ هذه الكرامة في هذا المقام الرفيع!

قال ابن عباس: إنَّ الملائكة يدخلون عليهم بالتحية من ربِّ العالمين[٣]. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟

---

(١) بل ترتيباً شرعياً، أي: لا يترتب ثوابٌ على طاعة، كما لا يترتب عقابٌ على معصية، إلا بترتيب الله تعالى لذلك في شريعته، وليس لذلك مَرَدٌّ من سنة كونية أو قانون طبيعي. وقد تقدَّم التعليق على مثله من قبل.

(٢) سبق تخريجه (٢: ٥٧٦).

(٣) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٤: ٢٥).

﴿ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ثم عاد إلى بيان حال المشركين الموجبة للحَسْرة والندامة، فقال: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: يُقالُ لهم: انفَصِلوا مَعْشَرَ العُصاة واعتزلوا.

ثم أنّبهم وندّمهم، فقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ أي: ألم أُوصِكُم أن لا تطيعوا الشيطان فيما يُوسوس به إليكم؟ فإنه عدوُّكم الأكبر، أي: ألم أبصِّركُم بهذا الموقف؟ وسمَّى ذلك عبادة؛ لأنه السبب في عبادة غير الله والعمل بغير شرعه، فهو من ذِكرِ المسبَّب وإرادة السبب.

ثم تـمَّم العهد بقوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾، ثم نوَّه بشأن هذا العهد، فقال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي: يَصِلُ سالكُه إلى الفوز العظيم.

ثم وبَّخهم على إهمالهم لهذا العهد، واتِّباعهم وساوس الشيطان، وهم يشاهدون مَصَارعَ ضحاياه، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾ أي: من البشر ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: خَلْقاً عظيماً ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟ أي: أتـرون آثـار العقوبـات في ديـار عـادٍ وثمودَ وغيرهم، ولم تكونوا تعقلون أنها من أسباب هذا الشيطان ووساوسه؟

وبعد هذا التقريع صرَّح بالجزاء، وذكره بعبارة خاطبهم فيها بما يزيد في تأليمهم وتـنديمهم، فـقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بها إذا اتَّبعتُـمُ الشيطان فتُكذِّبون، ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

---

(١) أي: ادخلوها اليوم، واحترقوا بنارها، وقاسوا حرَّها، بسبب ما كنتُم في رحلة الحياة الدنيا تكفرون، حتى انتهت أعمارُكم فيها وأنتم توالون كفرَكم بالحق من ربكم.

ثم بيَّن ما يكون من حالهم، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: أنهم لا يُؤْذَنُ لهم فيعتذرون، أو أنهم حينئذ لا يتكلَّمون لِـمَا يُصيبهم من الدهشة والاستسلام، والاعتراف بالضلال، واستحقاق هذا العذاب، ﴿وَ﴾ لكنْ ﴿تُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وذلك بظهور آثار المعاصي عليها، أو إنطاق الله إيَّاها.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم عاد إلى قريش، وهدَّدهم سبحانه بعذاب الدنيا أيضاً، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: لجعلناها مَمْسوحةً. يمتنُّ عليهم بنعمته العظيمة بالبصر. ثم ذكر ما ينتج عن ذلك من التعاسة زيادةً في التحسيس، وقال: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: لو طَمَسْناها فقصدوا الطريق وابتدروه، وازدحموا دونه ولم يُبصِروه، كيف يكون حالهم التعيس لو كانوا كلُّهم مطموسين؟ وقد أقام مقام قوله: (فلم يبصروه) قولَه: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾؛ لإفادة التنديد فوق إفادة المعنى الأصلي، على نهج القرآن في مثل ذلك، بمقتضى البلاغة العالية. والغرض من هذا الكلام: بيانُ نِعَمِهِ البالغة عليهم في البصر، وقدرةِ الله القاهر التي لم ينتبهوا لها ولم يخشوها.

ثم قَرَنَ الكلام بما يُماثله، تقريراً له، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾[1] بأن سَلَبْنا منهم المقدرةَ على الحركة، ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا

---

(١) أي: ثبتوا على الموضع الذي هم فيه مُشوَّهين قباحاً، خاسرين مكانتَهم الاجتماعية، مع ظنِّهم أنهم أعزّة أقوياء متمكِّنون في القوة.

﴿يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: فما استطاعوا ذهاباً ولا إياباً. يتوعَّدهم بذلك على كُفرِهم وشِركِهم بالله تجاه هذه النِّعَم الجليلة.

ثم نبَّههم إلى قُدرته على ذلك ببيان نظيره في أطوار خَلْقِهِ المعروفة لهم، فقال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ويُدركون من ذلك أننا قادرون على التَّغيير والسَّلْب والمَسْخ والتطوير والطمْس؟! وفي طيَّات هذه الجملة إلفاتُ نظرهم إلى ما هُدِّدوا عليه من إنكار البعث، فهو كالدليل على إمكانه. وذلك لأنَّ التطوير في تنكيس الخَلْق تغييرٌ كبيرٌ وتطويرٌ عظيم. وهكذا تكون الوفاةُ والحياةُ الثانية، حلقتان من تطوُّرات الإنسان المتسلسلة.

ثم عقَّب على هذا السياق المُثبِتِ للتوحيد والحشر، بما يزيده تقريراً، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ﴾ أي: إن ما جاءكم به هذا الرسول من هذه البيانات ليس بتمويه من تمويهات الشعر، وخيال من أخيلته، كما تتَّهمونه به وتتَوهَّمون، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله لكم بين يَدَيْ عذاب شديد، ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ يُبيِّن لكم مصيرَكم في الحياة الأخرى، ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ باقياً على فِطرتِهِ الصحيحة، ولم يُمِتْها بالتدسية والإفساد، فيأخذ حِذرَه، ويتأهَّب لذلك، ويُقدِّم لآخرته، ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، ذلك القول الذي يحقُّ على مَنْ أفسدوا فِطَرَهُم، وطَمَسُوا نورَ بصيرتهم، ودسَّوا أنفسَهم، فانحازوا للضلال، واتَّبعوا خطوات الشيطان، وهو عدوُّهم المبين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

ثم عقَّب هذا البيان بدليل قُدرته ومنَّته، تحقيقاً للقدرة على إنجاز وَعْدِه ووعيده، وتحسيساً بِنِعَم الله عليهم، وقد كفروها بشركهم، وعَوْداً إلى السياق السابق في إبطال الشرك وإثبات التوحيد، وضمَّن الكلام ما يزيد في التحسيس، وصدَّره بصيغة الظهور، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ يتصرَّفون فيها بما يشاؤون، ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي: مركوبُهم، ﴿وَمِنْهَا﴾ يذبحون و﴿يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من أوبارها وأشعارها، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من ألبانها، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾؟! أي: أيرون كلَّ ذلك الخير فلا يشكرون نِعَمَ الله عليهم، ويخصُّونه بالعبادة والتنزيه؟!

وفي قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مبالغةٌ في التقريع بكُفران نِعَم الله وإحسانه وأعماله إليهم، أي: ممَّا ليس لهم في إيجاده يدٌ ولا صنيع، وإنما هو من فَضْل الله وإيجاده وإنعامه وإحسانه.

ثم أردف الإنكار على عدم شكرهم لهذه النِّعَم، بتسخيفهم وتبليدهم وتأنيبهم على كفرهم وعقيدتهم هذه، فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: إنهم اتَّخذوا الشركاءَ وسطاءَ رجاءَ أن يشفعوا لهم عند الله. فعبَّر عن الشفاعة بالنصر استهزاءً بهم وتندُّراً عليهم، تمَّمه بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: وهم في عدم استطاعة النصر لهم كالجند المغلوب المُلْقي للسلاح، والمُحْضَر أسيراً عند الغالب له.

وفي هذا الوصف معنى لطيفٌ في بيان عَجْزِهم عن النصر والمساعدة، أي: كما أنَّ الجند الذي هذه حالُه وهذه صفتُه يكون فاقداً للنصر والنجدة، فكذلك هؤلاء الشُّركاء المعبودون للنَّجْدة، فهم جُندُهم المتَّصف بهذه الصفة، من العَجْز والمَهَانة والعَطالة والخِذلان.

ثم سلَّاه ﷺ عن عِنادهم هذا، وتوعَّدهم على شركهم بقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: في الله بالإلحاد والشرك، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: فنُجازيهم عليه جَزاءً وفاقاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ثم أردف السياق المتضمِّن لإنكار البعث، بالكلام عن قُدرته على إنجازه، مسبوكاً على لونٍ بديع من التقريع والتدليل، مأخوذٍ من حال جدالهم في ذلك، وصدَّره بصيغة الظهور، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾؟! أي: ألم يَرَ أنا أنشأناه من ماءٍ مَهين، فإذا هو على هذه الصُّورة البديعة والمقدرة العظيمة في التفكير والبيان في الحقِّ والبطلان؟ فكيف عَمِيَ هذا المُبْطِلُ الأثيم، وأنكر قدرتَنا على بَعْثِهِ وإعادة حياته الأولى؟ أما يدري أنَّ الذي أنشأه هذه النشأة البديعة قادرٌ على إعادته؟!

وفي تركيب الآية بلاغةٌ عالية في سَبْكها على الإثبات والتأنيب معاً، على نهج القرآن في مثل ذلك؛ إذ أنَّبه على صَرْف هذه الموهبة العظيمة والنعمة الجليلة، في الخصام ضدَّ الحق وضدَّ المُنعِم بها، فهو يُخاصِمُ الخالقَ بهذا اللسان الذي مَنَحه إيَّاه.

ثم فصَّل صورة الخصام بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ وعجيبَ أمْرِه، و﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾؟! أي: باليةٌ فانيةٌ إلى حدِّ النهاية. يُنكِرُ ذلك أشدَّ الإنكار.

فأمر رسوله أن يُبكِّتَهم بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من تراب. والإعادةُ أهونُ من الإنشاء[1]، وله المَثَلُ الأعلى، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ يعلم كيف يتكوَّن وينشأ ويُصان عَجْبُ الذنب، وتُعاد منه الأجسام، وأنتم لا تعلمون. يشير إلى أنَّ في الكون نواميسَ لأنواع من التخليق لا تعلمون منها إلا صورةَ خلقتكم من بطون أمهاتكم، فتظنُّون أنَّ التخليق لا يكون إلا كذلك. ولو أبعدتُمُ النظرَ في عجيب قدرة الله في أنواع مخلوقاته واختلاف إيجادها، لظهر لكم الدليل على إمكانِ ما تنكرون، وهَوْنِ ما تستعظمون، فقُدرةُ الله لا تُحدَّد بما تعرفون، وصُورة الخلق لا تقتصر على ما تعلمون.

وهو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾، فتطوُّر هذا الشجر وتحوُّله ـ من تلك الخضْرة اليانعة والطبيعة الممتنعة على النار، إلى هذا اليبس والطبيعة القابلة للاشتعال ـ دليلٌ من أدلة قُدرة الله العظيمة على التحوير والتغيير، وما البعثُ والحشرُ في جانب هذه القدرة إلا أمرٌ يسير.

وبعد أن ذكر دليل التطوير والتحوير، ذكر القدرة العظمى فيما لا ينكرونه، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ـ على عظمتها ـ ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ ويعيدَهم فيه؟ وبَيْنَ هَوْنِ خِلْقتِهم هذه في الإعادة وعَظَمةِ خَلْقِ السَّماوات والأرض بَوْنٌ بعيد؛ لذلك أجابهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ يعلم كيف يَضَعُ لكلِّ خلقٍ ناموساً يلائمه ويقتضيه[2].

---

(١) أي: في عُرْفِكم، فهو من التعبير بحال المُخاطَبين، ولذلك أتبعه المؤلف رحمه الله بقوله: «وله المثل الأعلى».

(٢) وقد يخلق الله سبحانه وتعالى من غير ناموس، كخلق آدم وعيسى وخلق دابة صالح من الصخر وغير ذلك، فقدرته سبحانه غير مقيدة بهذه النواميس.

١٨٨ ـــــــ



مكية، وهي اثنتان وثمانون ومئة آية

جاء في هذه السورة إبطال الشرك، وقد كانوا يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله، فبيَّن أنها من أعبَدِ العابدين لله، ويتَّخذون من شياطين الجن قُرَناء، يزعمون أنهم يطَّلعون على أسرار الله فيخبرونهم بها، ولم يخبروهم برسالة محمد، فردَّ عليهم ذلك وكذَّبهم.

ثم قرَّر البعث والحساب، وبيَّن غبطة المؤمنين ومصير الكافرين، وقصَّ جزاء المعارضين وتَنْجية المرسلين.

وفصَّل قصة إبراهيم وما جرى له مع وَلَدِهِ إسماعيل، ونوَّه بشأنهما.

ثم ختم السورة بتهديد المشركين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾

قال أبو مُسلِم: هي الجماعات من المؤمنين يقومون مُصْطفّين في الصلاة، والذين يرفعون أصواتهم عند قراءة القرآن؛ لأنَّ الزَّجْرة: الصَّيْحة، وكذلك القرآن يشتمل على زواجر ونواهٍ، وجماعة المصلِّين يتلونَ آيات الله.

أقول: وعليه، يكون قد ذكر تلاوة القرآن تارةً بلفظ الزَّجْر، نظراً لِـمَا فيه من زواجر، وتارةً بصيغة التلاوة العامة، نظراً لِـمَا فيه من عموم التذكير. والله أعلم.

وقال بعضُ مُفسِّري السَّلَف: هي الملائكة تَصْطفُّ كصفوف المؤمنين في الصلاة، وتَـزْجر الأجرامَ العلوية والسفلية بالتدبير، وتَـزْجر الخلقَ عن المعاصي، وتتلو كتب الله التي تنزل بها بأمر الله إلى الموحى إليه.

ووجه القَسَم بها على كِلا التفسيرين: ما فيها من اتِّفاق هؤلاء المقرَّبين على التوحيد والطاعة لله وحده، يُقسِم بهم على إثبات الألوهيَّة لله وحده، كما عَلِمَه هؤلاء المقرَّبون. وآخر السورة يلمع إلى أن هذا الوصف للملائكة، ولا مانع أن يجمع بينهما بحسب أساليب القرآن. والله أعلم.

ثم ذكر من صفات الربوبية ما جعله كالدليل على دعوى التوحيد هذه التي أقسَمَ اللهُ عليها، فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ يُومئ إلى تنقُّل الشمس كلَّ يوم من مَشْرق إلى آخر، ذلك التنقُّل الناتج عن النظام البديع في حركة الأرض السنوية واليومية. فهذه دَعْوى دليلُها منها، لأنها دلَّت على استحقاق الله واختصاصه بالألوهيَّة لمثل هذا الصنيع.

ثم تابع البيان عن بداعة السماوات، فقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ قرأ حفصٌ بتنوين (زينة) وجرّ (الكواكب)[1]، وذلك على أنها بَدَلٌ منها. والمرادُ بها: الاسمُ لا المصدر، والاسمُ النكرة المُنوَّن أعمُّ الألفاظ وأكثرها استيعاباً.

وقوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ معطوفٌ على ﴿زَيَّنَّا﴾؛ لأنه نائبٌ عن فِعلِه، وهو: (حفظناها)، أو منصوبٌ بفعل مُقدَّر معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، أي: وحفظناها حفظاً من كلِّ شيطان مارد، بمعنى: خارج عن الطاعة، وهم أشرار الجن وسفهاؤهم.

وفيه إلماعٌ إلى إبطال وتكذيب ما يُضلِّل به الكَهَنةُ هؤلاء المشركين، من أنهم يعلمون أمور السماء بواسطة الجنّ، ولم يعلموا شيئاً عن رسالة محمد والوحي إليه بهذا القرآن. فالقرآن العظيم يَسُوقُ معنى هذه الآية إلماعاً للردِّ على المشركين الذين يعتمدون على كَهَنتهم في مَهَامِّ الأمور، ويقبلون قولهم في ذلك؛ لاعتقادهم أنهم يعلمون الغيب بواسطة الجنِّ الذين يتعرَّفون لهم الوقائع من العالم العلوي بزعمهم، فالمشركون ينكرون دعوى محمد ﷺ للنبوَّة، بحُجَّة أنَّ الجنَّ لم تخبر الكَهَنةَ بذلك.

ومؤدَّى الرد: نَقْضُ هذا الاعتقاد وتسفيهُه، ببيان أنَّ الجن لا تعرف شيئاً، ولا تُصدَّق فيما تدَّعيه من علم الغيب، وأن السماء محفوظة من محاولتهم، كما قال: ﴿لَّا

---

(١) هي قراءة حفص عن عاصم، وكذا قرأ حمزة. «السبعة في القراءات» ص٥٤٦.

﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ أي: لا يتمكَّنون أن يتسمَّعوا ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهم الملائكة، أي: إنهم يحاولون ذلك ولا يقدرون على شيء، ونفيُ التسمُّع أبلغ من نفي السماع ويستلزمه؛ لأنهم إذا لم يتمكَّنوا أن يستمعوا لم يكونوا ليسمعوا شيئاً قط، ﴿وَ﴾ ذلك لأنهم ﴿يُقْذَفُونَ﴾ بالشُّهُب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾ من جوانب السماوات، ﴿دُحُورًا﴾ لهم وطَرْداً، ﴿وَلَهُمْ﴾ من ذلك ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ أي: شديدٌ دائم.

ثم بيَّن صورة محاولتهم، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ أي: مضيءٌ مُحْرِقٌ قاتل. والمرادُ بالخَطْفة: اختلاسُ كلام الملائكة مُسارقةً، كما يُعرِبُ عنه تعريف ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾، أو اخْتلاس الصُّعود، والخطفة: محاولتُه، وهو الأصح؛ لأنهم لا يتوصَّلون إلى السماع، ولكنهم يحاولون فقط، كما يُؤْذِن به قوله: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾.

وقد مرَّ الكلام مفصَّلاً في سورة الحِجر[1] عن هذه الشُّهُب المتساقطة، ومن أين تكون، وعن رَجْمِها للشياطين، فارجع إليه.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾.

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٧-١٨].

وبعد أن أقام الحجَّة على قدرة الله البالغة، ببيان مخلوقاته العظيمة في السماوات والأرض وما بينهما، مَخَضَ لهم النتيجةَ على أبلغ الوجوه في إثبات القدرة على حشرهم وإعادتهم، وأخرج الكلام على طريقة الاستفتاء منهم، ليكون أحرَجَ لهم وأبلَغَ في الإلزام والتقريع، لأنه يرمز إلى أن ذلك معلوم لهم بالضرورة، فقال: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ والاستفتاء: طَلَبُ الجواب الحقِّ الواضح، ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ في إعادتهم ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي: مما ذكر من السماوات والأرض وما بينهما. وأتى بـ﴿مَّنْ﴾ دون (ما) تغليباً للعقلاء، وهم الملائكة، وهي أنسَبُ في معادلتها للضمير: ﴿هُم﴾.

وحاصل الكلام: أنَّ الله سبحانه خَلَقَ هذا العالم العلوي بما فيه من عَظَمة وتنظيم دقيق وإحكام سديد. وذلك أعظم بكثير من خَلْقِهم ثانياً وإعادتهم. ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١].

ثم علَّل حاصلَ المعنى بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ أي: لَزِجٍ لاصِق. قال الرازي: أي: إنَّ هذه المادة قابلة للحياة، ولو لم تكن كذلك لَـمَا صارت حيَّة في المرة الأولى[1]. أو المعنى: إنا لـمّا قدرنا على خَلْق الحياة في ذواتهم أولاً من هذه المادة، وَجَبَ أن نبقى قادرين على خَلْق الحياة فيهم ثانياً من عَجْب الذَّنَب.

أقول: ويجوز أن يكون المراد المبالغة في القدرة، لِـمَا بين الـمادتين من المباينة والتفاوت. وعلى كلٍّ، فهو تعليلٌ يساير السهولة والاستضعاف لهم المفهوم من تركيب الكلام في الجملة السابقة.

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٦: ٣٢٢).

ثم أضرَبَ عن بيان إنكارهم إلى بيان ما هو أشدُّ منه فظاعةً، وهو سخريتُهم من ذلك، فقال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: إنَّك تَعْجَبُ من إنكارهم لهذا الأمر الواضح، وهم لا يكتفون بالشك والإنكار، بل يسخرون من ذلك.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: إذا نُبِّهوا وأُرشِدوا بالبراهين إلى سهولة البعث على الله لا يسترشدون.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ تدلُّ بنفسها أو ببراهينها الواضحة على صحَّة البعث؛ ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: يبالغون في السخرية، أو يُحرِّض بعضُهم بعضاً على الاستهزاء. وقد حكى ذلك بقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: أمرٌ مُضَلِّلٌ للعقول تضليلاً شديداً، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾؟ وإنما قدَّم التراب؛ لأنه منقلبٌ من الأجزاء الضعيفة البادية، أو لأن البقية الباقية من العظام هي التي تتأخر في البقاء. وتقديم الظرف[1] لتقوية الإنكار، وتكرير الهمزة للمبالغة والتشديد في ذلك، وفي قوله: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ زيادةٌ في الاستبعاد، وإيماءٌ إلى أنهم لم يُبعَثوا مع طول الأمد.

ولـمّا حكى عنهم هذه الشُّبَهَ بعدما تقدَّم من البرهان اليقيني في إمكان الحشر، أمره أن يَرُدَّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: نعم تُبعَثون، وأنتم صاغرون، بمعنى: رَغْمَ أنوفكم.

ثم ذكر أنه أمرٌ في غاية السهولة عند الله تعالى، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ أي: قصةُ البعث ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ لهم ولآبائهم يَزْجُرهم الله بها. وفي هذا اللفظ ردعٌ للمُعارضين،

---

(١) يعني قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾، قدَّمه على قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

والمراد به: كلمة التكون، أي: فإنما هي قول: كُن، أو هي إرادةُ الله[١]، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياءُ ﴿يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ ما يجري هناك.

فإذا كان ذلك بُهتوا ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ أي: يا هَلاكَنا، ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: اليوم الذي يُدان فيه الناس. وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ يجوز أن يكون من كلام بعضهم لبعض بُهْتاً وخوفاً وندامةً، أو يكون مما يُقالُ لهم. والفَصْل: القضاء والحساب، والتفريق بين المُحسِن والمُسيء.

ثم بيَّن ما يكون من أمرهم هناك، وهو صدور الحكم عليهم موجَّهاً إلى الموكَّلين بالتنفيذ، فقال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسَهم بهذا الإنكار، ﴿وَ﴾ احشروا معهم ﴿أَزْوَٰجَهُمْ﴾ قال ابنُ عباس: أي: أشباههم ونظائرهم من أصناف العصاة[٢]. وقيل: قُرَناؤهم من الشياطين من الإنس أو الجن الذين زيَّنوا الظلمَ لهم وأغوَوْهُم.

ويجوز أن يُراد بالأزواج: المعنى الحقيقي؛ ممَّن كُنَّ على شاكلتهم، فتكون الآيةُ مقابلةً لقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠].

ثم أكمل البيان بقوله: ﴿وَ﴾ احشروا كذلك ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من المُضلِّين لهم في ذلك، والداعين لهم أن يعبدوهم. أو: احشروا حتى الأصنام، زيادةً في توبيخ العابدين وتخجيلهم. ويُؤْنس لهذا المعنى ـ وهو حَشرُ الأصنام ـ قولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، فقد قيل: المراد من الناس: عبَّاد الأوثان، والمراد بالحجارة: الأصنام التي هي أحجار منحوتة يعبدونها.

---

(١) أو هي نفخة إسرافيل عليه السلام في الصُّور، وهذا أقربُ للفظة ﴿زَجْرَةٌ﴾، لأن معناها لغةً: صيحة.

(٢) انظر «تفسير الطبري» (٢١: ٢٧).

وقوله: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ فيه تهكُّم بهم تجاه عدم اهتدائهم في الدنيا إلى الصراط المستقيم، على طريقة رد الوصف ومقابلته، أي: عرِّفوهم عن طريقها ووجِّهوهم إليه، ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي: واحبِسوهم ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم يُقالُ لهم تهكُّماً وتقريعاً للعابدين والمعبودين: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾؟!

ثم أضرَبَ إلى بيان عَجْزِهم واستِسلامِهم، فقال: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

ثم ذكر ما يكون بين الأتباع والمتبوعين من التخاصم، فقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: أقبل الأتباع والرؤساء يتخاصمون بينهم على ورطتهم هذه.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الأتباع للرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾، وهذه الجملةُ مستعارةٌ للنفع وإظهار الإخلاص؛ لأن العرب تستعمل اليمين والتيمُّن لذلك، أي: تقولون هذا هو الأمر الحسن النافع، والمقبول عند الله. أو المعنى: تأتوننا مأتى الطَّيْر

السائح الذي يأتي بالخير واليُمن، فنتَّبعكم. أو المعنى: إنكم تأتوننا من أقوى الوجوه وأمتنها فنتَّبعكم[١].

﴿قَالُوا﴾ أي: الرؤساء للأتباع: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لم يكن ضلالكم إلا من تحريفكم لِفِطَرِكم وإفسادِكم لطبيعتكم مثلنا، حتى فقدت الاستعداد للإيمان، فكان إضلالنا عاملاً فيكم. ولو كانت طباعكم قد ظلَّت سليمةً باقيةً على استعدادها للإيمان وعمل الخير، لم نتمكَّن من إضلالكم أبداً.

وقد صَّرح بهذا المعنى، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: لو كانت نفوسُكم باقيةً على سلامتها واستعدادها الفطري لَـمَا كان لنا عليكم تأثير، ولكنكم لم تتركوها على صلاحها ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ بإفسادكم لنفوسكم وتمكين الطغيان منها. فكنا نحن وأنتم في الجرم على حَدٍّ سواء، بإفسادنا لِفِطَرِنا، وضلالنا على الهدى بعد إذ جاءنا.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾: لأملأنَّ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين[٢]، و﴿إِنَّا﴾ جميعاً ﴿لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ العذاب الأليم، لِـمَا كان من إفسادنا جميعاً لطبائعنا، وبذلك سَهُل إضلالُنا لكم كما ضَلَلْنا، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لم يكن منا أكثر من الغَواية، ولو لم تكونوا أفسدتُم استعدادكم للإيمان، لم تعمل فيكم تلك الغَواية[٣].

---

(١) أو المعنى: قال الأتباع للرؤساء: إنكم كنتُم تأتوننا في الحياة الدنيا صادِّين إيّانا عن الإيمان الذي من شأنه أن يجعلَنا من أصحاب اليمين.

(٢) يعني: المذكور في الآية ١٣ من سورة السجدة.

(٣) أي: دَعَوْناكم إلى الغيِّ دعوةً غيرَ مُلجِئة، بالتزيين والتحسين والإطماع بالباطل؛ لتَنضَمُّوا إلينا، إنا كُنّا ضالِّين مِن قبلكم، وكلٌّ منا يَتحمَّلُ من الجرم على مقدار ما اكتَسَبَ منه في الحياة الدنيا.

ثم ذكر سبحانه حُكمَه فيهم، بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾، ثم قرَّر ذلك مُبيِّناً الحكمَ العام، بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم ذكر في التعليل أعظَمَ إجراماتهم التي جرَّتهم إلى هذا الوبال، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ يَعنُون رسولَ الله ﷺ، أي: إنَّ الذي يَراه ويسمعه مما يُسمِّيه وحياً، إنما هو أخيلة وهواجس. خابوا وخسروا.

فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿بَلْ﴾ هو رسول من الله، ﴿جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾. وهذا ردٌّ من الله سبحانه وتعالى عليهم، وتكذيبٌ لهم، ببيان أنَّ ما جاء به من التوحيد هو الحقُّ الذي قام به البرهان، وأجمع عليه كافَّة الرسل عليهم الصَّلاةُ والسلام.

ثم سجَّل الحكمَ عليهم بعد البيِّنة، فقال: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بما فعلتُم من الإشراك وتكذيب الرسول، والاستكبار في ذلك، ﴿لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم أعْذَرَ فقال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إنَّ ذلك أثر لازم من آثار أعمالكم. فما ظلمهم الله ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون، بإفسادهم إيَّاها حتى فقدت الاستعداد للإيمان.

ثم قابل مصيرَ الكافرين هذا بمصير المؤمنين، على نهج القرآن في المقابلة، مبالغةً في تنبيه الكافرين وترغيب المؤمنين، وساق الكلام على طريقة الاستثناء المنقطع، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: الذين لم يُحرِّفوا طبائعَهم ولم يُدَسُّوا نفوسَهم، فعملوا الخير وأرضَوُا الله، فهؤلاء لا يذوقون العذاب، بل ينالون الثوابَ الذي بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ في نعوت الكمال وممتازات الخصائص، وهو: ﴿فَوَاكِهُ﴾

يتفكَّهون به، وليس بقوت يقتاتون به، ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ عند الله قد نالوا رضوانه ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1]. ويجوز في ﴿لَذَّةٍ﴾ أن تكون مصدراً جُعِلَ وَصْفاً للمبالغة، أو صفةً مؤنَّثة لـ«لَذٍّ»، بمعنى: اللذيذ.

ثم قال في إتمام الوصف: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا فيها غائلةٌ كما في حالات خمور الدنيا ولا نزيف، من قولهم: نزف الشارب؛ إذا ذهب عقله. وقد وصف الخمرة بأكمل الأوصاف في اللَّذَّة ونفى عنها النقائص.

ثم تابع البيان عن ذلك النعيم، فقال: ﴿وَعِندَهُمْ﴾ زوجاتٌ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ بمعنى: حَيِّيات لا يَنْظُرْنَ إلى غير أزواجهنَّ ﴿عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ جمع: عَيْناء، وهي الواسعة العين، ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ والبيضُ المكنونُ ـ أي: المخزون قليلاً ـ يكون فيه بعض السُّمرة، والبياض المخلوط بقليل من السمرة: هو أحسن ألوان الأبدان.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا

---

(١) أي: مساكنُهم في جنّات النعيم، مُتكئين على سُرُرٍ يُقابلُ بعضُهم بعضاً، للتحدُّث السارِّ والأُنس والتنعُّم باللقاء، يدور عليهم في مجالسهم ولدانٌ مُخلَّدون بكؤوسٍ من خَمْر تجري به بعضُ أنهار الجنة، ظاهرةٍ تراها العيون. الكؤوسُ وما فيها من الخمر بيضاءُ شفّافة، حَسَنةُ المنظر، طيِّبةُ الطعم، لذيذةٌ للشاربين.

فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم ذكر شيئاً من المحادَثات والمؤانَسات التي تجري بينهم على هذا الشراب، بقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ أي: جليس في الدنيا، ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: بالبعث، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: لمبعوثون ومَجْزِيُّون على أعمالنا ومُحاسَبون عليها. يُنكِرُ عليَّ ذلك الاعتقاد، ويُوبِّخني على تصديقي بالبعث.

ثم ﴿قَالَ﴾ هذا القائل لرفقائه: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ معي إلى أهل النار؛ لنرى ما حلَّ به؟ ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: في وسطه وغَمْرته. وفي إفراده بالاطِّلاع اكتفاءٌ يُعرَفُ مِثلُه في خصائص اللغة وأساليب القرآن، وتمهيدٌ للإفراد بقوله: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لَتُهلِكُني بإغوائك، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ عليّ بعصمتي وهدايتي، ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ معك في هذا العذاب الأليم.

ثم قرَّعه على اعتقاده الباطل الذي أحلّه هذا المحلّ، وندَّمه عليه بقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ألم يكن وراء الموتة الأولى شيء كما كنت تزعُم؟! ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ كما كُنتَ تقول؟! ينكر عليه ذلك ويُؤَنِّبه. وبهذا ينتهي كلامه لقرينه.

ثم علّق سبحانه وتعالى على نعيم المؤمنين هذا بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾، ثم بالغ في الحضِّ عليه بقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ لا للحظوظ الدنيويَّة المَشُوبة بالمنغِّصات والآلام، والسريعة الزوال والانصرام.

ثم قفَّى عليه بقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ والنُّزُل: ما يُهيّأ مُعجَّلاً للضيف النازل من الكرامة. يشير إلى أنَّ هذا مبدأ النعيم، وقليلٌ مما سيتتابع عليه من فضل الله العظيم.

ثم شرع في وصف تلك الشجرة، مقدِّماً فتنةَ الكافرين بها، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، وقيل: ابتلاءً واختباراً لهم في الدنيا؛ لأن المشركين لـمّا سمعوا أنها شجرة تنبت في أصل الجحيم، أخذوا يهزؤون كيف تَنْبتُ في النار الشجرُ؟! وذلك لقِلَّة عِلمِهم بمدى سنن الطبيعة وتنوُّعها، فضلاً عن أن نواميس طبيعة الحياة الأخرى تخالفها جداً، وتفوقها سَعَةً واستعداداً.

وعلى هذا القول، يكون الجَعْلُ ليس بمعناه الحقيقي المنوط بالقصد، (كما جاء في المادة الثامنة عشرة من المقدمة الثانية)، بل هو لبيان الواقع، بمعنى: أنها كانت مصدرَ فتنةٍ لهم لسوء ظنِّهم بالله، وعدم تقديرهم قدرتَه وقَدْرَه، فأنكروا على قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ أي: مَنْبتُها في قَعْر جهنم، و﴿طَلْعُهَا﴾ أي: حملُها وثمرُها الذي يطلع منها: ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾، وهذا التعبير من عُرف اللغة، وهو تمثيل للبشاعة والقبح والهول على طريقة التَّخييل، لأنَّ قُبْحَ صُوَرِ الشياطين وهَوْلِها أمرٌ مُتَخيَّل في النفوس، وإن لم تُر. وعلى هذه الطريقة البلاغية قولُ امرئ القيس:

ومسنونةٍ زُرقٍ كأنيابِ أغوالِ[1]

وهذه من خصائص اللغة وعرف العرب.

---

(١) وصَدْرُه:

أيقتُلُني والـمَشرَفيُّ مُضاجِعي

ينظر: «ديوان امرئ القيس»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٢٣٨.

ثم شرح كيفيَّة تعذيبهم بها زيادةً في التحسيس، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ يشربونه عليها؛ زيادةً في التعذيب. والشَّوْب: اسمٌ عامٌّ في كلِّ ما خُلِطَ بغيره، والشراب: يختلط بالطعام طبعاً. والحميم: الماء الحار المتناهي في الحرارة.

وقد ختم الكلام ببيان مرجعهم الرهيب الأليم، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾، وقد بيَّن ما أدَّى بهم إلى هذا العذاب، وهو تقليدُهم الأعمى لآبائهم، وإهمالُهم مواهبَهم العقلية في تبيُّن الهدى والرَّشاد، فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: يمشون سراعاً من دون تفكير.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم بيَّن له ﷺ أنَّ مثل هذا التقليد الأعمى ليس خاصاً بقومك، وإنما هو عامٌّ في كلِّ مَنْ أفسدوا طبائعَهم من الأمم قبلهم، بيَّن ذلك تسليةً له ﷺ، ووَعداً بغَلَبة الحقِّ للباطل، فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: أنبياءَ يُنذِرونهم كما أرسلناك في هؤلاء، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ من الهوْل والفظاعة والعذاب المهين، لـمّا لم يلتفتوا إلى الإنذار، ولم يَسلَم منهم أحدٌ من تلك العاقبة ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ الذين حافظوا على سلامة فِطَرِهم ولم يُدَسُّوا نفوسَهم، فاهتمُّوا للإنذار وأخلصوا دينهم لله، فنَجَوا من عذابه، ونالوا جزيل ثوابه.

ثم فصَّل عاقبة أولئك المُنْذَرين الذين أعرضوا عن النُّذر لفساد نفوسهم من جرَّاء تحريفهم لطبائعهم، وطَمْسهم لبصائرهم، وكذَّبوا المُنذِرين، فنالوا العذاب المهين، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أي: حين يئس من إيمان قومه بعد ما دعاهم إليه أحقاباً ودهوراً، وضاق بهم ذَرْعاً، فأجبناه لِمَا دعانا، ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ نحن لمنْ يدعونا، أي: فأجبناه أحسَنَ إجابة.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ أي: من أذى قومه، أو من الغرق الذي أصاب قومه، أو من كِلَيْهما، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: بعد أنْ أَغرَقنا مَنْ سواهم لكفرهم، ولذلك يُقالُ لنوح: آدم الثاني.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ قال ابنُ عباس ومجاهد: أي: تركنا له ذِكراً جميلاً في الأمم التالية[1]، أو في أمة محمد ﷺ. وقد فسَّر مُجمَلَ ذلك بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾، والسلام مضمونه: التقدير والتكريم، أي: تركنا عليه ما يقدَّر ويكرَّم به في العالمين إلى يوم القيامة، وهو دعوة قومه ألف سنة.

ثم قرَّر ذلك النوال بهذا التقرير العام، فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: جَزَيْناه بالتكرمة السنيَّة من إجابة دعائه أحسن إجابة، وإبقاء ذُرِّيَّته، وتبقية ذِكرِه الجميل، وتسليم العالمين عليه، وتكريمهم له، إلى آخر الدهر؛ لكونه من زمرة المعروفين بالإحسان الراسخين فيه.

ثم علَّل إحسانَه هذا وبيَّن مصدرَه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾، ثم عطف على قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ قولَه: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: كفّارَ قومه أجمعين.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ٦٠).

وفي كلمة ﴿ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ تجوُّز، حيثُ أراد بها ـ والله أعلم ـ ذريَّته وذريَّة مَنْ حُمِلَ معه، كما في سورة الإسراء[١]، فتجوَّز هنا عنها بذريته.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

ثم ذكر في تفصيل عاقبة المُنذَرين قصَّةَ إبراهيم ﷺ مع قومه، ووَصَلَ هذه القصةَ بالتي قبلها، فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾، وبينهما أحقابٌ عديدة، وأزمانٌ مديدة. أي: إنَّ ممن شايَعَ نوحاً في أصول الدين لَإبراهيمُ. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الشرائع واحدة في أُصولها، وإن اختلفت بعضَ الاختلاف بفروعها؛ لاختلاف الأزمان، وتدرُّج رُقيِّ الإنسان.

قال مجاهد: إنه على منهاجه وسُنَّتِهِ في التوحيد، والعدل، واتِّباع الحق، والصبر على المكاره[٢].

ثم فصَّل ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ أي: حين صَدَقَ اللهَ وآمَنَ به بقلبٍ خالصٍ نزيهٍ من الشِّرك، بريءٍ من المعاصي، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾؟ أي: أتريدون آلهةً دون الله إفكاً وكذباً؟ ﴿فَمَا

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ٦١).

﴿ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ حين جعلتم هذه الأصنام تُقرِّبكم إليه زُلفى، وهو يعلم السِّرَّ وأخفى؟!

ثم عالج الفكرة بطريقة البحث والاستدلال، كما أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ[1] ﴿٨٩﴾﴾ أي: سقيمٌ في العقيدة، والظاهر أنَّ ذلك كان في صِغَرِه[2]. والله أعلم.

قال أبو مسلم: نظر في النجوم نظرَ تفكُّر، فاستدلَّ بها ـ كما قصَّه الله تعالى في سورة الأنعام[3] ـ على أنها غير آلهة. وأشار بقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ إلى أنه في حالة عِلّةِ النظر وسَقامة الفِكر، وليس على يقين من الأمر، ولا شفاء من العلم، وقد يُسمَّى الشك سقماً، كما يُسمَّى العِلمُ شفاء، فقد قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وإنما زال هذا السقم عند زوال الشك وكمال المعرفة. انتهى.

أقول: فمعنى ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾: إني غير مرتاح من دين قومي[4]. فمفادُ الآية شبيهٌ بمفاد قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، أي: مُتحيِّراً في أمرك، أيَّ دين تَتَّبع، فهداك بهذا الدين[5]. والظاهر أنَّ هذا كان في أول نشأة إبراهيم عليه السلام. والله أعلم.

---

(١) أي: فنَظَر إبراهيمُ نظرةً في النجوم؛ ليُوهِمَ مَنْ حولَه من قومه أنه على طريقتهم في النظر إلى حركاتِ النجوم؛ لئلّا يُنكِروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكيدَ أصنامهم في يوم عيدهم، فيُحطِّمَها إلا كبيرَها؛ ليُلزِمَهم الحُجَّة أنها لا تستحقُّ العبادة.

(٢) الأصح أنه كان في كِبَره بعد إيتائه النبوة من الله تبارك وتعالى، لكنْ كان ذلك على سبيل التسليم لما يقوله الخصم جدلاً لإبطاله بالحجة والبرهان، لا عن اعتقاد منه عليه الصلاة والسلام بذلك.

(٣) في الآيات (٧٤-٨٣).

(٤) بل المعنى: إني مريض، ومرضي يمنعُني من أنْ أخرُجَ معكم في يوم عيدكم. أو: سقيمُ القلب؛ لحزنه على كفرهم بالله، لكنّه أوهمَهم أنه مريض البَدَن حتى ينصرفوا عنه.

(٥) قوله: «أيّ دين تتبع» فيه خفاء وإلباس، فإن فُهم بأنه كان متحيِّراً في اتباع أحد الأديان الموجودة في=

ثم أعقب هذه النظرة والانتباهة بمجادلة قومه: ﴿فَنَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ ولم يَقبَلوا منه هُداه، فضمُّوا إلى خِذلانِهم بالنظر خِذلانَهم بالواقع، كما حكاه سبحانه، فقال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾[1] أي: مَالَ إليها في خِفْية يومَ عيد لهم وهم لاهون، وكان عندها طعام يضعونه أمامها في ذلك العيد لتبارك عليه، ﴿فَقَالَ﴾ استهجاناً لعابديها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾؟ ثم بالغ في التهجين والنقد والسخرية، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾؟!

وبعد هذا الاستهزاء الإلزامي أوقَعَ بهم، كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ مَحقاً لأدوات الشرك. والرَّوْغة: هجوم الثعلب. وفي قوله: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ إيغالٌ وإشباع للضرب، للإشارة إلى أنه جعلها جُذاذاً.

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ﴾ أي: قومُه ﴿إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: يُسْرعون لـمّا بلغهم الخبر. وهذا الفِعلُ مستعارٌ من زفيف الحمام، وهو حالةٌ بين المشي والعَدْو.

ولما عنَّفوه على هذا العمل ﴿قَالَ﴾ لهم مُلزماً ومُعنِّفاً: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ بأيديكم، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[2]؟ أي: خلقكم مستعدِّين للعمل بأيديكم،

= عصره لاحتمال أن يكون أحدها صواباً في نظره؛ فهذا فاسد، لأن النبي ﷺ كان يجزم ببطلان هذه الأديان جميعاً قبل نبوّته، وإن فُهِمَ بأنه كان يعرف بطلانها لكنه كان متحيراً في الصواب من ورائها، وهو الدين المُغيَّب عنه في واقعة قبل نبوته ﷺ؛ فهذا هو الصواب.

(١) أصل معنى الرَّوْغ والرَّوَغان: مَيْلُ الشخص إلى جانب ليَخدَعَ مَن يراقبُه. والمراد: مال في خُفيةٍ وخِفّةِ حركةٍ إلى أصنامهم.

(٢) يمتدُّ معنى الآية إلى أمر هذه المخترعات العصريَّة، إذ ليس للمخترع سوى اكتشاف ما خلق الله في هذا الكون والاستفادة منه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، فهي تُقلِّل من شأن الإنسان مهما بلغ من الرقيِّ والعمران، في جانب أمر الله وقدرته البالغة العلية الشأن. (المؤلف).

ولولا أنْ خلق لكم هذا الاستِعدادَ وموادَّ المصنوعات، لَـمَا قدرتم على عمل شيء، ولا على عمل هذه الأصنام، فكيف تشركونها به تعالى، وهي من مَصْنوعات مخلوقِيهِ؟! فالكلام تهجينٌ شنيع، وإلزامٌ فاضح.

فلما ألزمهم بالحُجَّة عَمَدوا إلى السَّفاهة والقوَّة، شأنَ مَنْ تنقطعُ حُجَّتُه، وتنكشف غباوتُه، و﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا﴾ أوْقِدوا فيه ناراً حامية، ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ أي: قرِّروا ذلك. فالمراد من القول: هذا القرار الناتج عن محاكمته. والله أعلم. قال الزجَّاج: الجحيم: النار بعضها فوق بعض[1]. وقيل: هي النار العظيمة.

ثم ذكر سبحانه انتصارَه له بقوله: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: لـمّا قهرهم بالحُجَّة أرادوا إتلافَه كي لا تظهر حُجَّته للناس، فكانت النتيجة ظهورَ معجزة كبرى، وهي عَدَمُ إحراق تلك النار العظيمة له ونجاتُه منها، حيث كانت برداً وسلاماً عليه.

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من هجرته بعد ذلك، وما كان من أمره، حاكياً عنه بقوله: ﴿وَقَالَ

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣١٠).

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ إلى ما فيه صلاحي وصلاح ديني، أي: مهاجرٌ إلى حيثُ أمرني ربي، لأتجرَّد لعبادته.

وقد طلب المعونة منه تعالى بالذرِّية الصالحة، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، وقد قرن سبحانه وتعالى دعاءَه بالإجابة، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وقد مهَّد بهذا الوصف لِـمَا كان من أمر هذا الغلام مع أبيه، وإطاعته له في السماح بنفسه لأمر الله، كما حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ قال مجاهد: أي: لـمّا شبَّ حتى بلغ أن يسعى معه في أعماله، ويُعينَه على أموره[1]، ﴿قَالَ﴾ له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟ وأراد من وراء هذا السؤال أن يُثبِّته إنْ جَزِع، ويوطِّن نفسه عليه إن هلع.

فكان من حِلْم هذا الغلام وانقياده لله أنْ ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ به ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وهذا منتهى التسليم والانقياد لله سبحانه. فلله درُّه من غلام حليم! وإنَّ الأنبياء لتُبتلى بما أيسَرُه يجزعُ له كلُّ جَلِدٍ هَصُور، ولا يقوم على مثله صَبْرُ صبور، وليس ذلك بشيء في جانب مقام النبوَّة الذي قال عنه تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال عنه لموسى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

ثم قال تعالى في إتمام البيان عن هذا الحادث الجَلَل: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: استَسْلما وانقادا لأمر الله، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ قال ابنُ عباس: وضعَ جبينَه على الأرض لئلّا يرى وجهَه فتلحقَه رقَّة الآباء[2]. ويروى: أنَّ ذلك كان بإشارته، وهذا أعظم حلماً وانقياداً. وقيل: كان ذلك عند الصخرة بمنى، وقيل: في الموضع المُشرف على مسجده. وقيل: في المنحر الذي يُنحَرُ فيه اليوم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ٧٣).

(٢) المصدر السابق (٢١: ٧٧-٧٨) بلفظ: «أكبَّه على جبهته».

ولا صراحة في الكلام أنه بدأ بالذبح أو باشره، ويجوز أن يكون نزول الوحي بين تلِّه للجبين وأخذ السِّكّين. والله أعلم.

وقد أقام مقامَ الجواب قولَه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ أي: فعلتَ تأويلَها المقصود، وهو العَزْم والإتيان بالمقدِّمات ابتلاءً وتدريباً على المِحَنِ والشدائد، لأنَّ المرشَّح لعظائم الأمور يجبُ أن يُدرَّب على التحمُّل والصبر.

ورؤيا الأنبياء وحيٌ، وهي نوعان: صريحةٌ ومُؤوَّلةٌ، وكانت رؤيا إبراهيم هذه من النوع الثاني، فظنَّها من النوع الأول. قال أبو مسلم: رؤيا الأنبياء ـ مع أن جميعها صحيحة ـ ضَرْبان: أحدهما: أن يأتي الشيء كما رأوه، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ...﴾ [الفتح: ٢٧]، والثاني: أن يحتاج إلى تأويل، وذلك كرؤيا يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. وكانت رؤيا إبراهيم عليه السلام من هذا القبيل، لكنه لم يأمن أن يكون ما رآه مما يَلزَمُه العمل به على الحقيقة، ولا يَسَعُه غيرُ ذلك. فلمَّا أسلما أعلَمَه الله سبحانه أنه صدَّق الرؤيا بما فعله، أي: أتى بتأويلها، وهو العَزْم والإتيان بالمقدِّمات للابتلاء بها، إذ كان ذلك تأويل الرؤيا. والله تعالى أعلم.

وقد نوَّه سبحانه بشأن هذا الإفراج، وطَوَاه على ما سيُكْرِمُهما به في مقابلة هذا الامتثال من عظيم الإحسان، فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ثم بالغ سبحانه وتعالى بالتنويه بشأن ذلك العمل، والانقياد لله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: إنَّ هذا الأمر هو الابتلاء والاختبار الشديد، الذي يتبيَّن فيه الانقياد والإخلاص لله سبحانه. وهذا تقديرٌ وتمجيدٌ من الله سبحانه لإبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام. والله تعالى أعلم.

ثم فداه من الذَّبْح بالذِّبْح فقال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾، والظاهر أن المراد: إنه عظيمُ القَدْر؛ إما بذاته، أو لأنه كان فداءً لهذا الأمر العظيم، وهو الأقرب، لأنَّ الشيء يكون عظيماً إذا قُرِنَ بأمر عظيم.

ويُروى: أنَّ إبراهيم عليه السلام ـ لـمّا نُودِيَ أنْ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ ـ نظر فإذا بجبريل عليه السلام يقود كبشاً أقرَنَ أملَحَ، وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبر، الله أكبر. وقال الذبيح: ولله الحمد[1]. ومن ثَمَّ صار التكبير في يوم النحر سنةً ماضيةً في الأولين والآخرين.

والفِداء: جَعْلُ الشيء مكانَ الشيء[2].

ثم قال في إتمام التنويه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: تركنا له ذِكراً في الأمم اللاحقة. ثم أكرَمَه بهذه الكرامة العظيمة الشأن، فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾، وهذه كرامةٌ من الله سبحانه له عليه الصلاة والسلام، وإذا كرَّم الله أحداً فعلى البشر أن يكرموه.

ثم بيَّن وَجْهَ ذلك بهذا البيان العام، وعلَّله بهذا التعليل العام، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ أي: الراسخين في الإيمان، على وجه الإيقان والاطمئنان. ومحصَّل الكلام: أنَّ سُنَّة الله تعالى مَضَتْ في أن يكون للمُحْسِن حُسْنُ الأحدوثة في الدنيا، والكرامةُ العُظْمى في الأُخرى.

ثم تابع الكلام ببيان إتمام نِعَمِ الله عليه وعلى ذُرِّيَّته، فقال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ

---

(١) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٤: ٥٧).

(٢) ولا يبعد أن يكون معنى ﴿فَدَيناه﴾: أمرناه أن يذبحَ فديةً، فتلك تصديق الرؤيا، وهو تأويلها. ووَصْفُ هذا المذبوح بالعظيم؛ لكونه فديةً عن هذا الأمر العظيم. والله أعلم. (المؤلف).

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بجَعْلِ الأنبياءِ من ذُرِّيَّتهما وغير ذلك من إفضال الله عليهما.

وللتنبيه على أنَّ النَّسَبَ لا أثَرَ له في الهداية والضلال، استدرك على هذا فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ أي: ظاهرُ الظلم، والمراد به: الكفر.

وفي الآية دلالةٌ على أنَّ المُحسِنَ من أعقابهما قليل، والظالمون من أعقابهما كثير. وفيها دلالةٌ على أنَّ الكفرَ في الأعقاب لا يعود على الأصول بنقيصة. وفي تبشيره بإسحاق بعد هذه الحادثة دليلٌ على أنَّ الذبيح إسماعيل عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

ثم لمح إلى عاقبة المُنْذَرين في قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ الذي كان ينالهم من فرعون وقومه، ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ عليهم، ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: البليغَ في البيان، وهو التوراة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ وقد تكرَّر تفسير هذه الآية، فارجع إليه.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

ثم ذكر عاقبة الـمُنْذَرين في قصَّة إلياس مع قومه، فقال: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ قال ابنُ عباس ومحمدُ بنُ إسحاق وغيرهما: إنَّ إلياسَ هو من أنبياء بني إسرائيل من ولد هارون بن عمران، وهو ابنُ عمِّ اليَسَع[1].

قال في «مجمع البيان»: وكان يوشع لما فتح الشام بوَّأها بني إسرائيل، وقسمها بينهم، فأحلَّ سبطاً منهم فيما سُمِّي فيما بعد: بعلبك. وعلى مرور الأزمان وطول الأمد خرجوا عن دينهم إلى الوثنيَّة وعبدوا الصَّنَم «بَعْلاً»، فلما أُرسِلَ إليهم إلياسُ دعاهم إلى الإيمان، كما حكى عنه سبحانه بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ عذابَ الله؟ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي: أتعبدونه وتطلبون الخير منه، ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ أي: وتتركون عبادةَ أحسن الخالقين؟ فأشار بهذا الوصف إلى المقتضي لعبادته. واسمُ التفضيل ليس على بابه، ولكنه للمبالغة في الوصف، ومثلُه كثيرٌ في القرآن.

ثم ذكر الذات العليَّة، فقال: ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

ثم ذكر ما كان من تكذيبهم إيَّاه ووعيدِ الله لهم، فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ أي: للعذاب. والإحضارُ لا يُسْتَعمل إلا للمجرمين.

ولما كان الكلام عن قومه مطلقاً، لأنَّ الدعوة وُجِّهت لهم، ومنهم مَنْ آمنَ وهم

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٧: ٥٢).

قليلٌ، ومنهم مَنْ كَفَر، فبعد أن بيَّن مصيرَ الكافرين منهم، بيَّن مصير المؤمنين منهم، مستثنياً من الواو[1] قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: الذين خَلُصَتْ نفوسُهم بالمحافظة على سَلامة فِطَرهم، حيث لم يُفسِدوا استعدادَهم إلى الإيمان بالتقليد الأعمى، فقبلوا الدعوة من إلياس حين دعاهم، وآمنوا إيماناً صحيحاً. ويجوز أن يكون الاستثناءُ منقطعاً، جيءَ به لبيان سُنَّة الله العامَّة في خَلْقِه، وهي نجاة المُخْلَصين أياً كانوا، أي: لا ينجو إلا عبادُ الله المُخلَصين.

ثم ذكر سبحانه ما كان من تكريمه وتقديره له، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾، ثم علَّل ذلك بهذا البيان العام والقاعدة العامة، فقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾، وقد تكرَّر تفسير هذه الآية.

و﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ لغةٌ في «إلياس»، ويقال: إنها لغة أهل اليمن وأهل الجنوب، وقيل: ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ جمع «إلياس»، والمراد به: هو وأتباعُه الذين استثناهم بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾. ولا يَبعُدُ أن يكون ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ بمعنى: آل ياسين. والله أعلم.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

ثم أجمَلَ عاقبة المُنْذَرين في قوم لوط، فقال: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: إلا عجوزاً منهم، وهي زوجتُه، بقيت في الهالكين الذين قال عنهم: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾، وهم الذين لم يؤمنوا واستمرُّوا على كفرهم وعنادهم.

---

(١) أي: التي في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، وهي الفاعل.

وقد بالغ في تحسيسِ أهل مكة وإنذارِهم بمثل ذلك، ونقل الكلام إليهم، وأجراه عليهم، بمقتضى نهج القرآن، فقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ أي: وإنكم لتمرُّون عليهم أثناء سفركم إلى الشام وقتَ الصباح ووقتَ المساء. قال أبو السعود: ولعلّها بقُرب منزل يمرُّ بها المرتحلُ منه صباحاً، والقاصدُ له مساءً[1]. وهي قرى «سدوم» وما جاورها.

ثم وبَّخهم وأنَّبهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ وتعتبرون؟! أي: أما فيكم عقولٌ تعتبر بالأمور؟!

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

ثم ختم القصص بقصة يونس عليه السلام، تثبيتاً لرسول الله ﷺ، وتَصْبيراً له على أذى قومه، وتبصيراً، فقال: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ﴾ أي: هَرَب. وأصله: الهرب من السَّيد. ولما كان هَرَبُه بغير إذن ربِّه حَسُنَ إطلاقُه عليه.

وقد هَرَب خوفاً من أن ينزل العذاب بقومه وهو مقيمٌ فيهم، فأفضى به هربُه ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ أي: إلى السفينة المملوءة بالناس، ثم عَرَضَ لها من أنواء البحر ما اضْطَرَّ الرُّكَّاب إلى أن يقترعوا بينهم على قسمَيْن: قسم يُلقى في البحر، وقسم يَسْلم، ﴿فَسَاهَمَ﴾ يونسُ عليه السلام مع المساهمين ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ أي: من المحجوجين بالقُرْعة، بمعنى: خرجت القُرْعةُ على إلقائه في البحر، فأُلقي فيه، ﴿فَٱلْتَقَمَهُ

---

(١) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٧: ٢٠٥).

﴿ٱلْحُوتُ﴾، وقد أشار سبحانه إلى سبب هذا الابتلاء ومقتضيه بقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: آتٍ بما يُلامُ عليه. يقال: ألامَ الرجلُ، أي: أتى بما يُلامُ عليه.

ثم ذكر سبحانه ما خفَّف عنه هذه البَلْوى، فقال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ أي: المُنزِّهينَ لله عمَّا لا يليق به ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، وفيه دلالةٌ على أنَّ التوحيدَ والتنزيهَ سَبَبٌ للنجاة في الدنيا والأخرى.

ثم ذكر صورة النَّجاة، فقال: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: الصحراءِ الخالية؛ بأنْ حَمَلْنا الحوتَ أن تَلفِظَه هناك، ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ من التقام الحوت، ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾[1] تظلِّله من حرارة الشمس والطوارئ الجويَّة، حتى يتكامل بُرْؤُه. والواو لا تدل على التعقيب. واليقطين: كلُّ شجر ينبسط على وجه الأرض ولا ساق له.

ثم ذكر رسالتَه فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾، والواو لا تدلُّ على ترتيب، ونهج القرآن قد لا يُراعي ترتيبَ أجزاء القصص، فلا دلالة فيه على أنَّ الإرسال كان بعد هذا الحادث، بل السياقُ يدلُّ على عكسه. والله أعلم. قال قتادة: إن الله أرسله إلى أهل نينوى من أرض الموصل[2]. وقال ابن عباس: كانت رسالته هذه بعدما نَبَذه الحوت[3].

---

(١) لا يلزم من صورة التعبير لزوماً باتاً: أنَّ إنبات الشجرة كان بعد أن نُبذ بالعراء، بل يسوغ حسب خصائص اللغة وعُرْف التخاطب في مثل هذا التعبير أن تكون الشجرةُ نابتةً قبل، فألقته الحوتُ عندها، فمدَّت عليه فروعَها في مدَّة وجيزة وظلَّلته؛ لأن بعض الأشجار من غير ذوات الساق تفرع بسرعة وتنمو بمدّة وجيزة، فيكون الكلام من باب المجاز المرسل، من ذكر السبب وإرادة المسبَّب، فقد ذكر الإنبات وأراد تمديد الأغصان، والله أعلم. والتجوُّز في مثل هذا من خصائص اللغة.
ويجوز أن يكون الإنبات حالياً معجزة له. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ١١٧).

(٣) المصدر السابق (٢١: ١١٦).

أقول: فعلى هذا يجوز أن يكون أُرسِلَ إلى قوم بعد قوم. ويجوز أن يكون أُرسِلَ إلى أهل نينوى إرسالاً ثانياً بعد الهرب وقَذْف الحوت له. والله أعلم.

وقد اختلفوا في معنى ﴿أَوْ﴾، وأحسن الأقوال فيها: أنهم كانوا عدداً لو نظر إليهم الناظرُ لقال: إنهم مئةُ ألف أو يزيدون، أي: لقدَّرهم بهذا المقدار، وهو مقياس وسطيٌّ معدَّل ليس بمُحدَّد، يتناسب مع العرف العام، ومأخوذ من حال المُخاطَبين وتقديراتهم، على نهج القرآن في مثله. قال الزجّاج: إنَّ العباد قد خُوطبوا على لغتهم وعُرْفهم[1]. والمعنى: ما تقدرونه أنتم بمئة ألف أو يزيدون.

والذي أراه: أنَّ عُرْفَ التخاطب في تَعداد الأمم قد جرى بأن تعدَّ بالألوف، ويُهمَلَ الكسرُ الزائد إذا كان دون الألف، ومن دأب القرآن تحرِّي الصدق الدقيق في بياناته، لذلك جرى أولاً بمقتضى عُرف التخاطب، فقال: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾، ثم ألحق العبارة بتحرِّي الحق حسب أصوله في التعبير فقال: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: لـمّا آمنوا أزال اللهُ الخوفَ عنهم، ومتَّعهم بالحياة الطيِّبة إلى الوقت الذي جَعَله الله أجلاً لكلِّ واحد منهم. بمعنى: أننا متَّعنا كلَّ واحد منهم بنعيم هذه الحياة إلى أجل موته. وقيل: آمنوا عند مُعايَنة العذاب الذي وُعدوا به.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٧١).

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

وبعد أن قصَّ أحوالَ الـمُكذِّبين للرسل، وما كان من استئصالهم بالعذاب، عاد للسياق على نهج القرآن، وعقَّبه بالردِّ على المشركين وتقريعهم على وجه السخريّة بهم، وقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾، والتعبير بالاستفتاء: مبالغةٌ في السخرية. أي: بعد ما تقدَّم من البيان وتمحيص البرهان في اختصاص الألوهية بالله استفتهم: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾؟! أي: أفَيليقُ هذا الاعتقاد بنا بعد بياننا لهم ما تقدَّم في إثبات اختصاصنا بالألوهيَّة، بكلِّ تلك البراهين، وتنكيلنا بالمكذِّبين؟! وفي الكلام بلاغةٌ في الاستهزاء بهم، مبنيَّة على حالتهم في استهانة أمر البنات وهَوَانهنّ، فلا يَرضَونَهُنَّ لأنفسهم ويَرضَونَ ذلك لله، ويقولون: الملائكة بنات الله! تعالى الله عمَّا يقول الظالمون عُلواً كبيراً.

وهذا الاستفهام إنكارٌ وتبكيتٌ مفرَّع على ما سبق من بيان شأن الله سبحانه وتعالى، ولا سيما مع أنبيائه وقومهم. وهو تبكيتٌ على أبلغ الوجوه في التفنيد والتسخيف، أكمله بقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾، والملائكة لا تُوصَف بالأنوثة والذكورة. وفي صيغة العبارة استهزاءٌ بهم وتهجينٌ لهم أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، وفي قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

والآية تَنَدُّرٌ عليهم لنسبةِ الولد له تعالى، واعتقادِهم أنَّ الملائكة بنات الله، كما صرَّح به في عموم قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

ثم ردَّ عليهم ناقضاً لسخافتهم هذه، بما بناه على حالة الـمُخاطَبين ونَظَرِهم بعين الحطَّة في أمر البنات، فقال: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾؟

ثم أردف الإنكار باستفهامَيْن مُتَتالِيَيْن للتوبيخ والتجهيل، فقال: ﴿مَا لَكُمْ﴾ تعتقدون هذه العقائد السَّمجة؟ و﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ هذه الأحكام السخيفة؟ وفي تعاقب هذه الاستفهامات مبالغةٌ في الإنكار والتسخيف والتبصير، أكَّده بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾؟!

ثم أضرب إلى ناحية ثانية في الرد التَّسْخيفي التَّهكُّمي، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ﴾ في ذلك ﴿سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ أي: حُجَّةٌ قاطعةٌ من برهان عقليّ أو كتاب سماويّ يُثبت لكم صحَّة ما تعتقدون؟ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ وفي هذا الطلب إشارةٌ إلى أنَّ الاعتقادات في شأن الله لا يجوز أن تكون إلا من طريق الوحي، لا بمُجرَّد التخمين والخيال وهواجس النفس وخواطرها.

ثم أجمَلَ هذا البحث بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ يعني: الملائكة، واعتقاد هؤلاء المشركين بهم أنهم بنات الله، و«الجِنَّة» تطلق على سائر المخلوقات اللطيفة الخفيَّة المُجْتَنَّة التي لا تُدرَكُ بالبصر. ومن أشرف تلك الأنواع: أنواع الملائكة، وإنما ذكرهم باسم جنسهم ـ وهو الجِنَّة ـ حطّاً منهم، ليزيد في تسخيف من يبلغون بهم هذه المرتبة.

ثم ردَّ عليهم بهذا الوعيد، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ أي: عَلِمَ هؤلاء الملائكةُ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء الكَفَرةَ ﴿لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ للعذاب؛ لِكَذِبهم هذا وافترائهم في حقِّ الله. والمراد: المبالغة في التكذيب، ببيان أنَّ الذين يدَّعي هؤلاء المشركون لهم تلك النسبة، ويعلمون أنهم أعلَمُ منهم بحقيقة الحال، يُكذِّبونهم في ذلك الادِّعاء، ويحكمون بأنهم مُعَذَّبون لأجله حكماً مؤكَّداً.

ويجوز أن يكون ضمير ﴿إِنَّهُمْ﴾ للملائكة، أي: يعلمون أنهم مُحضَرون. ويكون المرادُ من هذا الوصف هنا: المبالغةَ في خوفهم من الله سبحانه، وفي علمهم بأنهم مربوبون لله عزَّ وجل، وليس بأرباب.

وقيل: بل الكلام بيانٌ لقبيحة أخرى، والمراد من الجِنَّة: الشياطين. والمراد من النَّسَب: المناسبة، فهو تقبيحٌ لمن يشركون به تعالى الشياطين في استحقاق العبادة، والشياطينُ نفسُهم يعلمون أنهم مُحضَرون للحساب، ومسؤولون عمَّا يُجرِمون، يعلمون أنَّ الله سبحانه يُحضِرُهم النارَ ويُعذِّبهم بها. فيكون فيها ردٌّ للزنادقة أيضاً الذين يعتقدون بأنَّ للعالَـم إلهين: إله الخير، وإله الشر.

وكلا المعنيين محتمل، والله أعلم بمراده.

ثم عقَّب على هذه العقائد الزائفة في حقِّه تعالى، بصيغة تنزيهه المطلق، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

أما قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ فهو استثناء منقطع، قيل: من الـمُحْضَرين، وقيل: من الواصفين له تعالى بما ذكر، أي: إنهم لم يُـحضَروا، أو: إنهم لم يَصِفوه بما وَصَفَه هؤلاء. والوصفُ بالإخلاص والصَّلاح هو غايةُ المدح والتمجيد. والمراد من ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: هم الذين حافظوا على سلامة فِـطَرِهم ونور بصائرهم واستعدادهم لمعرفة الحق وقول الصدق، لذلك علَّل براءتهم مما ذكر ببيان عجز هؤلاء عن إغوائهم وإضلالهم، وذكر ذلك ببيان هذه الحقيقة العامة، فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ من هؤلاء الشياطين المضلِّلين، ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ تعالى ﴿بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ أحداً تُفسِدونه بالإغواء ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ وهو الذي أفسَدَ طبيعتَه ودسَّى نفسه، فكان موضعاً خِصْباً لِقَبول الإغواء، وهو الذي يَصْلَى الجحيم استحقاقاً وعدلاً.

ثم تـمَّم الردَّ بحكاية حالِ الملائكة وقولِهم الـمُؤْذِن بتَنَصُّلهم من المعبوديَّـة، وإقرارهم بالعبوديَّـة، وانقيادهم له تعالى في منتهى الخوف والإخلاص، فقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: في الانتهاء إلى أمر الله والانقياد لطاعته تعالى، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ في منـازل الـخدمة وأداء الطاعـة لله، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: الـمُنزِّهون لله عمَّا لا يليق به.

فهذا تبيينٌ لجليَّة أمر الملائكة في موقف العبوديَّة، يردُّ به على العابدين، ويجوز أن يكون هذا وما قبله من قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، من كلام الملائكة، يتَّصل بذكرهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾، كأنه قيل: ولقد عَلِمَتِ الجِنَّة وشهدوا أنَّ المشركين مُفْتَرون عليهم في ادِّعاء مناسبتهم لله، ونزَّهوه عن ذلك، واستثنَوا عبادَ الله الـمُخْلَصين، مُنزِّهين لهم عن مثل هذه العقيدة والافتراء.

ثم قالوا للكفَرة: لا أنتم ولا آلهتكم تقدرون أن تَفتِنوا على الله أحداً من خَلْقِهِ وتُضِلُّوه، إلا مَنْ كان من أهل النار، أي: ممن أفسدوا طباعَهم بمفاسد التربية وسوء القدوة.

ثم قالوا: وكيف نكون مُناسِبين لربِّ العزَّة، وما نحن له إلا عَبَدةٌ أذلاءُ منقادون مخلصون. فهم لا يَعْصُونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرون، ولكلِّ صنفٍ منهم مقامٌ معلوم، لا ينفكُّون عنه أبداً، يعبدون الله فيه ويسبِّحون لا يَفْتُرون.

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

وبعدما ذكر من تعذيب الكَفَرة فيما قالوا، وتنزيه الله عن ذلك، وتبرئة الـمُخْلَصين من مثل هذا البهتان المُبين، والإفك العظيم، نَقَـلَ الكلامَ، وذكر ما كان يقوله هؤلاء

الكَفَرةُ من قريش قبل مجيء الرسول، من أنه إذا جاءهم نذير ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم لم يزدادوا به إلا كفوراً، ذكر ذلك مبالغةً في تبكيتهم وتقريعهم، فقال: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: كتاباً من كتب الأوَّلين، كالتوراة والإنجيل، ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: إنَّ أهل مكة كانوا يقولون: لو أنَّ عندنا كتاباً سماوياً ـ كما للأوَّلين الذين أنزل الله الكتبَ على أنبيائهم ـ لآمنَّا به وأخلَصْنا العبادة لله.

وقيل: بل المعنى: لو أنَّ عندنا علماً ممَّن تقدَّمونا ماذا فُعِلَ بهم لآمنا. فجعلوا العُذرَ في امتناعهم من الإيمان أنهم لا يعرفون أخبار مَنْ تقدَّمهم وما فُعِلَ بهم، فلذلك كفروا به وأنكروه.

فلما جاءهم ذِكرٌ من الله، وكتابٌ سماويّ مُهيمنٌ على سائر الكتب، ومُبيِّنٌ مصيرَهُم ومصيرَ مَنْ تَقَدَّمهم؛ كذَّبوه ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾. ثم توعَّدهم على ذلك وقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ أي: عاقبةَ ذلك الإعراض والتكذيب.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

ثم ذكر شيئاً من هذا الوعيد، ببيان سُنَّة الله العامَّة في نُصْرة الأنبياء على مُعارضيهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ على الأعداء المعارِضين لهم الواقفين في سبيل دعوتهم، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ وإضافةُ الجند إلى الله للتكريم وتحقُّق النصر المبين.

وفي بيان هذه السنَّة تَقوِيةٌ للنَّبيِّ ﷺ وتثبيتٌ له، لذلك أردَفَه بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: فأعرِضْ ـ أيها الرسول ـ عن هؤلاء الكفَّار إلى حين مجيء أمْرِنا باستئصالهم، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ حينئذ بما سيَجري عليهم من عذاب الله، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ ما يحلُّ بهم، ولاتَ ساعةَ نجاة. وهذا تهديدٌ وتوعُّدٌ شديد، زاد فيه بقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ استخفافاً واستهزاءً، ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ وهذه أبلَغُ عبارة بهَوْل ما سيَنزِلُ بهم ويحلُّ بحالهم وبدارهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ فقيل: إنه تأكيدٌ للأوَّل، زيادةً في التهويل والتهديد. وقيل: إنَّ الأول لعذاب الدنيا، والثاني لعذاب الآخرة.

ثم ختم السورة بما يناسبُ مضمونها، وهو تنزيهُ الله تعالى، وتقديرُ الأنبياء، والثناءُ على الله بما هو أهلُه، فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ ويَتقوَّلون عليه سبحانه وتعالى.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ تقديراً لهم على ما قاموا به من واجب التبليغ والثبات تجاه هذه المزعجات.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ الذي أنعَمَ على عباده بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وبيان الصراط المستقيم الذي يصل سالكُه إلى سعادة الدنيا والأخرى، فهو المستحقُّ للحَمْد في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

❊ ❊ ❊

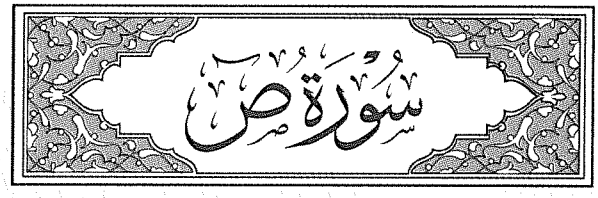

مكيَّة، وهي ثمانٌ وثمانونَ آية

وتشبه السورة السابقة في الإنذار والتبشير.

وقد أُمر النَّبيُّ ﷺ بالصبر على المعارضين.

وقُصَّ عليه قَصَصُ مَنْ صَبَر على المُعارَضة من الأنبياء والمرسلين، وما أكرمهم به من أنواع الكرامة.

ثم ذكر مُخاصَمةَ أهل النار من المشركين.

ثم ذكر قصَّةَ آدم مع إبليس للتذكير بمنشأ بلاءِ الكافرين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾.

﴿صٓ﴾ وقد مرَّ الكلام على الحروف التي تَبْتدئ بها بعضُ السُّور في أوَّل سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لإثارة الشعور إلى الاهتمام بما يأتي بعدها، وهو هنا إبطال الشرك والدعوة إلى التوحيد، وقد قَرَنَه بالقسم، فقال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ أي: ذي البيان الذي يُذكِّر بالحق ويهدي إلى الرُّشْد وإلى الصِّراط المستقيم الذي يصل سالكُه إلى النجاة في الدارين. وجواب القَسَم محذوف على نهج القرآن في أنواع الإيجاز، (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). وتقديرُه - كما يفهم مما بعده -: ليس الأمر كما يتقوَّلون، وإنَّ الحشر والحساب أمرٌ واقع ومُتَحقِّق.

ثم عطف على هذا المقدَّر قولَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ﴾ أي: استكبارٍ عن الحق ﴿وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ أي: تَنازُعٍ في الباطل لِيُدْحِضُوا به الحق.

وقد توعَّدهم بما جَرَى على أمثالهم في الأمم الغابرة حين عارضوا رُسُلَهُم وشاقُّوهم، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ فذكر القَرْنَ ـ وهو الزمن المخصوص ـ وأراد أهلَه، بطريقة المجاز المُرسَل لعلاقة الزمنية، أي: كم أهلكنا قبلهم من الأمم، ﴿فَنَادَواْ﴾ مستغيثين نادمين عندما نزل البلاء، ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ أي: استغاثوا وأنابوا حين لم تنفع الإنابة، إذ قُضِيَ الأمر ونَفَذ القضاء، ولا مَرَدَّ لأمر الله.

ثم حكى صورةَ استكبارهم وشقاقهم، فقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾ أي: كفارُ قريش ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾! وفي قوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ زيادةٌ في التعجيب من شأنهم والتبكيت لهم، إذ يعرفون ماضيَه الناصعَ ونشأته الطيِّبة. وقد أفصَحَ عن نتيجة عَجَبهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾، وقد وضع الظاهر موضع المُضْمَر، ولم يقل: (وقالوا)؛ للتصريح بالصفة التي جَرَّتهم إلى هذا القول.

ثم حكى عنهم ـ على أسلوب التعليل لما قبله ـ ما يَفضَحُ جَهالتَهم وغَباوتَهم، فقال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾؟! أي: بليغٌ في العجب. يقولون ذلك لأنهم يعتقدون كما يعتقد غيرهم من مشركي الأمم الغابرة، أنَّ لكلِّ حال من أحوال الطبيعة إلهاً، كإله الخِصْب وإله الجَدْب، ولكلِّ شأن من شؤون الإنسان إلهاً، كإله السِّلم وإله الحرب، ولكلِّ أمة آلهةً من هؤلاء غير الأخرى، تعتزُّ بها وتنافس، فهم يستنكرون وينفرون من الدعوة إلى التوحيد، ويتعجَّبون منها، كيف يكون إلهُ الجَدْب وإلهُ الخِصْب واحداً؟! وإلهُ السِّلم وإلهُ الحرب واحداً مثلاً؟! يقولون ذلك بدافع التقليد الأعمى للآباء والأجداد، إذ قد فقدوا به الاستعداد الطبيعيَّ للنظر في الحقِّ ومعرفة الكذب من الصدق، حتى البديهيَّات؛ لأنَّ من طبيعة الإنسان إذا أَلِفَ شيئاً وانطبع عليه: لا يرضى أن يسمع ما يخالفه ويُوهيه.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿انطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ ينشرون في الأتباع: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ يثبِّتونهم بذلك على دينهم، أي: اذهبوا لشأنكم ودَعُوه، أو قومُوا بنشر الدعاية لآلهتكم، واثبتوا على عبادتها، ولا تلتفتوا إلى هذه الدعاية وإلى ما يقوله لكم هذا الرجل ويدعوكم إليه، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ أي: إنه أمرٌ يُريدُه لإحرازِ الرياسة والسلطان، بمعنى: أنه أمرٌ مُدبَّر لِنَيْل السيطرة عليكم.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يدعو إليه من التوحيد وخَلْق الآلهة والوسطاء ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في الملة التي أدركنا عليها آباءنا، أو في الملة النصرانية التي هي آخرُ المِلَل، ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ الذي يدعو إليه ويدَّعيه ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ أي: كذبٌ اختلقه من نفسه، يريد به ما يريد.

ثم أيَّدوا إنكارَهم هذا بإنكار اختصاص الله إيَّاه بالنبوَّة وإنزال كتاب عليه دونهم، فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أأُنزل عليه هذا القرآن من بيننا ونحن رؤساء الناس وأشرافهم. ومرادهم: إنكار كونه ذِكْراً مُنزَّلاً من عند الله عزَّ وجل؛ لأن نفيَ الموصوف يستلزم نفيَ الوصف. لذلك قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي: إنهم غير مُصَدِّقين بأن هذا القرآن ذِكرٌ مُنزَّل من عند الله، بل هو من صُنعِهِ وتأليفه.

ثم هدَّدهم مُساوِقاً نفسَ الأسلوب، فقال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ فإذا ذاقُوا العذابَ المُنتَظَر تَبيَّن لهم حقيقةُ الحال. والمعنى: إنهم لم يُصَدِّقوا حتى يمسَّهم العذابُ المستقبل ويرَوْه بأعينهم، وذلك لأنَّ الحال ينكشف للإنسان بعد موته، ويدرك الحقائق إدراكاً جلياً. وكلمة ﴿لَمَّا﴾ إنما هي لاستمرار النفي إلى الحال، وانتظار الوقوع في المستقبل.

ثم ردَّ عليهم قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، بقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ أي: هل ذلك في أيديهم وتصرُّفهم؟! وتقرير الردّ: أنَّ الله سبحانه يختصُّ بنبوَّته ورسالته مَنْ يشاء من عباده، وليس لعباده تحكُّم في ذلك. ومُحصَّل العبارة: أبيَدِهم مَواهبُ النبوَّة والرسالة فيضعونها حيث شاؤوا، أم بيد الله العزيز الوهَّاب الذي يَهبُ ما يشاء لِـمَنْ يشاء، وهو أعلَمُ حيث يجعل رسالته؟ إذْ مقاييس العَظَمة عند الله غير مقاييسهم الزائفة. فهو من نوع الإنكار البياني المسبوك على الهزء والسخرية بهم.

وكذلك قوله: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يتصرَّفون بما يجري فيها من الشؤون، ويرسلون الرسل كما يشاءون؟ يهزأ بهم ويردُّ عليهم سبحانه، فهذا تمكينٌ لما سبق.

وقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٍ لدلالة السياق عليه. أي: إن كان لهم ما ذكر فلْيَصعَدوا في أسباب الصعود التي يَتوصَّلون بها إلى العرش المجيد حتى يستووا عليه ويُدبِّروا أمر العالم، ويُنزلوا الوحيَ إلى مَنْ يختارون ويَسْتَصْوبون. وهذا المعنى مأخوذ من العُرف العام في ذات الله تعالى؛ لأنه سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعُظمائهم، وبحسب عُرْف التخاطب من أنه سبحانه في السماء. وهذا الأمر بالارتقاء تحدٍّ هازئ، وتهكُّم بديع.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

وبعد أن سَرَدَ فيهم هذه التنددات المتردِّدة في البطلان، بيَّن حالهم بحقيقة الشأن، أردَفَه بحطَّة شأنهم والإيذان بما سيكون من قهرهم وخذلانهم عمَّا قريب، فقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾، وكلمة ﴿مَّا﴾ مزيدةٌ للتقليل والتهوين، مثل: أكلتُ شيئاً ما، و﴿مِّنَ﴾ للبيان. والمعنى: لا تهتمّ ولا تَغْتمَّ من أمرهم، ولا تَخْشَ عنادَهم ومعارضتَهم، فما هم إلا جُندٌ ضعيفٌ مآله الهزيمة والخذلان، من جملة الأحزاب الكثيرة التي عارضت الأنبياء قبلك وتحزَّبت عليهم، وقُضِيَ عليها بالفشل وعذاب الاستئصال، فأين هم من التدابير الإلهيَّة والتصرُّف في الأمور الربانية؟

ثم أجمَلَ أمْرَ أولئك الأحزاب وعقابَهم ليتوعَّد هؤلاء بمثله، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ أي: ذو المُلكِ الثابت. وأصله من ثبات البيت والمطنب بأوتاده، فاستُعير لثبات المُلكِ ورسوخ السلطنة واستقامة الأمر، كما قال الأسود ابن يعفر[1]:

ولقد غَنَوا فيها بأنعَمِ عيشةٍ ... في ظلِّ مُلكٍ ثابتِ الأوتادِ

ويجوز أن يراد بها: الأهرام والمسلَّات؛ لأنها أعمال تدلُّ على العَظَمة ورسوخ السلطان والجَبَروت حتى في البنيان.

ثم تابع السَّرْدَ بقوله: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: الغيْضة، وهي الأرض ذات الأشجار المشتبكة. هؤلاء هم قوم شُعيب عليه السلام.

نصَّ عليهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ هم ﴿الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ المخذولون الذين منهم هذا الجند المنهزم المغلوب.

---

(١) هو أبو نهشل وأبو الجراح الأسود بن يعفر (ت ٢٢ق هـ) شاعر جاهلي من سادات تميم «الأعلام» للزركلي (١: ٣٣٠)، والبيت ذكره الأصفهاني في «الأغاني» (١٣: ٢٢).

ثم سجَّل ما جرى عليهم بالحق من عذاب الاستئصال، فقال: ﴿إِن كُلٌّ﴾ منهم ﴿إِلَّا﴾ وقد ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ﴾ عليهم ﴿عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾. وفي كلمة ﴿عِقَابِ﴾ خَطْفُ ياء المتكلم على طريقة القرآن في ذلك نطقاً وإملاء.

وبعد أن أجمَلَ حُكمَهُ المُنفَّذ في هؤلاء الأحزاب، عاد فتوعَّد هذا الجند الجديد منهم بما سيناله من العذاب، كما نال أولئك، فقال: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المُعاندون، أي: مُشركو مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: عذاباً يَفجَؤُهُم لا يفيقونَ منه أبداً، بل يُصْعَقُون ويموتون كلُّهم منه مَيْتةً واحدة. وقيل: بل هي نفخة الصُّور الأولى.

ثم ذكر موقفَهم في هذا التوعُّد، فقال: ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: قال كفارُ قريش سخريةً واستهزاءً: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ والقِطُّ: القطعةُ من كلِّ شيء، مِن: قطَّه؛ إذا قطعَه. والمراد به هنا: القِسطُ والحصَّة من العذاب. أي: عَجِّل لنا قِسطَنا من هذا العذاب الذي تَتوعَّدنا به ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾، يقولون ذلك سخريةً واستهزاءً.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ
بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ
ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ
ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ
ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ

بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم أردَفَ السياقَ بقصص الأنبياء على نهج القرآن، مُثبِّتاً لنبيِّه، وواعداً له بالتأييد، كما أيَّد سائر الأنبياء، ومُسلِّياً له على الـهُزْء، فقال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾[1] أي: ذا القوة على تنفيذ الأمور بالصبر، ومع ذلك فقد عُوتِبَ بما يأتي على

---

(١) للأنبياء صلوات الله عليهم أهداف ومقاصد، وعليهم واجبات وأعمال مطلوبة منهم. أما الواجبات فهي: تقوى الله وطاعته وعبادته حقَّ العبادة. وأما الأهداف فهي: نشر الدين والوسائل التي تسهِّل النشر وتعينُ عليه، من تكوين شوكةٍ وقوةٍ تحفظ الأمر، وتدفع مقاومة المعارضين، وتحافظ الأتباع، وتدير أمورهم، وتحلُّ مشاكلهم، وتقضي بينهم، إلى أمثال ذلك. ولكلٍّ من هذه الأهداف والواجبات حدود لا يجوز أن يدخل بعضُها في الآخر، ولا أن يطغى صنف على الآخر، ويأخذ من أوقاته.

وعلى هذا، لما وسع داود عليه السلام عبادته واعتزل الناس، وقصَّر في حجزهم عنه، وترك النظر في مشاكلهم، حتى اضطر الخصمان أن يتسوَّروا عليه المحراب، قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، والظن بمعنى العلم، أي: أدرك داود عليه السلام: أن عملَه غيرُ سديد، وهذه الخصومة بهذه الصورة ابتلاءٌ له من الله سبحانه واختبار.

وسليمان عليه السلام لما عُرضت عليه بالعشيِّ الصافنات الجياد، ورأى أنَّ اشتغاله بالقوة والشوكة إلى هذا الحد، أخذ من واجباته وعبادته لله حقَّ العبادة، أدرك بأن طبيعة ملكه الاعتيادية أبعدته عن الله، وجَعَلته في عبادة الله دون الكمال، وتجاوزت الأهداف حدودها وطغت على الواجبات. وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]، فقد قال المفسر الشهير أبو مسلم: إن الجسد هو جسد سليمان، وهو منصوب على الحال من ضمير (ألقيناه) المحذوف.

أقول: وعند ذلك قال سليمان ما حكاه الله عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]. فقد طلب من الله سبحانه أن يُبدِّل ملكه الاعتياديّ =

انصرافه عن الدرجة القصوى في التحمُّل، وذلك باحتجابه عن الناس، فاذكره ليكون ذلك عبرةً لك، فتعلم أن الأنبياء تُعاتَبُ على الصغائر والهفوات، ويطلب منها الدقّة في الأمور وشدَّة الثبات. وقد عجَّل سبحانه وتعالى بهذا الوصف لداود عليه السلام وبالوصف الآتي، فقال: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: رجَّاع عن كلِّ ما يكرهه الله.

والظاهر من تقديم هذين الوصفَيْن على القصة أمران: **الأول**: التعجيل بالرِّضا قبل العتاب، على نهج القرآن في عتاب الأنبياء عليهم السلام. **والثاني**: تقديم نقطة الهدف من القصة، وهي: أنَّ داود عليه السلام عند الهفوة رجَّاع إلى الله بقوَّة وسرعة، وأوَّاب إليه.

ثم ابتدأ بالقصة مقدِّماً ما أكرَمَه الله تعالى به من الكرامة، فقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ أي: آخر النهار وأوله. ويجوز أن يكون ذِكرُ الطرفَيْن لتعميم الوقت، كما هي الحال في خصائص اللغة وأساليب القرآن.

= الذي ألجأه أن يتجاوز بالأهداف حدودها حتى دخلت بحدود الواجبات، فطلب من الله سبحانه أن يُبدله بهذا الملك ملكاً تغلب روحانيته على ماديته؛ ليوازن بين الأهداف والواجبات، فأجاب الله دعوته، وعاد إلى كرسيه جسداً وروحاً. والله أعلم. والعرب تقول: فلانٌ جَسَدٌ بلا روح، يريدون بذلك ضَعْفَ شخصيته الروحيَّة المعنوية.

أما أيوب عليه السلام فقد تحمَّل في سبيل نَشْر الدعوة ما أخرَجَه من ماله وديارِه وصحته وعياله، وهو ثابت متحمِّل في جانب الله حتى تـمَّت له القضية، ورجع إليه مالُه وصحتُه وعياله.

وأما يونس عليه السلام فقد ضَعُفَ تجاه المقاومة، فابتلاه الله ثم أناب، فعفا عنه وتاب عليه أحسن متاب.

فأراد سبحانه بقوله لرسوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ...﴾ أن يعتبر هذه الأمور ويشتد في الثبات. هذا رأيي، والله أعلم. (المؤلف).

وقد قيل في معنى الآية: إنَّ داود عليه السلام كان إذا استغرق في التسبيح شَعَر بتسبيح الجبال معه والطير.

وقال في «مجمع البيان»: يحتمل أن يكون الله سبحانه خَلَقَ في الجبال قابليَّة التسبيح معجزةً له، ويمكن أن يكون داود عليه السلام بنى فيها بنايات للتسبيح.

أقول: وعلى هذا، تكون نسبة التسبيح إليها على طريقة المجاز المُرسَل من نسبة الفعل للمكان، ويجوز أن تكون هذه البنايات يتعبَّد فيها الناس، فيكون في الكلام إيماءٌ إلى توفيقه لكثرة أتباعه ونشره للدين. والله أعلم.

وقال المفسِّر الجلال: يُسبِّحْنَ بتسبيحه[1]، أي: بطريق المعجزة له. وعليه، فناهيك بما كان يجدُه داود عليه السلام في هذه الكرامة من الشعور العميق نحو ربِّه سبحانه وهو يَسمَعُ الجبالَ تُسبِّح بتسبيحه، وتُمجِّد بتمجيده.

وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد الإشارة إلى ما أعطاه الله من حُسْن الصوت بقراءة الزبور، فإذا قرأه بين الجبال ردَّدت عليه مِثلَه من الصَّدى، فسمَّى ذلك تسبيحاً. وقد سبق زيادةُ بيان لهذه الآية في سورة الأنبياء[2]، فارجع إليه. ومُحصَّله: أنه سبحانه ذلَّل له ما يحتاجه، وسخَّر له بعض الكونيَّات على خلاف المألوف والمعتاد من أمر الجبال.

ثم تابع الكلام عما أكرَمَ الله به داود عليه السلام من الكرامة، وبيَّن عَظَمة مُلكِهِ

---

(١) «تفسير الجلالين» ص٦٠٠.

(٢) في الآية ٧٩ منها. وتقدَّم هناك تعليقاً تضعيف هذه التجويزات التي يسوقها المؤلف في تفسير الآية، حيثُ إنها تخرج بالمعجزة عن فحواها، كما أن السياق يضعفها، والصواب: إجراء الآية على ظاهرها، وذلك بأن يُقال: إن تسبيح الجبال والطير كان حقيقة، على خلاف السنة الجارية والعادة الظاهرة، وهذا هو وجه الإعجاز الذي أكرم الله به داود عليه السلام.

وما أنعَمَ الله عليه في ذلك، فقال: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: وسخَّرنا له الطير، فهي حاضرة لديه تأتمر بأمره كما كان ذلك لسليمان عليه السلام.

ثم صرَّح بمضمون ما تقدَّم من إطاعة الجبال والطير له بقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ أي: مطيعٌ له ورجَّاعٌ إلى ما يريده منه، أما الجبال فبالملائمة والتهييج للتسبيح، وأما الطير فبالطاعة والائتمار. قال الجبَّائي: لا يمتنع أن يكون الله تعالى خلق في الطيور ما تفهم به أمْرَ داود عليه السلام[1].

أقول: أو خصَّ داود عليه السلام بالفَهْم عن الطير وفَهْم الطير عنه؛ معجزةً له. والله أعلم. ومما يُؤْنس لهذا قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

ثم قال في إتمام البيان عن كرامته تعالى له: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: بالهيْبة والنصر والسلطان، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: حُسْنَ الإدارة، والعِلمَ بالقضاء والفَهْمَ له، وحُسْنَ المواعظ والخطابة والبيان.

ثم عقَّب هذا ببيان أنه عاتبه على استعجاله مرةً في حكم من الأحكام، إذ كان عليه أن يَتَروَّى، وعلى انصرافه عن الدرجة القصوى في تحمُّل الصعاب، وذلك باحتجابه عن الناس حتى تسوَّروا عليه المِحرابَ لحلِّ مشاكلهم. والغَرَضُ من هذا البيان: الإيذان بأنَّ الأنبياء تُعاتَبُ على الصغائر والهفوات، وتُطالَبُ بالدقّة في الأمور وشدَّة الثبات. وهذا هو موضع العبرة والإرشاد للرسول عليه السلام في هذه الذكرى التي افتتح بالإشارة إليها، ثم عقَّب بالبيان عنها، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ أي: المتخاصِمِينَ؛ إذ هو يطلق على الواحد والجمع، والمراد به هنا: الجمع، ولذلك قال:

---

(١) وكذا لا مانع عقلاً أن يفعل الله تعالى ذلك في الجبال أيضاً.

﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ بصيغة الجمع دون التثنية؛ لأنَّ لكلِّ خَصْم أتباعاً، والمراد من المحراب: الدار التي كان يسكنها داود عليه السلام، ويؤدِّي فيها حُكمَه وعبادتَه لله تعالى، ولغلبة الأمر الثاني عليها سُمِّيت المحراب. ومعنى (تسوَّروه): تسلَّقوا سُورَه، ونَـزَلوا عليه وهو فيه.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لدخولهم على هذه الصُّورة الـمُؤذِنةِ بالاغتيال، لا سيما إذا كانت مع الملوك. وربما اعتذروا بما أقنَعَ قلبَ النَّبيِّ الرؤوف، من مثل أنَّ الحرس منعهم من الوصول إليه، وهو مؤدَّى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ فإنّا لم نأتِ لسوء، ولكنا ﴿خَصْمَانِ﴾ أي: قسمان متخاصمان، من تسمية مصاحب الخصْم خَصْماً، إذ العُرْفُ يُطلِقُ الخصمَ على المخاصم ومُعاضِدِه. وقيل: هما اثنان فقط، وإطلاق صيغة الجمع عليهما من باب إطلاق صيغ الجَمْع على الاثنين فما فوق، وذلك من خصائص اللغة، إذ قد نطقت به العرب. وعليه، يكون المراد من البعض: الواحد في قولهم: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

ثم طلبوا الفَصْلَ بالحق بينهم، وقالوا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾، وأرادوا بهذا الطلب إظهار الحرص على ظهور الحق، لا الارتياب. وفيه دلالة على أنَّ الحاكم العادل يَتحمَّل مِثلَ هذا من المتخاصمين، لا سيما إذا كان ممن معه الحق.

وقد أردفوا طلب الحكم بإجراء التنفيذ له، فقالوا: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إلى وَسَط طريق الحق، بزَجْرِ المعتدي عمَّا سلكه من طريق الجور، وإرشاده إلى منهاج العدل.

وبعد هذه المقدِّمة بَسَط المدَّعي دَعْواه على خَصْمه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: اجعَلها تحت كفالتي، ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ظَهَر عليَّ بقوة العارضة في البيان، وغلبني على أمري في مهَارة الإقناع.

فحكم داود عليه السلام بما حكاه عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ويُفهَمُ من فَحْوى هذا التذييل أنه طلبها منه لتكون خليطاً مع غنمه وتحت كفالته، ثم بغى عليه في نتاجها ومحصولها، وهذا البغيُ يُفهَمُ من الجواب، على نهج القرآن في الاكتفاء عن تفصيل السؤال بتفصيل الجواب. وقد استثنى من التسجيل بهذا التذييل قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: فهم لا يَبغُونَ على خُلطائهم وشُركائهم. وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّ أهل الخير في الدنيا قليلٌ بالنسبة إلى أهل الشر، وهو كذلك، فهم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود. ولم يُصرِّح القرآن في أن داود عليه السلام سأل المدَّعى عليه عن مدافعته أو إقراره.

وقد ذهب المفسِّرون في ذلك مذهبَيْن:

الأول: أن داود لما سمع صورة دَعْوى هذا المدَّعي مع حضور المدَّعى عليه معه طالبين للفَصْل، غلبَتْه العاطفة والشفقة عليه، ووقع في قلبه صِدقُه، وأن المدَّعى عليه لا يعارضه فيما قال، فحكم عليه بالظلم من دون أن يسأله إذا كان له معذرة أو دفاع، فعُوتِبَ على ذلك. وهذا رأيٌ ضعيف.

والثاني: أن المدَّعى عليه اعترف، ولكنَّ القرآن طوى ذِكرَ اعترافه اكتفاءً ببيان الحكم، على أسلوب إيجازات القرآن، فلا كلام فيه.

وعلى الأول، يكون قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ بمعنى: اختبرناه بإصدار هذا الحكم قبل سماع مَعْذرة المحكوم عليه. أي: ظنَّ أنَّ العاطفة والشفقة فتنَتْهُ وغَلَبَتْه على عقله، أو غَلَبَه حُسْنُ ظنِّه بالناس، كما وقع لنبيِّنا ﷺ في أمر اليهودي الذي ألقى في بيته أحدُ المنافقين سرقةً سرقها، واتَّهمه بها، فكاد النبي أن يحكم على اليهودي، فنزل قوله تعالى من سورة النساء: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧]

إلى قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾[1] [النساء: ١١٣].

وعلى الثاني، يكون بمعنى: اختبرناه في كيفيَّة رعايته للناس واحتجابه عنهم، حيث اضطرَّت هذَيْن الخصمَيْن أن يدخلا عليه بصورة غير معتادة من تضييق الحَرَس، أو اختبرناه في حالته النفسيَّة، إذ يجوز أنهم لما دخلوا عليه بهذه الصورة غَضِبَ وهمَّ بالانتقام منهم، إذ ظنَّ أنهم أتَوْه للاغتيال، ثم أنكر على نفسه موقفها هذا، ومَالَ إلى الصَّفح والتجاوز عنهم طَلَباً لمرضاة الله، ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤﴾ والمراد من الركوع: السجود، وتسميةُ السجودِ ركوعاً من خصائص اللغة. أي: خرَّ ساجداً وأناب إلى الله، أي: رَجَع إلى الله بالتوبة وطلب العفو.

وهذا هو موضع العبرة في سياق القصَّة، إذ يظهر منه أنَّ الأنبياء عليهم السلام يُعاتَبون على الصغائر والهفوات عِتاباً شديداً. والمرادُ به: تأديبُ النبيِّ ﷺ، وحَمْله على التثبُّت وتحمُّل الصُّعوبات في سبيل نشر الدعوة من مُشركي قريش وغيرهم، وأن لا يعتزلهم، بل يتابع فيهم الدعوة، ويُوالي لهم النُّصْحَ والإرشاد. ولا يمنع هذا التثبيت أنه موافقٌ لما في نفسه، وما هو منطبعٌ عليه، فإنه سبحانه يوجِّه إليه مِثلَ هذا على الدوام.

وقد قَرَنَ سبحانه إنابةَ داود بالإجابة والقبول، وقال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾، ولدفع ما يسبق إلى أذهان من لا يدركون مقامات الأنبياء عليهم السلام، فلا يفهمون المعاني في حقِّهم، أردَفَ هذا ببيان كرامته عنده تعالى ومنزلته، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥﴾ والزُّلفى: القُرْبى. والمراد بحُسن المآب: الصورة المُثْلى من ثواب الآخرة عند رجوعه إليه تعالى.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩: ١٨٦).

أقول: ومن هذه الزُّلْفى عند الله تعالى: أن يسجِّل له بهذه المنزلة عنده، ويُبشِّره بها قبل المُعاتَبة على رأي مَنْ يرى معاتبةً له قولَه تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ ولا تحتجبْ عنهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذ يحتمل أن تكون هذه الآية عتاباً، أو إرشاداً عاماً في شخص داود عليه السلام، على حدِّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وقد قال أبو مسلم في معناها: إنا جعلناك خَلَفَ مَنْ مضى من الأنبياء في الدعاء إلى توحيد الله وعَدْله وبيان شرائعه، فاحكُمْ بين الناس بالحقِّ ولا تتَّبع الهوى في حُكمِك، فيَعدِل بك عن سبيل الحق.

أقول: ويجوز أن تكون عبارةً وعتاباً عن تقليل زمن الإرشاد وملاقاة الناس، وتكثير مدَّة العبادة، حتى احتاج الخصمان أن يتسوَّرا عليه المحراب. والله تعالى أعلم.

ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾[1]، وقال الجُبّائي في تأويل القصَّة: إن أوريا بن حيان خطب امرأة، وكان

---

(١) الذي يظهر لي في وجه الربط بين أمره له ﷺ بالصبر على ما يقولون وبالذكر لقصة داود عليه السلام: أن من عناصر هذه القصة الإلماع إلى عتابه من احتجابه عن الناس، حتى يضطر بعضهم في ملاقاته إلى أن يتسوَّروا عليه المحراب، ولا شك أنَّ في الاحتجاب انصرافاً عن الدرجة القصوى في مواجهة الشدائد وتحمُّل الصعاب بالنسبة إلى ذلك المقام الجليل، فألمع إلى نقده، وأومأ إلى الرسول عليه السلام أن يثبت ويتجرأ في ملاقاة المعارضين والمعاندين، ولا يضعف في دعوتهم، ولْيتحمّل في ذلك منتهى الصِّعاب، كي لا يعاتب مثل هذا العتاب. والله أعلم.

وعليه، فيكون هذا الإلماع إلى نقده: هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: ٢٤]، والله أعلم. =

أهلُها أرادوا أن يزوِّجوها منه، فخطبها داودُ عليه السلام فقدَّموه على أوريا، وزوَّجوها منه، فعُوتب على ذلك. وقيل: لم يخطب ولم يتزوَّج، وإنما كان ذلك لخاطر خَطَر له دون علم بالخطبة فعُوتِبَ عليه؛ لأن الصغيرة كبيرةٌ في مقام النبوة المَصُون من الصغائر والهفوات، كما عُوتب نبيُّنا ﷺ أشدَّ العتاب في إعراضه عن ابن أم مكتوم بقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢].

ومن يقول بهذا التأويل يقول: إنَّ الداخل عليه ملائكة، وإن هذه الدعوى منهم تنبيهٌ له بصورة تمثيل. وقد يُكنى بالنَّعجة عن المرأة في اللغة. وهذا التنبيه هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [صٓ: ٢٤]. أي: فظنَّ أن هذه الحكومة تنبيهٌ له على فَعْلته أو خاطره.

وقد احتجَّ هؤلاء القائلون بهذا التأويل بوجوه:

منها: أن داود أرفع منزلة من أن يَتَسوَّر عليه المحرابَ آحادُ الرعيَّة.

ومنها: قولهم له: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾، لأنَّ آحاد الرعية لا يَتَجاسرون معه على مثل ذلك.

وأقول: إنَّ هذه الوجوه ليست قطعية الدلالة؛ لإمكان تأويلها وتطبيقها على أحوال الرعية كما ذكرنا لك فيما سبق، على أن لفظ: ﴿تُشْطِطْ﴾ يجوز أن يكون من تعابير القرآن عن طلبهم منه العَدْلَ في الحكومة، لا في نصِّ عبارتهم، على نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في أول المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

= والتعبير باتباع الهوى والضلال عن سبيل الله: مبالغةٌ في العتاب عن الاحتجاب؛ لأنَّ حلَّ مشاكل الناس من سبيل الله. هذا رأيٌ أراه بناءً على عصمة الأنبياء، والله أعلم.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ...﴾ مجرَّد تتمة للحكم بالحق وبيان له على الوجه الصحيح، ولا دخل له في العتاب، ولا فيه تلميح إلى وقوع ذلك منه، والله أعلم. (المؤلف).

وإذا فُرِضَ أن هذين الخصمين من أهل البوادي ـ وهو الأغلب - فلا غرابة في خشونة قولهم وفعلهم؛ لأنَّ مثل ذلك جارٍ في عادة أهل البوادي من رعاة الأغنام، فلا غَرابة في قولهم هذا، ولا في تسوُّرهم المحراب. كيف وقد نادى وَفْدُ البادية رسولَ الله ﷺ من وراء الحجرات، وأنَّبهم الله على ذلك، فهذا من فصيلة ذاك، والله أعلم.

وينتصر للرأي الأول أبو مسلم فيقول: لا يمتنع أن يكون الداخلان على داود عليه السلام كانا خَصْمَين من البشر. وأن يكون ذِكرُ النِّعاج محمولاً على الحقيقة دون الكناية، وإنما فَزِعَ منهم لدخولهم من غير إذن، وعلى غير مَجْرى العادة. والملوك تَفْزَع من مثل ذلك، وإنما عُوتِبَ على حكمه بالظلم على المدَّعى عليه قبل أن يسأله.

وقد رُويت هاهنا من الإسرائيليَّات رواياتٌ لا تليقُ بشأن الأنبياء، منها: أن داود عليه السلام أرسَلَ أوريا إلى الحرب بُغْيَةَ أن يُقْتَل ليأخذ زوجته، فقال عليٌّ رضي الله عنه: مَنْ حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جلدته مئة وستين جلدة[1]. يعني: جَلْداً مضاعفاً؛ لأنَّ فيه رمياً لنبيٍّ من الأنبياء، فيكون الحدّ مُضاعَفاً عليه[2].

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٦: ٣٩٢).

(٢) محصَّل ما قيل في هذه الآيات وجهان:

الأول: أنه كان قد قسم أوقاته قسمين: قسماً لله وحده لا يرى فيه شؤون الناس، فيُمنَعُوا من ملاقاته، فعُوتب على ذلك.

وعلى هذا الوجه، يحتمل أن الذي تسوَّر عليه المحراب خصمان منهم كان بينهما هذه المشكلة يطلبان فَصْلَها، فأدرك أنه مُقصِّرٌ في الاحتجاب.

ويحتمل أنَّ الذي تسوَّر عليه المحراب مَلَكان، صوَّرا له هذه الدعوى لِيُنبِّهاه على تَقْصيره في الاحتجاب.

والوجه الثاني: أنه خطب امرأةً كان أوريا قد خطبها، وداود لم يعلم بذلك، فأعطاها أهلها له ترجيحاً على أوريا. =

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

وبعد انتهاء هذه القصة التي سيقت لتثبيت النَّبيِّ ﷺ ضدَّ مشركي قريش، عاد إلى أصل البحث ـ وهو الكلام عن التوحيد والحشر والنبوَّة، وتقريع أولئك المنكرين لها ـ على نهج القرآن في العودة، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ بل لغاياتٍ جليلة ومقاصِدَ نبيلة، لا لفناء مَحْضٍ لا شيء بعده كما يزعم المُبطِلون.

وكيف ينتهي هذا الكون العظيم بعَدَمٍ صِرْفٍ لا عاقبة له ولا غاية، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فإنَّ جُحودَهم لأمر البعث والجزاء مفادُه نفيُ الحكمة عن خلق السماوات والأرض وما بينهما، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ إذ ينسبون لله تعالى ـ من غير رويَّة ـ ما لا يليقُ بذاته العليَّة من العبث في الأعمال.

ثم انتقل من تقرير البعث والحساب والجزاء بما ذكر من الإلزام والإفحام، إلى تقريره وتحقيقه بإلزام آخر من نوعه، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بما يقتضيه عَدَمُ البعث والجزاء، لاستواء الفريقين في التَّمتُّع في الحياة الدنيا، وربما كان الكَفَرة المفسدون أوفَرَ حظاً فيها من المؤمنين. وإذا كان هذا الجَعْل محالاً عقلاً تعيَّن البعث والجزاء، وهو وجه الإلزام.

ثم انتقل إلى ما هو أظهر منه استحالةً، وهو التَّسْوية بين أتقياء المؤمنين وعُصاتهم

= وعلى هذا الوجه، يتعيَّن أنَّ الخصمين مَلَكان نبَّهاه على ذلك، فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعاً وأناب. ويجوز اجتماع الوجهين معاً، والله أعلم، إلا أن الوجه الأول أَوْلى بأن يكون ذكرى لنبينا ﷺ في تحمُّل أذى قومه، ودوام الدعوة لهم، ومتابعة النُّصح والإرشاد. (المؤلف).

أو أشقياء الكَفَـرة الـمُتمرِّدين، وجَعَله كالتأكيد لـما قبله، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾، واللازم باطل، فالملزوم مثله. ويجوز أن يُراد بهذين الفريقين عَيْنُ الأولين باعتبار وصفَيْن آخرَيْن هما أظهَرُ في إنكار التسوية وأقوى.

ثم أردَفَ الأسلوب الإنكاري بالأسلوب التقريري، على نهج القرآن في ذلك، مُبيِّناً أنَّ محتويات هذا القرآن ـ بما فيه الحشر والحساب ـ حقٌّ ثابت، ونوَّه بشأنه وعظيم إحسانه، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ لاشتماله على كلِّ ما به سعادة البشر في الدارين، وقد أرسلنا به إليهم ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، فإنَّ هذه السعادة نتيجة هذا التدبُّر. فأراد سبحانه وتعالى من إنزاله أن يتدبَّروه ليفهموا تعاليمه على وجهها الصحيح، ويعتمدوا على ما جاء فيه من عقائد وأعمال، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ به ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: وليتَّعظ به ذوو العقول السليمة التي لم يُفسِدْها أصحابها، فإنهم هم المستعدُّون للنظر الصحيح والاعتبار بما جاء في هذا الكتاب المبين والقول المستبين بأدنى التفات.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد أن ذكَّرهُ سبحانه قصة داود، وعتابه له على الصغيرة، وإنابته إليه تعالى حين ظنَّ أنه ابتُلي بذلك واختُبر، وثباته في جَنْب الله، ذكَّره كذلك بأمر سليمان عليه السلام واختباره بإنعام الله عليه، وثباته على ما يُرضي الله، وإنابته إلى الله إذا صَدَر عنه من الضعف في المقاومة في أمر الله ما يوجبُ العَتْب والمحاسبة، إيذاناً بشدَّة ثبات الأنبياء في

جانب الله، وحرصهم على رضاء الله، وزهادتهم عن كلِّ شيء، وتحمُّلهم لكل شدَّة في سبيل ذلك. وفي هذا التذكير أيضاً إرشادٌ له ﷺ وتثبيتٌ، كما كان في قصة داود عليه السلام.

وقد علَّق قصةَ سليمان بقصة داود لما بينهما من الاتِّصال، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾، ثم أثنى عليه بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ أي: رجَّاع إلى الله، حريصٌ على رضاء الله، زاهدٌ عن كلِّ شيء في جَنْب الله.

ثم ذكر صورةً من ذلك، فقال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ﴾ وهو من الظُّهر إلى آخر النهار ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾[1] وهاتان الصفتان هما أمْيَزُ صفات الخيل، فكَرِهَ أن يَشْغَله هذا عن الله، ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢﴾ أي: بالأفق أو بالظلام. وقد ضمَّن ﴿أَحْبَبْتُ﴾ معنى: أَنَبْتُ واستَعَضْتُ، فعدَّاها بـ«عن» للمبالغة في ذلك الحبِّ الذي أبعَدَه عن ذِكرِ الله المطلوب من أمثاله[2].

---

(١) الصافنات: جمع صافن، وهو من الخيل ما يقفُ على ثلاثة أرجل، ويرفع الرابعة، وطرفُ حافرِها على الأرض، وهذا لا يكون إلا في الأصيل من الخيل. يقال: صَفَنَ الفَرَس، بوزن: جَلَسَ.
والجياد: جمع جواد، يُطلَق على الذكر والأنثى، ومعناه: الأصيل سريع الجري، وهذا وَصْفٌ مُوضِّح لِـمَا قبله.

(٢) كان رباطُ الخيل للحروب مندوباً في شريعته كما في شريعتنا، لأن رباط الخيل للحروب شأنٌ قديم اتخذته أقدَمُ الأمم وحافظت بسائرها عليها في جميع الأزمان، والاستعراضُ شأنُ الرؤساء والقُوّاد، يستعرضون الجندَ وخيولَهم ودرجةَ صلاحها وأدوات الحرب كذلك؛ ليقفوا على ما عندهم من القوة، وربما خبر القائدُ بعضَ الخيل أو الأدوات بنفسه؛ ليرى الجيِّدَ من الرديء، والصالحَ من غير الصالح، وهكذا فعل سليمان عليه السلام عندما استعرض الخيل، وأخذ يمسح بيده على سُوقِها وأعناقها، ويتمثلها؛ ليعرفَ الجيِّد من الرديء، ولكنّه أنكَرَ على نفسه انشِغالَه بأمر المُلكِ عما يليقُ به من درجة ذِكرِ الله، على حَدِّ قولهم: حسناتُ الأبرار سيِّئاتُ المقرَّبين. (المؤلف).

وفي ضمير ﴿تَوَارَتْ﴾ قولان: الأول: أنه عائد إلى الشمس المفهومة من فَحْوى الكلام وقرينة العقل. ومثل ذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). والثاني: أنه عائد للخيل المذكورة بصفاتها، وهو الأَوْلى بالسياق.

وعلى الأول، يكون المعنى: إني اشتغلتُ بحظِّي من الدنيا عن ذكر الله، حتى غربت الشمس؛ يستنكر ذلك من نفسه، منتبهاً إلى أنَّ هذا فتنة من الله له واختبار.

وعلى الثاني، يكون المعنى: إنَّ هذه الخيل شغلت فكري، يريد: أن هذا النوع من المُلكِ قد ألهاني عن ذكر الله. وعلى هذا المعنى يكون قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ معطوفاً بـ﴿حَتَّىٰ﴾ على قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ﴾، وقول سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.

ثم قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ قال في «مجمع البيان» راوياً عن ابن عباس والزهري وابن كَيْسان: أي: جَعَل يمسح أعرافَ خَيْله وعراقيبَها بيده حباً لها. وقيل: بل المسح هنا بمعنى القطع، أي: أنه ذبحها وقطعها وتصدَّق بلحومها إنابةً إلى الله. واعتمد الرأي الأول ابنُ حَزْم في الجزء الرابع من «المِلَل والنِّحَل» عند الكلام على داود عليه السلام، وقال: ليس في الآية أي إشارة إلى ما ذكروه من قَتْل الخيل وتعطيل الصلاة، وإنما ذلك من الخرافات[1].

وقيل أيضاً في معنى قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أن كلمة «عن» تعليلية. والمراد: إني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبُّها للغزو عليها في سبيل الله. يُبيِّن إعراضَه عن زخارف الدنيا ما لم يكن فيها تعلُّق في جَنْب الله. وعلى المعنى السابق، يكون الكلام

---

(١) «الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل» (٤: ١٦).

خبراً أخرَجَه مخرج التأسُّف والإنكار على نفسه. وعلى هذا المعنى، يكون الكلام خبراً أخرَجَه مخرج الشكر لله على هذا الإفضال.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ هذا الأمر كان فتنةً لسليمان عليه السلام كفتنة داود عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾[1] قال ابنُ حَزْم: المراد: فِتنةُ الملك. وقال أبو مسلم: إنَّ الجسد المذكور هو جسد سليمان عليه السلام[2]. وهو منصوب على الحال من ضمير ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ المحذوف. والتقدير: وألقيناه على كرسيِّه جسداً. وحذف الضمائر المنصوبة من خصائص اللغة، وسائغ في لغة العرب. واستشهد على حذف الضمير المنصوب بعدَّة آيات.

أقول: وعلى هذا يكون الكلام متسلسلاً يفيد أنَّ سليمان عليه السلام ألهاه هذا المُلكُ عما ينبغي أن يكون عليه من شأنه الروحي اللائق به، فأصبح كرسيُّه جسداً، كما تقول العرب: فلان جَسَدٌ بلا روح، والمطلوب من الأنبياء أن تكون روحيَّتهم في الدرجة العُليا، والإعراض عن زخارف الدنيا[3].

---

(١) الأنبياء صلوات الله عليهم لهم حالتان: عبادة الله، ونشر الدعوة. ولكلٍّ منهما حدود. والظاهر من أمر داود عليه السلام: أنه أفرط في العبادة وقصَّر في أمر الرعية، وأما سليمان فكان عكس داود، أفرط في أمر الرعية وقصَّر في العبادة، ثم رجعا عمَّا كان منهما وأنابا إلى الله، فأثنى عليهما الثناء الجميل. هذا رأيي، فإن أصبت فالحمد لله، وإن أخطأت فأستغفر الله، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله. (المؤلف).

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥: ٩٦)، عن ابن بحر.

(٣) الراجحُ في معنى الآية ٣٤ الواردة في فتنة سليمان عليه السلام ما ذكرتُه في تفسيري «المعين» ص٤٥٥: «ونُقسِمُ مؤكِّدين أننا اختبرنا سُليمان وابتليناه، وألقَيْنا على سرير مُلكِه شِقَّ وَلَدٍ له، حين أقسَمَ لَيطوفَنَّ على نسائه، وكلُّهُنَّ تأتي بفارس يجاهدُ في سبيل الله، ولم يقل: إنْ شاء الله، فطاف عليهنَّ جميعاً، فلم تحمل منهنَّ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشقِّ وَلَد».

فلما انتبه سليمانُ عليه السلام إلى حالته هذه فزع إلى الله وأناب، وطلب منه تعالى أن يُصلِحَ منه هذه الحالة، ويَهَبَ له ملكاً لا يُلهيه، وأن لا تغلبَه عوارضُ المُلكِ على حالته الروحيَّة، ونفسيَّته النبويَّة، ولا تَبعُدَ به عن الله، و﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ أي: ملكاً روحياً يلائم النبوَّة ولا يضعف شأنها[1]. والأنبياء لا يسألون إلا ما يُؤذَنُ لهم في مسألته أو ما يُلهَمون به وتشعرُ أرواحهم بضرورته، وربما أُذِنَ له في هذا الطلب أو أُلهم به ليكون معجزةً له على نبوَّته، أو لأنه أصلَحُ في نشر دعوته أو في شأن نبوته، فلا يَتوهَّمَنَّ متوهِّم أنَّ فيه شيئاً من الأنانية والمنافسة وحُبِّ الأثَـرَة. وهذا إذا لم نقل: إنَّ الذي طلبه مُلكٌ روحاني لا مَدْخَل فيه للأثَرَة والافتخار.

وقد استجاب له سبحانه دعوتَه، وقال: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ أي: تجري في شأنه إلى أيِّ صَوْب قَصَد وأراد. ويجوز أن يكون هذا في تَسْيير السُّفن الشراعيَّة[2]، فيكون قوله: ﴿رُخَآءً﴾ بمعنى: مطيعة له في موافقتها للصَّوْب الذي يُريده، وذلك معجزةٌ له، فلا يعارضه قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]. ويجوز أن يراد بقوله: ﴿رُخَآءً﴾ معناه اللغوي، أي: ليِّنة، على أن تكون تارةً لينةً وتارة عاصفةً شديدةً حسب الحاجة والطلب.

ثم عطف على مفعول ﴿سَخَّرۡنَا﴾ وهو ﴿ٱلرِّيحَ﴾ قولَه: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ

---

(١) رجع سليمانُ إلى ربِّه ليُحافِظَ على كمال مرتبة المُحسِنين المُقرَّبين، قال: ربِّ اغفِرْ لي ذنبي، وهَبْ لي مُلكاً عظيماً لا يكونُ لأحدٍ من البشر بعدي، ولا أُسلَبُه في حياتي؛ إنَّك أنت الكثيرُ العطاء.

(٢) تسيير السفن الشراعية جزء من هذا التسخير أو أثر من آثاره، والتسخير أعمُّ من ذلك، فلا يُقيَّد به، لا سيما أن تسيير السفن الشراعية بالرياح مما يعرفه البشر بحسب سنة الله تعالى الكونية في ذلك، فلا إعجاز فيه ولا خصوصية لسليمان عليه السلام.

﴿وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ يغوصون له في البحر يستخرجون اللآلئ يرصِّع بها الهيكل وغيره من أبنيته، ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾[1] [الأنبياء: ٨٢]، كما جاء ذلك في سورة الأنبياء. وقد سبق تفصيلُ شرحه هناك.

ثم تمَّم البيان عن عَظَمة ملكه بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ أي: من تمرَّد منهم يحبسُه ويشدُّه مقروناً مع غيره بالأغلال، وقد فوَّضه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ لك ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ أي: امنُنْ على مَنْ شئتَ منهم، وأمسِكْ على مَنْ شئتَ منهم، فذلك لك لا تحاسب عليه. ومن المعلوم أنه ﷺ لا يُجري ذلك إلا بمقتضى الحق والعدل الدقيق.

ويجوز أن يكون هذا تمنُّناً بعظم النعمة، والمعنى: تصرَّف بما أعطيناك كما تشاء، تعطي منه مَنْ شئت، وتمنع مَنْ شئت. ولا يقعَنَّ في الخاطر أنَّ في هذا شيئاً من الاستبداد، وهو أمرٌ ممقوت، لأنَّ الأنبياء لا تفعل إلا ما فيه الحقُّ العادل والحكمة البالغة.

وبعد أن ذكر جزيلَ إكرامه له في الدنيا، ذكرَ جزيلَ إكرامه له في الأخرى، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي: لم يكن إفضالنا عليه مقصوراً على نعمة الدنيا هذه، بل له في الآخرة ثوابٌ جزيل، وإنعام عظيم، ومنزلةٌ لدينا عالية.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(١) في الأصل: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: ١٣]، لكن المناسب لسياق كلام المؤلف هو ما أثبتناه، لا سيما أنه قال بعدها: «كما جاء ذلك في سورة الأنبياء».

وبعد أن ثبَّت النبيَّ ﷺ ونبَّهه بما قصَّه عليه من أمر داود وسليمان عليهما السلام، تابع الغَرَضَ وذكَّره بابتلاء أيوب عليه السلام في جانب نبوَّته، وصَبْره عليه، وما أنعَمَ الله به عليه بعد ذلك، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ وهو ابن عيص بن إسحاق، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ يعني: بوسوسته له؛ لِيَصرِفَه عن متانة الصبر، إذ كان يجد لمقاومة هذه الوسوسة تعباً وعَناء، فشكا ذلك لله سبحانه كي يُعينَه ويُقوِّيه. والنَّصَب: البلاء والشر. وإنما يحدث في الإنسان من مزالق الشيطان. وقال مقاتل: كان ذلك بوسوسته له؛ أنْ قد طال مَرَضُك، ولا يرحمك ربُّك[1]. وقيل: بل كان يُذكِّره ما كان فيه من نِعَم الله تعالى من الأهل والولد والمال، وكيف زال ذلك كلُّه منه، وصار فيما هو فيه من البليَّة، يُذكِّره بما كان فيه، طمعاً أن يُزلَّه بذلك، ويجد طريقاً إلى تضجيره وتعجيزه، فوجده صابراً مسلماً. وقيل: بل بوسوسته إلى قومه حتى عارضوه وأخرجوه من دياره. فكان ذلك سبباً لمرضه وتشتيت أهله وماله. والله أعلم.

وقد قَرَنَ الله سبحانه دعوتَه بالإجابة، فقال: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي: ابحَثْ برجلك؛ لأن الركض: الدفع بالرجل، من قوله: ركضَ الفرَس؛ إذا دفعه برجله. فلما بحث بعقب رجله نَبَعَتْ عينُ ماء، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾، وهذا خبر يُراد به الأمر، فقد قيل: أمره سبحانه أن يشربَ منها ويغتسل، ففعل، فزال ما به.

ثم ذكر ما أكرَمَه به بعد ذلك عندما استقرَّت له الأحوال، واستَتَبَّ له الأمر، وجمع ما بينه وبين أهله، مُلْمِعاً إلى أنه سبحانه يجعل العاقبة والغلبة للمحسنين، والصلاح في الدنيا والآخرة للمتقين، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ قال بعض المفسِّرين: معناه: أزَلْنا عنهم السَّقَمَ فعادوا أصحَّاء. وقال بعضهم: بل حَضَروا عنده بعد أن غابوا عنه، واجتمعوا بعد

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥: ١٠١)، عن ابن عيسى.

أن تفرَّقوا. وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾: إنه سبحانه وتعالى متَّعه بصحَّته وبماله وقوته، حتى كَثُرَ نَسْلُه وصار أهلُه ضِعْفَ ما كانوا، أو أضعاف ذلك. وقال بعض أهل هذا العصر: هي هبتُهم له بهداية الله إيَّاهم[1]. والمراد بهم: ذوو عَصَبته وذوو رَحِمِه.

وعلى كلٍّ، فقد منَّ الله عليه بذلك كما قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ به ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾[2]، قال الرازي: يعني: سَلَّطنا عليه البلاء أولاً فصبر، ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه إلى الآلاء والنَّعماء، تنبيهاً لأولي الألباب على أنَّ مَنْ صبر ظفر[3].

أقول: وفي هذه الفاصلة تذكيرٌ بالغاية التي بدأها في السياق بقوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] الآيات. وهذه الغاية هي تثبيته ﷺ تجاه المعارضين وشدائد الأحوال، وإعلامه بأن العاقبة تكون له لا محال.

أما الآية الآتية فيظهر منها أنه قد بَدَرت من زوجة أيوب عليه السلام بادرةُ ضَجَر

---

(١) هذا بعيد، واللفظ لا يدل عليه، بل لا يحتمله.

(٢) ليس في سياق قصة أيوب ما يمنع أن تكون متناسقةً مع قصة داود وسليمان عليهم السلام، في جهة جامعة، وهي: بيان ثبوت سائر الأنبياء على مقاومة المعارضين والصمود لهم، وتحمُّل أعظم المشاق في سبيل ذلك، وعتابهم على أقل تقصير نسبي في هذا السبيل. ويكون معنى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: أنه يُحاول أن يصرفَه بوسوسته عن متانة الصبر وشدَّة الثبات في مصاعب المواقف، فيجد تعباً مُضْنياً وعناءً قاسياً في مكافحته، فاستعان عليه بالله. وقد يضاف إلى هذا وسوسة الشيطان القويَّة الصُّلبة للمعارضين، فجعلهم يرفضونه ويخرجونه من دياره. وربما كان ذلك هو سبب مرضه وتشتيت أهله وعياله. ولا يمنع أن يكون استقرَّ في مكانٍ لا ماء فيه، فهيَّأ الله له إخراج الماء ليشرب ويغتسل، وجمعه بأهله بعد البعاد فكثروا بعد قلَّة، وعزُّوا بعد ذلة وشَتَات. فيكون مرمى القصص الثلاث: حَمْل النبي ﷺ على الاقتداء بهم والاهتداء. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

(٣) «تفسير الرازي» (٢٦: ٣٩٩).

تنافي صَبْرَ آل النبوَّة تجاه متاعب الدعوة ومزعجاتها، فحلف ليضربنَّها مئة جلدة تأديباً. فلما أجاب الله دعوته، وكشف عنه كُربته، كان من جملة ذلك أن خفَّف وطأة الحنث عليه، فقال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ وهو ملءُ الكفِّ من الحشيش ونحوه، ﴿فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك، أي: أن ذلك يدفع عنك الحنث، ويكفي لتأديب مثلها. وهذه رخصةٌ ورحمةٌ به وبها؛ لحُسْن خدمتها إياه. والرخصة الخاصَّة لا يُقاسُ عليها. وهي ليا بنت يعقوب عليه السلام.

ثم ختم القصَّة سبحانه وتعالى بالثناء عليه فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، ثم بالغ في الثناء فقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾، وكان أيوب عليه السلام من ولد عيص بن إسحاق.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

ثم ذكّره ﷺ بتاريخ بقية الأنبياء وأعمالهم وثباتهم، ورحمةِ الله بهم ونُصْرته لهم، تذكيراً مُجْمَلاً لنفس الغَرَض السابق، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ قال أبو مسلم: أي: أُولي العلم والعمل. أقول: وعليه، فقد تَجوَّزَ بـ«الأيدي» عن العمل، و«الأبصار» عن النظر الصحيح، وذلك من خصائص اللغة، ويسميِّه البيانيون: مجازاً مرسلاً.

ثم ذكر كرامتَهم مجملاً، فقال: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ أي: خَصَصْناهم بخَصْلة خالصة عظيمة الشأن، وهي: ﴿ذِكْرَى﴾ هذه ﴿ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾، قال الجُبّائي وأبو مسلم:

المراد بالدار: الدنيا، أي: لهم فيها ذِكْرٌ حَسَنٌ وشرفٌ عظيم. ويجوز أن يكون المعنى: إنا جعلنا فيهم استعداداً خاصاً لذكرى الدار الآخرة، فهي مَطْمَح أنظارهم في سائر شؤونهم، فلا يهمُّهم إلا رضا الله وما يُقرِّب إليه، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾[1] أي: اصطَفَيناهم للنبوَّة وتحمُّل أعباء الرسالة.

ثم تابع السياق فقال: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾ بنَ إبراهيم ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾، وكان قد أخلَفَ إلياسَ على بني إسرائيل، ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ وهو ابنُ عمِّ يَسَع على ما يقال. وقد سجَّل لهم بقوله: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم بيّن تعالى أنَّ هذا الذِّكْر إنما هو بيانُ شَرَفِهم في الدنيا، وأما في الآخرة فلهم أحسَنُ الجزاء، فقال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ لهم وشرفٌ في الدنيا، ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾[2]، وهؤلاء من أجلِّ المتَّقين، فهم يرجعون في الآخرة إلى مرجع

---

(١) الذين يرشَّحون للنبوة يُصْطَفَوْنَ لها اصطفاء: قلوبٌ نقية تربطها بالملأ الأعلى أواصرُ الطُّهْر والعفاف، وعقولٌ حصيفة ناضجة لا تنخدع عن حقائق الأشياء، ولا يصيبها ما يصيب كبار الفلاسفة من شرود وعَماء، وأجسامٌ مبرأة من العِلَل الخبيثة والأمراض المشوِّهة أو المنفِّرة، وصلةٌ بالناس قوامها البرُّ والإحسان، فلا يتصور في حقِّ نبيّ أنه أخلَّ بحقوق المروءة والتفضُّل، فضلاً أن يرتكب ما يخدش الشرف أو يقدح في العصمة والكمال. وهم رجال يَصْطَفيهم سبحانه وتعالى فينشؤون صُعُداً في مدارج الكمال، تحيطُ بهم العناية الربَّانية، وتقيهم أوضار الطبيعة البشرية، فتفتح قلوبهم لاستقبال ما يأتيهم به الملأ الأعلى عن حظيرة القدس، كما تفتح أجهزة الاستقبال المعدّة لالتقاط الأنباء، فتظل أفئدتهم موصولة بالملأ الأعلى، وبالله عزَّ وجل، فإذا بالحكمة تسيل من ألسنتهم، والنزاهة المطلقة تقترن بأحوالهم واتجاهاتهم، ولا يصدر عن أحدهم ما يخل بهذا الكمال (مقتبس من مطالعتي لكتب أرباب النظر). (المؤلف).

(٢) انتقل إلى وسيلة أخرى من الوسائل الحاملة لهم على الصبر، وهو ما أعدَّ من حُسْن المآب للمتقين، ومن شرِّه للطاغين، وفصَّل أحوالهما تفصيلاً. (المؤلف).

حَسَن عظيم، بيَّنه بقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ ولا يَخْفى ما في هذا الوصف من الإشارة إلى حُسْن القَبول، وكمال العناية بالوصول. فهو تمكينٌ لسهولة الدخول، وإيذانٌ بحُسن الاستقبال والحلول.

ثم تابع المعنى عن شرح حالهم السعيد هناك، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾، وفيه إشارةٌ إلى حُسْن مَعَادِ ما أُعِدَّ لهم من المجالس، ونظامِ ما نُظِّمَ لهم من المساكن والمسالك.

ثم ذكر ما هيِّئ لهم من اللذائذ، فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ على أزواجهنَّ، أي: لا تميل إحداهنَّ إلى غير زوجها، وهُنَّ معهم ﴿أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ أي: متساوياتٌ معهم في سنِّ الكمال. وفي هذين الوصفَيْن زيادةُ بيانٍ في كمال التَّحابِّ بينهما والوئام.

ولتسجيل ذلك للمتَّقين وزيادة تحسيسهم بهذه الكرامة قال: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ أي: إنَّ هذا العطاء العظيم هو الذي تُوعَدون به في يوم الجزاء. فذكر الحساب وأراد الجزاء، من ذِكرِ السبب وإرادة المسبَّب، أو باعتبار اسمه العام. وفيه إشارة إلى أنَّ هذا اليوم الرهيب على غيركم يكون هناءً لكم وسعادة. اللهم اجعَلْنا من هذا الصِّنف يا أرحم الراحمين. وإنما ذكر اللام بَدَلَ (في)؛ ليدلَّ على الغاية.

ثم أكمَلَ هذا الوعدَ الكريم والحبور العظيم، ببيان أنه دائمٌ لا يتناهى، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما ذكر من أنواع النِّعَم والكرامات ﴿لَرِزْقُنَا﴾ لكم في الآخرة، و﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: إنه دائمٌ خالد لا ينقطع أبداً. اللهمَّ اجعلنا ممَّن سبقت لهم منك الحُسْنى يا أرحم الراحمين.

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ

﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

وبعد أن فصَّل البَحْثَ وخلَّله بقوله: ﴿هَـٰذَا﴾ للتحسيس به وللإشعار بانتهاء البيان عنهم وانتقاله، قابَلَ أحوالَ المتَّقينَ بأحوالِ الطاغين، زيادةً في تحسيس المؤمنين بسعادتهم، والكافرين بشقاوتهم؛ لظهور الشيء ووضوحه بضدِّه، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾﴾ أي: إنّهم ليرجعون في الآخرة إلى مرجع سيِّئ رهيب، بيَّنه بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أي: بئس المَهْدُ والمُفْتَرَشُ ما يَصْلَونه من جهنَّم، يُقبِّح حالهم في ذلك. وهذا مُستَعارٌ من فراش النائم.

وبعد أن ذكر مقرَّهم الجحيم، ذكر شرابهم الأليم، فقال: ﴿هَـٰذَا﴾ يشير إلى ما هُيِّئ لهم من الشراب، وهو مبتدأ، وقوله: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ اعتراضٌ عُجِّل به لزيادة التأنيب والتأليم، وقوله: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ خبرٌ للمبتدأ، وهي مشروبات أهل النار، ﴿وَ﴾ لهم نوعٌ ﴿ءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: لهم أصنافٌ وألوانٌ أُخَرُ من شكل هذا التعذيب. أعاذنا الله. ويجوز أن يكون ﴿أَزْوَاجٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هي أزواج وأصناف.

ثم ذكر ما يكون بين الأتباع والرؤساء من المُخاصَمة، وبين الأتباع أنفسهم من المكالمة، على نهج القرآن في مثل هذا الموقف، وافتتح ذلك بما تقوله لهم الخَزَنة عند ورود النار، إذ يقولون لهم: ﴿هَـٰذَا﴾ مشيرين إلى فوج الأتباع ﴿فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ النار ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾، تقول ذلك الخَزَنةُ تقبيحاً لشأن الأتباع وتأنيباً للرؤساء. وقيل: بل إنَّ قول: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ هو جواب الرؤساء للخَزَنة في حقِّ الأتباع، يقولون ذلك تَضَجُّراً من مقارنتهم، ونفوراً من مصاحبتهم.

وقال بعض المفسِّرين: الكلامُ كلُّه كلامُ الرؤساء بعضهم مع بعض في حقِّ الأتباع.

ثم علَّلوا نفي التَّرحاب بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ أي: داخلون النار بأعمالهم ومُصْطَلون بها.

ثم حكى ما يقوله الأتباع للرؤساء جواباً عن ذلك بقوله: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي: أنتم وحدكم المستحقُّون لهذا التأنيب، لأنكم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: سببَّتم لنا دخول الجحيم والاصطلاء بها، ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ لنا ولكم في هذا الجحيم(١).

ثم تضرَّعوا إلى الله و﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ أي: عذاباً مُضاعَفاً؛ لأنه ضَلَّ وأضلَّ.

ثم ذكر عنهم لوناً آخرَ من ألوان إظهار الندم والتحسُّر، وهو توبيخُ أنفسهم والسخرية بها؛ لَـمَّا كانوا لجهلهم وضلالهم يَزْدرون بفقراء المسلمين ويسخرون بهم، وكيف حالت حالُهم وحالُ أولئك الفقراء. فحكى سبحانه ذلك عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض مستهزئين بأنفسهم، بأسلوب الاستفهام التوبيخي والتنديمي: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ

---

(١) يجوز أن يكون الكلام كلُّه من الخَزَنة على مَسمَع من الفوج، فتصدَّى الفوج لأهل النار، وردَّ إليهم الوصف، مريداً أنهم أحقُّ بهذا التقريع؛ لأنهم هم السبب في هذا الشقاء. ويجوز أن يكون ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من كلام أهل النار نعياً على الفوج، فرد الفوج عليهم الوصف وخاصمهم.
وقوله: ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ يجوز أن يكون من كلام الله سبحانه نعياً على الجميع، والله أعلم. (المؤلف).

﴿ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾[1]؟ يعنون المؤمنين أو فقراءهم.

و﴿أَمْ﴾ إمّا مُعادِلة لجملة: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ﴾، ويكون مُحصَّل الكلام: ما لنا لا نراهم؟ ألأنّهم في الجنة؟ آه.. كيف كنا نَسْخَر بهم ونعدُّهم من أهل النار؟! أم هم معنا في النار وقد زاغت عنهم أبصارنا فلم ترهمُ أعيُنُنا؟! يقولون هذا استهزاء بأنفسهم لتحقُّقهم أنّهم من أهل الجنة. وإما مُعادِلة لجملة: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ على معنى: أكانت سخريتُنا بهم في محلِّها أم زاغت أبصارُنا في معرفة أمرهم، فظنّناهم من أهل النار، وكانوا من الأبرار؟ وعلى كلٍّ، فالكلام تأنيبٌ لأنفسهم واستهزاءٌ بها ملؤه الألم والندامة.

ثم ختم سبحانه البيان بما يقرِّره، فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ أي: أمرٌ واقعٌ لا شك فيه. اللهمَّ أجِرْنا من النار.

ومن مباحث اللفظ أنه قُرئ: (اتَّخَذْناهُم) بوَصْل الهمزة على الخبر، وبفَتْحِها على الاستفهام[2]. قال أبو عبيدة: وبالوصل يقرأ؛ لأن الاستفهام متقدِّم في قوله: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾، ولأن المشركين لا يشكُّون في اتِّخاذهم المؤمنين في الدنيا سِخْرياً؛ لأنه تعالى

---

(١) مضمون الكلام تندُّر مطويّ على الألم والندم، يقولونه بعد أن يَرَوا أنفسَهم في النار، والمؤمنين في الجنة، يقول بعض هؤلاء الطاغين لبعض تعريضاً وتنديماً وتقريعاً لأنفسهم: ما لنا لا نرى في النار من كنّا نعدُّهم من الأشرار، أهم معنا ولم ترهم أعيننا، أم ليسوا معنا؟ يتندَّر بعضهم على بعض في ذلك تندُّراً مطوياً على التأنيب والتقريع.
وقوله: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ تأنيبٌ آخر ضمن التأنيب الأول، قُصِدَ به المبالغة في التقريع لأنفسهم والتنديم، أي: كيف كنا نسخر بهم وبدينهم وما يؤمنون به ويعتقدون من أنهم من أهل الجنة ونحن من أهل النار؟! وكنا نعتقد سفاهةً أننا من أهل الجنة وهم من أهل النار، وهكذا يسخرون بأنفسهم ويستهزؤون بما بان لهم من سَفَاهتهم وجَهَالتهم سخريةً واستهزاءً ملؤها الحزن والأسف والندامة. (المؤلف).

(٢) «السبعة في القراءات» ص٥٥٦.

قد أخبرَ عنهم بذلك بقوله: ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ [المؤمنون: ١١٠]، فكيف يَحسُنُ أن يستفهموا عن شيء عَلِمُوه؟ فأجابه الفرَّاء بأنَّ هذا من الاستفهام الذي معناه التعجُّب والتوبيخ(١). ومثل هذا الاستفهام جائزٌ عن الشيء المعلوم. انتهى.

وقوله: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ بَدَلٌ من قوله: ﴿لَحَقٌّ﴾، أو خبر لمحذوف. وقُرِئ بالنصب على أنه بَدَلٌ من ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: من اسم ﴿إِنَّ﴾.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وبعد هذا البيان الترهيبي عن مصير الكفار المهيِّئ للنفوس إلى الاعتبار، أمرَ رسولَه أن يَدعُوَهم إلى ما يُنقِذُهم، وهو التوحيد، وَصْفاً للدواء بعد الداء، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر «معاني القرآن» للنحاس (٦: ١٣٣)، و«معاني القرآن» للفراء (٢: ٤١١).

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغْلَب على أمره، ﴿ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى. والجمع بين هاتين الصفتين لبيان أنَّ وَجْهَ تأخير العقاب عنهم، إنما هو رجاء أن يتوبوا فيُغفر لهم، وليس ذلك عن عَجْز في القدرة.

ثم بالغ في التحسيس إلى الاهتمام بما تقدَّم من البيان، فقال: ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: ما أنبأتكم به من يوم الحساب، أو من كلِّ ما تقدَّم ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

ثم بالغ في تقريره بالاستدلال على أنَّ ما أتى به من ذلك إنَّما هو الوحيُ لا شيء من عنده، وأومأ إلى أنَّ إعراض الإنسان عن سبيل الرَّشاد إنما يكون من غَواية الشيطان، فصاغَ الاستدلال من هذا الموضوع للأمرَيْن معاً، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: في أمر آدم، ولكنه الوحيُ يُوحَى إليَّ فأُنذِرُكم به. فإنَّ إخباره عن تَقاوُلِ الملائكة وما جَرَى بينهم في حقِّ آدم كما وَرَد في الكتب المقدَّسة مع أُميَّته ﷺ لا يُتصوَّر أن يكون إلا بالوحي.

ولما جعل عِلمَه بالملأ الأعلى دليلاً واضحاً على صدقه في دعوى النبوة والإيحاء إليه، صرَّح بالنتيجة فقال: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم فصَّل اختِصامَ الملأ الأعلى، فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ فكان قابلاً للاحتفاظ بالروح، حيث يتحوَّل الطين ويتطوَّر إلى جسم صالح لذلك. وقد مرَّ الكلام على هذا البحث بصورة مفصَّلة في سورة الحِجْر[1]، فارجع إليه لتقفَ على الفرق بين الروح والحياة، وأنَّ الروح لا تصاحب الجسم ويظهر أثرها فيه إلا إذا كان حياً محافظاً على هذه التسوية، لذلك قال: فإذا سوَّيتُه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾

---

(١) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ...﴾ [الحجر: ٢٨].

٢٦٠ ـــــــ

أسباب الفضل الحقيقية التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وهي سَعَةُ علم هذا المخلوق بأحوال الأرض مما يدور عليه أمْرُ خلافته فيها، كما ذكر في سورة البقرة.

فأصدَرَ سبحانه أمْرَه بحقِّه و﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنَّة، أو من زمرة الملائكة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: مَطرودٌ من كل خير وكرامة، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ أي: إبعادي لك عن الرحمة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾[1] أي: يوم الجزاء والعقوبة. وفي هذا الوصف إيذانٌ بأنَّ اللعنة ـ مع شدَّة فظاعتها ـ ليست كلَّ الجزاء لجنايته، وإنما هي منها، وسيَلْقى في الآخرة ويوم الدِّين من أنواع العذاب أفانينَ العقاب، كما جاء بيانُ بعض ذلك في غير هذه السورة.

ثم حكى سبحانه ما كان من أمر إبليس بعد هذا الحكم بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ للجزاء، ويريد بهذا الطلب أن يستفيد من الحياة الدنيا عندما حُرِمَ من سعادة الحياة الأخرى.

فأجابه تعالى لما فيه حكمتُه من السُّنن الكونية لا لطلبه، فكان هذا توفيقَ أقدار

---

(١) لا يبعد أن تكون صيغة المكالمة مجرَّد حكاية من الله سبحانه عن ضلال إبليس وغَوايته عندما عَـرَضَت له هذه الهواجس التي دفعته إلى الامتناع عن أمر الله بالسجود، فضلَّ وغوى، وعن تأثر الإنسان بمثل هذه الغَواية اتباعاً لخطة إبليس، وذلك إذا أفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، ولم يبق على إخلاصه وسلامة طبيعته التي طبعه الله عليها. والله أعلم بحقيقة الأمر. (المؤلف).
قلت: بل هذا بعيد، وقد تقدَّم مراراً خطأ المؤلف في دعواه أن المكالمة مجرَّد حكاية، بل هي حقيقة واقعة، تكرَّر ذِكرُها في القرآن الكريم عدة مرات، وأكَّدها الله سبحانه بعدة مؤكدات. وإخراجُها عن حقيقة المحاورة إلى المجاز المذكور عدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز من غير سبب يقتضيه، ولا قرينة تدل عليه، فلا يكون صواباً.

لأقدار، ومن حِكَم الله العليَّة التي لا تصل إليها الأنظار، و﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ الذي قدَّره سبحانه وتعالى وعيَّنه لانتهاء الدنيا والتَّحوُّل إلى الأُخرى.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ وذلك بحسب سُنَّة الله العامة في أخلاق الجنِّ والإنس من أنَّ الراسخين منهم في الضلال والمنطبعين على التقليد الأعمى يفقدون الاستعداد لإجابة داعي الحقّ والرشاد، بخلاف مَنْ زكَّى نفسه وحافظ على سلامة فطرته ونور بصيرته واستعداده الفطري لقَبول الحقِّ والإعراض عن الباطل، لذلك قال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ وهم الذين حافظوا على سلامة طبائعهم المُخْلصة بأصل خِلْقتها، ولم يفسدوها بالتحريف والتخريب، نتيجة مفاسد التربية والقدوة السيئة. وكلَّما كان إفساد الطبيعة بهذه المفسدات أكثر كان تدخُّل الشيطان فيها أشدَّ وأقوى، كالجراثيم الفتَّاكة بصحَّة الإنسان، تكثر وتَتَعاظم إذا وجدت طبيعةً فاسدةً قد خرَّبها وأعطبها صاحبُها بمعاكسة السنن الطبيعية الصحيَّة، فأصبحت لا تقاوم هذه الجراثيم والطوارئ.

فالآيةُ بيانٌ عام لطبيعة الإنسان واستعدادها للانحراف والفساد بوساوس المفسدين، وهذا هو الغَرَضُ من ذكر هذه القصَّة، أعني: بيان منشأ معارضة هؤلاء المشركين لرسول الله ﷺ، وقد مرَّ الكلام على معنى مقاولة إبليس في سورة النساء والإسراء[1]، فارجع إليه.

وقد تكلَّم الأستاذ الإمام[2] في سورة البقرة عن الحكمة في خَلْق هذه القوة المعبَّر

---

(١) ينظر: الآيات ١١٨-١٢١ من سورة النساء، و الآيات ٦١-٦٥ من سورة الإسراء.

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده.

عنها بإبليس[١]، فقال: إنها قوّة لزَّها الله بهذا العالم لزاً[٢]، تميل بالمستعدِّ للكمال أو بالكامل إلى النقص، فتعارض اتِّباع الحق وتَصُدُّ عن عمل الخير، وتنازع الإنسان في صَرْف قواه إلى الكمال الوجوديّ الذي خُلِقَ مُستعداً للوصول إليه، فقد لزَّها الله بالإنسان لتزكية هذا الكمال فيه، إذ لا يثبت على المحك والمقاومة إلا المؤمن الخالص. انتهى بتصرُّف[٣].

وقالوا: إنَّ الشيطان قوَّةٌ نزَّاعة إلى الشر[٤]، وهو من عالم الغيب لا تُدرك حقيقته. وقالوا: إنَّ لكلِّ إنسان شيطاناً، وهي قوة نزَّاعة إلى الشر يحدث منها في نفس الإنسان خواطر السوء فيقاومها العقل، حتى تكون الغَلَبة لأحدهما، فإذا كان العقل لم يفسده صاحبُه بمفاسد التربية وسوء القدوة، فالغلبة له، وإلا فالغلبة لها.

أقول: وتحرير البحث أنَّ الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الإنسان ذا علم واسع ليكون خليفة في الأرض يتصرَّف فيها إيجاداً وتعميراً، وهذا لا يكون إلا إذا كان مطلق التصرُّف في شؤونه، يجري وراءها بعقله المتكيِّف بحسب نوع التربية، فجعله الله مختاراً في تصرُّفاته، رائدُه إرادتُه، وهذه الطبيعة تكون مستعدّة للخير والشر معاً، فإذا رُبِّيت على الخير تَدَرَّجت في صنوف الكمال، وإن رُبِّيت على الشرِّ تدهورت في الحطة والسّفال. والله أعلم.

وقد احتاط سبحانه لهذا الإنسان وجهَّزه بهدايتين: هدايةِ الطبيعة، وهدايةِ الشريعة.

---

(١) القول بأن إبليس قوة؛ خطأ جسيم لا يُقرُّ عليه قائله، بل إبليس مخلوق جسماني حقيقي.

(٢) اللَّزّ: الشِّدَّة واللُّزوم، كما في «لسان العرب» (لزز).

(٣) تفسير «المنار» (١: ٢٢٤).

(٤) القوة النزاعة إلى الشر: هي استعداد فطري في الإنسان، كما أن الاستعداد الفطري المقابل له: هو قوة نزاعة إلى الخير، والأُولى يعمل الشيطان على تغذيتها وتنميتها لتغلب الثانية، لا أن الشيطان هو تلك القوة نفسها.

فهو يميلُ إلى الخير بطبيعته ما لم يُفسِدها بمفاسد التربية، وأرسل له الشريعة تضيء له الطريق.

وقد ذكر الله سبحانه حكمَه في إبليس ومتَّبعيه من الجنِّ والإنس، و﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ في الغَواية والضلال ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من ذريَّة آدم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ومن مباحث اللفظ: أنَّ قوله: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مبتدأ محذوفُ الخبر، تقديره: قَسَمي، وقوله: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ بين القَسَم والمُقْسَم عليه، وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

ثم ختم السورة بما بدأها به، وهو إثبات رسالة الرسول ﷺ، وما جاء به في هذا القرآن، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتظنُّوا أني أريد به الدنيا فتتَّهموني بأني أنتحلُ النبوَّة لذلك، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: من المتصنِّعين بالكلام من صنف الخطباء والشعراء والكتاب، فتتَّهموني أني أتقوَّل هذا القرآن. كيف ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله عزَّ وجل ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾: يُذكِّرهم به مصيرَهم، ويهديهم به لرُشْدهم، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ أي: ولتحققنّ ما أنبأَ به من الوعد والوعيد بعد الموت ويوم يقوم الحساب.

* * *



مكيَّة إلا آية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ...﴾ [٥٣]

وهي خمس وسبعون آية

وموضوعها:

ـ إخلاص التوحيد والعبادة لله تعالى، والتعلُّق به رأساً دون واسطة.

ـ والنهيُ عن اتِّخاذ الوسائط للتقرُّب بهم إلى الله والدعاء منهم، كالأولياء ونَحْوهم.

ـ وإبطال أن يكون له وَلَد، لأنَّ الولد يُجانس والدَه، وإنْ كلُّ ما في السماوات والأرض إلا مخلوق لله تعالى وآتي الرحمنِ عَبْداً، وليست هذه صفة الولد وخصائصه، كما هو معروف.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ والتعرُّض لوَصْفَيِ العزَّة والحكمة، للإيذان بظهور أثرهما في هذا الكتاب المنزَّل، فأحكامه ومواعظه وبياناته كلُّها مبنيةٌ

على الحِكَم الباهرة، ووَعْدُه ووعيدُه واقعٌ لا مَحالة[١].

ثم بيَّن أهمَّ ما فيه، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾[٢] كما يأمرك هذا الكتاب، ولا تشرك به شيئاً صريحاً أو خفياً؛ لأنَّ الله سبحانه لا يقبل إلا ما خَلَصَ له، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ فهو وحده المستحقُّ أن يُعْبَد، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٣] من أمر الأديان واختلاقهم لها، ويُجازيهم على شركهم هذا أشدَّ الجزاء.

ثم ذكر منشأ هذا الضلال فيهم، ببيان سنة الله العامة في انطباعات الإنسان وتكوّنها، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ بمعنى: أنَّ من رَسَخت فيه مَلَكةُ الكذب فأصبح يَعْرِفَ بما لا يَعْرِفُ، ومَلَكةُ الكفر فكان يكتم الحقَّ ويُظهِرُ الباطلَ بالتقليد الأعمى لآبائه ومِلَّتِه، يفقد الاستعداد للهداية والنظر في أسبابها ووسائلها، ولا يميل إلى سماع ما يخالف عقيدته وما انطبع عليه.

والمراد من الكذب هنا: ما يشمل نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى في عموم الجملة قبله، يُفهَمُ ذلك من الردِّ بقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا

---

(١) لكنه سبحانه قد يعفو عن بعض وعيده كرماً منه وفضلاً، ويبقى بعضُ وعيده الآخر واقعاً لتحقُّق صدق خبره تعالى، فلا منافاة بين الإخبار بالوعيد والعفو عنه حينئذ.

(٢) الإخلاص: أن يأتي الإنسان بأعمال نقيَّة لا يشوبها شرك ولا رياء. وهو من الصفات الروحيَّة التي تسمو بالمرء إلى منزلة رفيعة من الخلق الإنساني. (المؤلف).

(٣) كانت العرب تطلق على كل ما تعتقد أن له سلطة في هذا الكون اسم «إله»، ولكن لا تُسمِّيه: الله؛ لأنه اسم للخالق وحده. وكل دعاء وتعظيم يُوجِّهونه إلى من يعتقدون فيه تلك السلطة: عبادة. (المؤلف).

﴿يَشَآءُ﴾، ويجوز أن يكون هذا صنفاً آخر من الشرك، قَرَنَه بالصنف الأول. ووجه الرد: أنَّ الله سبحانه لو أراد أن يتَّخذ ولداً، لَمَا خَرَج الأمر عن أن يكون اصطفاءَ عَبْدٍ لأنه من مخلوقاته، وحينئذ يكون المعنى: أنه ﴿لَٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ [ص: ٤٧]، وهذا هو معنى ما جاء عن بعض الأنبياء[١] من أنه ابن الله، أي: قد اختاره الله واصطفاه، أو يقول النبيّ: أبي الذي في السماء، فالبنوَّة لقبُ شرفٍ وتقرُّب لا غير، ولا يريدون غير هذا المعنى. وليس هذا المعنى معنى الولد والبنوَّة حقيقةً، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أن يكون له ولدٌ حقيقيٌّ، بل ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾.

وهذا تعليلٌ للتنزيه، وإلماعٌ إلى أنَّ ما يحتاج إلى الولد هو الذي يكون عُرْضةً للفناء العاجل؛ ليقوم وَلَدُه مقامَه، ويبقى النوع بالتناسل ـ كما رمز إلى ذلك بآية التناسل الآتية ـ أما الواحد القهَّار الأزليّ الأبديّ فلا حاجة له بالولد، بل لا حاجة بالولد للذي يبقى أزماناً طويلة من المخلوقات، كالملائكة والنجوم والجبال، وما إلى ذلك، فما ظنُّكم بربِّ العالمين الدائم بلا زوال؟ تعالى الله عمَّا يقول الظالمون عُلواً كبيراً[٢].

---

(١) على تسليم ثبوت ذلك عنهم جدلاً، وأنى يثبت؟!

(٢) كان بعض الأنبياء ـ ولا سيما أنبياء بني إسرائيل ـ يقولون: ربنا الذي في السماء، ويعنون: أنهم مُصْطَفَوْنَ من جانب الله، إلا أنَّ الرومان لما أرادوا الدخول في النصرانية وكانوا مشركين مُثلِّثين يقولون بالأب والابن والزوجة، فلما أرادوا الدخول في النصرانية اتَّخذ قسطنطين مجالس عدَّة، وكان يحضرها نصارى الشرق، فطوَّر الدين النصرانيَّ إلى ما يَقرُبُ من دينه، وقال: بأن الإله الأب والابن وروح القدس، فجعل كلمة «روح القدس» عوضاً عن الزوجة، وكاد يقوم نزاعٌ بينه وبين نصارى الشرق، وأخيراً تغلَّب عليهم، وجعل الدين النصرانيَّ على هذا الوضع، ودخل الرومان فيه، وكان نصارى الشرق يعارضون في ذلك، فطردهم واستقرَّ الدينُ النصرانيُّ على هذا الوضع حتى اليوم. =

ثم ذكر من صفاتـه وأفعالـه تعالى ما يدلُّ على أنـه لا شبيـهَ لـه ولا مثالَ حتى يكون ذلك ولداً لـه أو شريكاً، وأنه وحده مُسْتَحقٌّ للألوهيَّة، وإليه المرجعُ والمآب، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: فلم يخلقها عَبَثاً، بل خلقهمـا لأمر له ما بعده من الحشر والحساب، وخلقهما بالحكمة والوجه الذي يحقُّ أن يخلقا عليه، ومن ذلك أنه ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يغشي كلَّ واحد منهمـا الآخر، كأنه يلفُّه عليه لفَّ العِمَـامة على الرأس، أو يُغيِّبـه به كما يَغيبُ الملفوف باللفافة، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: جعلهما مُنقادَيْنَ لنظام دقيق محكم سديد.

ثم أشار إلى أجل انحِلالِ هذا النظام وفناء العالم المعبَّر عنه بيوم القيامة، فقال: ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ أي: يقوم بعمله في هذا التسخير ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ثم يَنْحَلُّ هذا النظام ويُبدَّل هذا العالم.

وقد ختم السياق بقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ للإشارة إلى أنَّ إمهالهم مع كفرهم هذا ليس عن عَجْز في القدرة، ولكنه من مقتضى صفاته سبحانه، فلا يعاجلهم بالعقوبة، رجاءَ أن يتوبُوا فيغفر لهم.

ثم تابـع البيان عن كمـال قدرتـه واختصاصه بأفعال الربوبيَّـة، مشيراً إلى ما يحتاج إلى الولد من مخلوقاته وتنويعه إلى ذكر وأنثى في خِلقتِه ونظامه، للتنزيه له تعالى عن مثل ذلك، فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: جَعَل لها زوجاً من

= وإلى هذا أشار قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، يعني بهم: الرومان. (المؤلف).

جنسها، بمعنى: أنه خلق البشر ذكراً وأنثى من أصل الخلقة ليتمَّ التناسُل، فضميرُ ﴿مِنْهَا﴾ يرجع إلى النفس باعتبار الجنس. وكلٌّ من الزوجين مُتمِّمٌ للآخر، فكأنهما وحدة واحدة، ومن مثل هذا يكون الولد.

ثم تابَعَ مِثلَ هذا البيان في الإنعام، فقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ والإنزال هنا بمعنى: الإيجاد في أصل الخِلْقة، مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦]. والمعنى: خَلَقْنا لكم ذكراً وأُنثى من كلٍّ من الإبل والبقر والضأن والمعز، من أول تكوين هذه الأصناف. وإنما خصَّ الأنعام بالذِّكر مع أنَّ هذا جارٍ في سائر الحيوان؛ لأنها تحت تصرُّفهم وأمام نَظَرهم أكثر من غيرها. ففي التمثيل بها كفايةٌ في أنَّ ذلك للتناسُل وبقاء النوع؛ لأنه عُرْضةٌ للفناء العاجل، الذي من مقتضياته التوالد والتناسل لبقاء النوع، بخلاف الخلّاق الباقي جلَّ جلاله.

وبعد أن ذكر أصل الخِلْقة في الإنسان والحيوان، ذكر أطوارَها المختلفة المتدرِّجة، رامزاً إلى ما فيها من دقَّة الصُّنع وسَداد الإتقان، تتميماً لبيان نظام التوالد، وإشارةً إلى قدرته العليَّة، واستحقاقه أن ينفرد بالألوهيَّة، ويُنزَّهَ عن الولد والشريك والمثال. وخصَّ الإنسان بالخطاب لأنه المقصود، وبيَّن عَظَمة قدرته في شيء من الأشياء التي لا تُحصى تمثيلاً لقدرته العليَّة، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ نطفةً ثم علقةً ثم مُضْغةً ثم عظاماً... إلخ، أي: طوراً بعد طورٍ ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾، فهذا هو التوالد لا التمييز والتكريم في بعض المخلوقات. وقد قيل: إن المراد: ظلمة الغشاء ـ أي: المشيمة ـ وظلمة الرَّحِم والبطن، أو: ظلمة الغشاء وظلمة الماء داخِلَه وظلمة الرَّحِم. إلا أن الظلمة قد تطلق على الشيء المجهول والسرِّ المستور، فلعلَّ المراد به أسرارٌ ثلاثةٌ خفيةٌ من أسرار تكوين الجنين. والله أعلم.

وبعد أن بيَّن ونبَّه إلى عظيم قدرته، واختصاصه بأفعال الألوهيَّة وصفاتها، وعدم احتياجه إلى التوالد، واستحالته في حقِّه تعالى، مَخَّضَ النتيجة فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ وحدَه، وكلُّ ما عداه مملوكٌ له لا شريك له فيهم ولا ولد، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ عن الحقِّ وتُؤْفكون ويُلْعَبُ بعقولكم بأنَّ له شريكاً وولداً؟! تعالى الله ربُّ العالمين.

وبعد أن زيَّف الباطل وأحقَّ الحقَّ حتى ظهر في البيان كالشمس في العيان، بيَّن تعالى أنَّ كُفرَهم لا يضرُّه وإنما يضرُّ أنفسَهم، وأن شكرَهم لا ينفعه وإنما ينفع أنفسَهم، فقال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ لا يضرُّه كفركم شيئاً، ﴿وَ﴾ لكنَّه ﴿لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ فهو يُجازيهم عليه جزاءً وبيلاً، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ ويثيبكم عليه ثواباً جزيلاً. وقد جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً. ولو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحد منكم، ما نقص ذلك من مُلكي شيئاً. إنما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثم أُوفِّيكم إيَّاها، فمن وَجَدَ خيراً فَليَحْمَدِ الله، ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسَه»[1].

ثم بيَّن تعالى أنَّ كفر الكافر يقتصر عقابه عليه، لا يَسْري إلى أقاربه وحواشيه إذا كانوا مؤمنين، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفسٌ ذنبَ أخرى، بمعنى: لا يُؤاخَذُ بالذنب إلا مَنْ يرتكبُه ويفعلُه، وذلك لأنَّ عقاب الذنب طبيعي مبنيٌّ على سُنة كونية في تكييف الروح[2]، فكما أنَّ الجوع لا يزعج إلا نفس الجائع،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٢٠)، عن أبي ذر.

(٢) تقدَّم تعليقاً نقدُ هذا المعنى في عدَّة مواضع من هذا التفسير، وبيان أن العقاب مُرتَّبٌ على =

والمرض لا يُؤْلم إلا جسم المريض، فكذلك الذَّنْب لا يُؤثِّر إلا على نفس صاحبه. والله أعلم.

وإنما عبَّر عن النفس بالوازرة للإشارة إلى أنَّ كلَّ نفس لا تَسْلَم من الوِزْر في الغالب، وهي تحمل وِزْرَها وحدها، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقد استعمل التَّنْبيءَ في محلِّ الجزاء ليدلَّ على إحصائه لأعمالهم وبيانها لهم ومجازاتهم بها. ثم علَّل دقَّة الإحصاء بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ أي: هواجسِ النفس وخواطِرها، فلا يَخْفى عليه من أمركم خافية.

وبعد أنْ دلَّل على فساد القول بالشرك وإثبات التوحيد لله بالدليل العقلي، أضاف إليه الدليلَ الطبيعيَّ الدالَّ على أنَّ الإنسان مفطورٌ على التوحيد، ولذلك يرجع إلى الله وحده عند الشدائد، إذ تَتَجرَّد النفسُ حينئذ مما عَلِقَ بها من عَوارض الشِّرك، وتخلص لله وحده، وتشعر بطبعها أنَّ هذه الأصنامَ والمعبوداتِ لا تقدر على شيء، فلا يدعو عابدُها في النجاة غيرَ الله، فإذا زالت تلك الشدَّة وأنجاه الله منها وتبدَّلت الضرَّاء بالسرَّاء، عاد إلى نفسه ما كان عَلِقَ بها من عوارض الشِّرك، فرجع إلى شِركِه، ذكر ذلك فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ فوق دفع الضَّرر عنه، أي: أعطاه ما يَخْتال به ويَتَباهى من مالٍ وولد، ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعالى، وهو التوحيد، فيعود ضالاً مُضِلاً.

= عمل العبد ترتيباً شرعياً مرتبطاً بما أخبر الله تعالى به من ترتيب عقوبة على تَرْك فريضة أو ارتكاب مُحرَّم، ليس له قانون أو سنة كونية في تكييف الروح.

والقول بالترتيب لا يتم إلا على القول بالتحسين والتقبيح العقليين، ثم إنه يوقع في إشكالات من حيث ثبوت الشفاعة والعفو عن بعض المذنبين وغير ذلك، وقد التزم المؤلف في هذا التفسير هذه اللوازم، فوقع في إشكالات عديدة لقاعدة التزمها وهي غير ثابتة؛ إذ لم يقم عليها دليل.

فهدَّده سبحانه بقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ مدَّةَ هذه الحياة الفانية، وتنعَّم بما خوَّلناك من نعمة، ﴿إِنَّكَ﴾ بعد ذلك ﴿مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾ ذلك العذاب الخالد الذي لا يُعَدُّ نعيمُ الدنيا شيئاً في جانبه، أي: تمتَّع بما خوَّلناك من نعمةٍ على كفرك بها، وتنعَّم مُدَّة حياتك الدنيا التي هي لا شيء في جانب ما سينالك في الآخرة من عذاب النار الخالد المقيم.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

ثم أردف الكلام عن المشركين وصفاتهم وأحوالهم ومصيرهم، بما يقابلها من المؤمنين، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟

رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[1] وهذا من تـمام مَقُولِ القَول المأمور به.

و﴿أَمَّنْ﴾ إما متصلةٌ حُذِفَ مُعادِلُها ـ على نهج القرآن في أنواع الإيجاز ـ اعتماداً على السياق، كأنه قيل له تهكُّماً به وتبكيتاً: أأنتَ أحسَنُ حالاً ومآلاً أم مَنْ هو قائمٌ بواجب الطاعات دائبٌ على العبادات، مُنيبٌ إلى الله على الدوام، لا عند مَسَاس الضرر فقط، كدأبك؟ وإما منقطعةٌ بمعنى: بل، وهي للإضراب والانتقال من التهديد إلى التبكيت.

و﴿مَنْ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، على سنَّة القرآن في الحذف والإيجاز، والتقدير: كَمَنْ هو ليس كذلك، فحُذِفَ اكتفاءً بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين يعلمون حقائق الأحوال، فيعملون بموجبها مثل هؤلاء القانتين، والذين لا يعلمون ذلك، كدأبكم أيها المشركون؟! ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ وهذه الفاصلة للحَمْل على التذكُّر والعمل بحقائق ما سبق من البيان. وصيغة العبارة التي قبلها تُنَـوِّه بشأن العلم وذويه، وما ينبعث عنه من العرفان.

ثم أمر سبحانه رسولَه بتذكير المؤمنين وحَمْلهم على التقوى والطاعة، إثْرَ تخصيص التَّذكُّر بأُولي الألباب، إيذاناً بأنهم هم المراد، فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾

---

(١) هذا الصنف هو الذي صار له العِلمُ بمبادئ الدين ـ ولا سيما أمر الآخرة ـ بمثابة الأمور البديهية في المعقولات الأولى، فلا يندفع مع غيره أبداً، ولكن يرجع إليه رجوعاً ضرورياً؛ لأن العلم إذا كان بهذه المثابة يكون له أثر كبير على الأعمال والسلوك. وهؤلاء هم الذين جاء عنهم قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقوله: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقرنهم بالملائكة في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ...﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال عنهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

باتِّباع أوامره، واجتناب نواهيه، والإحسان في عبادته. ثم رَغَّب بها وأنَّبَ المغلوبين على أمرهم فيها، فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمَنْ تعسَّر عليه الإحسانُ في وطنه لمعارضة مواطنيه له ومنعهم إيَّاه، فَلْيُهاجِرْ إلى حيثُ يتمكَّن من ذلك، وَلْيَصبِر على المشاقّ لينالَ أجراً عظيماً، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾، وقد جَرَت سُنَّة القرآن أن ينبِّه إلى الصبر ويُرغِّب فيه أو يأمر به في كلِّ مقام يشقُّ على النفس احتمالُه. وقد ذكر ذلك في نيِّف وسبعين موضعاً منه.

ثم ذكر أهمَّ طرق التقوى، فقال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ أي: من كلِّ ما ينافيه من الشِّرك الجليّ والخفيّ، لأنَّ الله لا يقبلُ من الأعمال إلا ما خَلَصَ له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي: أولَ مَنْ أسلم. فأشار إلى عَظَمة الإسلام وحقيقته بمبادرته إليه.

ثم أمَرَه أن يذكرَ لهم ما يتَّقيه بالإسلام، فقال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

ثم أمَرَ بالإخبار عن إنجاز إخلاصه في دينه، بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بذلك؛ قطعاً لأطماعهم، وإعلاماً بأنَّ الإخلاص شرط في العبادة والإيمان، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾، ولذلك رتَّب عليه قوله: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، وهذا الأمر للتهديد، والصيغة تدلُّ على شدَّة الغضب عليهم. أعاذنا الله. ولذلك أردَفَها ناعياً عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخسران هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ باختيارهم الكفر لهما.

وقوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ تهويلٌ لِـمَا قبله وتمهيدٌ لِـمَا بعده، على نهج القرآن في مثله، حيث فصَّل أحوالَ ذلك الخسران بقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ

﴿ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أعاذنا الله. قيل: إنما أطلق لفظ «الظُّلَل» على ما تحتهم توسُّعاً ومجازاً، بمعنى: أنَّ النار تحيطُ بجوانبهم. وقيل: لأنها ظُلَلٌ لمن تحتهم.

ثم ختم الآية بما يدلُّ على مزيد التهويل والتحذير، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذابُ الفظيع ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ لِيُحَذِّرهم سُوء العاقبة. وقد قـرَّره بقوله: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ ولا تتعرَّضوا لهذا العذاب الأليم.

ثم قابل هذا بمصير المؤمنين، على نهج القرآن، جمعاً بين الترهيب والترغيب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ وهي الأوثان. وإنما أنَّث الضمير لِـمَا فيها من معنى الجمع، وهذا اللفظ يُطلَقُ على المفرد والجمع، وقد أُطلِقَ هنا على الجمع، أي: إنـهم اجتنبوا عبادة الأوثان ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مُعْرِضين عمَّا سواه، فهؤلاء ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب الجزيل.

وبعد أن أخبر بذلك أمر رسولَه أن يُبشِّرهم بها، زيادةً في التأنيس، وبياناً للعمل الذي أدَّى إليها، وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ قال الزجَّاج: يستمعون القرآنَ وغيرَه فيتَّبعون القرآن[1]. وقال السُّدِّيّ: يتَّبعون أحسَنَ ما يُؤمَرونَ به وأكمَلَه. وعلى كلٍّ، فهو وَصْفٌ لهم بتمحيص الأقوال والأخذ بالمُتقَن منها[2].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٤٩).

(٢) معنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين» ص٤٦٠ ـ: «فبَشِّـرْ ـ أيها الداعي إلى الله ـ عبادي بالسعادة الخالدة في جنّات النعيم، الذين يستمعون قولَ الله ورسوله وحَمَلةِ دعوته من أمته، ويستمعون زُخرُفَ أقوال المشركين، فيُوازِنون بين الأقوال، فيَنبُذون ما يظهر لهم أنه باطل، وهي الأصول التي يبني عليها الكافرون أبنيتَهم الفِكريّةَ والتنظيميّة لشؤون الحياة، ويتَّبعون ما يَرَونَه هو الأحسن، فيلتزمون دينَ الله التزاماً كاملاً في أصوله التي هي الحقّ، وفي فروعه التي هي الأحسن».

وإنما وضع هذا الوَصْفَ موضع الضمير، فأورَدَ الكلام على هذه الصيغة، ولم يقل: فبشِّرهم؛ للإشارة إلى أن مصدر اجتنابهم الطاغوت إنما هو اتِّصافُهم بهذا الوصف المستلزم لتهذيب الفكر وتـزكية النفس، أي: إنهم لم يفسدوا فِطَـرَهم بمفاسد التربية والتقليد الأعمى، ولم يطمسوا نور بصائرهم، فكانت تميّز بين الحقِّ والباطل، وتُـؤْثِرُ الأفضل فالأفضل.

ثم نوَّه سبحانه بشأنهم، فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بمحافظتهم على سلامة فِـطَرِهم، ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ الذين قال عنهم سابقاً: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

ثم قارَنَ بين المصيرَيْن لأولئك المشركين ولهؤلاء المؤمنين، زيادةً في التحسيس، فقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ممَّن رَسَخَ فيه الكفرُ والتقليد والقدوة السيِّئة، والمقابلُ محذوفٌ على نهج القرآن، والتقدير: كمن وَجَبَتْ له الجنةُ بحُسْن عمله، نتيجةَ محافظته على سَلامة فطرته في انطباعها على الإيمان وصحَّة العرفان. ولهذا قال ابن الأنباري: الوَقْفُ على قوله: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ والتقدير: كمَنْ وَجبت له الجنة. ثم يبتدئ: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ فهي جملةٌ مستقلَّة مسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة.

أقول: ومحصَّل المعنى: أفأنتَ تقدرُ أن تُغيِّر سُنَنَ الله العامة في طبيعة الإنسان، وهي أنَّ مَنْ رَسَخ فيه الضلالُ بالتربية والتقليد، لا يسمع ما يخالفه ولا يقبله، بل لا يراه جديراً بالنظر والتفكير.

قال أبو السعود: وقد شدَّد الإنكار بتنزيل مَن استحقَّ العذاب منزلةَ مَنْ دخل النار، وتصويرِ الاجتهاد في دعائه إلى الإيمان بصورة الإنقاذ من النار، كأنه قيل: أفمَنْ حقَّ

عليه كلمةُ العذاب بتمكُّن الكفر منه، أفأنتَ تتمكَّن من هدايته؟ ثم شدَّد النكير فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾[1]؟

وقال الزجَّاج: إن الخبر قولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، واكتفى بالموصول عن الضمير العائد إلى المبتدأ، وأتى بالاستفهام مرتين توكيداً للتنبيه على المعنى[2].

أقول: وعلى هذا، فمُحصَّل المعنى: مَنْ حقَّ عليه كلمةُ العذاب لا تقدرُ على إنقاذه من النار.

ثم قابَلَ قولَه في حقِّ المشركين: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] بقوله عن المؤمنين: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾، وهم الذين ذُكروا بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [الزمر: ١٧] ووُصفوا بما عدَّد من الصفات الفاضلة، فأولئك ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ بعضها أعلى من بعض ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وهذه المقابلة هي التي سَوَّغت الاستدراك، بل أوجَبته في عُرف البلاغة العالية.

ثم سجَّل على هذا الوعد الكريم وقرَّره بقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم أيَّد إنجازَ هذا الوَعْدِ وقُدْرتَه عليه، مُسْتَشهداً بما له من المقدرة على التحويل والتطوير، وعادَ بالكلام إلى محوَرِه السابق في ذِكرِ أدلة القدرة واختصاصه بالألوهية، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأشار بهذه الجملة إلى الدورة المائية المُؤذِنة بأن الله تعالى قد نظم كثيراً من هذه المخلوقات على الإعادة، فلا غرابة في إعادة الموتى وبَعْثها، فإنَّ الماء المُنزَل من السماء كان قد تبخَّر من البحر، وبعد

---

(١) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٧: ٢٤٩).

(٢) انظر «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٤٩).

نزوله سلكه ينابيع في الأرض، ثم خرج أنهاراً، وعاد إلى البحر. فجعل هذه الجملة إيذاناً بالدليل على صحَّة البعث الذي تضمَّنه ما سبق من الوعد والوعيد وغيره، وأتى بها في سياق التطوير الذي تابعه بقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي: بالماء المُنزل ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: أصنافُه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يتمّ جفافه ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خُضْرَته ونَضْرته، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتاً متكسِّراً.

وهذه التطوُّرات انتهت بخفاء النبات، ثم يعيدُه سبحانه وتعالى في زمن إعادته بإنزال السحاب، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ يتذكَّرون بهذا التطوير ويُدرِكون به قدرة الله على تطوير الإنسان من الحياة إلى الموت، ثم إلى الإعادة والحشر، ويتذكَّرون أنَّ حال الحياة الدنيا في سرعة التقضِّي والانصرام كما يشاهدون من حال هذا الحطام كلَّ عام، فلا يغترُّون ببهجتها، ولا يفتنون بفتنتها. فقد ذكر في الآيات المتقدِّمة ما يُرغِّب في الآخرة، وفي هذه الآية ما يُزهِّد في الدنيا ويشير إلى صحَّة البعث الذي تضمَّنه السياق، ويُلمِحُ بأنه طَوْرٌ من أطوار الإنسان التي يَتطوَّرها كما يتطوَّر هذا الزَّرْع. والله أعلم.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ساق على وجه التعليل لما سبق والتفريع عليه من مصير المؤمنين ومصير الكافرين قولَه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ بمحافظته على سلامة فطرته ونور بصيرته، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يسير به في طريق الفلاح، كمَنْ هو ليس كذلك. وقد أقام مقام هذا الخبر المحذوف قولَه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذين أفسدوا فِطَرَهم ودسَّوا نفوسَهم، فمالوا إلى الباطل، وقَسَتْ قلوبُهم عن معرفة الله حقَّ معرفته، وقَبولِ ما أمر به، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم ذكر النور العظيم الذي أنزله للبشر، فانشرح له صَدْرُ مَنْ لم يُفسِد فطرتَه بمفاسد التربية والقدوة السيئة والتقليد الأعمى، فتدبَّره وعَلِمَ عِظَم شأنه وقيمة إرشاده إلى سَعادة الدارَيْن، فقبله وعمل بما فيه، وقسا له قلبُ مَنْ أفسد فطرتَه ودسَّى نفسه، فأعرض عنه وضلَّ ضلالاً بعيداً، فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو هذا القرآن الذي به سَعادة الدارَيْن.

نزَّله ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ أي: يُشبِهُ بعضُه بعضاً، حيث يدورُ حول غَرَض واحد، وهو الهداية إلى الصِّراط المستقيم، الذي أشار إليه في فاتحته، ويُصدِّق بعضُه بعضاً، ويُثنَّى ويُكرَّر فيه البيانُ على الغرض الواحد بألوان من الأساليب والتراكيب والحُجج والبيِّنات؛ لأنَّ ذلك أدعى لتقريره في النفوس وتثبيته في العقول، فيَذكُرُ الأمر بالشيء ويُردِفُه بالنَّهي عن ضدِّه، والعكس، ويجمع بيان حال المؤمن والكافر ومصيرهما؛ لأنَّ الضدَّ يُظهِرُ شأنَه الضِّدُّ، ويُصرِّح بما فُهِمَ ضمناً من جملة أو جملٍ سابقة، ويحقِّق بعد التمهيد، ويُصرِّح بعد التنبيه، ويفصِّل بعد الإجمال، ويُجْمِلُ بعد التفصيل، ويُكرِّر قَصَصَ الأنبياء كلَّما اقتضى السياقُ ذِكرَ قطعة منها، ويكون بأسلوب مُؤتلف معه، ويُكرِّر دلائل القدرة والمنَّة من خلق السماوات والأرض وما بينهما، وما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض من النِّعم والفواضل، كلَّما اقتضت المناسبة ذلك، ولا سيما إذا كان السياق في

توحيد الله وانفراده باستحقاق الألوهيَّة، وأنه يذكر الأصول الثلاثة: التوحيد والحشر والرسالة كلما انساق إليها البحث، فيذكرها مُدمجَةً في طيَّات المباحث، ويُبرهِنُ عليها بالبراهين المثبتة، ويكرِّرها ويُثنِّيها بأنواع من الأساليب، وألوان من البراهين والتراكيب، ترى ذلك كثيراً جداً في ثنايا القرآن، لا تخلو منه سورة فيما أظنُّ ولا موضوع ولا بيان، فبهذا كان كتاباً متشابهاً مثاني، ويذكر الجنة والنار وما فيهما، ومَنْ يستحق كلًّا منهما كلما اقتضى السياق ذلك، وهكذا تثنَّى البيانات المتشابهة وأسس الإيمان الخمسة، وتتوالى في أسلوب هذا القرآن الخطابي، ولهذا كان كتاباً متشابهاً مثاني[1].

ثم ذكر قوَّة تأثيره على النفوس السليمة، فقال: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ أي: تتقبَّض تقبُّضاً شديداً من شدَّة الخوف ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إذا سمعوا وعيدَه، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إذا سمعوا ما فيه من الوعد بالثواب والرحمة للمؤمنين، وتطمئنُّ نفوسُهم بذلك. وتعديةُ الفعل بـ«إلى» لتضمُّنه معنى الاطمئنان.

ثم ختم البيان عن شأن هذا القرآن، بالبيان عمَّن يحافظ على سلامة طبيعته واستعداده الفطري لقَبول الهداية والنظر الصحيح، ومَنْ يُفسِدُ عليه ذلك الاستعدادَ بمفاسد التربية وسوء التقليد، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكتاب ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي لم يحرِّف طبيعتَه ولم يَطمِسْ نورَ بصيرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فيرى ما فيه من شواهد الحق والحقيقة، ودلائل كونه من عند الله.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بحسب سُنَّته العامة في فطرة الإنسان إذا حرَّف طبيعتَه وأعمى بصيرتَه بمفاسد التربية وسُوء العشرة، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ أي: لا تُمكِنُ

---

(١) والمثاني: جمع مثناة، أي: مَطويّات بين جُمَله، وبين أجزاء الجملة منه، هي محذوفاتٌ لفظاً تُدرَكُ عن طريق الدلالات اللفظيّة، واللوازم الفِكريّة، وذلك من الإعجاز الإيجازيِّ في القرآن.

هدايتُه أبداً. وهو هو السرُّ في جمود هؤلاء الكفار على كفرهم، وإعراضهم عن هذا القرآن المبين وهدايته، رغماً عن وضوحه وجلائه، إذ قد مَضَت سُنَّة الله العامَّة في طبيعة الإنسان إذا تشبَّع بالضلال فإنه يَفقِدُ الاستعدادَ الطبيعيَّ للهداية، ولا يراها جديرةً بالنظر والتفكير، وبمقتضى سُنَّة الله في خِلْقةِ الإنسان ينسب الإضلال والهداية إلى الله تعالى، في نهج القرآن.

ثم أجمل النتيجة بالفرق بين مصير المؤمن والكافر على طريقة المفارقة، وذلك لمزيد من الإيقاظ، فقال: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لكفره وسُوءِ عمله، كمَنْ هو آمِنٌ منه لإيمانه وصالح عمله. وهذا المقابلُ محذوفٌ على طريقة إيجاز القرآن[1].

وإنما ذكر الوَجْهَ؛ لأنه أعزُّ أعضاء الإنسان، والاتِّقاءُ بالوجه ينمُّ عن الاستسلام وعدم المقاومة.

وعلَّق البخاري عن مجاهد: أن معنى: ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: يُجَرُّ على وجهه في النار[2]. وعن عطاء: أنه يُلقَى في النار منكوساً، فأول عضو تمسّه النار وجهُه.

ثم عطف على قوله: ﴿يَتَّقِي﴾ قولَه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: ويُقالُ لهم ذلك من خَزَنةِ النار، زيادةً في تأنيبهم وتنديمهم وتحسيسهم بأنَّ سوء تصرُّفهم في طبائعهم هو الذي جَرَّ عليهم هذا الوبال، لأنهم محَقوا هدايتَهم الطبيعيَّة،

---

(١) أو المعنى ـ وهو ما رجَّحتُه في تفسيري «المعين» ص٤٦١ ـ: «أفمَنْ يتَّقي في الدنيا ـ بوجهه الذي يُوجِّهه للذي فَطَر السماواتِ والأرض حنيفاً مسلماً ـ شدّةَ العذاب يوم القيامة؛ بعيداً عن كلِّ شِركٍ بربوبيّته وإلهيّته، كمَنْ كان من الظالمين من دَرَكة الكفر؟ وتقول خَزَنةُ جهنّم للظالمين عند إلقائهم في جهنّم: لامِسوا وأحسُّوا عذابَ ما كنتُم تكسبون في الدنيا مِن ظُلم هو من دَرَكَة الكفر، تستحقُّون عليه الخلود في النار».

(٢) ذكره البخاري معلقاً مجزوماً به، قبل الحديث (٤٨١٠).

وأصبحوا لا يُفرِّقون بين الحقِّ والباطل، والهُدى والضلال. وإنما عطف الماضي على المضارع؛ لأنه أُريدَ به مجرَّد الحَدَث دون الزمان، على أساليب اللغة. وقد وضع الظاهر موضع المُضْمَر للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بالسبب الموجب.

ثم بيَّن ما أصاب أمثالَهم من العذاب في الأمم السابقة، تهديداً لهم بمثله، فقال: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم فصَّل أثره عليهم بقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ثم بيَّن أن هذا الخِزْيَ ـ على شدَّته وسُوء أثره ـ ليس بشيءٍ في جانب ما سيصيبهم من عذاب الآخرة، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ تعاليم الله تعالى في شرائعه والعمل بها هو الكفيلُ بسعادة الدارين.

ثم ختم السياقَ بالتنبيه إلى عِظَم ما سَبَق فيه من البيان، وجلال شأنه، ووضوح تبيانه، وجَعَل ذلك حُجَّةً عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: نوَّعنا لهم أساليبَ البيان ولوَّنَّا تصاريفَ الكلام؛ لتقليب وجوه العِبَر ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فيُدرِكون ما به سعادتُهم وما به شقاؤهم، ولا سيما أحوال الآخرة، فيتَّبعون ما يؤدِّي بهم إلى سعادتها دون شقائها.

ثم أضاف إلى ما ذكرَ من أسباب العِلم والدراية فيه كونَه باللغة العربية المتوفَّر فيها وضوحُ البيان واستقامتُه، فقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي: فصيحاً واضحاً لا خَلَلَ فيه ولا غموضَ بوجهٍ من الوجوه.

ثم ذكر الغاية من ذلك، فقال: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: يحذرون ما يؤدِّي إلى الشقاء في الحياتين.

وفي الآية تنويهٌ بشأن اللغة العربية؛ لأنَّ فيها ـ من أسرار الكلام ودقائقه، وتفوُّقه

في أساليبه ومعانيه، والتمكُّن من التعبير عن أدقِّ الأغراض والمقاصد، والتوضيح لأبعد الأهداف والمآرب، مع السهولة والسلاسة ـ ما تمتاز به عن سائر اللغات، وتَصلُحُ أن تكون بياناً لتعاليم الله للبشر بهذه الآيات، وليس غيرها من اللغات بقادرٍ على أداء أغراض القرآن. وقد شهد لها بذلك أعاظمُ فحول البلغاء والعلماء من عَرَب وعَجَم، وهاك قول الأستاذ بورد الألماني حيث يقول: «إن اللغة العربية ـ بما حَوَتْ من كثرةٍ في المفردات، ووَفْرةٍ في صور التعبير، وبما في طبيعتها من قَبول للاشتقاق والتحوير ـ خليقةٌ أن تَتبوَّأ مكاناً عظيماً بين لغات العالم. ولو قارنَّاها باللغة اللاتينية في قلَّة مرونتها، وباللغة الفارسية في فرط إسهابها، لوجدناها تمتاز عليهما، ولا سيما بما فيها من صور كلامية قصيرة تدلُّ على المعاني المجرَّدة. وهذه خاصَّة عظيمة النفع في إفادة الأغراض والمآرب وممارسة العلوم والفنون، فنحن نستطيع بهذه اللغة أن نُعبِّر عن أدقِّ الفروق بين المعاني». انتهى.

أقول: ولذلك اختارها سبحانه وتعالى أن تكون لغةَ القرآن، ونوَّه بها في هذا الشأن؛ لأنَّ القرآن أُنزِلَ للبشر أجمعين، وأن يكونَ شريعةً للعالمين إلى يوم الدين، فكانت لغته عالمية، كما هو للعالمين؛ لأنَّ حكم الوسائل حكم المقاصد.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

ثم ضَرَبَ سبحانه مَثَلاً للكافر وعبادته الأصنام واعتقاده بتَعَدُّد الآلهة، مقارناً لهذه العقيدة بعقيدة المؤمن الـمُوحِّد، وما بينهما من حِطَّة الأولى وفسادها، ورِفْعةِ الثانية وصلاحها، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: مختلفون سيِّئوا الأخلاق متنازعون لا يرضون بالحق والإنصاف، ويريد كلُّ واحد منهم أن يُفرِدَهُ بالخدمة، ثم يَكِلُ كلٌّ منهم أمْرَه المعاشي إلى الآخر، فهذا مَثَلُ الكافر الذي يعبد آلهة متعدِّدين، وقد بنى المثل على فرض أنَّ لهم من الأمر شيئاً.

ثم ضرب سبحانه مَثَلَ المؤمن الموحِّد، فقال: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً له، فهو يخدم مالكه لا يَشُوبُ بخدمته خدمةَ غيره ولا يأمل سواه، ومن كان بهذه الصفة نالَ ثمرة خدمته، لا سيما إذا كان المخدوم حكيماً قادراً كريماً.

ومُلخَّص وجه الشبه: تَشَتُّتُ شَمْل الأول وضياعُه وحَيْرتُه، واجتماعُ شَمْل الثاني واتِّجاهُه جهةً مستقيمة بكل هدوء وارتياح، وحصولُه على النعيم والرفاه. وقد ألمع إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ وهذا الاستفهام لإنكار استوائهما واستبعاده، ونفيٌ له على أبلغ الوجوه، وإيذانٌ بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يمكن إنكارُه.

ثم أردَفَ الإنكار بالتقرير، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المحمود في كل شيء، ولا سيما في البيان والتنبيه والإيقاظ، وهو المستحقُّ وحدَه لأن يُعْبَد لأنه هو المستحق وحدَه لأن يُحْمَد؛ لنِعَمِهِ العظيمة التي لا يُحصيها العَدّ، وآثارِهِ الواسعة التي لا تُحَدُّ بحدّ.

ثم أضرب عن ذلك إلى بيان جَهْلِهم، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾، لأنَّ مفاسد التربية قد أبعَدَت عقولَهم عن النظر الصحيح، ونفوسَهم عن الميل إلى الحق الصريح.

وبعد أن ذكر هذا المَثَلَ لتهجين أمرهم وتسخيف عقولهم، هدَّدهم سبحانه بأن الجميع سيَرجعون إليه للحساب، فيقيم الحُجَّة عليهم، فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ بأن تحتجَّ عليهم بتبليغ الرسالة، ويعتذرون عن عدم القَبول بما لا طائل تحته، وتأباه العقول.

ثم بالغ في وعيدهم والنَّعي عليهم ضمنَ هذا الاحتجاج العام الذي علّق به على السياق، وجعله كالنتيجة للخصام والإلزام، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بإسنادِ ما لا يليقُ به من الشريك وغيره، وله تعالى ما قد عَلِمتَ من الأعمال الجليلة، والآثار الجميلة، والقدرة البالغة، والحُجَّة الدامغة، فتَعامى عن كلِّ ذلك ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ في هذا القرآن.

ثم قَرَنَ الاحتجاج بأبلغ صُوَرِ الحكم، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾؟ وهذا الاستفهام لبيانِ الوعيد بأبلغ الوجوه، كأنَّ ذلك معروف لديهم؛ لجلائه ووضوحه بما جاءهم عنه في هذا القرآن العظيم.

ثم قابل مصيرَ المكذِّبين بمصير المصدِّقين، فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، وهم رسولُ الله ومَنْ تَبِعَه، أو: الرسلُ والمؤمنون بهم، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ لمثوى جهنَّم والآمِنون منها، ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر، و﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه أنه يكفِّر عنهم ما كان عليهم من سيِّئات، ويثيبُهم بما صار لهم من

حسنات، أو يمحو ما عليهم من سيِّئات ويُثْبِتُ ما لهم من حسنات، تتمةً لمنَّته العُظمى فيهم، فقال: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ قال مقاتل: أي: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم، ولا يجزيهم بالمساوي[1].

أقول: يحتمل أن يُجعَلَ مقياسُ الثواب أحسَنَ الأعمال. والله أعلم[2].

ثم وَصَل السياقَ بما يقوِّي عزيمتَه ﷺ ضدَّ المكذِّبين المعارضين، ويَتوعَّدهم بنَصْره عليهم، وجعل الكلام تعليلاً لِـمَا قبله تمهيداً لِـمَا بعده على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؟ يعني: النَّبيَّ ﷺ، مع احتمال أن يكون عاماً. وقد صاغ العبارة بصيغةٍ تَتَضمَّن أنَّ الكفاية من التحقُّق والظهور بحيث لا يمكنُ إنكارُها ويعلمُها كلُّ أحد. وهذه الصيغة متناسقة في هذه السورة.

ثم أردف ذلك بمهزلة من سخافاتهم، ربطها بما قبلها للمناسبة، فقال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهم الأوثان الذين لا حَوْل لهم ولا طَوْل؛ إذ كانت قريشٌ تقول لرسول الله ﷺ: إنا نخاف عليك أن تُخبِّلك آلهتُنا بعَيْبك إيَّاها. فعجَّبه سبحانه من سخافتهم وأوهامهم المُضْحِكة، فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: بحسب سُنَّته العامة فيمن أفسد فطرته بمفاسد التربية وسوء التقليد ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾،

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٦: ٤٥٦).

(٢) معنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين» ص٤٦٢ ـ: «يخصُّ الله المُحسِنين بجزاءٍ فوق ما يتصوّرون، ويُخرجُهم من ضمن الموضوعين للمُحاسَبة على أعمالهم؛ ليَستُرَ اللهُ عليهم أسوأ الذي عملوا في الدنيا من الأعمال، فما دونه من باب أَوْلى، وليَجزيَهم أجرَهم على كلِّ الصالحات من أعمالهم، بجزاءٍ يُساوي الجزاءَ المُقرَّر لأحسَنِ الذي كانوا يعملون من أعمالٍ صالحةٍ يَتقرَّبون بها إلى الله؛ لأنهم كانوا مُحسِنين في الدنيا».

لأنَّ الإنسان، إذا دَرِبَ على الضلال انطبع عليه ولعبت بعقله الخرافات، فإذا وصل إلى سَمْعه قولٌ مخالفٌ لِـمَا انطبع عليه مما هو دينٌ له أو عادةٌ لا يتدبّره ولا يراه جديراً بالنظر والتفكير، ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بحسب سُنَّته العامة فيمن حافظ على سلامة فطرته واستعداده الطبيعي للنظر الصحيح، فأجاب الحق حيث دعاه وانطبع عليه، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي: لا أحد يقدر أن يُضِلَّه ويَعبَثَ بعقله بالأوهام أبداً.

ثم ردَّ عليهم التهديد والتخويف، فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾، فهو المرهوبُ الجانب أم أصنامهم؟! خابوا وخسروا، ولكنهم ضالُّون لا يهتدون. والنقمة: هي السطوة والعقوبة، وقد يستعمل الانتقام في عُرْف التخاطب بمعنى التَّشفِّي بالعقوبة، وهو بهذا المعنى مُحالٌ على الله. وقد صاغ الجملة بصيغة تتضمَّن أن ذلك من الظهور بحيث لا يمكنُ إنكاره.

وبعد أن سفَّه رأيهم في ذلك التخويف ببيان ضلالهم، والإلماع إلى جَهَالتهم وسخافتهم، ردَّ عليهم بما لا يُمكنُهم أن يكابروا فيه من قدرة الله البالغة، ومهانة شركائهم الظاهرة، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولا ينكرون ذلك.

فأمَرَه أن يُبكِّتهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ ونَفْع ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟

وبعد هذا الإلزام بإثبات قدرة الله العليَّة، ومَهانة شركائهم الدنيَّة، أمَرَه بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهم؛ رداً لسخافة تخويفهم لك: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ في جميع أُموري من إصابة الخير ودفع الشر ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ إذ كلُّ ما سواه تحت ملكوته وسلطانه تعالى[1].

---

(١) معنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين» ص٤٦٢ ـ: «ولئنْ سألتَ ـ يا رسول الله ـ هؤلاء المشركين: =

وبعد هذه الردود المنطقية الوجدانية، أمَرَه أن يُجيبَهم بما فيها استهانةٌ واستخفافٌ بهم وتوعُّد لهم، فقال: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على مُكْنَتِكم ومَقْدرتكم، ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ في نشر دعوتي، ماضٍ في سبيلي، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: مستمرٌّ دائم. وهذا جوابٌ مقابلٌ لتخويفهم له.

ثم عقَّب السياقَ بهذا التقرير العام المنطوي على وعد المهتدين ووعيد الضَّالِّين، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ به ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ هدايتُه وما يَنجُمُ عنها من نفع وثواب، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: على نفسه، بمعنى: أنَّ وبالَه لا يَتخطَّاها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ وفي هذا تحديدٌ للنبوَّة مطويٌّ على التَّسْلية والتهوين.

= مَنْ خَلَق السماواتِ والأرض؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَهُنَّ الله، فإنكم ـ أيها المشركون ـ تؤمنون بأنَّ الله هو الذي خلق السماواتِ والأرض، ولا تجعلون له شركاءَ في هذا القسم من أقسام ربوبيّته، لكنكم بالنسبة إلى أحوال الناس تجعلون لله شركاءَ في ربوبيّته، كقضايا الرزق، والذُّرِّيّة، والنصر على الأعداء.

قل لهم ـ يا رسول الله ـ: أفتفكَّرتُم تفكيراً سديداً بأناةٍ وتعمُّق، حتى أدركتُم إدراكاً علمياً يشبهُ الرؤية البصريّة: ما تعبدون من دون الله بعباداتٍ مُختلفات، وفي مُقدِّمتها الدعاء لتحقيق المطالب والرَّغَبات، فإن توصَّلتُم إلى أنَّ لهم ربوبيّةً ما في الكون، فأخبِروني ـ إنْ أرادني الله مُصاباً بشدّةٍ وبلاء ـ: هل تستطيعُ آلهتُكم أن تكشفَ عني ما أنزل بي من ضُرٍّ؟! أو أرادني مَمْسوساً بنعمةٍ وخير وبركة: هل تستطيعُ آلهتكم أن تُمسِكَ رحمةَ الله فتمنعها عني؟!

قل لهم ـ يا رسول الله ـ: اللهُ كافٍ لي عن كلِّ ما سواه في جميع أموري، من إصابة الخير، ودَفْع الشرّ، هو ثقتي، وعليه اعتمادي، عليه وحده يتوكَّلُ المتوكِّلون، ويُفوِّضون أمورَهم إليه، ويعتمدون بقلوبهم عليه، مع قيامهم بالأسباب الكونيّة».

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَٰبَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

وبعد أن قرَّر التوحيد قرَّر الحشرَ بكلامٍ دليلُه منه، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ ﴾ يتوفَّاها ﴿ فِى مَنَامِهَا ﴾ أي: في نومها. ومعنى «يتوفَّاها»: يستردُّها كاملةً لا يفقدُ منها شيء، وهو كنايةٌ عن فِراقِ الروح للجسم مؤقتاً أثناء النوم، وهي جسمٌ لطيف مستقلٌّ تنفكُّ عن الجسم الكثيف عند النوم، وتعود إليه بسرعة عند اليقظة. والله أعلم.

فقرَّر التقارُبَ بين حقيقة الموت وحقيقة النوم بقوله: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ إلى أجل معيَّن عام، يبعث فيه جميع الأرواح، وهو يوم البعث، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ تتردَّد هكذا في البَدَن بين النوم واليقظة، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لها، يُمسِكُها فيه

إلى حلول الأجل العام؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فيدركون التقارب بين الحقيقتَيْن، كما قال ﷺ: «إنكم لَتَمُوتُنَّ كما تنامون، ولتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون، ولَتُجزَوُنَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً»(١).

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: في بني آدم نفسٌ وروحٌ بينهما مِثلُ شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النَّفَسُ والتحرُّك. فإذا نام قبض الله نفسَه ولم يقبض روحَه، وإذا مات قبض الله نفسَه وروحَه معاً(٢).

أقول: والظاهر أنه يعني بالنفس: حقيقةَ الروح، وبالروح: ما يُسمَّى بالحياة. وعلى هذا التعبير يجري المتكلِّمون في حقيقة النفس، وقد أطلق القرآن في عدَّة مواضع لفظة «النفس» على الروح المرادة في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥](٣).

---

(١) سبق تخريجه (٣: ٣٢٠).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥: ٢٦١).

(٣) تأتي في القرآن الكريم كلمة (الروح)، وكلمة (النفس)، والمراد بهما ـ والله أعلم ـ واحد بالذات، وإن اختلفتا بالاعتبار؛ إذ المراد بالروح: ذاتُها المجرَّدة وحقيقتُها الراهنة، والمراد بالنفس: الروح من حيث هي متعلقة بالبدن وموضع للاستعدادَيْن؛ الخيرِ والشرِّ، وتتكيَّف بما يعرضها به صاحبها منهما، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [الطور: ٢١]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧

وبعد أن ذكر عظمةَ قدرته تعالى في أمر الروح وقَبْضها وإرسالها، تلك القدرة التي يستحقُّ بها أن يكون هو الإله، وأن يُعبَدَ وحده دون سواه، قال مُنكِراً عليهم، ومُقرِّعاً لهم: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾، وهذا معطوف على محذوف، على نهج إيجاز القرآن، يُعرَفُ تقديرُه من سياق الكلام، وهو: أَعَبَدوا هذا الإلهَ وحده الذي يفعل بالأنفس هذا الفِعلَ العظيم، أم اتَّخَذُوا من دونه شركاء شفعاء؟ ويجوز أن تكون ﴿أَمِ﴾ بمعنى: بل، والتقدير: إنهم لم يخصُّوا هذا الإله الذي يفعل هذا بالأنفس، ولم يُفرِدوه بالعبادة والألوهية، بل اتَّخذوا من دونه شفعاءَ يستعينون بهم ويعتمدون عليهم، أو يتوسَّطون لهم عند الله.

ثم بكَّتهم بقوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾؟! أي: أيتَّخذونهم لـهم شفعاءَ عند الله ويستعينون بهم، ولو كانوا لا يملكون شيئاً، بل لا يعقلون؟!

ثم قرَّر الحق في أمر الشفاعة، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: لا يملك أحدٌ الشفاعةَ لديه[1] فَضْلاً عن هؤلاء، فإنَّ له وحدَه مُلكُ الإنجاء والإسعاد والإشقاء، إذ

= وقد تأتي كلمة «النفس» بمعنى مجرَّد الذات، مثل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠]، ﴿مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣]، ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤].

وقد تستعمل لفظ «الروح» بمعنى الحياة، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن النفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النفس والتحريك. وبهذا المعنى تُنسَبُ لما عدا الإنسان من الحيوانات، فيقال لها: ذوات الأرواح، أي: ذوات الحياة التي بها النفس والتحريك. وليس في الحيوانات السائرة أرواح بمعنى الأنفس التي بالإنسان، والله أعلم.

والتعبير بالروح عن الحياة يجري في عُرْف التخاطب بين الناس. (المؤلف).

(١) إلا من أذن له في ذلك، كما دلَّت عليه آيات أخرى، كقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ=

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾، فيُجازي كلاً بعمله، على وَجْه الحقِّ والعدل، بلا هوادة ولا محاباة.

ثم ذكر قوَّة انطباع نفوسهم على الشِّرك، فقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: انقبضت وامتلأت غماً وغيظاً، حتى يتقبَّض من جرَّاء ذلك أديمُ الوجوه، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: الشركاء والأصنام، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: تمتلئ قلوبُهم سروراً وفرحاً، حتى تنبسطَ له بِشْرةُ وجوههم؛ لأنهم يعقدون عليهم آمالاً كبيرةً، واعتماداً راسخاً.

وفي تعقيب السياق السابق الذي بيَّن فيه الحقيقة عن الله تعالى وعظمته، ببيان هذه النزعة القبيحة فيهم والعقيدة السخيفة لهم، تشنيعٌ فظيعٌ عليهم، بشدَّة جَهَالتهم في اعتمادهم على هؤلاء الشُّركاء، وإعراضهم عن الله العليِّ القدير. خابوا وخسروا.

ثم أمر سبحانه نبيَّه ﷺ بأن يلتجئ إليه بالدعاء إذا ضَجِرَت نفسُه من عِنادهم وشدَّة معارضتهم، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ من أمر الأديان واختلاقهم لها.

ثمَّ توعَّدهم بحالهم السَّيِّئ العصيب في الآخرة، مُؤْذِناً ببالغ شدَّته، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الأموال والذخائر ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهذا تصويرٌ لشدَّة هَوْل ما يُلاقون، وعِظَم قُنوطِهم من خَلاصِهم. والمعنى: لو فُرِضَ أنهم يملكون ما على الأرض جميعاً لسَمَحت نفوسُهم أن يبذلوه كلَّه في سبيل خلاصهم من ذلك العذاب الشديد، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ظَهَرَ

= أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

لهم يومئذٍ من عذاب الله، ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ما لم يكن في حُسْبانهم. وهذه الآية في التوعُّد للكافرين مقابلةٌ لقوله تعالى في الوعد للمؤمنين: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢] وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: ظهر لهم يومئذ أنهم كانوا في الدنيا على عَمل خاطئٍ سيِّئٍ قبيح، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ من الحساب والعذاب الذي كانوا يُتَوَعَّدون به فيهزؤون ويسخرون.

ثم ردَّ على الذين تشمئزُّ قلوبُهم لذِكرِ الله من مشركي قريش، ردَّ عليهم تناقضَهم في اشمئزازِهم منه، ثم اعتمادِهم عليه وحدَه عند الشدائد، وكذلك ما يقولُونَه من أنَّ ما حَصَلوا عليه من المال والخَوَلِ[1] إنما هو أمر اكتسبوه بمُجرَّد درايتهم، أو ما يعتقدونه من أنَّ إنعامَ الله عليهم دليلٌ على صحَّة دينهم في الإشراك بالله، مع أنهم يشعرون بالتوحيد بفطرتهم عند الشدائد، ولا يلجؤون إلا إلى الله سبحانه وتعالى، لانطباعهم عليه خَلْقاً وتكويناً. فقد ألمع إلى ذلك كلِّه ضمنَ هذا البيان العام الدالِّ على الغريزة الدينية، وهي شعور الإنسان بالتوحيد فطرةً، وقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: توجَّه إلينا وحدنا لشعوره بطبعه وفطرته أنْ لا مُنجِيَ إلا الله، يشعر بذلك كلُّ أحد، حتى مثل هؤلاء الذين تشمئزُّ قلوبهم من ذكر الله، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي: أعطيناه ما يختالُ به ويَتَباهى من النِّعَم الجليلة ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منِّي بوجوه كَسْبه.

وهل يُجْدي العِلمُ نفعاً في البواخر والزرع لو لم تكن في الماء مثلاً قوة العَوْم، وفي الأرض قوة الإنبات؟ وهل يزيد العِلمُ عن أن يكون اكتشافاً لتلك السُّنَن والأسباب؟

---

(١) الخَوَل: ما أعطى الله تعالى الإنسانَ من العبيد والخدم. «لسان العرب» (خول).

ولذلك تمجَّد سبحانه بقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

فأيُّ استقلال للعِلم عن سنن الله، فَضْلاً عن أنَّ الفضل لله في تعليم الإنسان ما لم يعلم، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. اللهم إني أعوذ بك من أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك ممَّا لا أعلم.

ويجوز أن يكون المعنى: إنما أُوتيتُه على عِلم منِّي بأنَّ الله يُعطيني ويُخوِّلني لرضاه عنِّي. أو: على عِلم من الله باستحقاقي ذلك، يدَّعي حقيَّة وصحَّة ما هو عليه من الشرك، ورضاء الله عنه في ذلك بدليل ما خوَّله من النِّعَم والأفضال.

فردَّ عليه بقوله: ﴿بَلْ هِىَ﴾ أي: هذه النِّعَمُ المُخوَّلة ﴿فِتْنَةٌ﴾ لكم يظهر بها ما تمكَّن في نفوسكم من الشرك، لأنَّ الله سبحانه يبتلي ويختبر بالنِّعم، كما يختبر بالنِّقم، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثرَ الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ذلك.

ثم ألزَمَهم في كذب اعتقادهم هذا بما جَرَى على أمثالهم من عذاب الاستئصال، وقد كانوا أغنياءَ مِثلَهم، واعتقدوا مِثلَ اعتقادهم، واستدلوا كاستدلالهم، فقال: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أي: هذه المقالةَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كفروا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾، قالوا: لو لم نكن على الحق لم يُخوِّلنا الله بهذه النِّعم، وقد أخذهم الله بعذاب الاستئصال ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ مما خوَّلهم الله به من نعيم الدنيا، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ واقترفوا من الكفر والإجرام، ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسَهم ﴿مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين من قريش، ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ لنا، أي: بفائتين من عذابنا ومُنفلِتينَ منه.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الرزق لا مَدخَلَ للإيمان والكفر فيه، وإنما هو يجري على الأسباب الطبيعيَّة والسنن الكونيَّة[١]، فمن تمسَّك بها حصل عليه ولو كان كافراً. وصدَّر هذا البيان بصيغة الظهور، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢] وهو الذي يتمسَّك بأسبابه على وجهها الطبيعي الصحيح، ولو كان كافراً، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على من يُهمِلُ ذلك، ولو كان مؤمناً. ولا دَخْلَ للإيمان والكفر في الأمر.

ثم ختم البحث بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ ومواعِظَ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ لأنَّ الإيمان يُنمِّي فيهم الاستعداد الفطريَّ للنظر الصحيح، والفِكر السديد.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ

---

(١) انظر تعقُّب هذا الإطلاق فيما تقدَّم تعليقاً عند تفسير الآية ٣٦ من سورة سبأ.

(٢) إن الله لم يجعل نظام رزق الإنسان كنظام رزق الحيوان، فردياً في السعي إليه والحصول عليه، بل جعل نظام رزق الإنسان اجتماعياً، لا يتمُّ إلا بتعاون الأفراد. أما اختصاص كل واحد بمهنة من تلك الحاجيات، فمبنيٌّ على الميل ودرجة العزم ونوع التثقيف وغير ذلك. وهذا النظام يجعل التفاضل في الرزق أمراً طبيعياً، إذ يكون فيه التاجر والزارع والعامل والصانع، على اختلاف في المراتب، ومنهم الغني والفقير، والأمير والمأمور، والجليل والحقير، نتيجةً لميل الإنسان وسعيه، ومقدار نشاطه. فإسناد التفضيل إلى الله سبحانه باعتبار هذا النظام، لا باعتبار الشخص الواحد وأحواله، والله أعلم. ويؤيد هذا الرأي قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]. فقد جعل الحرث وإرادته سبباً للإيتاء ومهيأ لما يرومه الإنسان. والله أعلم. (المؤلف).

حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وبعد الرد والوعيد فتَحَ لهم باب التوبة، على نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلى الهدى والرَّشاد، فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إذ أفسدوا عليها أمْرَها بمفاسد التقليد الأعمى، عُودوا بها إلى التَّبصُّر، وآمِنوا بما جاء من عند الله، و﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن تاب وآمَنَ وأناب إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾، وقد جاء عنه ﷺ: «لَلَّهُ أفْرَحُ بتوبة عَبْده من العقيم الوالد، والضَّالِّ الواجد، والظمآن الوارد»[1].

ثم قَرَنَ الترغيب بالترهيب، على نهج القرآن، وبيَّن طريق التلافي والرجوع إلى الله، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: لا تُنقَذون منه ولا تَفلِتون، ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو هذا القرآن، فهو أحسن الكتب السماوية بياناً، أنزله الله للبشر، وقد نضج عقلُه المكتسب، فصَلَحَ لإدراك ما تضمَّنه هذا القرآن من المنطق العقلي والوجداني في الدليل والبرهان على مصير الإنسان وما يُصلِحُ أحوالَه في الدارَيْن معاً، فاتَّبعوه واعملوا بتعاليمه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم ذكر وَجْهَ الإعذار في إنزال هذا الكتاب والدعوة إليه، ونَدَمَ المُعْرِضِ عنه يوم القيامة، ضِمنَ إيقافه عمَّا سيكون من أمره، فقال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتابَ الموصوف بهذه الصفة، وأوقفناكم على جَلِيَّة الأمر لمعاذير ثلاثة:

---

(١) سبق تخريجه (٣: ٣١).

الأولى: أن تقولَ نفسٌ ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: وإنْ كنتُ لمن المستهزئين بذلك وغير المصدِّقين به. ومحلُّ ﴿وَإِن كُنتُ﴾: النصبُ على الحالية، أي: فرَّطتُ وأنا ساخرة بالمتمسِّكين به هازئة بهم؛ تُظهِرُ شدَّة الندم على فعلها هذا.

ثم ذكر المعذرة الثانية، فقال: ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ بإنزال كتاب في ذلك ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر المعذرة الثالثة، فقال: ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي: رَجْعةً إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ممَّن يعملون بالحُسْنى بعد أن علمت ما علمت. فهو يتحسَّر على التفريط أولاً، ثم يتعلَّل ـ لو لم ينزل عليه هذا الكتاب ـ بفَقْدِ الهداية ثانياً، ثم يتمنَّى الرجعة ثالثاً.

ولما كانت هذه المعاذير الثلاث تندفع وتنقطع بما أُنزِلَ عليهم من هذا الكتاب الهادي إلى الرشاد والداعي إليه، كرَّر الكلام عنه بصيغة الردّ، فقال: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ عنها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾[1].

ويجوز أن يكون هذا جواباً للمعذرة الثانية فقط، ولم يُجِبْ عن الأولى والثالثة؛ لأنَّ جوابهما السكوتُ وعَدَمُ الجواب.

---

(١) في هذه الآية المعذرة الرابعة، وهي مطويّةٌ دلَّ عليها الجواب، ومعنى الآية: والسببُ الرابع في إنزال الكتب وبعثة الرسول: زَجْرُ أن تقولَ يوم القيامة نفسٌ كَفَرَت في الحياة الدنيا، بادِّعاءٍ كاذب وَقِح: يا ربِّ لم تأتِني آياتٌ من عندك، ولو جاءتني لآمنتُ بها وكنتُ من المتَّقين. أعذارُك زائلة، وتعليلاتُك باطلة، بلى قد جاءتك آياتي، وبيَّنتُ لك سبيلَ الحقِّ من الباطل، ومكَّنتُك من اختيار الحقِّ على الباطل، ولكنْ تركتَ ذلك وضيَّعت، فكذَّبتَ بآياتي، وتكبَّرتَ عن الإيمان بها واتِّباعها، وكنتَ من الكافرين كفراً عنادياً استكباريّاً، مع وضوح الحقِّ لك بأدلته.

ثم أردَفَه بمصيرهم توعُّداً لهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه، أو أسندوا إليه من الأحكام ما لم ينزل، أو قالوا: إن له شركاءَ، تراهم و﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما يناهم من الشدَّة والشقاء. ولا يَخْفى ما في مقابلة الكذب على الله بسَوَاد الوجه من البديع، إذ قد جَرى العُرفُ بأن يُقالَ للذي ظهر كذبه: اسودَّ وجهُه.

ثم علَّل ذلك على معناه الحقيقي، بما دلَّ على أنه من تأثير نار جهنَّم، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ عن قَبول الحقِّ والإيمان. فعبَّر بهذه الصيغة التي تتضمَّن التَّحقُّق والظهور وكَوْن الأمر معروفاً ومسلَّماً به.

ثم قابل مصيرَهم بمصير المؤمنين، فقال: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ ربَّهم ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بما فازوا به ونَجَوا، وهو الإيمان بالله وحده والعمل بما جاءهم به هذا القرآن، فهم ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين. والتعبير بالمسِّ للمبالغة في نفيه حتى أقله.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا الوعد والوعيد بدليل قدرته، تحقيقاً للإنجاز، وتقريراً لاختصاصه بالألوهيَّة، فقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ والمقاليد: المفاتيح، مُفرَدُها: مِقلاد، بمعنى: مفتاح أو خزانة، من ذِكرِ الشيء وإرادة لازمه، وقد استُعملت هنا مجازاً عن الاستيلاء والتَّصرُّف، يريد أنه تعالى يَتَصرَّف فيها كيف يشاء تَصَرُّفَ صاحب الخزينة بخزينته، فهو سبحانه قادرٌ على إنجاز هذا الوعد والوعيد، والمستحقُّ وحده لأن يُعْبَد ويَتَّصف بالألوهية، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذه الدالةِ على ذلك ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ لِسَعادة الآخرة التي لا يُشابُهها سعادة.

ثم عقَّب هذا السياقَ بهذا الاستفهام التقريعي، فقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: أغيرَ هذا الإله الذي هذا شأنُه وهذه عظمتُه ﴿تَـَٔامُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾، والتنصيص بهذا الاختصاص في المحلِّ الأرفع من بلاغة التقريع والتفنيد.

ثم أردَفَ هذا بتسجيل أنَّ التوحيدَ أساسٌ في سائر الشرائع، وعليه مَدارُ صحَّة الأعمال وقَبولها عند الله، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

---

(١) الإشراك: اعتقاد أنَّ لغير الله أثراً فوق ما وهبَه الله له من الأسباب، وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خَرَج عن قدرة المخلوقين الطبيعية، وهذه العقيدة تفسد النفوس، فتفسد أعمالها وتُحبطها؛ لأن الأعمال إذا دخلها شيءٌ من هذه العقيدة لا تكون لله وحده، ولا توصل للهدف المنشود؛ لأن الإيمان الصحيح هو اعتقاد أنَّ الله سبحانه هو مالك يوم الدين، وهو الفاعل المطلق، وهو المستعان. وعلى الإنسان أن يُحسِنَ العمل، ويستكمل الأسباب، ويستعين بالواحد الوهّاب. فهذه العقيدة الواقعية الصحيحة هي التي تجعل عمل الإنسان صحيحاً واقعياً ومقبولاً لدى الحكيم العليم، فالمشركون عندما يعملون عملاً صالحاً بزعمهم حسب عقيدتهم، أو يتقرَّبون به إلى الله، فهم كمَنْ يقصد هَدَفاً يسير إليه بطريق لا توصل إليه، فعملُه حابط، وهدفُه فاشل، لا محالة. (المؤلف).

وهذا من خطاب الأمة في شخص الرئيس بمقتضى عُرْفِ التخاطب، أو من خطاب العين مراداً به الغير، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الخامسة). فهو خطاب للأمم في أشخاص أنبيائها، تنبيهاً على فظاعة أمر الشرك، حتى لو فُرِضَ وقوعُه من أقرب الناس إلى الله، لنال هذا الجزاء نَيْلاً طبيعياً[١].

ثم أضرَبَ عن ذلك مبالغةً في التقرير، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ له على إنعامه، فوَيْلٌ للكافرين الذين لم يقوموا بواجب شكره، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ فأشركوا به بعضَ مخلوقاته أو أحدَ مخلوقاته، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[٢]، وهذا تمثيلٌ لخراب هذا العالم العظيم بأمر الله في ذلك اليوم الرهيب، وهَوْنِ ذلك عليه، أي: فكيف يُسَوُّونَ به من لا يَخلُقون شيئاً وهم يُخلَقون؟ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) تقدَّم في التعليق مراراً تعقُّب هذا المعنى، وإثبات أن نَيْلَ الجزاء في الآخرة على العمل في الدنيا نَيْلٌ شرعي لا طبيعي، يعني: أنه محكوم بخبر الشريعة لا بقانون الطبيعة.

(٢) قال الزمخشري: هذا تصويرٌ لقدرة الله وعَظَمته دون الذهاب إلى جهة حقيقية أو مجاز؛ لأن العرب تُحيل المعاني إلى الذوق والأفهام.

ومذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسَه، وسمَّى بها ذاتَه في كتابه وتنزيله، وعلى لسان رسوله، من غير زيادة عليها، ولا نقصان منها، ولا تَجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، ولا سِمَات المُحْدَثين، ولا تفسير لها ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أَمَرُّوها كما جاءت، وردُّوا علمَها إلى قائلها، وفوَّضوا أمرها إلى المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه. ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء والنزول والضحك واليد والقدم والوجه والاستواء على العرش إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثباتُ الصفات وإجراؤها على ظاهرها، ونفيُ الكيفيَّة عنها، لأنَّ الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام عن الذات، وإثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كُنه وكيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات، إذ ليس كمثله شيء.

أما مذهب الخلف: فالحَمْل على المعاني المجازية والمفاهيم الكنائية. (المؤلف).

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم فصَّل القيامة والبعث والحساب وما يجري فيها، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ والصُّورُ لغةً: البوق يُنفَخُ فيه للإعلان بشيء، وقد استعار الجملة للإيذان بالقيامة والفناء لعالم الدنيا[1]. لذلك أردَفها بقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وهذا الاستثناء إما على جاري نهج القرآن في تعقيب القطعيات أو التأبيدات باستثناء المشيئة، وإما هو استثناء حقيقي لمن لا يعلمُهم إلا الله تعالى، والله أعلم. وقيل:

---

(١) لا دليل على الاستعارة هنا، بل القاعدةُ في السمعيات عند العلماء: أن ما ثبت في النص وكان ممكناً عقلاً وَجَبَ إثباتُه والقولُ به على حقيقته، ما لم يصرفه صارفٌ ـ من دليل آخر أو قرينة معتبرة ـ إلى المجاز. والحقيقة هنا ممكنة ولا صارف إلى المجاز والاستعارة، فوجب القول به على الحقيقة. ولا يخفى أن إثبات الصور على الحقيقة يعني: إثبات أنه بوق يُنفَخُ فيه، ولا يلزم من ذلك أن يكون كأبواق الدنيا.

هذا الصَّعْق صَعْقُ فَـزَعٍ، فيَسلَمُ منه من هم ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، والله أعلم.

وهذه النفخة هي القيامة وخراب العالم، أما نفخة البعث فهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾، ويُفهَمُ من كلمة ﴿ثُمَّ﴾ ومما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن بين النفختَيْن مدةً يتكوَّن فيها الجسم ويُعاد، وأن عَجْبَ الذَّنَب من الإنسان لا يَبْلى[١]، ومنه يُعادُ الجسم، وهو في أسفل العصعص.

أقول: ويجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون حكمُه حكمَ الحبَّة للنبات، يربو منه الجسم ويتكوَّن، كما تربو الكمأة داخل الأرض. والله أعلم.

وقد جاء في الحديث: «أنهم يَنبُتون كما تَنبُتُ الحِبَّةُ في حميل السَّيْل»[٢]، وفي رواية: «ثم يُنزِلُ اللهُ من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل»[٣]. وأرى أنَّ هذا التشبيه لمجرَّد التكوين، لا لكيفيَّته، والله أعلم.

وعلى كلٍّ، فهو أمر استأثر الله بعلمه، لا يمكننا أن نعلم عنه علماً تفصيلياً، ولكن يمكننا أن نُدرك مُجْمَلاً أن طبيعة زمن الحشر في إعادة جسم الإنسان من عَجْب الذنب كطبيعة الربيع في إعادة الخُضْرة من البذور[٤]. والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه (٤: ٤٢٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)، عن أبي هريرة.

(٤) الطبيعة والزمن ليس لهما أيُّ تأثير، وإنما هما سببٌ أو ظرفٌ لوقوع الأثر بقدرة الله تعالى بحسب سنته الكونية، فقد أقام الله تعالى هذا الكون على قوانين ونُظُم، أجرى فيها أفعال سبحانه مقترنة بهذه القوانين والسنن؛ تنظيمًا لحياة الناس ومعيشتهم، لكنْ ليس لهذه الأسباب والسنن سوى هذا الاقتران.

ثم ذكر ما يكون بعد البعث، فقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، ومعنى أشرقت بنور ربِّها: ظهر فيها الحق، وخفيَ الباطل، وسادَ العدل، ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ للحساب، ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ ويجوز أن يكونَ لفظُ ﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾ معطوفاً على (النبيِّين)، من عطف الصفة على الصفة لموصوف واحد، ويجوز أن يُراد به غيرُهم، كالحَفَظة، والله أعلم، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بنقص ثوابٍ أو زيادة عقاب، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ ولم يُغْفَلْ منه شيءٌ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ فلا يفوتُه شيء من أفعالهم، فيُجازيهم بالحسن حسناً وبالسُّوء سوءاً، ولا يقبل عملاً صالحاً فيه ذرَّة من رياء، إلا أن يكون عملاً خالصاً لوجهه تعالى.

ثم فصَّل ذلك الجزاء بقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ جَمْعُ زُمْرة، أي: أفواجاً متفرِّقة بعضها في إثر بعض، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعاً وتنديماً: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم أو من أُمتكم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ﴾ بنتيجة فساد التربية وسُوء القدوة اتَّبعنا إبليسَ اللعين و﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾[1] فقد قال تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، وقد كنَّا

---

(١) أي: ثَبَتَتْ علينا وتحقَّقتْ كلمةُ العذاب الربّاني السابقةُ بعذاب الكافرين في جهنّم خالدين فيها. دلَّ هذا القول على أنَّ كلَّ الذين يُحكَم عليهم بأنهم كانوا كافرين في الحياة الدنيا، وماتوا كافرين، قد تبلَّغوا رسالةَ رسولٍ منهم، من الأوَّلين والآخرين. ودلَّ أيضاً على أنَّ كلَّ رسول من رُسُل الله قد كان يتلو على أمتِه آيات مُنزَّلات من عند الله. ودلَّ كذلك على أنَّ كلَّ رسول أنبأ أمَّتَه بالآخرة ويوم الدين، وأطمَعَهم بجنّات النعيم إذا آمنوا واستجابوا لدعوة ربّهم، وحذَّرَهم وأنذرَهم عذابَ الله في جهنّم خالدين، إذا رفضوا أن يستجيبوا لدعوة ربِّهم التي بلَّغهم إيّاها رسولُه.

ممَّن تبعَه، وكذَّبنا الرسل، وقلنا: ما نزَّل الله من شيء إنْ أنتم إلا تكذبون، فحقَّت علينا كلمةُ العذاب بإفسادنا لطبيعتنا وإعراضنا عن شريعتنا، ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾[1].

وبعد أن ذكر مصير الكافرين ذكر مصير المؤمنين، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ متفاوتين حَسَب تفاوتِ مراتبهم في الفضل، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ من جميع المكاره والآلام؛ لأنكم طَهُرتُم من دَنَس المعاصي والآثام و﴿طِبۡتُمۡ﴾ نفوساً ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾، اللهمَّ اجْعَلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف؛ على نهج القرآن، وللإيذان بأنَّ لهم حينئذ من فنون الكرامة ما تَعجزُ عن بيانه أساليبُ البيان.

ثم حكى ما يقولونه من الثناء، إظهاراً للسرور، وشُكراً للنِّعَم، فقال: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: الجنة، أو يريدون المكانَ الذي استقرُّوا فيه من الجنة. ثم فسَّروا هذا الميراث بقولهم: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۚ﴾ أي: نحلُّ فيها حيث شئنا.

وبعد أن حكى سبحانه صفةَ ثواب المتقين، قال: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ يُهنِّئُهم ويُثْني عليهم.

ثم ذكر شيئاً مما يكون هناك من عَظَمة الله، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ يجوز أن يكون الكلام على التحقيق مما لا يعلم كُنهَه إلا الله، ويجوز أن يكون

---

(١) أي: قال خَزَنةُ جهنّم للكافرين إهانةً لهم وإذلالاً: ادخلوا أبوابَ جهنّم خالدين فيها أبداً، فبِئْسَ مكانُ إقامة المتكبِّرين على ربِّهم المُتعالين عن قَبول الحقِّ، جهنَّمُ التي يستقرُّون فيها.

تمثيلاً لِعَظَمة الله التي لا تحدُّها العبارة إلا بطريقة التمثيل[١]، وقد أخذ ذلك من صفة الـمُخاطَبين لِيُقرِّبَ المعنى من أفهامهم، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة).

والقرآن العظيم مع شدَّة حِرصِه على التنزيه والتجريد، قد يستخدم التخييل والتجسيم[٢]؛ ليبدو المشهد محسوساً مثيراً للشعور، ولأنه يُخاطِبُ الناس في الكلام عن ذات الله سبحانه وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم. والله أعلم.

وقال في إتمام البيان: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بين الخلق، بما فيهم الملائكة، فأقيم كلٌّ في منزله الذي يستحقّه، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، لأنهم وَجَدوا من كرامته تعالى لهم: ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

اللهمَّ اجْعَلنا ممَّن سبقت لهم منك الحُسْنى يا أرحم الراحمين.

---

(١) بل الأول هو الصواب الذي لا ينبغي العدولُ عنه، والثاني لا وجه له، فقد أقام الله عز وجل الملائكة في مقامات مختلفة، كما قال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، أخبرنا الله تعالى عن بعضها، وطوى عنا بعضها الآخر، وليس لنا أمام ما أخبرنا عنه منها إلا التسليم على ظاهر اللفظ مع الإقرار بأنه لا علم لنا بتحقيق المعنى على وجهه لغيبيته.

(٢) لا يُقال: إن القرآن يستخدم التخييل والتجسيم في التعبير عن الله تعالى وصفاته، وإنما يُقال: إنه يستخدم أساليب العرب ومجازاتها واستعاراتها، ومَنْ فهم لغة العرب وتشبَّعت بها سليقتُه ظهر له المعنى في هذه الأساليب والاستعارات واضحاً جلياً، من غير أن يطرق ذهنَه معنى التجسيم، وإنما يَرِدُ هذا المعنى على من كان بعيداً عن لغة العرب وفصاحتها وأساليبها في التعبير، ولذا سمّى العلماء النصوصَ التي ورد فيها مثل هذه التعبيرات: نصوصاً موهمة للتشبيه والتجسيم، فهو مجرَّدُ توهُّم في الذهن يزول بالوقوف على أسلوبه من اللغة.

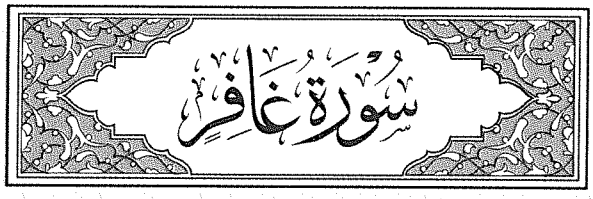

مكيَّة، وهي خمس وثمانون آية

وموضوعها: الحثُّ على إخلاص العبادة لله، كما هو موضوعُ السورة السابقة.

والفرق بين السُّورتين: أنَّ الأولى أخذت المشركين بطريقة الاستدلال على فساد عقيدتهم في الشِّرك أكثر مما أخذتهم بطريقة الترغيب والترهيب، والثانية أخذتهم بطريقة الترغيب والترهيب أكثر مما أخذتهم بطريقة الاستدلال.

* * *

* في المطبوع سورة المؤمن وقد أثبتناها متابعة لما في المصحف، وكلاهما تسمىٰ به السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السُّور في سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكرِ وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا: قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾، والتعرُّض لصفة العلم للإيذان بظهور أثرها في أحكام هذا الكتاب، وبابتناء جميع ما فيه على أساس العلم الصحيح الدقيق، أما التعرُّض لوصف العزَّة فللإيذان بإنجاز ما فيه من وَعْدٍ ووعيدٍ على أوامره ونواهيه.

ثم تعرّض لصفات أخرى؛ لِـمَا فيها من الترغيب والترهيب والحث على التمسُّك بما فيه، فقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، والتَّوب: مصدر، كالتوبة، وقيل: هو جَمْعُها، وقد وسَّط الواو بينهما لإفادة الجمع بين الوصفَيْن، فإنه يغفر الذنب لمن تاب[1]، فهو

(١) وقد يغفره لمن لم يتب أيضًا. أما الأول ـ وهو مغفرته لمن تاب ـ فواقعٌ جَزْماً بمقتضى وعد الله تبارك وتعالى، وأما الثاني ـ وهو مغفرته لمن لم يتب ـ فواقعٌ احتمالاً بمقتضى فضل الله وكرمه، =

لعطف السبب على المسبَّب. ثم أردف صفتَي السماح بصفة الحساب والعقاب، فقال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لـمن أصرَّ على الكفر والعصيان. ثم قَـرَنَ صفةَ الحساب بما يُؤْذِنُ باللطف فيه، فقال: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي: الفَضْل العظيم على بني الإنسان، والإحسان العميم على سائر الحيوان.

وبعد أن ذكر اختصاصَه بصفات الأُلوهيَّة، صرَّح باختصاصه بالألوهيَّة فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم حذَّر المخالفين فقال: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ فيُجازي المُحسِنَ بإحسانه والمُسيءَ بإساءته، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ولما ذكر أنَّ القرآن مُسْتَنِدٌ على العلم الصحيح، وأنه أنزله هُدًى للناس ورحمة لهم؛ توعَّد الذين يجادلون فيه لغَرَض إبطاله وإخفاء أمره، فقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالطعن فيها، لإدحاض الحق بالباطل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

ثم توعَّدهم على ذلك ووَعَدَ رسولَه ﷺ بنَصْره عليهم، كما نصر الرسلَ السابقين على أقوامهم المكذِّبين، فقال: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾ للتجارة والكسب، ومنعَّمين بحظوظ الدنيا وزخارفها، فإنهم مأخوذون عمَّا قليل، أخْذَ مَنْ قبلَهم من الأمم، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الذين تحزَّبوا على الرسل وناصبوهم العداءَ بعد قوم نوح، مثل عاد وثمود وأضرابهم، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ من تلك الأمم العاتية ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ فيُصيبوا منه ما أرادوا من تعذيب أو قتل، ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾.

= تابعٌ لمشيئته بمقتضى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وعلى العبد أن يتعلق بالأول لأنه مجزوم به، فيُسارع إلى التوبة، ولا يركن إلى الثاني، فلعلَّه ممن لم تشمله تلك المشيئة.

ثم ذكر أخْذَه الشديد لهم، مُحسِّساً به، وقال: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ مُعاقباً لهم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ الذي عاقبتُهم به، فإنَّ آثار دمارهم عبرةٌ للمعتبرين؟

وهذا الاستفهام للتهويل والترهيب، عَلَّله بالقاعدة العامة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بما فيهم هؤلاء الكافرين بك وبما جئتَهُم به، وتحزَّبوا عليك وهمُّوا بما لم ينالوا، فحقَّ عليهم ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ كما حقَّ على أولئك؛ لاتِّحادهم في الطريقة، واشتراكهم في الجريرة. و﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: هي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ...﴾ [الأعراف: ١٨، هود: ١١٩، السجدة: ١٣، صٓ: ٨٥]. والأولى سببٌ للثانية، والثانية لازمةٌ للأولى.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾.

ثم قابل هذا البيان عن الكافرين بالبيان عن المؤمنين وكرامتهم، واستغفار الملائكة المقرَّبين لهم، وعِظَم منزلتهم؛ تسليةً له ﷺ، بإيذانه أنَّ أشراف الملائكة مثابرون على ولاية مَنْ معه من المؤمنين ونُصرتهم والدعاء لهم بما يُسعِدُهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ أي: المقرَّبون عند الله، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ إيَّاها، ﴿وَ﴾ أدخِلْ معهم ﴿مَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾

الذي لا يمتنع عليه مقدور، ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٨﴾ الذي لا يفعل إلا ما تَقْتضيه الحكمةُ من الأمور.

ويجوز أن يكون الفَصْلُ بهذين الوصفَيْن عائداً إلى ما تضمَّنه السياق من وَعْد المؤمنين بالنصر على الكافرين، والإمهال للكافرين مدَّةً تقتضيها الحكمة البالغة، لعلَّهم يرجعون أو تكون الحجَّة عليهم بالغة.

ثم تابع الكلام عن حكاية دعاء المقرَّبين للمؤمنين بقوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: العقوبات في الأُخرى، أو ما يُؤدِّي إلى ذلك من المعاصي والذنوب في الدنيا، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ الذي لا مَطْمَع وراءه لطامع؛ لأنَّ به دخول الجنان، والسلامة من النيران.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١٤ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٧ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٢٠﴾.

ثم قابل هذا الفوز للمؤمنين، بوصف بعض خِذلانِ الكافرين عائداً إليهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ والمَقْت: أشدُّ البغض. قال مجاهد وقتادة والسُّدِّيّ: إنهم ـ لما رأوا أعمالهم، ونظروا في كتابهم، وأُدخِلُوا النار من جرَّاء ذلك ـ مَقَتوا أنفسهم لسُوء صنيعهم فنُودوا: لَمقْتُ الله إيَّاكم في الدنيا إذ تُدعَوْنَ إلى الإيمان فتكفرون، أكبرُ من مَقْتكم أنفسَكم اليوم بعد أن علمتُم تفريطكم وتسبيبكم لشقائكم[1].

ولما ندموا أشدَّ الندم على ما فرَّطوا تَمنَّوا العودةَ إلى الدنيا، لِتَلافي ما فرَّطوا و﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ[2] فَٱعْتَرَفْنَا﴾ بعد تلك البلايا والمِحَنِ ﴿بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾[3]؟ وهذا الاستفهام يُشْعِر باليأس والقنوط وشدَّة الاستبعاد. والإماتة الأولى: عَدَمُهم قبل وجودهم أو حالَ كونهم نُطَفاً، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقد أجابهم سبحانه على هذا الطلب المُشْعِر بالتَّحيُّر والتَّضجُّر بما يُبيِّن سبب ردِّه، فقال: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: بقاؤكم على ما أنتم عليه من العذاب، واستحالةُ ما ترجونه من

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ٣٥٨-٣٥٩).

(٢) أي: قال الكافرون: ربَّنا أمَتَّنا مَوتَتَيْن: حين كنَّا في بطون أُمّهاتنا نُطَفاً قبل اتِّصال الرُّوح بنفوسنا، وحين انقضى أجلُنا في الحياة الدنيا، وأحيَيْتَنا مرَّتَين: في دار الدنيا، يومَ اتَّصَلَت الروح بنفوسنا بعد مئة وعشرين يوماً في رَحِم أمّهاتِنا، ويومَ بُعِثْنا من قبورنا.

(٣) أي: أَمِتْنا وأَحْيِنا حياةَ امتحانٍ أخرى، لنؤمنَ ونعملَ غيرَ الذي كنا نعمل، أمّا ما كان منّا في الحياة الأولى التي كنّا فيها مُمتَحَنين، فقد أقرَرْنا بذنوبنا التي ارتكبناها من إنكار البعث وما تَبِعَه من كبائر الإثم، وقد مرَّت علينا مدَّةٌ نحن فيها نُعذَّبُ في جهنَّم، فهل إلى خروجٍ من النار ورجوع إلى الدنيا من سبيل؛ لنُصلِحَ أعمالنا ونعمل بطاعتك؟

العودة، معلَّلٌ ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ كنتُم ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده، ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ وتعتقدوا بالشرك، وتسارعوا فيه، ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ وقد حكم بأنَّ مَنْ يُشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار، وحكم بأنْ لا يغفرَ لمن يُشرك به، وأن يعاقبَه معاقبةً لا نهاية لها، لذلك لا سبيل لكم إلى الخروج أبداً.

ثم أردف الإنكار على الشِّرك والتهديد عليه بما يستدعي استحقاقَه وحدَه لأن يُعبَد، ولا يُشرَك معه شيء، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالةَ على شؤونه العظيمة الموجبةِ لتفرّده بالألوهيَّة؛ لتستدلُّوا بها على ذلك وتعملوا بمُقتضاها، فتوحِّدوه تعالى وتخصُّوه بالعبادة. ومن تلك الآيات: أنه يفيض عليكم نِعَمَه ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي: مطراً يُنْبِتُ لكم به ما تأكلون منه أنتم وأنعامكم.

ثم ختم الكلام بما فيه تأنيبٌ لهم، ومُؤدَّاه أنَّ التذكير لا يفيد إلا مَنْ حافظ على سلامة فطرته ونور بصيرته، فقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ فإنَّ الإنابة إلى الله بعد الإيمان به تُغَذِّي الاستِعدادَ الطبيعيَّ المفطور عليه الإنسان للنظر الصحيح والبحث السَّديد في معرفة الله وإدراك شؤونه. ومَنْ أفْسَدَ طبيعته بمفاسد التربية وسُوء القدوة والتقليد الأعمى، فهو بعيدٌ عن التذكُّر والاتِّعاظ، لذلك فرَّع على هذا قوله للمؤمنين: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ والإخلاص: أن يأتيَ الإنسانُ بأعمال نقيّةً لا يشوبُها شركٌ ولا رياء، وهو من الصفات الروحية التي تسمُو بالمرء إلى منزلة رفيعة من الخُلُق الإنساني، ولا يكون ذلك إلا بالتدريب.

ثم وصفَ ذاتَه تعالى ببعض صفاته المؤيِّدة لاستِحقاقِه ذلك، فقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ قال أبو مسلم: أي: عالي الصِّفات ذو المُلك[1]، ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ

---

(١) تقدّم نقلُ المؤلف عن أبي مسلم تفسيرَه «العرش» بالملك، وتقدّم التعليقُ عليه وبيانُ أنّ العرش =

﴿أَمْرِهِۦ﴾ وهو ما يُوحيه من الشرائع، وسُمِّيت روحاً لأنَّ بها الحياة الصحيحة، والروح: تُطْلَق في العُرف على الحياة، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فهو تعالى يُلقي هذه الروحَ من أمره وتعاليمه ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ويختارُه، فيجعله رسولاً إلى خلقه، ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ أي: يومَ الحساب، يومَ تلتقي الخلائق، أو الأرواح والأجسام، أو أهل السماوات والأرض.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ من أعيانهم وأحوالهم وأعمالهم، فلا تحتاج إلى إثبات، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٣٩-٤١].

ثم قرَّر سبحانه انفرادَه بمُلكِ ذلك اليوم الذي يَدينُ فيه الناس، فقال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾، وصيغةُ هذا الكلام ملؤها العَظَمة والجبروت والترهيب والترغيب.

أشفعَه بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ وإنما ينالُ المجرم ما يستحق، والمحسن يُضاعَفُ له الإحسان.

ثم بيَّن تعالى استيعابَه في الحساب لجميعهم، ولسائر أعمالهم كنفس واحدة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ لأنَّ أعمالهم بارزةٌ يعرفونها بأنفسهم. وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: لا يشغله تعالى شأنٌ عن شأن، فيُحاسِبُ الخلائقَ قاطبةً في أقرب زمان[1].

= مخلوق هو أعظم المخلوقات على الإطلاق، جعله الله تعالى مظهراً لعظيم قدرته وقهره وسلطانه، فيلزم من هذا معنى الملك، وليس هو الملك نفسه.

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٧: ٤٤٧).

أقول: ويكون ذلك ـ والله أعلم ـ بإدراكهم لأعمالهم وظهورها عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٤٨]، فيُدرِك كلُّ واحد جميعَ أعماله من خير أو شرّ، ويعلم ما له وما عليه، وما يستحقُّ على كلِّ عمل من نعيم أو عقاب.

وهذا معنى ما وَرَد عنه ﷺ: «إن الله تعالى يحاسب جميع الخلائق في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا»، وورود: «في قدر فواق ناقة»، وورد: «بمقدار لمح البصر»[1]. ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٣٩ - ٤١][2].

ثم وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة الرهيبة، فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي: الدانية والقريبة، يعني: يوم القيامة والحساب، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ وهذا تمثيلٌ للهَلَع الشديد حالَ كونهم ﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الغمِّ العظيم مما يُصيبُهم، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يَعطِفُ عليهم ويُنجِدُهم، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ أي: مُشفَّع تُقبَلُ شفاعتُه فيهم.

---

(١) سبق تخريجه في المقدمة (١: ٦٠٩).

(٢) إدراك العباد لأعمالهم في صحف الأعمال أو الكتب، وشهادة الأعضاء على صاحبها، وتمييز المجرمين من المؤمنين بسيماهم: كلُّ ذلك تمهيدٌ للحساب، وليس هو الحساب نفسه، فالحساب فيه معنى المساءلة والمناقشة، ولذلك ورد في السنة الصحيحة ما يُبيِّن أن ذلك يكون بمحاورة بين العبد وربه، سواء قلنا: إنها حوار مباشر بلا واسطة، أو قلنا: بواسطة الملائكة، كحديث البطاقة، وقد سلف وحديث «سترتها عليك في الدنيا...» وقد رواه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨). عن ابن عمر رضي الله عنهما، وحديث الثلاثة الذين هم أولُ مَنْ تُسعَّر بهم النار، إلى غير ذلك من أحاديث كثيرة، يدل مجموعها على إثبات الحساب بهذه الكيفية.

وهذا تيئيسٌ لهم من النجاة، وفي هذا القيْد تهكُّم عليهم في اتِّخاذهم الآلهة شفعاءَ لهم عند الله وتنديم، والمراد: نفيُ الشفيع مُطلقاً، ففيه نوعٌ من أنواع البديع، وهو نفيُ الشيء بإيجابه، وهو أن يُنفَى الشيءُ المقيَّدُ، ويُرادَ نفيُه مطلقاً، لا نفيه مقيَّداً، لأنَّ القيد إنما ذُكر لغَرَض التنذُّر والتبكيت.

ثم علَّل أنْ لا وَجْهَ للشفاعة بقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ ووَجْهُ التعليل: أنَّ الشفاعة مَبْنيةٌ على شَرْح الشفيع حالَ المشفوع له للمشفوعِ عندَه، وبيانِ استحقاقِهِ العفوَ عنه[1]، والله سبحانه وتعالى يعلمُ دقائق المعلومات وخفيّاتها ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾، فلا وَجْهَ للشفاعة عنده.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهم الشركاء ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾، وهذا تهكُّمٌ بهم وتسخيفٌ لهم، خَتَمَه بهذا التقرير المطويِّ على التهديد والتوعُّد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ لا تخفى عليه من أمرهم خافية.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم لَفَتَ نظرَهم إلى ما آل إليه حالُ المكذِّبين قبلهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) وقد تكون الشفاعة لا على هذا الوجه، بل على قيام الشفيع بطلب العفو من الله تعالى للمشفوع له من غير استحقاق، بل بالتماس فضل الله وكرمه، ويقوم الشفيع بذلك دون المشفوع لكرامته ومنزلته عند ربه، فيقبل الله منه ويستجيب له، وهذا هو وجه إثبات الشفاعة للمؤمنين.
وكلام المؤلف يُفهَم منه نفيُ الشفاعة مطلقاً، وهو ما صرح به في مواضع أخرى، والصواب خلافه.

﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذِّبة لرسلهم، كعاد وثمود وأضرابهم، وللمبالغة في التهديد قال: ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذ عندهم من القوَّة والبأس ومن الفنون والأعمال ما ليس لِأُولاء، ولم يُجْدِهِم ذلك دفعاً عن أنفسهم، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أخْذاً وبيلاً، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ يقيهم بأسَه وعذابَه.

ثم علَّل إصابتَهم بالعذاب بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُعلَّلٌ ومُسبَّبٌ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ﴾ بها ولم يجيبوا الرسل ويقبلوا تعاليمها، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أخْذَ عزيز مقتدر؛ ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم فصَّل عاقبةَ أولئك الماضين، بعد أن أجمَلَها، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ وهي معجزاته التي أرسله الله بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾، فكذَّبوه وكابروه ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم ذكر ما عَمَدوا إليه من السَّفاهة بعدَ أن ألزمَهم بالحُجَّة، وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ المبين ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وهو ما ظَهَر على يده من المعجزات الباهرة، ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: استبقُوهُنَّ للخدمة. وهذا القتلُ

غيرُ القتل الأوَّل الذي كان قبل ولادة موسى، فقد كان ذلك خوفاً من أن يَنشأ منهم مَنْ يُزيلُ المُلكَ عن يده. أما هذا القتل فلإضعاف بني إسرائيل قومِ موسى بعد إرسالِه إلى فرعون، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وهم الفِتيان من قومه، فالمعنى: أعيدوا عليهم ما كنتُم تفعلونه بهم قبل موسى.

فهوَّن سبحانه أمرَهم، وقال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إنَّ مكايدَهم ضدَّ الحق فاشلةٌ لا مَحالة.

وقد وضع الظاهر مَوْضع المُضْمَر ليكون الحكم عاماً في أمثالهم، وليدلَّ على العِلّة، على نهج القرآن في ذلك. وقد خذَّلهم الله عنهم بإرسال الدم عليهم والضفادع والجراد والطوفان، كما جاء ذلك في سورة الأعراف[1].

ثم حكى سبحانه تصميمَ فرعون على قتل موسى بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، والجملةُ الأخيرة لإظهار التجلُّد وعدم الاكتراث بدعائه، ولكنها تنمُّ عن أنه يخاف ذلك، وتدلُّ على أنه كان في خاصَّة فرعون قومٌ يُشيرون عليه أن لا يقتلَ موسى، ويُخوِّفونه من أن ينتقمَ له ربُّه.

ثم علَّل طَلَبَ القتل بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: في أرض مصر بكثرة الهرج، وإثارة الفتنة واختلاف النظام.

فاستعاذ منهم موسى بربِّه، كما حكى عنه ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾، فذكرَ فرعونَ بوَصْفٍ يعمُّ أمثاله.

---

(١) الآية [١٣٣].

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه ما كان من الجدل بين فرعونَ وأتباعِه، وبين رجلٍ مُؤمنٍ من قومه انتصَرَ للحق. وفيه دلالةٌ على أنَّ الأمة مهما بالغت في الضلال، لا تَفقِدُ أفراداً بقي فيهم بقيةٌ من صحَّة الغريزة الدينية، ونور البصيرة، والاستعداد للنظر الصحيح والرأي السديد، بمحافظتهم في الجملة على طبيعتهم وعدم تأثُّرهم كثيراً بما يحيط بهم من مفاسد التربية وسوء التقليد، فقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾، والظاهر أنه من الشخصيات البارزة، فقدرَ أن يقول لهم هذا القول.

ثم أخَذَهم بالاحتجاج من باب الاحتياط والتبرُّؤ من التحزُّب، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: لا يَتخطّاه وبالُ كذبه، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم

﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ به من العذاب إن لم يُصِبْكم كلُّه، لا سيّما إنْ تعرَّضتُم له بسُوء. فخوَّفهم بما هو أظهَرُ احتمالاً عندهم.

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ فقد قال فيه أبو السُّعود: إنه احتجاجٌ آخرُ ذو وجهَيْن:

أحدهما: أنه لو كان مُسْرفاً كذاباً لَـمَا هداه الله تعالى إلى البيِّنات، ولَـمَا أيَّده بتلك المُعجِزات.

وثانيهما: أنه إن كان كذلك خَذَلَه الله وأهلكَه، فلا حاجة لكم إلى قَتْله.

ولعلّه أراهم المعنى الثاني وهو عاكف على المعنى الأول، لتليين شكيمتهم. وقد عرَّض فيه بفرعون بأنه مُسرِفٌ كذّاب، لا يهديه الله سبيلَ الصواب[1]. ويجوز أن يكون هذا من كلام الله، جاء معترضاً في كلام المؤمن.

ثم تابَعَ المؤمنُ كلامَه، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غالبين عالين على بني إسرائيل في أرض مصر، تَتَصرَّفون في شؤونهم ما تشاؤون، ولكن قوَّة الله فوق قوتكم، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ فلا تتعرَّضوا لبأس الله بقَتْل موسى.

ثم حكى سبحانه تَصَلُّبَ فرعون برأيه ـ رداً على المؤمن ـ ومعارضتَه لكلامه، فقال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أُشيرُ عليكم إلا بما أستَصْوِبُ مِن قَتْلِه حَسْماً للفتنة، ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ في هذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ في السياسة والمصلحة العامة.

---

(١) تفسير «أبي السعود» (٧: ٢٧٤-٢٧٥).

ثم حكى سبحانه ما ردَّ به المؤمنُ عليه، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ إنْ تَعرَّضتُم لموسى بسُوء، أخاف عليكم يوماً ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مِثلَ وقائع الأمم الماضية، ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط وشُعيب، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ ولكنهم هم الذين يظلمون أنفسَهم بتعرُّضهم لأسباب الرَّدَى والهلاك. والظاهر أنَّ تاريخ الأنبياء كان معروفاً عندهم.

وبعد أن خوَّفهم بالعذاب الدنيويِّ خوَّفهم بالعذاب الأُخرويِّ، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: يومَ الاستعانة ودعوة التبرُّؤ والثبور، وهو يوم الجزاء ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ عن موقف الحساب إلى النار. ويجوز أن يكون الكلامُ استعارةً تمثيليَّة من حالة الإبل النافرة من شدَّة الخوف، تفرُّ مدبرة، مثَّل به شدَّة خوفهم في موقف الحساب، وقرَّره بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يَعصِمُكم من عذابه.

ثم أتى سبحانه بهذه الجملة الاعتراضية ـ التي يأتي بها القرآنُ في مثل هذا البيان؛ لإفادة وَجْه تَصلُّب الكافرين بكفرهم، رغماً عن المبالغة في الإرشاد ـ فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حَسَبَ سُننه في الإنسان إذا دسَّى نفسه بإفساده لطبيعته بمفاسد التربية وسُوء القدوة ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾[1]، لأنَّ سنَّة الله تعالى مَضَتْ في أخلاق البشر: أنه إذا انطبع على الضلال لا يميل إلى الهُدى. ويجوز أن تكون هذه الجملة من تتمَّة كلام المؤمن، أتى بها عِوَضاً عن لازمها، وهو جزاء الضَّالِّين وعذاب المكذِّبين، فهو يتوعَّدهم بالعذاب الأليم.

ثم بالغ في تخويفهم لتكرُّر مِثلِ ذلك منهم، بما كان من أسلافهم من مُعارضةِ

---

(١) أو المعنى ـ كما تقدَّم مراراً ـ: ومَنْ يحكم اللهُ عليه بالضلالة؛ بناءً ما سَلَفَ منه في الحياة الدنيا، فما له مِنْ حاكم يحكم له بالهداية، لِيُنجيَه من عذاب الله.

يوسُفَ عليه السلام وعَدَم الإيمان به، مما يَسْتَوجِبُ شدَّة غضب الله عليهم؛ لتكرُّر ذلك منهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ وكنتم تتمنَّون الخلاصَ منه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ مُظهِرينَ الشماتةَ به، أي: خَلَصْنا منه، ولن يتصدَّى أحدٌ بعده لمثل هذه الدعوى، إذ لم ينجح يوسُف فيها. أما التعبير بالبعث فهو من تعابير القرآن على نهجه في مثل ذلك.

وهنا انقطع كلامُ المؤمن، على نهج القرآن في الكلام عن الغير حيث يخلِّله بالاستطراد، وابتدأ كلام الله، وقد نعى عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: جَرَتْ سنَّته تعالى فيمن رَسَخَ فيهم الارتيابُ والإسرافُ فيه: أن لا يميلوا إلى الهدى، ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وهذا الخطاب مُوجَّه إلى مجموع الأمة بما فيها السابقون واللاحقون، كما هو دأب القرآن في ذلك، حيث ينظر الأمةَ كائناً حياً واحداً، يتأثَّر منهم اللاحق بالسابق، فيُخاطبُهم بخطاب واحد.

وقال في «مجمع البيان» في تفسير قوله: ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾: أي: أقمتُم على كفركم، وظننتُم أنَّ الله لا يُجدِّد لكم إيجاب الحجَّة. ومفاد ذلك: أنهم قالوا: لا يتصدَّى أحدٌ بعده لمثل هذه الدعوة والدعوى، إذ لم يجد نجاحاً.

أقول: أما يجوز أن يكونَ هذا القولُ منهم استبطاءً وتلافياً لِمَا فرَّطوا من عدم الإيمان به، فكانوا يتمنَّون أن يأتيهم رسول آخر ليؤمنوا به، فلما جاءهم أخلفوا؟ على حدِّ ما يَقرُبُ من قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]. فيكون قولُ المؤمن لهم بذلك تقريعاً وتذكيراً. ولا يعارضُ هذا المعنى النفيُ بـ﴿لَن﴾ الدالةِ على استغراق المستقبل، إذ

يمكن أن يكون ذلك للمبالغة في الاستبطاء، ويؤنس لهذا المعنى قراءة: (ألن يبعث الله) بالاستفهام الدالِّ على الاستِبطاء والرجاء. والله أعلمُ بمراده.

ويجوز أن يكون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ من كلام الله لا من كلام المؤمن، وأن يبتدئ الاستئنافُ من قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾. والله أعلم.

ثم بيَّن حالَ أولئك المسرفين المرتابين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾، وهذا النكير ينطوي على الإيذان بأنَّ الكلام عن الله لا يكون إلا بحُجَّة من الله على لسان رسوله. ثم استَعظَمَ فِعلَهم هذا واستفظعه بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والمقت: شدَّةُ البُغض.

ثم بيَّن مصدر تلك المعارضة والمجادلة منهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي: جَرَتْ سُنَّته تعالى في أخلاق البشر وطبائعهم: أنَّ مَن انطبعَ منهم على التكبُّر والتجبُّر، لا يميل إلى دعوة الداعي، ولا يسمع ما هو مخالفٌ لدينه أو عادته، ويبطشُ بمن يتصدَّى لدعوته إلى ذلك.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى

الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم حكى سبحانه عن فرعون ما يدلُّ على غروره وجهله، فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ أي: بناءً عالياً جداً ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ وفي إبهامها ثمَّ إيضاحها تفخيمٌ لشأنها، أي: لَعَلِّي أبلُغُ إلى أعظم الأسباب ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾، وقد قيل: إنما قال هذا تمويهاً على قومه وتضليلاً لهم. وقيل: بل استهزاءً بدعوة موسى واستخفافاً. وقيل: ظناً منه سخيفاً بأن ذلك طريقٌ لمعرفة صدق موسى أو كذبه في ادِّعاء وجود آلهةٍ لجهله بالله تعالى، وكيفية الاستنباء عنه.

ثم علَّل هذا الطلب بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ فيما يدَّعيه.

وقد علَّق سبحانه على هذا السياق في أمر فرعون ومعارضته، بتأنيبه ووعيده بالخذلان والدمار، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: في خسار وفشل وهلاك.

ثم عاد إلى إتمام الكلام عمَّا قاله المؤمن، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ وفيه تعريضٌ بأنَّ ما يسلكُه فرعونُ وقومُه هو سبيلُ الغيِّ والضلال.

ثم تمَّم الدعوة بهذا البيان، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ مؤقَّت، ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ والخلود.

ثم بيَّن وفصَّل المُجازاة في الآخرة، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عَدْلاً من الله سبحانه. والمراد من المِثل: ما يقابلُها في الاستحقاق. وبعبارة أخرى: ما ينتج عنها ويترتَّب عليها ترتيباً طبيعياً[1]، بحسب سنة الله في معاكسة الأنظمة الكونية والتعاليم الدينية، كما يصيب المعاكس للسنن الكونية والقوانين الصحية أو الاقتصادية في هذه الحياة.

﴿وَمَنْ﴾ اتَّبع تلك التعاليم و﴿عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي: بغير تقدير وموازنة بالعمل، بل أضعافاً مُضاعَفة، فَضْلاً من الله وإحساناً. وفي قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيذانٌ بأنَّ العملَ الصالحَ من غير المؤمن لا يؤهِّل لدخول الجنة، ولكن قد يخفِّف عنه بعضَ العذاب، لأنَّ الشرك ظلمٌ عظيم، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ودخول الجنة مشروط بالإيمان الصحيح والتوحيد والتنزيه.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً...﴾ من كلام الله، جاءت استطراداً في كلام المؤمن، على نهج القرآن في مثل ذلك إذا عبَّر عن كلام الغير. والله أعلم.

ثم استفزَّهم ووبَّخهم كيف يقابلون نُصْحَه لهم بالإيمان المؤدِّي إلى دخول الجنان، بدعوتهم له إلى الكفر والخِذلانِ ودخول النيران، وصاغ الكلام على التَّعجُّب من شأنهم المعكوس، وأمْرِهم المخذول، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) بل ترتيب العقوبة على السيئة ترتيب شرعي، يعني: قرَّره الله تعالى في شريعته، وليس له مردٌّ آخر من نظام كوني أو سنة طبيعية، كما تقدَّم بيانُه مراراً.

ثم فسَّر هذا المُجْمَلَ وفصَّله بقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وفي صورة الكلام إشعارٌ بأن الألوهية لا بدَّ لها من برهان مُوجِبٌ للعلم بها، والإيمانُ اليقينيُّ لا يكون إلا بحُجَّة قاطعة وعلم وثيق.

ثم قارَنَ ما بين دعوتهم الباطلة هذه وبين دعوته الحقَّة لهم، فقال: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: القدير على التعذيب والغفران. وقد ساق الوَصْفَ برهاناً على اختِصاصِه بالألوهية لاختصاصه بصفاتها. والجمعُ بين هاتين الصفتين لبيان وَجْه تأجيل عقابهم الدنيويّ مع شدَّة استحقاقهم له.

ثم قارَنَ بين صفات الله تعالى وبين صفات الأوثان التي يدعونه لعبادتها، مُؤْذِناً بالردِّ عليهم، على طريقة البرهان بالمنطق الوجداني، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ليس له واقعٌ في الدنيا ولا في الآخرة، وليس فيه فائدةٌ في الدنيا ولا في الآخرة، فذكرَ الدعوة وأراد ثمرتَها ونتيجتها، من ذِكرِ السبب وإرادة المسبَّب، أي: مما لا شكَّ فيه أنَّ أوثانكم التي تدعونني إلى عبادتها لا فائدة من دعوتها، لا في أمر الدنيا، ولا في أمر الآخرة، وإنما ذلك مُخْتصٌّ بالله، ﴿وَ﴾ لا جَرَمَ ﴿أَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلال ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ بحسب سُنَّة الله في ذلك.

ولما بلغ في النصيحة لقومه منتهى الجهد فلم ينتصحوا، ضاق بهم ذَرْعاً وتحسَّر غايةَ التحسُّر، وتأسَّف أشدَّ التأسُّف، وتوعَّدهم بما سينكشف لهم من حقيقة الأمر يوم القيامة، أو يوم العذاب في الدنيا، وقال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ عند مُعاينة العذاب، وقد ختمَ مقالَه بما يدلُّ على أنَّهم تَوعَّدوه بالأذى على مُحاجَّته هذه، فخَوَّفهم بالله والتجأ إليه، فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ فيُحِقُّ الحقَّ ويَقْطَعُ دابرَ الكافرين.

أقول: وهكذا يجب أن يكون المؤمن داعياً إلى الله، وإن لم تُـجْدِ دَعْواه نفعاً، لأنها مطلوبة منه على كلِّ حال، ومسؤول عنها في كلِّ مقال.

قال مقاتل: لما قال لهم ذلك قَصَدوا قَـتْلَه، فهَرب منهم فطلبوه، ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ ولم يقدروا عليه بشيء[١]، ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ونجا منهم.

وكان ما نالهم من سُوء العذاب في الدنيا: أنهم استُؤصِلوا بالغَرَق الشامل الفادح. أما ما نالهم في الآخرة بعد استئصالهم بالغرق؛ فهو ما ذكره تعالى بقوله: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي: يُعرَضُ آل فرعون في قبورهم صباحَ مساء.

وعن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعدُه بالغَـدَاة والعشيّ، إنْ كان من أهل الجنَّـة فمن الجنة، وإن كان من أهل النار فمن النار، يُـقال: هذا مقعدُك حين يبعثُـك الله يومَ القيامة». رواه البخاري ومسلم في «الصحيحين»[٢].

وقال البيضاوي: رُوي عن ابن مسعود: أنَّ أرواحَهم في أجوافِ طيور سُودٍ تُعرَضُ على النار بكرةً وعشياً إلى يوم القيامة[٣].

أقول: ولا يعارض هذا أن العذاب يكون فيها بعد الحساب يوم القيامة، لأن ذلك يكون على أكمله وأشدِّه بعد أن تُزوَّجَ وتُقْرَنَ الأرواحُ بالأبدان في الحياة الأخرى. أما هذا فيكون في حياة البرزخ، وهي حياة دون ذلك، وإن كانت أكمَلَ من الحياة الدنيا. والله

---

(١) ذكره أبو حيان الأندلسي في «تفسيره» (٧: ٤٤٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٣) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٢: ٤٨).

أعلم. ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾، وكما تستعمل كلمة ﴿ءَالَ﴾ في القرابة، تستعمل في المُوالين والتابعين.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم ذكر محاورةً تقع بين الأتباع والرؤساء بعد دخولهم أشدَّ العذاب، فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾ فيما بينهم وهم ﴿فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ عن الإيمان وأضلُّوهم، وهم الرؤساء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جَمْعُ تابع، كخَدَم جَمْع خادم، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أي: دافعون ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ بالدفع أو بالحمْل.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ فجَازى كلَّ مُسْتحقٍّ بما يستحق. ووَجْه الرد: أنَّ جزاء الله سبحانه يتناول كلَّ مَنْ خالف سُنَنَه وتعاليمَه، وإن كان بغَواية غيره له، إذ قد قصَّر في تبصُّره واستعمال عقله، ولأنه مُرتَّب ترتيباً طبيعياً[1]، والله أعلم، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

---

(١) بل ترتيباً شرعياً، كما تقدَّم بيانه قبل بضع صفحات.

وهذا الكلامُ عامٌّ يشمل آلَ فرعون وغيرَهم من أمثالهم، على نهج القرآن في تعقيب الخاصِّ بما يشمله وغيرَه.

قال الرازي في التعليق على هذه المُحاوَرة: واعلم أنَّ أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودُهم من هذا الكلام التَّحرُّش والإيلام، لأنهم هم الذين أوقعوهم في هذه الورطة، لذلك يقول الرؤساء: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: لو قدرتُ على إزالة العذاب عنك لدفعتُه عن نفسي، ثم يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي: أوصَلَ إلى كلِّ واحد ما يستحق. انتهى[1].

أقول: ولعلَّه أتى بعنوان ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ بَدَل: الأتباع، و﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ بَدَل: الرؤساء؛ ليُلائمَ هذا الغَرَض، وهو تحرُّش الضعيف بالقوي حينذاك. والله أعلم.

ثم ذكر تَشَبُّث أهل النار جميعاً بخَزَنة جهنم، تعلُّلاً وتحيُّراً، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾، فاستعملت الشفاعة هنا بمعناها الحقيقي، وهو الدعاء.

فأجابهم الخَزَنةُ و﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وتُنبِّهكم على هذا الأمر وهذه العاقبة؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، ولكن كذَّبناهم، ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾ أنتم إذن، أما نحن فيستحيلُ أن ندعوَ لمن هذا شأنهم. ثم أقنطوهم بقولهم: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ فبيَّنوا لهم أنَّ الشفاعة والدعاء لا يمكن أن تكون للكافرين برسلهم، إذ لا حُجَّة للناس على الله بعد إرسال الرسل.

ثم ختم هذا السياقَ بالغرض منه، وهو تسليتُه ﷺ والمؤمنين بالوَعْد لهم بالنصر والوقاية من الأعداء، كما نصر موسى ومؤمنَ آل فرعون على فرعون ومَلَئِه، ووقاهما من

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٧: ٥٢٢).

مكرهم، وأنه سيَجْزي كُفَّار قريش بما جَزَى أمثالَ فرعون وملئه من عذاب النار، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ وهو يوم الحساب. قال أبو السعود: عبَّر عن يوم الحساب بهذا التعبير هنا للإشعار بكيفيَّة النصر فيه، وأنها تكون بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكَفَرة بالتكذيب[1]. كما وَقَع لِخَزَنة أهل النار، ويكون ذلك ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾، وفي هذا إكمالٌ للبيان.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم أجمَلَ ما تضمّنه السياقُ السابق من الاستشهاد على نَصْر موسى وخَذْل أعدائه، أجمَلَه بما يدلُّ على أنه تعالى أعانه عليهم وكفاه شرَّهم حتى أنجَزَ مهمتَه وبلَّغ دعوتَه ونشر دينَه، فتوارثه بنو إسرائيل، وجعل الكلام تمهيداً للعودة إلى الرسول ﷺ وتسليته وتثبيته، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾، فبقي فيهم مِن بعده مدّة ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ أي: وكذلك سنفعلُ معك ومع أمَّتك بهذا القرآن، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، يُجمِلُ بهذا البيان تحقيقَ نصره تعالى لموسى وأتباعه على المعارضين، ويَعِدُ محمداً ﷺ بمثل هذا النصر المبين ونَشْر دينه القويم.

---

(١) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٧: ٢٨).

ثم أمره أن يستعين على ذلك بالصبر المتين، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنَصْرك على أعدائك ﴿حَقٌّ﴾ واقعٌ لا مَحَالة، كما نصر موسى وقومه على أعدائه، وإنه تعالى مُنْجِزٌ وَعْدَهُ لك، كما أنجَزَ وَعْدَه لهم، وأحاطهم بالعناية حتى نشروا الدين.

ثم أمره تعالى أن يضيفَ على الاستعانةِ بالصبر الاستعانةَ بطاعة الله، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ والإبكار: أولُ النهار، والعَشِيّ: آخرُه، وإنما ذكر طَرَفي النهار لتعميم الوقت. والمراد من الذَّنْب: ما يفرط منه بترك الأَوْلى، أو ممَّا من شأنه أن يُعاتَبَ عليه من الخواطر في صعوبة المواقف[1]، فحَسَناتُ الأبرار سيِّئاتُ المقرَّبين.

ثم ذكر منشأ هذه المُعارَضة في هؤلاء المعارضين للأنبياء والمرسلين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي: بغير حُجَّة من كتب الله. وهذا القيد لزيادة النكير، وللإيذان بأنَّ المُجادَلة في أمر الدين لا بدَّ من استنادها إلى كتابٍ من الله مبين، وهؤلاء الذين يجادلون بغير ذلك ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي: ما يحملُهم على هذا الجدل الباطل إلا كِبْرٌ في صدروهم، مَنْشؤه الرياسة، وأنَّهم لو آمنوا بنُبوَّتك لزالت رياستُهم وأصبحوا تحت إمْرتك، ولكنهم سيصيرون فيما هم منه خائفون رَغْمَ أنوفهم، وهم صاغرون، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: استَعصِمْ به من شرِّهم، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

وقد منع هذا الكِبرُ بعضَ كُبراء قريش عن اتِّباع الحقِّ مع عِلمِهم بصدق الرسول ﷺ؛ هذا أُمية بن أبي الصَّلت يُقرُّ برسول الله ﷺ ويقصده ليؤمن به، ثم يعود فيقول: لا

---

(١) هذا لم يثبت وقوعه منه ﷺ، فالأَوْلى الاقتصار على تفسيره بترك الأَوْلى.

أؤمن برسولٍ ليس من ثقيف. ومثله أبو عامر الراهب. وهذا أبو جهل يقول: والله ما كذب محمدٌ قط، ولكن إذا كانت السدانة والحجابة في بني هاشم، ثم النبوة، فما بقي لنا[١]؟ وهذا أبو طالب يرى المعجزات، ويقول: إني لأعلم أنك على الحق، ولولا أن تُعيِّرني عجائز قريش باتِّباعك لأقرَرْتُ بها عَيْنَك[٢]. فنعوذُ بالله من صَلافةِ كِبْرٍ وحَماقةِ هوىً تُغطِّي نورَ العقل، فَيُعْرِض صاحبُها عن الحقِّ والرُّشد والفلاح، ويَتَمادى في الضلال.

ثم ذكر مثالاً مما يُجادلون فيه بغير سلطان، وهو أمرُ البعث، وحقَّقه، فقال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[٣] وهذا على منهاج قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]. والمعنى:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١: ٣٣٣)، عن السُّدِّيِّ مرسلاً.

(٢) رواه مسلم (٢٥)، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمِّه: «قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة. قال: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]».

(٣) كان الناس يظنون أنَّ أبعاد النجوم لا تزيد على بضعة آلاف من الأميال، وبعد اتّساع العلوم وتوفُّر الآلات تبيَّن أن بُعْدَ بعضها القريب يمتد إلى ملايين الملايين من الأميال، وإذا قدَّرنا الأبعاد بالضياء، وجدنا ضوء الشمس يصل إلينا بثمان دقائق، وضوء أقرب نجم بأربع سنوات، ومنها ما يصل ضوؤه بعشرات أو مئات أو آلاف من السنين.

وكان الناس يظنون أنَّ عدد النجوم لا يتجاوز بضعة آلاف نجم، حتى عُلِمَ الآن أنَّ نجوم السماء لو عدّ العادّ في كل دقيقة ألفاً وخمسمئة نجم، لاحتاج في استيعابها إلى سبعمئة سنة، وأرضُنا ذَيلٌ ضئيلٌ لنجم صغير من ذلك العدد الهائل، وهو الشمس.

أفتعجز هذه القدرة البالغة عن إعادة الناس ثانية إلى الحياة؟ جلَّت قدرةُ العلي القدير، وما أجهل ذلك المنكِر الحقير. (المؤلف).

إنهم يُسلِّمون أنَّ خالق السماوات والأرض هو الله سبحانه وتعالى، ويعلمون بالضرورة أنَّ خَلْقَ السماوات والأرض أكبرُ من خلق الناس وإعادتهم، وكان من حقِّهم أن يقرُّوا بأن القادر على خلق السماوات والأرض يكون قادراً على إعادة الإنسان الذي خَلَقَه أولاً ويعيدُه ثانياً. فهذا برهانٌ جليٌّ في إثبات المطلوب، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ لقصورهم في النظر والتأمُّل، لفَرْطِ غفلتهم، واتِّباعهم لأهوائهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

ولما بيَّن تعالى أنَّ الجدلَ المَقْرونَ بالكِبْر والحقد والجهل كيف يكون، وأن الجدل المقرون بالحجّة والبرهان كيف يكون، نبَّه سبحانه على الفرق بين البيانين بالمثال، وضمَّن الكلامَ حُجَّةً أخرى على إثبات البعث، بطريقة المنطق الوجداني، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الغافل والمستبصر، والمُدلِّل والمُقلِّد، ونتائجهما. ثم عطف عليهما ما هو المراد منهما على طريقة التشبيه، تصريحاً بعد التمثيل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾[1] فإذا كان هذان الصنفان لا يستويان، ونرى المُسيءَ قد يفوقُ حالُه حالَ الصالح في الدنيا، فكيف لا يكون لهما حالٌ أخرى يظهر فيها نتائجُ ما بينهما من التفاوت؟

وقد زاد كلمة ﴿لَا﴾ في (المسيء) لتأكيد النفي، ولطول الكلام بالصِّلة.

ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ بالالتفات إلى الخطاب، لبيان قلَّة مَنْ يتذكَّر من البشر مِثلَ هذه الملاحظات الظاهرة، والاستدلالات الجليَّة، فيعلم أنَّ الفرق بين حال الفريقين في الدنيا من الصلاح والطلاح، لا بدَّ وأن يكون له نتائجُ نسبيةٌ في الأخرى، وإلا كان هذا العالمُ فوضى باطلاً خالياً من الغاية الجليلة والحكم النبيلة والعدل بين الناس، وحاشاه سبحانه أن يخلقه كذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وبعد أن قرَّر الدليل الدالَّ على وجود البعث، أردَفَه ببيان تحقيق وقوعه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسُّون.

ولما بيَّن أن القول بالقيامة حقٌّ وصدق، بيَّن الطريق الموصلة إلى السعادة فيه، وهي عبادة الله وحده، فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، قال ابن عباس: أي:

---

(١) معنى الآية ـ كما في تفسيري «المعين» ص٤٧٣ ـ: وما يستوي الجاهلُ الذي ساقه الجهلُ إلى الكفر، والعالم الذي هداه عِلمُه إلى الإيمان، وكذلك لا يستوي أفرادُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا أفرادُ جنس المُسيء، فكلٌّ من الفريقَين أفرادُهما مُتفاضِلو المُستَويات؛ فلا بُدَّ أن يظهرَ التفاوت بين الفريقَين فيما بعد الموت والبعث، ولا بدَّ أن يُعاقَبَ الكافرُ على كفره، وأن يُثابَ المؤمنُ على إيمانه. كما لا بدَّ أن يُثابَ كلُّ فَرْدٍ من أفراد مَن آمن وعمل صالحاً بحسب درجته، أما المُسيئون فيستحقُّون العقاب بحسب دَرَكةِ كلِّ واحد منهم من المعاصي والذنوب.

وحِّدوني واعبُدوني أُثِبْكُم[١]. ويُؤْنِسُ لهذا المعنى قولُه ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[٢].

قال في «مجمع البيان»: ولما عبَّر عن العبادة بالدعاء جَعَل الإثابةَ استجابةً؛ ليتجانس اللفظُ ويتناسق.

أقول: ويؤيِّد أنه أراد بالدعاء العبادةَ: وَصْلُه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: صاغرين أذلَّاء.

ومَنْ يرى أنَّ المراد في الآية: الدعاء وإجابته، يقول: إنها مَرْجوَّة متى استكملت شرائطها، فإن لم تكن بإعطاء الداعي ما طلبه، فربما كانت بما يعلم الله أنه خيرٌ له في دنيا أو أُخرى.

ومن شروط الدعاء: أن يكون المطلوب جارياً على السُّنن الكونية؛ لأنَّ سُنَنَ الله لا تتبدَّل، فلا يقبل الله دعاءَ مَنْ يدعو بالرزق وهو قاعدٌ لم يتشبَّث بالأسباب تشبُّثاً صحيحاً، ومَنْ يدعو بالشفاء بدون أن يتمسَّك بقوانين الصحة الطبيعية وبمراعاة السنن الكونية. وهكذا يكون الأمر في سائر المطاليب، إلا أن الله سبحانه يجازيه في الآخرة جزاءً عظيماً. والله أعلم.

ولما طلب منهم أن يعبدوه وحده، أردَفَه بما به يستحقُّ ذلك من أفعال القدرة والمنَّة والحكمة، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ مظلماً؛ ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ وتستيعضوا ما فَقَدتُموه من القُوى أثناء حركة النهار، ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتبتغوا فَضْلاً من ربكم في السَّعْي لصالحكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإيجادهم وبنِعَمِهِ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (٧: ٢٣٤).

(٢) رواه أحمد (١٨٣٥٢)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩) وقال: حسن صحيح، عن النعمان بن بشير.

عليهم وحكمته ونظامه فيهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ لجهلهم بحقِّ المُنعِم، وإغفالهم مواضعَ النِّعم.

ومن مباحث اللفظ: أن في الآية صَنْعةَ الاكتفاء والاحتباك، فقد حذف كلمة (مظلماً)؛ لدلالة كلمة ﴿مُبْصِرًا﴾ عليه، وحذف كلمة (لتبتغوا فضلاً من ربكم) اعتماداً على كلمة ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ المُقابِلة لها؛ على نهج القرآن في المقابلة والاكتفاء، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

ثم مخَّض النتيجة، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي: المختصُّ بهذه الأفعال هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: فكيف تُخْدَعون عن ذلك، وتُصْرَفون عن عبادته إلى عبادة غيره، مع وضوح الدلالة على وحدانيَّته في الألوهيَّة؟!

ثم بيَّن تعالى أنَّ سَبَبَ ذلك جحودُهم آيات الله كما كان في أمثالهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ لأنهم ينطبعون على مفاسد التربية والجهل والجمود وسُوء التقليد، فيفقدون الاستعداد للنظر والتفكير، فعبث بعقولهم الأفَّاكون.

ثم تابَعَ الكلامَ في أدلَّة التوحيد مسبوكةً على المِنَن، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ حيث جعل طبيعتها قابلةً لأن يستقرَّ عليها البشر، ويعيش بخيراتها، ولم يجعلها مادة صُلبة أو رخوة أو مائعة مثلاً، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: متماسكةً أجرامُها بلا عَمَد، حتى استقرَّ بذلك النظام حالُ الأرض وأمكن السَّكنُ فيها، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فذكر الصُّوَرَ وأراد الهيئة التركيبيَّة للإنسان بما فيه من الرُّوح والعقل والاستعداد، وقد أشبَعْنا الكلامَ عن مثل هذه الجملة في سورة الانفطار وفي سورة الذاريات[1]، فارجع إليهما.

---

(١) في الآية ٨ من سورة الانفطار، وفي الآية ٢١ من سورة الذاريات.

وقال البيضاوي: أي: زيَّنكم بصفوة أوصاف الكائنات، وخصَّكم بخلاصة خصائص المُبدَعات، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بعمارتكم لهذه الأرض واستنتاجكم منها واستثماركم لها ولما عليها من المخلوقات[1].

ثم مخَّض النتيجة فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: تَعالى وتكاثر خيرُه.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ الباقي، وكلُّ ما عداه فانٍ زائل، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ فكلُّ حَمْد مرجعُه إليه. وحذفُ القول في القرآن كثير، ويجوز أن تكون هذه الجملةُ استئنافيةً خبريَّة ختم بها السياق؛ لبيان أنَّ من كانت هذه أفعاله فهو يستحقُّ كلَّ الحمد، ويكون مقصوراً عليه لا يتعدَّاه.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

---

(١) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٥: ٢١٧).

ولما ذكر سبحانه أعمالَه العظيمة وصفاتِهِ الجليلة التي يستحقُّ بها أن يُعْبَدَ وحده، قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ فتبيَّن الرُّشْدُ من الغيِّ، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بأنْ أنقادَ إليه وأُخلِصَ له ديني؛ لأنه هو المختصُّ بخصائص الألوهيَّة، والموصوف بتلك الصفات العليَّة.

ثم تابع دليلَ التوحيد مسبوكاً على القدرة في صفة خلق الإنسان، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه من نسبة ما للأصل إلى الفرع، والمراد به: خِلقةُ آدم، إذ موادُّ الأصل تبقى في الفرع. والثاني: أنَّ المنيَّ يتولَّد من الأغذية بما فيها النبات، وهو متولِّد من الأرض ومكوَّن منها.

والمعنيان يتلائمان مع قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي المنيُّ المنعقد، إلا أنه بالنسبة إلى المعنى الأول: يكون بياناً للانتقال من طَوْر الأصل إلى طَوْر الفرع، لأن عناصر الأصل باقيةٌ في الفرع، وبالنسبة إلى المعنى الثاني: يكون بياناً لطَوْرٍ من أطوار الفرع، أكمَلَه بقوله: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: قطعة دم.

وقد طوى بقية الأطوار حتى قال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ والمراد به الجنس، ولذلك أفرَدَه، أو على تأويل: يخرج كلُّ واحدٍ منكم طفلاً، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ جمع شِدَّة، مثل: أنْعُم جمع نِعْمة، والمراد بها التكامل في القوة والعقل، ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ فرتَّب عُمُرَ الإنسان على ثلاث مراتب طبيعية: الطفولة وهي المبدأ، والكمال وهي الوسط، والشيخوخة وهي التناقص والانتهاء.

ثم بيَّن تعالى أن من بعض أفراد الإنسان مَنْ لا يستوفيها، فينالُ الأولى فقط أو الثانية أيضاً، فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾، ثم أجمَلَ المعنيين بقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا

﴿مُّسَمًّى﴾ لأنه يكون بالاستيفاء للأدوار كلِّها أو بعضِها، حسبما قدَّر الله له من العُمُر. ولإفادة هذا المعنى، فَصَلَ الجملة وقطعها بالعطف على محذوف، أي: وذلك لتستوفوا ما قُدِّر لكم من الأعمار، ولتبلغوا أجلاً مُسمّى عند الله. ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ معطوفاً على قوله: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾، وما بينهما اعتراض.

وبعد أن عدَّد الأطوار البشريَّة وألمع إلى أنَّ الموت منها، قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ يريد: ولعلكم تُدركون أنَّ الحياة الثانية طَوْرٌ من هاتيك الأطوار، لذلك أردَفَه بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يُحيي الأمواتَ ويُميتُ الأحياء، ثم صَوَّر سهولة ذلك عليه بقوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ فليست الإعادةُ أمراً عظيماً بالنسبة لقُدرته البالغة، بل هي والإماتة سِيَّانِ في قدرته تعالى، وسرُّ التكوين والإيجاد لا يعلمه إلا الله، وهيِّنٌ عليه سبحانه، لأنه لا يتعدَّى الإرادة الربَّانية. والإماتةُ ليست أقلَّ عجباً من الإحياء، والقدرةُ فيهما سواء.

وبعد إثبات هذه القدرة البالغة لله، عجَّب من خديعة أولئك المخدوعين، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويعارضونها بالباطل لِيُدحِضوا به الحقَّ ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾؟! أي: كيف يُصرَفون عن الهدى إلى الضلال؟!

ثم بيَّن صُورةَ ضلالهم وقَرَنها بالتهديد، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي: كذَّبوا بما جاء به القرآن وسائر الكتب السماوية، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ عاقبةَ ذلك؛ ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ وهو الماء في أقصى درجة الحرارة، ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ والسَّجْرُ في اللغة: الإيقادُ في التَّنُّور، استُعير للإلقاء في الجحيم؛ لإفادة التهويل والتعظيم.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ تنديماً وتبكيتاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾﴾ بهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾،

لِـمَ لا يشفعون لكم ويخلِّصونكم؟ ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ يكنُّون بذلك عن الخيبة والفشل في أمرهم.

ثم أضربوا إلى بيان الحقيقة، وما كانوا عليه من الضلال، وقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ قال الجُبَّائي: أي: عَلِمْنا أننا لم نكن نَدعُو شيئاً يستحقُّ العبادة، ولا ما ينتفع بعبادته. وقال أبو مسلم: هذا كما يُقالُ لكلِّ ما لا يُغْني شيئاً أو لا يفيد: هذا ليس بشيء. يعني: نفي الشيء لنفي فائدته أو ثمرته، أي: عَلِمْنا الآن أنَّ ما كنّا نعبدُهم وندعوهم آلهةً ليسوا بشيء. وقيل معناه: ضاعت عبادتُنا لهم، فلم نكن نصنع شيئاً إذ عَبَدْناهم، كما يقول المتحسِّر في فشل عمله: ما فعلتُ شيئاً.

وبعد أن بيَّن ما سيناهم من العذاب الأليم والندم العظيم، بيَّن منشأ ضلالهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ بمعنى: جَرَتْ سُنَّته تعالى في أخلاق البشر وطباعهم: أنَّ مَنْ تَشَبَّع ـ بنفسه أو بتقليد الآباء ـ في الكفر والضلال يَفقِدُ استعدادَه الطبيعيَّ للنظر الصحيح والتفكير السَّديد، فلا يهتدي إلى الصواب، فيناله السوءُ بإفساده لغريزته بمفاسد التربية والتقليد.

ثم ذكرَ أبرزَ الحالاتِ التي أدَّت بهم إلى ذلك الشقاء، فقال: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عندما كنتم تُعارِضُون رُسُلَ الله وتتظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وعندما تُصيبونَ أنبياءَ الله وأتباعَهم بالمكاره، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ في البطر والأشر إذا ظلمتُم واعتديتُم وعارضتُم الحقَّ في ذلك، وتهزؤون بالمؤمنين، ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ عن الحقِّ وسماعه.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ

بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا السياق بتثبيته ﷺ ضدَّ معارضة المشركين، ووَعَدَه بخِذلانِهم وبالنصر عليهم، وأوعَدَهم بالعذابَيْن، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لك بخذلانهم، وبنصرك عليهم ﴿حَقٌّ﴾ واقعٌ لا محالة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب الأدنى في حياتك، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن يحلَّ بهم ذلك العذاب، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ يوم القيامة، فنفعل بهم ما يستحقُّون من العقاب.

وهذه الآية للمبالغة في إنجاز وَعْدِه بتعذيبهم، ولكنه قد يكون في حضوره أو بعد وفاته، وقد يكون في الدنيا أو في الآخرة فقط، وإنما قال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأنَّ الـمُعَجَّل من عذابهم في الدنيا هو بعض ما يستحقُّونه.

ثم شَنَّع عليهم بأنَّ أمْرَ هذا الرسول لم يكن شيئاً غريباً في تاريخ البشرية حتى يُنكِروا عليه هذا الإنكار، وبالَغَ في تَسْليته وتثبيته تجاهَ اقتراحاتهم الآيات التي لا يريدون بها إلا الخداع والمطال، وضمَّن ذلك تقرير وَعْدِه له بالنصر عليهم وخذلانهم مِثلَ خذلان أمثالهم في الأمم الغابرة المعروفة وغير المعروفة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن

قَبْلِكَ ﴾ لا يُحصيهم العَدّ، ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أمْرَهم في هذا القرآن، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ أمْرَهم فيه، وقد جَرَى عليهم من أقوامهم مِثْلُ ما جرى عليك فصبروا، وكان المعارضون يقترحون عليهم إظهارَ الآيات المعجزات، على سبيل العناد والتَّعنُّت، كما يطلب منك هؤلاء، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إنَّ إتيانَ المعجزات ليس إلى الرسول، ولكنه إلى الله تعالى، يأتي بها إذا اقتضت الحكمةُ ذلك.

ثم توعَّدهم على هذا الاقتراح المبنيِّ على التَّعنُّت، وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وهو عذاب الاستئصال في الدنيا، ﴿قُضِيَ﴾ بينهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والعدل، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: المُتَمسِّكون بالباطل والضلال.

ثم أردَفَ الوعيدَ بدليل القدرة والمنَّة في الإنعام وغيرها؛ تحقيقاً للقدرة على إنجازه، وتأنيباً لهم على شركهم بالله سبحانه المختصّ بصفات الألوهية والأفضال، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ من أوبارها وأصوافها وأشعارها، ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي: حاجةً صَمَّمْتُم على إنجازها، فتحملكم هذه الأنعامُ وتحمل أثقالكم من بلد إلى بلد.

ثم أجمَلَ هذا المعنى وكمَّله بقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ في البرِّ والبحر، أي: جَعَل لكم وسائطَ تحملكم فيهما معاً، ولم يَحرِمْكم شيئاً من نِعَمِه، ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: دلائلَه الدالَّة على كمال قدرته، ووفور رحمته، واختصاصه بالألوهيَّة، ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾؟ وكلٌّ منها في الظهور بحيثُ لا يكاد يجترئ على إنكارها مَنْ له أدنى مُسْكةٍ من عقل وتفكير.

ثم لَفَتَ نظرَهم إلى ما جَرَى على المعارضين للأنبياء في الأمم الماضية، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مع أنهم ﴿كَانُوٓا۟

﴿أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الأبنية والمصنوعات الباقية إلى اليوم، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ من ذلك ويعلمون ويعملون، وإنما ذكر تَفَوُّقَهم على أهل مكة بالقوَّة والمدنية، تَقْوِيةً للترهيب.

ومن مباحث اللفظ: أنّ ﴿مَآ﴾ الأُولى يجوز أن تكون نافية أو استفهامية، والثانية: يجوز أن تكون موصولة أو مصدرية.

ثم فصَّل بعض التفصيل ما كان من أمر تلك الأمم، وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: لم يؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، وأصرُّوا على ما عندهم من عقيدة ضالَّة. فعبَّر بالعِلم عن الاعتقاد، مجازاً أو تهكّماً. أو يكونُ المرادَ: عِلْمُهم بأمور الدنيا ومعرفتُهم بتدبيرها، فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات - وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد، وتطهير النفس عن الرذائل - لم يلتفتوا إليها، واستهزؤوا بها، واعتقدوا أنه لا عِلمَ أنفَعُ وأجلَبُ للفوائد من عِلمِهم، كحال الأجانب اليوم. فيجوز أن يكون المراد بالفرح: الاعتزاز.

وضمير ﴿عِندَهُم﴾ يعود إلى المُرسَل إليهم، أو الضحك والاستهزاء، وضمير ﴿عِندَهُم﴾ يعود إلى الرُّسل. أي: فلما جاءتهم الرسل بالبيِّنات استهزؤوا بها وبما جاءتهم من من الوحي والتعاليم، فنزل بهم العذاب ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ من التَّوعُّد لهم بنزول العذاب، إذ كانوا يستهزؤون بما يتوعَّدونهم به من ذلك.

ثم ذكر إيمانهم عند نزول العذاب بهم، وبيَّن أنه لم يُقبَل منهم، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: شدَّة عذابنا، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ يَعنُونَ الأصنامَ التي كانوا يُشرِكون اللهَ بها، وكلَّ معبود لهم، لأنَّ الإنسان يرجع إلى الله عند الشدائد، ويتبيَّن له الحقُّ عند الموت، إذ هو الباب الذي يُشرِفُ منه على الآخرة ومَعرِضِ الحقائق.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي: إنَّ الله تعالى قد سَنَّ هذه السُّنَّة، وهي أن لا ينفع إيمانُ الكافرين عند نزول العذاب بهم، كما لا ينفعهم ذلك عند الموت، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ دنياهم وأُخْراهم، أو أُخْراهم وحدَها، وكفى بها خسارة كبرى، أعاذنا الله، وأيُّ خسارةٍ أعظم من تلك الخسارة!

* * *

انتهى الجزء السابع[1] من تفسير القرآن المسمّى «أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل»، لرشيد الخطيب الموصلي، بانتهاء سورة المؤمن، ويبتدئ الجزء الثامن بابتداء سورة السَّجْدة المُسمَّاة بسورة فُصِّلت.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف للطبعة العراقية التي صدرت في حياته رحمه الله تعالى.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذا هو الجزء الثامن[1] من تفسير القرآن المسمَّى: «أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل».

ويبتدئ بسورة السجدة، وتُسمَّى أيضاً سورة فُصِّلت.

وهي مكية، وآيها أربع وخمسون.

وموضوعها: تنزيل القرآن وبيان الغرض منه، وهو التبشير بالثواب لمن عمل بتعاليمه، والإنذار بالعقاب لمن صدَّ عنها، والترغيب بالأول، والترهيب من الثاني.

وقد يؤخذ فيها بالدليل والبرهان.

وهي متناسبة مع ما قبلها فيما اشتملت عليه.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله تعالى في الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ وقد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ أي: هذا الكتاب. والتعرُّض لهذين الوصفَيْن لإفادةِ ما في هذا الكتاب من النعمةِ الكريمةِ والرحمةِ العظيمةِ من الله تعالى على بني الإنسان، وأنه من آثار رحمته عليهم؛ لِمَا اشتمل عليه من البيان لسبل السعادة في الدنيا والأخرى، وهو ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: فصيحاً واضحاً جلياً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ يُشيرُ إلى أنَّ عِلمَ الإنسان يُعينُه على فهم هذا القرآن إن لم يكن هناك عناد. ومعنى ﴿فُصِّلَتْ﴾: بُيِّنَتْ بياناً تاماً.

وفيه امتنانٌ بسهولة قراءته وفهمه على الأمة العربية التي انتدبها الله لاعتناق هذا الدين، ونَشْره بين العالمين. ويجوز أن يكون إنزاله بهذه اللغة نعمة على البشر كلِّه، إذ لا توضِّحه غيرها من اللغات، وبما أنَّ دين القرآن جعله الله ديناً عالمياً، أصبحت هذه

اللغة أيضاً لغة عالمية؛ لأن الوسائل تتبع المقاصد في الأحكام. وقد تقدَّم الكلام مفصَّلاً عن مثل هذه الآية في سورة يوسف وفي الزُّمَر[1]، فارجع إليه.

ثم وَصَفَه بصفتين أخريين، فقال: ﴿بَشِيرًا﴾ لمن عمل به، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن أعرض عنه، ﴿فَأَعْرَضَ﴾ عنه ﴿أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ أوامرَه ونواهيَه.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي: في أغطية متكاثفة ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَم ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، وهذه كلها تمثيلاتٌ لِنُبُوِّ قلوبهم عمَّا جاء به ﷺ من الحقِّ، وعن إدراكه وقَبوله وإصغاء أسماعهم له. والغرض: تَيْئيسُه من قَبولهم دينَه. ثمَّ بيَّنوا أنهم غيرُ مبالين به، ولا يألون جهداً في معارضته قائلين: ﴿فَاعْمَلْ﴾ على إبطال أمرنا، ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾ على إبطال أمرك، دائبون على معارضتك، فلا تَأْلُ جهداً في منازلتنا.

وقد أمره سبحانه أن يُكرِّر عليهم الإرشاد بما لقَّنه به من الكلام، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لا امتياز بيني وبينكم، فلا أقدر أكثر ممَّا تقدرون، وإنما أمتازُ عنكم بأنه ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الأعمال، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما أنتم عليه من سوء العقيدة وقُبْح الفعال. ثم هدَّدهم إذا هم أعرضوا عن ذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ أي: هلاك لهم وشقاء.

ثم ذكر صفةً من صفاتهم الظاهرة، وصفةً من صفاتهم الباطنة، فقال: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فلا شفقة لهم على خَلْق الله، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾ وأكّد الجملة بالضميرَيْن مبالغةً في الردِّ على اعتقادِ بعضهم أنهم يؤمنون بالآخرة. ووَجْهُه: أنهم لا يؤمنون بها على ما بيَّنَتْه الكتبُ المنزَّلة في حقيقتها، والأسباب المؤدِّية إلى سعادتها

---

(١) انظر الآية ٢ من سورة يوسف، والآية ٢٨ من سورة الزمر.

أو شقائها، وإنما يزعمون أنَّ لهم السعادة بعد الموت على ضلالهم الذي يزعمونه هُدى، أو أنَّ لهم السعادة في الآخرة على كلِّ حال. وقد تضمَّن كفرُهم بالآخرة تعليلاً لمنعهم الزكاة وعدم إيمانهم بها.

ثم قابل وَيْلهم وشقاءهم بنعيم المؤمنين وسعادتهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾ أي: لا يمنُّ به عليهم، أو لا ينقطع عنهم أبداً. فهو مستمرٌّ دائم، أو المَعْنيَيْن معاً.

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾.

ثم عاد فأنكر عليهم كفرَهم، ورتَّبه على أوصاف للربوبيَّة تزيد في شناعته، فقال: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ ممَّن لا يَخْلقُون شيئاً وهم يُخْلَقون.

ثم بالغ في التحسيس على عَظَمةِ هذا الفعل منه تعالى، وتخصيصه إيَّاه بالربوبية، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يفعل هذا الفعل هو: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩﴾ المستحقُّ أن يُعبَد، لا مَنْ تشركون به من أخسِّ مخلوقاته، فالشرك ظلم وجهل شنيع لذات الله وعظمته سبحانه.

ثم تابع الكلام عن أعماله العظيمة في خَلْق هذه الأرض، فقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً راسيةً ﴿مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بأن جعلها مستعدَّة لإنبات أنواع النبات، وتربية أنواع الحيوان، وتعدين أنواع المعادن، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ فخصَّ بعض الأرضين بصلاح بعض النبات وإنتاجه، وأخرى بأخرى، حتى كان هذا الاختصاص

سبباً للتجارة والتبادل بين الأقطاع المختلفة. وقد تمَّ ذلك كلُّه ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أي: في تـتمَّة أربعة أيام. فاليومان الأوَّلان لتكوين الأرض، واليومان الآخران لتكميلها وإصلاحها ووجوب الحياة عليها.

والمراد من هذه الأيام: أطوار في مُدَدٍ طويلة؛ لأن أعماله سبحانه بتدرُّج ونظام. والله أعلم. وأربعة الأيام؛ لبيان مجموع ما مرَّت فيه الأرض من الأطوار، وللإشارة إلى أنَّ ما بين التكوين والتكميل الإصلاحي مُدَدٌ متساوية، بمعنى: أنَّ مدة التكوين بقدْر مدَّةِ التكميل سواء بسواء.

وهذا ـ والله أعلم ـ هو معنى قوله: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ أي: الذين يريدون العلم والاطلاع على ذلك العمل العظيم والنظام الجليل والقدرة البالغة[1].

وعلى كلٍّ، فالآية تُؤذِنُ بأن نضوج الأرض إلى أن صَلَحَت للنبات والحيوان، إنما كان في أطور مُتعدِّدة متساوية، ومُدَد في ذلك طويلة. والله أعلم.

وبعد أن تكلَّم عن خَلْق الأرض، تكلَّم عن خَلْق السماء، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾[2] وهذا مبدأ التكوين للكون كلِّه ولمجموعِهِ بما فيه الأرض، ولكن بدأ بها لأنها مسكنُنا وتهمُّنا.

---

(١) أو المعنى: حدَّد في الأرض مقادير أرزاق من يعيش على ظهرها مساوياً لحاجة السائلين الباحثين عن أقواتهم، الذين يتخذون الأسباب الكونية لتحقيق مطالبهم من خزائن الله في الأرض.

(٢) يقول علماء العصر من الفلكيين: نشأ العالم المادي من غاز كونيّ. وكان أول الأمر شديدَ التخلخل ساخناً إلى حدٍّ ما مالئاً للفضاء، منتشراً فيه بانتظام، ومؤلفاً من دقائق تكوَّنت منها أنواع المادة الثلاثة. ثم تجزَّأ الغاز الكوني إلى كتل تجمَّعت وتراصَّت ونشأ منها النجوم، ثم نشأت المجرّات من تحت تأثير التجاذب بينها، وتباعدت المجرَّات بعضها عن بعض في مديد الفضاء. ومن الغاز ما لم يتجمَّع، بل تفرَّق وانتشر في الفضاء غازاً مُخَلخَلًا بين المجرّات والنجوم. والله أعلم. (المؤلف).

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بين الخلقَيْن في العَظَمة، أو لمجرَّد تجديد الخبر والالتفات إليه، أو لعطف الخبر على الخبر المهمَّيْن، فإنَّ ذلك من خصائص اللغة أيضاً. وعلى كلٍّ، فهي ليست للترتيب ولا للتراخي؛ لقوله تعالى في سورة النازعات: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، ولأن الله سبحانه وتعالى مُنزّه أن يشغله عملٌ عن عمل، بل تحقَّق الكون كلُّه بإرادة واحدة، فابتدأ كلُّ واحد بسَيْره ونظامه لم يتخلَّف، ولم يشغل واحد عن الآخر إلا بما يقتضيه النظام، وانفصال واحد عن آخر إذا كان من نظامه الانفصال، كالأرض من الشمس مثلاً، وكلُّه سائرٌ في التكوين في الزمن الواحد، وتمَّ كلُّه في ستة أيام.

والاستواء: الاستقامة في البدن اهتماماً وقَصْداً للعمل، فهو مُستعارٌ من حال المخاطبين، وإنه منزَّه عن ذلك، ولكنه تقريب للأفهام، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدِّمة السادسة في أنواع مجازات القرآن).

ويظهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بالدخان: طَوْر السَّديم الذي يُقرِّره علماءُ الفلك والطبيعة في أنه مادة الكون، ويقولون: إنه أصل مادة السماوات والأرض. ويجوز عندما نعتبر أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ بياناً كاملاً عن مجموع الكون من مبدئه بما فيه الأرض؛ يجوز أن يكون من عطف العامِّ على الخاص، أو الكلِّ على الجزء، وذلك من خصائص اللغة. وإنما خصَّ الأرض بالذكر أولاً لشدَّة اتِّصالها بنا وتعلُّقنا بها؛ إذ اهتمامُنا في شأنها أكثر، واطِّلاعُنا على عجائبها ونِعَمِها أظهر.

وبعد أن خصَّها بالبيان لذلك، تكلَّم عن عموم الكون بما فيه السماوات والأرض، وحكى سهولة تكوينه عليه بقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ وقد قالوا: ليس هناك أمر بالقول على الحقيقة، ولا جواب لذلك القول،

ولكن الكلام تمثيلٌ لسهولة ذلك عليه[١]. فقد أخبر تعالى أنَّ ابتداعه للسماوات والأرض وإنشاءه لهما كان من غير تعذُّر ولا كُلفة ولا مشقَّة، بل بمنزلة ما يقال للمأمور: افعل، فيفعل من غير تلبُّث ولا توقُّف في مدَّة التطوُّر، وأنه سبحانه لا يَشْغله أمر عن أمر، فعبَّر عن هذا بالأمر والطاعة، على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] يعني: بمُجرَّد الإرادة، والله أعلم. ولا يعارض هذا أن يسير ذلك الشيء على مَهْل في طريق تكوُّنه، على سنن الطبيعة فيه؛ لأنَّ تلك السنن نفسَها هي من جملة ذلك التكوين والتكوُّن بالإرادة. والله أعلم.

وإنما قال: ﴿طَآئِعِينَ﴾ ولم يقل: (طائعتين)؛ لأنَّ المعنى: أتينا بما فينا. واستعمل لهما جمع العاقل لـمَّا خاطبهما بخطاب العقلاء، وذلك من خصائص اللغة، وهو في القرآن كثير، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وقال ابن عباس: أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وأتت الأرض بما فيها من الأنهار والأشجار والثمار[٢].

ثم ذكر تعالى المدَّة التي تكامل فيها خلق السماوات بقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ

---

(١) بل يحمل ما جاء في الآية من قول وجواب على الحقيقة. والأصل إجراء اللفظ على ظاهره ما لم يصرفه عن الظاهر صارفٌ قويٌّ، ومنه: استحالة الظاهر. ومتى ورد اللفظ وَجَبَ حَمْلُه على الحقيقة في بابه: لغةً أو شرعاً أو عرفاً، ولا يحمل على المجاز إلا بدليل يمنع حَمْلَه على الحقيقة من معارِض قويٍّ أو عرف مشهور. وهنا لا شيء يمنع من حَمْلِها على الحقيقة. وكثرة النصوص المشابهة ـ من آيات وأحاديث شريفة تضمنت خطاب الجمادات ومحاورتها ـ ترشح الحقيقة وتبعد الحمل على المجاز. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان عن حَمْل هذه الآية على المجاز، المتقدم في أول الكتاب (١: ٣٠١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٣٩١).

﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾، فتكون هذه المدة مضافةً إلى المدَّة التي ذكرت للأرض، على طريقة الاكتفاء والتداخل، وهو من إيجازات القرآن، وذلك لأنَّ الأرض ذرَّة من هذا الكون، تكوَّنت بتكوُّنه، وانفتقت بانفتاقه، وعندما كانت سائرة في أدوار التكوُّن كان الكون كلُّه كذلك سائراً بسير واحد؛ لأنَّ الله سبحانه لا يشغله أمر عن أمر.

وغاية ما تفيد هذه الآيات: أنَّ الأرض تمَّ كمالُ تطوُّرها قبل كمال تطوُّر مجموع الكون العلوي، وقد تأخَّر عنها في دورَيْـن، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فأفادت الآية أنَّ بعض الأجرام السماوية تمَّ تكاملُه بعد تمام تكامل الأرض. والله أعلم. وعلى هذا، يكون تمامُ تكوُّن الأرض في دَوْرَين، وكمالُه في أربعة على التداخل. أما الكون العلوي بعمومه ومجموعه فتمامُه في أربعة أدوار، وكمالُه في دورَيْن مضافَـيْن إليها، فيكون المجموع ستة على التداخل بين مُدَد هذه الأدوار وبين مُـدَدِ أدوار الأرض؛ لأنَّ سَيْر المجموع واحد، كما جاء في غير هذه السورة: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: في ستة أدوار، تطوَّر فيها هذا الكون بعمومه عُلْويِّهِ وسُفْليِّه. وعليه، فتكون هذه الآيات تفصيلاً لستة الأيام التي أُجمِلَت في تلك الآيات. والله أعلم.

أما عدد السبع في قوله: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ فهي للتكثير لا للتحديد، وكذلك عدد الأيام؛ إذ المراد به التـقريب لعقول أوساط البشر، والله أعلم[١]. وربمـا يُراد بها طبقات النجوم[٢]، فهي عديدة؛ إذ النجوم ليست في مستوى واحد، وإنما هي طبقات متباينة في مستويات وارتفاعات مختلفة وأبعاد متفاوتة تفاوتاً عظيماً، حسب الاكتشافات الحديثة في علم الفلك، فإنها أثبتت ذلك وقرَّرته بالبراهين.

---

(١) بل عدد السماوات سبع، وعدد الأيام ست، وهو للتحديد لا للتكثير، كما تقدَّم بيانه مراراً.

(٢) هذا القول لا يصحُّ، وقد تقدم إبطاله في سورة البقرة (٢: ٥٤).

وقد جاء في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، والطريقة: النسيجة المستطيلة يتكوَّن بيتُ الشَّعر من اثنتَيْن منهما فأكثر، شبَّهَ بها طبقات النجوم[١].

ثم قابل قولَه عن الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ بقوله عن السماء: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ والوحي هنا: عبارة عن التكوين، كما جاء ذلك عن قتادة والسُّدِّيّ[٢]، أي: أوجَدَ في كلِّ سماء ما أراد من بدائع أوضاعها، ومُقْتضيات أحوالها وموجوداتها، مما فيه دلالة على عظيم قدرته وإتقان صُنعِه.

ثم خصَّ بالبيان السماءَ الدنيا منا، فقال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، والوَصْف بالدنيا للإشارة إلى أن ما يقع عليه البصر إنما هو القريب منا، أما البعيد فقد عجز العلم عن إدراكه.

ثم ذكر شيئاً يكرِّره القرآن كلّما ذكر هذه النجوم، للإيذان بالردِّ على المشركين الذين يعتقدون في كَهَنَتِهم أنهم يعلمون عن العالم العلوي بواسطة الجنّ، يَستَرِقُونَ الخبر من السماء، ويقولون: لو كانت دعوى محمد بالنبوَّة حقاً لعَلِمَها هؤلاء الكَهَنة من السماء، وقد ألمح إلى هذا فقال: ﴿وَحِفْظًا﴾ وهو مصدر مؤكِّد لفعل محذوف معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، أي: وحفظناها من المُستَرِقةِ حفظاً. وقيل: بل هو مفعول له، وذلك الحَمْل على المعنى، أي: جعلنا المصابيح في هذه السماء للزينة وللحفظ من كلِّ شيطان مارد، فما تدَّعيه الكَهَنة من أنهم يعلمون غَيْبَ السماء غيرُ صحيح.

ثم ختم السياق بالتنبيه لمكان القدرة البالغة فيما تقدَّم من الأعمال العظيمة،

---

(١) بل المراد بها السماوات السبع، بعضهن فوق بعض.

(٢) ذكره الطبري في «تفسيره» (٢١: ٤٤١).

فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ فأين تقدير شركائكم؟ وكيف تكفرون بمن هذه قدرته، وهذه أعماله وتقاديره، وتُشركون به مَنْ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون، أيها الجاهلون؟!

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وبعد أن بيَّن تعالى أعماله العظيمة التي تخصُّه بالألوهيَّة، أنذرهم على إعراضهم، فقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي: كفارُ مكة عن هذه الحُجَج، وعن هذا البيان، ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١) ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: عالجوهم من سائر جوانبهم، وهو كناية عن أنهم صَرَفوا جُهْدَهم معهم بأنواع طُرق البيان والإرشاد: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فأنكروا عليهم رسالتهم و﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسالَ الرسل ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ تدعونا إلى ذلك، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زَعْمِكم ﴿كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ مُنكِرون.

---

(١) في الكلام تساهل وتوسُّع هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن: ينسب للاثنين ما هو لواحد منهما إذا جمع بينهما في البحث، فإنَّ الصاعقة كانت لعاد، وثمود أُهلِكت بريح صَرْصَرٍ عاتية، والله أعلم. (المؤلف).

فجهلوا أنَّ الله سبحانه يبعث الأنبياء من البشر؛ ليفهموا عنهم فَهْمَ البشر عن البشر، إذ ليس كلُّ بشر يقدر أن يفهمَ عن المَلَكِ أو يتَّصلَ به اتِّصالاً يؤدِّي إلى ذلك، وإنما هو خاصٌّ بالأنبياء الذين هم من أكمل البشر وأرقاهم، فهم أرواح ممتازة، ولهم مواهب واستعدادات خاصَّة. ويجوز أنهم يعلمون ذلك، ولكنهم يعاندون، لأنَّ تاريخ الأنبياء وأنهم من البشر لا يجهلُه أحد.

وبعد أن ذكر أمر عادٍ وثمود بالإجمال، بيَّنه بالتفصيل، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا القيد للزيادة في الإنكار، لا للاحتراز. أي: فعَتَوْا وظلموا وأعرضوا عن الإرشاد والدعوة إلى الرَّشاد عُلواً واستكباراً، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يعتزُّون بقوَّتهم وشوكتهم لـمَّا هدَّدهم هود بالعذاب.

فردَّ الله سبحانه وتعالى بما فيه نوعُ سخرية عليهم وتسخيف، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، ثم عطف على قوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ قولَه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾، ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة.

ثم ذكر ما جرى عليهم من العذاب من جرَّاء ذلك، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ من الصَّرّ، وهو البرد الذي يَصُرّ، بمعنى: يجمع ويقبض. أي: أرسلنا عليهم ريحاً باردة تُهلك بشدَّة بَرْدِها، وكان ذلك ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ والنَّحْس: نقيض السَّعْد.

ثم بيَّن تعالى أنَّ هذا العذاب إنما هو عذابهم في الدنيا، وهو دون عذابهم في الأُخرى، فقال: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، وقد قابل لهذا الخِزْي استكبارَهم على الدعوة إلى الرَّشاد، ثم أيأسهم من النجاة، فقال: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ثم فصَّل قصة ثمود، فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ﴾ أي: بيَّنّا لهم طريق الهُدى

بإرسال الرسل، ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الضلال على الهداية لفساد غرائزهم بمفاسد التربية وسوء التقليد، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ بأيديهم من ذلك الضلال. والهُونُ: الهوان، بمعنى: الخزي، فهو بمعنى الخزي الذي جاء في الآية السابقة.

ثم ذكر تَنْجيةَ المؤمنين من ذلك العذاب المهين، فقال: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما جاءهم من الحق، ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ ذلك العذاب.

وبين قصَّةِ عادٍ وقصَّةِ ثمودَ صنعةُ الاكتفاء من إيجازات القرآن؛ لأنَّ إرسال الرسل والهداية كان لكِلَيْهما، فحذف لفظ ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ من الأول؛ لدلالة الثاني عليه.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد بيان عقوباتهم العاجلة، بيَّن عقوباتهم الآجلة، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: يُساقون ويُؤْمَرون بالسَّير إليها. وعبَّر هنا بالنار عن موقف الحساب؛ تعبيراً بالنتيجة عن المقدِّمة، بقرينة قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لأنَّ ذلك إنما يكون عند الحساب. أما صورة الشهادة، فإما أن يُنطِقَها الله تعالى، وإما أن يَظهَرَ عليها آثارُ ما اقترفوا بها[1].

---

(١) بل الأول هو المتعيِّن، لقوله تعالى بعده: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

وإن قيل: إنَّ هذه الجلود غير تلك الجلود؟ فيجوز أن يَسْري إليها الحال من الرُّوح، على حدِّ قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وينوِّر هذا قولُه تعالى في حقِّ أهل النار: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، فإنها جلودٌ لم تكتسب الإثم؛ لأنها مجرّد غلاف للروح، ووسيلة لإذاقة العذاب. والله أعلم.

ثم حكى سبحانه وتعالى تعجُّبَهم من شهادتها وتوبيخَهم لها، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وأراد بالإنطاق: ما فيه من آثار الله العظيمة وقدرته البالغة، والله أعلم، تلك الآثار الشاهدة على وجود الله سبحانه وصفاته العلية واختصاصه بالألوهية والوحدانية[1].

فالآية ترمز ـ والله أعلم ـ إلى أنه سبحانه يدلُّ على ألوهيته ووحدانيته كلُّ شيء في هذا الكون بما أبدع فيه من عجائب[2]، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ

---

(١) بل هو نطق صريح لكلِّ ما سبق أن عملوه بتلك الجلود في الحياة الدنيا، مسجّل في باطن تلك الخلايا.

(٢) قال العلامة الألوسي في «روح المعاني» (١٢: ٤٢-٤٣): الظاهر أن التكلم والشهادة بنطق حقيقة، وذلك بعد إعطاء الله الأعضاء حياةً وعلماً وقدرة، ويحتمل أن يكون حصوله في الدنيا بأن تكون الأعضاء قد خلق الله فيها الإدراك، فهي تدرك الأفعال كما يدركها الفاعل، فإن كان يوم القيامة ردَّ الله لها ما كان، وجعلها مستحضرة لِمَا عمله أولاً، وأنطقها نُطقاً يفهمه المشهود عليه.

قال: وهذا ما قالوا من تسبيح جميع الأشياء بلسان القال، وأن الله على كل شيء قدير، والعقل لا يحيل ذلك. وعلى هذا تكون الآية من مؤيدات القول بالتسبيح القالي للجمادات ونحوها.

وأيّاً ما كان، فالنطق على معناه الحقيقي كما هو الظاهر، وكذا الشهادة. ومن ذهب إلى المجاز في النطق ذهب إلى خلاف ظاهر الآيات والأحاديث، ولا داعي له.

وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[١] [الإسراء: ٤٤]، فتلك شهادة على اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة، وعلى كفر مَنْ لم يؤمن بالله هذا الإيمان، ولم يُطع شريعتَهُ وأنبياءَه، وعلى استحقاقه للعذاب. وهكذا تكون شهادةُ الجلود أو شبيهةً بها، نَفْهمها على هذا الضوء والانكشاف. والله أعلم.

ثم أضافوا إلى هذه الحُجَّة حُجَّة أخرى، فقالوا: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٢] ولم تكونوا شيئاً، ثم يُميتكم ثم يُحييكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾، فالذي قدر على خلقكم وإنشائكم أولاً، وعلى موتكم وإعادتكم ثانياً، لِمَ لا يقدر على إشهاد جلودكم عليكم؟!

وعلى اعتبار أنَّ المراد من الشهادة ظهورُ الآثار عليها، يكون المراد من النطق: وضوح تلك الآثار.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من كلام الله تعالى، وتكون هذه الجملة مستأنفة، على نهج القرآن في مثلها، جاء بها للإيذان بأنه كان عليهم أن يدركوا أن إعادتهم أهوَنُ عليه من خِلْقتِهم الأولى، وله المَثَلُ الأعلى.

وبعد هذا البيان أنَّبهم ووَبَّخهم على إنكارهم البعث والحساب واجتراحهم السيِّئات؛ بهذا التوبيخ النادر الهازئ، فقال: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ لأنكم لا تُصدِّقون بأنكم تُبعَثون وتُحاسَبون، ولا يمرُّ ببالكم أنها تشهد عليكم.

وقد عبَّر عن هذا بقوله: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يتندَّر عليهم، أو هو من التعبير بالعلم عن الجزاء، على حدِّ قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

---

(١) تقدم في التعليق على تفسير هذه الآية من سورة الإسراء تقريرُ كون التسبيح حقيقياً.

(٢) الذي أنطق كلَّ شيء هو الذي خلقكم أولَ مرّة في الدنيا من عناصرَ لا حياةَ فيها، ولا عِلمَ لها ولا نُطق، فجعلكم أحياء ذوي عِلم تنطقون.

﴿تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، تعبيراً بالسبب عن المسبَّب، أي: ظننتم أنْ لا بعث ولا حساب، ولا يُحصي الله عليكم ما تعملون، ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وفي صورة التعبير بقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ تندُّر بديع، وتهكُّم بليغ، كأنَّ استتارهم من ذلك كان ممكناً لهم، فلما أهملوه كان مصدر بلائهم. ويجوز أن يكون الكلامُ عبارةً عن عدم اكتراثهم بسلوكهم المُرْدي الذي يَظهَرُ أثرُه على الأعضاء في الدار الآخرة.

ومن مباحث اللفظ: أن كلمة: ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ مضمَّنةٌ معنى: تُصدِّقون، أو: تظنُّون، فُعدِّيت تعديتها، وأن كلمة ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بَدَلٌ من ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾: خبرٌ لـ﴿ذَٰلِكُمْ﴾.

ثم التفت إلى الغيبة إبعاداً لهم عن الخطاب، وقال: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، وفي التعبير بالصبر تأليمٌ وتهكُّم بديع، والمثوى: المستقر الدائم. أي: فإن يصبروا فهم فيها خالدون، ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ أي: يسألوا العُتْبى والعفو ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: المُجابين إليها. والآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه سرَّ ركونِ هؤلاء إلى ما سبَّب لهم هذا البلاء، مُلمِعاً إلى أن ذلك ليس من أصل خِلْقَتِهم، لأنها كلَّها طيِّبة، ولكن الإنسان ابن التربية والبيئة والمحيط، فقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾، فينسب لنفسه سبحانه ما هو جارٍ بحسب سُنَنِه الكونية، بمعنى: مَضَتْ سُنَّة الله تعالى في أخلاق البشر وطباعهم أن يميلَ الشخص إلى مثيله في الأخلاق والسلوك والأفكار، والأقوى منهم في ذلك يجلب الأضعف.

وعلى هذه السُّنَّة مالَ هؤلاء إلى مَنْ هو أقوى منهم في ذلك الضلال، ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمور الدنيا وأمتاعها وما هم عليه من الضلال، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمور الآخرة، بالأمانيّ الباطلة الخلّابة، كقولهم: «إن الله غفور رحيم»، أو بالتكذيب والإنكار. فأرَوْهُم أنْ لا بعثَ ولا حسابَ ولا شيءَ أبداً بعد الموت، وإنما هي هذه الحياة الدنيا، يَحْيَون ويموتون وما يهلكهم إلا الدهر. فتمكَّن منهم هذا الضلالُ ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي: استحقّوا بذلك عذابَ الله، ودخلوا فيه مع أمثالهم من الأمم الماضية من الجنِّ والإنس الذين ساروا سَيْرهم في معارضة الرسل أو إهمال ما جاؤوا به من عند الله، فسجَّل عليهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ خُسْراناً مبيناً، حيث خسروا السعادة واستبدلوها بالشقاء.

والمراد من القول: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ...﴾ [الأعراف: ١٨]، والأول سببٌ للثاني، والثاني لازمٌ للأول.

ثم حكى صورةً من ذلك التزيين، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الرؤساء للأتباع: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1] أي: غالِبوه بالشعر

(١) وذلك لأنهم إذا سمعوه لا يملكون أنفسهم أن تتأثَّر به، ويدخل في أعماقها، ويقرعها قَرْعَ الصواعق، لذلك يتواصَوْن أن لا يستمعوا إليه إذا قُرئ به أو ألقي على الناس. (المؤلف).

والتخليط والمشاغَبة لعلكم تَغلِبون. وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاء الرؤساء عالمون بمنزلة القرآن وقوة تأثيره، ولكنهم يفعلون ذلك بغياً وعدواناً.

وقد هدَّدهم سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: لنَجْزينَّهم أسوأَ الجزاء عن أعمالهم التي هي أسوأ الأعمال.

ثم بيَّن ذلك الجزاء ضمن بيان هذا الحكم العامِّ المسبوك على التعليل، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾، ثم بيَّن سبب هذا الحكم عليهم، فقال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ حسداً وعناداً، وبغياً وفساداً.

ومن مباحث اللفظ: أن ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، و﴿جَزَآءُ﴾ خبر، و﴿ٱلنَّارُ﴾ عطفُ بيان للخبر.

ثم حكى سبحانه وتعالى ما يكون حينئذ بين هؤلاء القُرَناء من المُعاتَبة والمُلاوَمة، وطلب الأتباع التشفِّي من الرؤساء والفَـتْك بهم؛ إذ أوقعوهم في هذا البلاء، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا﴾ الصِّنفَيْن ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ﴾ شياطين ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ قيل: طلبوا أن يُذِلّوهما بالوطء بالأرجل انتقاماً لِـمَا أوقعاهم فيه، وقيل: بل طلبوا أن يكونا أشدَّ منهم عذاباً، في الدَّرْك الأسفل من النار.

وترسم هذه العبارة وجوهاً مغتاظةً غاضبة عابسة حانقة على أولئك القُرناء الذين كانوا لهم في الدنيا من أعزِّ الرؤساء المحبوبين المقدَّسين، وذلك لأنهم قادوهم إلى هذا الشقاء. ويجوز أن يعود الجنُّ للجن، والإنسُ للإنس، والله أعلم، على طريقة إيجاز القرآن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر حال المشركين ومصيرَهم، ذكر حال المؤمنين ومصيرَهم، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على ما تُوجبُه الربوبية من عبادته، فهؤلاء ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يمدُّونهم فيما يعنُّ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدروهم، ويدفع عنهم الخوف والحزن، وذلك بطريق الإلهام. كما أنَّ الكفرة يُغويهم من قُيِّض لهم من قُرناء السُّوء، بتزيين القبائح والسَّيئات. وقيل: تتنزَّل عليهم عند الموت بالبشرى: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟[1] وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٤٨٠: «إنَّ الذين أعلنوا بألسنتهم مُتَحَدِّين الطُّغاة من أئمة الكفر: ربُّنا الله وحده لا شريك له في ربوبيَّته وإلهيَّته، ثمَّ استقاموا على سلوك صراط الله المستقيم، اعتقاداً وعملاً، ظاهراً وباطناً، نفسيّاً وجسديّاً، تتنزَّل عليهم الملائكة آناً فآناً، كلَّما تعرَّضوا لِـمُقْلِقات مُزْعِجات بالمخاوف والمُحزنات، فتُلقي بما يُشبه حديثَ النفس في قلوبهم: أنْ لا تخافوا من مَكارهَ تَنزِلُ بكم، ولا تحزنوا على شيءٍ فاتكم من مَحابِّكم، لأنَّ الله ربَّكم قد اختار لكم ما هو خيرٌ لكم وأفضل؛ جزاءَ إيمانكم واستقامتكم، وتنزَّل عليهم عند الموت، قائلين لهم: لا تخافوا على ما تُقدِمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلَّفتُم وراءكم من أمور الدنيا، فما أُعدَّ لكم عند ربِّكم خيرٌ لكم وأعظم».

﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾، والأظهر أنَّ هذا التنـزُّل يشمل الأمرين معاً، كما يدلُّ عليه قولهم لهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: نحن أعوانكم في الدنيا على أموركم، نُلهِمُكم الحقَّ ونُرشدكم إلى ما فيه خيـرُكم وصلاحُكم في الدارَيْن. ولعلَّ ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرِّين على الطاعات من التوفيق للخير بمعونة الإيمان.

أما في الآخرة، فيتلقَّونهم بالكرامة والإكرام حين يقع بين الكَفَرة وقرنائهم ما ذكره من التعادي والخصام، ثم يُبشِّـرونهم بقولهم: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من فـنون الطيِّبات، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: ما تَـتَمنَّون وتـتطلَّبون، ويكون ذلك ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾، والتنـزُّل: ما يُقدَّم مُعجَّلاً للضيف من الكرامة. ولا يخفى ما في صفة «الغفور الرحيم» من الإشارة إلى أنَّ الله تعالى يغفر لهذا القائل المستقيم كثيراً من الذنوب. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وبعد أن بيَّن هذا المصير العظيم للمؤمنين المستقيمين على الإيمان، أردَفَه بالبيان عن صنفٍ آخرَ أعلى منهم، وهم الذين يُضيفون على هذا الإيمـان والعمل الصالح: الدعوة إليه، وصاغ العبارة بصيغة تُؤْذن أنهم أعلى شأناً من سابقيهم، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1] اتِّخاذاً

---

(١) وهناك وجه آخر لتفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ...﴾، وهو أنه سبحانه نوَّه بشأن الذين ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾، مبيِّناً وجه استحقاقهم لتلك الكرامة والأمن من الفزع، وزادَ في وصفهم أنهم ـ فوق حُسْن إيمانهم ـ يدعون إلى الله، ويعملون الصالحات، ويعتـزُّون بالإسلام، وصاغ العبارة على وجه يتضمَّن أبدع التعليل لاستحقاق ذلك الجزاء، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. وعليه، فمن يكون أولى =

للإسلام ديناً ونِحْلةً، أو ابتهاجاً بأنه من المسلمين. اللهمَّ اقبَلْ مني هذا التفسير خالصاً لك، ودعايةً إلى طريقة محمد ﷺ وأصحابه.

ثم علَّل مضمون ما تقدَّم من حُسن مصير المؤمنين وسوء مصير الكافرين وقرَّره بما بين الحسنة والسيِّئة من تبايُن، فلا غَرْو إذا تباين الجزاءان: جزاء المُحسِن وجزاء المُسيء، إذ لا تستوي الحسنة والسيئة.

وقال أبو السُّعود: بعد أن بيَّن محاسن الأعمال بين العبد وربِّه، بيَّن محاسن الأعمال بين العباد؛ ترغيباً لرسول الله ﷺ في الصبر على أذية المشركين، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾، و﴿لَا﴾ الثانية مزيدةٌ لتأكيد النفي، أي: لا تستوي الخَصْلة الحسنة والخَصْلة السيِّئة في الآثار.

ثم فرَّع على ذلك ما يقتضيه من الإرشاد في سُلوك العباد، وبيَّن حُسْن عاقبة الحسنة إذا دُفِعَتْ بها السيِّئةُ، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وهذا مَثَلٌ أعلى في السلوك والأخلاق، أي: ادفع السيِّئة حيث اعترضَتْكَ من بعض أعاديك بالتي هي أحسنُ ما

= منهم بتلك الكرامة؟! ثم أكمل هذا التعليل بالإلماع إلى الفرق بين موقف المؤمنين والمشركين، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾، لذلك تباين مصير المحسن والمسيء.

وقد جعل هذا تقريراً لما قبله وتمهيداً لما بعده، على نهج القرآن، فأرشد إلى أن الحُسْنى كما تصلح بين العبد وبين ربِّه، تصلح كذلك بين العباد، وأدمج في عموم ذلك إرشاده ﷺ إلى أن يدفع بحلمه جهلَهم، وبعفوه إساءتَهم، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

ثم أفاد أن هذه الخَصْلة السَّنِيَّة لا يتمكَّن منها إلا من صَبَر وقاوم العواطف، لمحافظته على سلامة الفطرة، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ذو نصيب وافر من كمال الصبر، ومن المحافظة على سلامة فطرته، وكمال طبيعته. والله أعلم. لأنَّ المحافظ عليها هو الذي يتمكَّن من تحمُّل الأذى ومقابلة الإساءة بالإحسان. (المؤلف).

يُمكِنُ دفعُها به من الحسنات، وذلك أن تُحسن إلى من أساء إليك[١]، فيستحيي منك لحُسْن فعلك وجميل صَنيعك، فينقلب قلبه لك، فيصبح صديقاً حميماً بعد أن كان عدواً لئيماً، كما سيأتي بيانه في الآية.

ويندمج في هذا الإرشاد العام إرشادُه ﷺ في كيفيَّة الدعوة إلى الله، بأن يدفع بحقِّه باطلَهم، وبحِلمِه جهلَهم، وبعفوه إساءتَهم، وربما يكون إرشاده ﷺ إلى ذلك هو الهدف الأسمى من الآية.

فهذه الجملة بحسب السياق هي كالنتيجة لِـمَا قبلها والتفريع عليه، وبحسب الصيغة تثقيفٌ عام وإرشاد جليل، أكمله وبيَّن ثمرته بقوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: إنَّ هذا العمل يُصيِّر العدو صديقاً، ويحوِّل العداوة إلى صداقة، لأنَّ مقابلة الإساءة بالإحسان تنزع البغضاء من المعتدي، وتتركه مندهشاً، فيرتدّ صديقاً ودوداً.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الطريق الموصلة لذلك إنما هي الصبر على الأذى، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: ما يتوفَّق لهذه الخَصْلة ـ وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ـ إلا المدرَّبون على الصبر. يُبيِّن أنَّ أداة الحصول على هذه الخصلة العظيمة السنيَّة إنما هي الصبر والثبات، فالطريق الوحيد لهذه المُوفَّقيَّة في تحويل العدو صديقاً حميماً بهذه المعاملة الحسنة: هو الصبر على المرارة وتحمُّل الأذى، ولا سيَّما مرارة المقاومة للدعوة، حتى يَضْمَحِلَّ الباطل ويغلبَه الحق.

ثم زاد في هذا البيان، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي: من هذا الصبر، بمعنى: ذو نصيب وافر منه، إذ لا يكفي للحصول على ذلك إلا كمال الصبر،

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٨: ١٤).

أو: ذو حظ عظيم من الفضائل النفسانيَّة عموماً. فليتنبَّه المتصدُّون للإصلاح إلى ما تطلبه منهم هذه الآيةُ من التضحية والصبر والثبات.

ولما كان هذا الصبر الجميل عُرْضَةً لنَزَعات الشيطان وإفساداته، أمره أن يحترس منها، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ والنَّزْغ: شبهُ النَّخْس، يريد به وساوس الشيطان. أي: وإنْ صَرَفَتك وساوسُ الشيطان عما أرشدت إليه الآية من الدفع بالتي هي أحسن، حتى ضَعُفتَ عن الصبر على الأذى، ولا سيَّما في سبيل الدعوة إلى الحق، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾، ومفاد هذه الآية: تحذيرُه من ذلك، وحَمْلُه على التمسُّك بالصبر مهما كلَّفه الأمر. أي: إنْ صَرَفك عن هذه الخَصْلة السنيَّة صارفٌ شيطانيّ، فاستَعصِم بالله من شرِّه، وامْضِ لشأنك رُغْم أنفه، ولا تَضعُفْ تجاه الصوارف والعوارض.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

ولما كان السياق متضمِّناً للإنكار على الشرك، والدعوة إلى التوحيد، أردَفَه بما يُؤيِّد ذلك، عائداً بالكلام إلى ما بدأ به السورة من الآيات في خلق الأرض والسماوات، التي أنكر بها على كفر المشركين، وأكملها فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالة على شؤونه العظيمة واختصاصه بالألوهية: ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، ثم أتى بهذه الجملة يردُّ بها على مَنْ يسجد لها، لِمَا فيها من عظمة وجلال، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟

﴿لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أي: اسجُدوا للذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، لأنّها أثرٌ من آثار عظمة خالقها، فهو المستحقُّ لأن يُسْجَد له، لا مخلوقاته وإنْ كانت عظيمة، لأنه هو خالقها، فاسجُدوا له وحده ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾، ولا تسجدوا لها، فذلك ظلم عظيم، وجهل فظيع، وإنْ قصدتُم التوسُّل بها إليه.

ثم ختم الكلام بما فيه تأنيبٌ لهؤلاء المشركين، وقال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن هذه الدعوة، وأعرضوا عن التوحيد والتنزيه، ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ والمراد بهذه العندية هنا: عُلوُّ المنزلة، فقد نزَّلهم لكرامتهم منزلة المقرَّبين عند الملوك، مستعيراً ذلك من حال المُخاطَبين، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)، لأنه سبحانه يتحدَّث عن ذاته في مثل هذا مع المُخاطَبين بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعُظمائهم، فهو يُشبِّه الملائكة المتميِّزين بالمقرَّبين عند الملوك والسلاطين؛ لبيان منزلتهم وكرامتهم. أي: فالمقرَّبون من الملائكة لا يتكبَّرون عن عبادته، بل ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ من مواصلة عبادته تعالى وتوحيده وتنزيهه.

ثم تابع السياق عن الآيات الدالة على اختصاصه بالألوهيَّة، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾ وقد استعار الخشوع لليبس والقحول، أي: تراها يابسةً قاحلة، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾، وقد عبَّر بهذا عن صَدْعِها بالنبات بعد اليبس، أي: فإذا أنزلنا عليها الماء أنبتت ما فيها واخضرَّت وزَهَت.

ثم استدلَّ بذلك على البعث بعد الموت، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ يشير إلى أنَّ الأمرَيْن من نهج واحد، وليس إحياء الموتى بالبعث والنشور بأعجَبَ من ذلك، والكلُّ على الله يسير؛ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

ومن نهج القرآن: كلَّما ذكر إحياء الأرض بالنبات بعد موتها باليبس، أن يستطرد إلى ذِكرِ البعث، بطريقة قياس النظير على النظير، فإنَّ كلًّا منهما إعادة لِـمَا كان عليه. وفيه إشارة وتنبيه إلى أنَّ طبيعة زمن البعث في إحياء الأموات، كطبيعة زمن الربيع في إحياء النبات[1]. والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

ثم أردف البيان عن هذه الآيات الظاهرة الباهرة، ودلالتها على انفراده بالألوهية، بتهديد مَنْ يُلحِدُ بها، على نهج القرآن في إرداف النقد بالتهديد، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي: يميلون عن الإيمان بها، وينحرفون عما تدلُّ عليه من انفراده سبحانه بالألوهية دلالة جليَّة ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾. وفي صيغة التعبير تهديدٌ رهيب. ويجوز أن يشمل الإلحاد سائر المحامل الباطلة.

ثم ذكر جزاءهم، وقَرَنه بجزاء المؤمنين، بأسلوب الاستفهام التحسيسي، فقال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾؟!

---

(١) الطبيعة والزمان ليسا لهما تأثير في الحوادث، وإنما التأثير لله تعالى وحده، والزمان ظرفٌ لوقوع الحادث بأثر قدرة الله تعالى، والطبيعة أسباب أجرى الله تعالى العادة بأن يقرنها بفعله وتأثيره. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم في أول الكتاب (١: ٤٣٩).

وبعد أن بيَّن المصيرَيْن، بالغ في التهديد للمشركين، فقال: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾، ويجوز أن يكون هذا بعد بيان المصيرين للترغيب والترهيب معاً.

ثم تابع التأنيب والتهديد بعبارة تشمل المُلحِدين وغيرَهم، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ وقد حذف الخبر الدالَّ على التهديد للمبالغة في التهويل.

ثم وصف هذا الذكر بما يدلُّ على أنّ إنكاره والكفر به ظلمٌ وغَباوةٌ وعِناد، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾﴾ منيع، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ أي: لا يتطرَّق إليه الباطل من جهة من الجهات؛ لأنه ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾، وأشار بهذين الوصفَيْن إلى ما فيه من حكمة وسَداد ورحمة للعباد. وقد اكتفى بهذه الجملة المشتملة على هذه الأوصاف عن ذِكرِ الخبر للجملة السابقة كما قلنا، لأنها تدلّ على المبالغةِ في تأنيب الكافر المُعْرض عنه، واستحقاقِهِ لأشدِّ العذاب. وهو مدلولُ الخبر المقدَّر، أي: إنَّ الذين كفروا بهذا الكتاب العزيز المنزَّل من عند الله الحكيم الحميد، سينالهم أشدُّ العذاب.

ثم عاد إلى السَّنَنِ السابق، وهو تثبيتُه ﷺ تجاه أذى قومه له، كي لا يضيق قلبُه بمفترياتهم، فإنها منتظرةٌ من أمثالهم، فقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: ما يقول هؤلاء الكفَّار فيك، إلا ما قد قال أمثالُهم في رسلهم من قبلك، أو: ما يقال لك في الأمر بالتثبيت تجاه مفتريات قومك والصبر على سفاهتهم، إلا كما قيل للأنبياء السابقين في الصبر على سفهاء أقوامهم. وقيل: بل الكلام إنكارٌ على إلحاد الكفَّار وكفرهم بالذكر لـمّا جاءهم، أي: إنَّ ما أُوحي به إليك هو ما أُوحي به إلى الرسل قبلك، فلِمَ ينكرون عليك؟ ومحصَّل المعنى: إن توحيد الله تعالى والإيمان بالبعث، أمرٌ جاء في سائر الشرائع، فكيف ينكرونه ويُلحِدون فيه؟

ثم بيَّن سبحانه وَجْهَ تأنِّيه في عقابهم مع عِظَم إجرامهم، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي: فإمهالُه لهم من خصائص صفاته تعالى لعلَّهم يرشدون، فإذا أصرُّوا أخذهم بالعقاب الأليم. وفي الآية ترغيبٌ في التوبة والإنابة إلى الله، وترهيبٌ من الإصرار والمعارضة لما جاء عن الله.

ثم عاد إلى ما بدأ به السورة من أنه ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، ومع ذلك أعرض أكثرهم ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾، [فُصِّلت: ٥]، عاد بها خلاصتُه: أنه لو جاءهم هذا الكتاب بغير لغتهم لكان لهم كلام، ولو على وجه بعيد، وبها فيه ردٌّ على ما يعترضون به على القرآن من أن الكتب السماوية كلَّها بغير العربية، فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾[1] أي: بغير لغتهم ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: هَلَّا بُيِّنت بلساننا حتى نفهمَها، ﴿ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي: أكتابٌ

---

(١) كان مشركو العرب ـ بحكم كرههم للقرآن ـ يخدشونه لا بالنقاش العلمي، ولكن بالمهاترات والمشاغبات الزائفة التي تنطلي على الجُهَّال، فكانوا يقولون: كيف نزل بلسان عربي، إن كان كتابَ هداية عامة للبشر؟ فردَّ الله سبحانه عليهم بما يتضمَّن أنَّ لغة الكتاب المنزَّل لا بد أن تكون واحدة، وعلى الأمم أن تتعلّمها. ومن الطبيعي أن يكون في لغة الرسول، إذ لو كان في غير لغته لاتّجه أن يقال: أرسول عربي وكتاب أعجمي؟ أما الآن، فلا اتِّجاه لنقد ولا إيراد. ومن الواضح أن القرآن ـ لما نزل ليكون ديناً عالمياً ـ كانت لغته العربية لغةً عالمية أيضاً، يجب أن يتعلَّمَها كلُّ البشر مع لغاتهم؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به واجبٌ أيضاً، فإنَّ أحكام المقاصد هي أحكام الوسائل. والقرآنُ لا يجوز ترجمته إلى اللغات لأنَّ ذلك محال، ولكن يجب على أرباب كلِّ لغة أن يتعلَّموا العربية معها حتى تكون لغة عالمية. (المؤلف).

قلت: ويمكن أيضاً ترجمة معاني القرآن، ويكون الكتاب المترجم بمثابة تفسير للقرآن الكريم كتب بلغة أخرى غيرِ العربية، وفي هذا نفعٌ للناس وهداية، فإذا اهتدوا وآمنوا به تعلَّموا العربية بعد ذلك.

أعجميٌّ ومُرْسَلٌ إليه عربي؟ يريدون كيف يُرسَلُ إلى العرب بكتاب أعجمي. ومضمون الآية: أنه تعالى أنزل الكتاب بلغتهم ليكون أبلغَ في الحجَّة وأقطعَ للمعذرة، فما وَجْهُ قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فُصِّلت: ٥]؟!

ثم ألمع إلى سبب ذلك فيهم، وهو أنهم قد أفسدوا طبائعهم بمفاسد التربية وسوء التقليد، حتى تمكَّن الضلال منهم، ففقدوا الاستعداد للهدى والمنطق في الكلام، ألمع إلى ذلك في مقابلتهم مع المؤمنين، وقال: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى﴾ إلى الحق ﴿وَشِفَآءٞ﴾ لما في الصدور، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ لأنَّ التقليد يُعمي البصيرة، ويُفْقِدُ الاستعداد الفطري في النظر والاستدلال، وقد مثَّل لذلك بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ إذ هو تمثيلٌ لعدم استفادتهم من هذا القرآن وآياته، وتصويرٌ لِـمَا على قلوبهم من أكنَّة، وفي آذانهم من وَقْر؛ لأنَّ مَنْ دُعيَ من بعيد لم يسمع، وإن سَمع في الجملة لم يفهم، وكذا حال هؤلاء الذين قد انطبعوا على الضلال بسُوء التقليد، فإنهم لا يسمعون شيئاً يُخالف عقيدتهم، ولا يَرَوْنَه جديراً بالنظر والتفكير، فليس عندهم استعدادٌ لفهم هذا القرآن.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨﴾.

ثم عاد إلى تسليته ﷺ ببيان أنَّ الاختلاف والتكذيب في شأن الكتب السماوية سُنَّة في عموم الضَّالِّين، غير مختصَّة في الضالِّين من قومك، فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى

﴿ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فردَّه بعضهم وقبله آخرون، كما اختلف قومُك في هذا القرآن، فقَبِلَه بعضُهم وردَّه آخرون، وهم الذين يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فُصِّلت: ٥].

ثم بعد هذه الجملة التي ذكرت للتمثيل، عاد إلى قريش وذكر وجْهَ إمهالهم مع عِظَم إجرامهم، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عنهم إلى أجل مُسمَّى ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالهم بالعذاب، كما فُعِلَ بمكذّبي الأمم السالفة، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفّارَ قومك ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: القرآنِ ﴿مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾، فلا ينبغي أن تستوحش منهم، ويشتدَّ استياؤك، وما أنت عليهم بوكيل.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضَرَرُ إساءته، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ فقد هداهم إلى الحقِّ بالطبيعة والشريعة؛ خلقهم مستعدِّين للإيمان الصحيح والعمل الصالح، وسوَّى نفوسهم، وألهمها معرفةَ فجورِها وتَقْواها، وأرسل الرسل تُوضِّح ذلك لهم وتُجلِّيه، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، بتدسيتهم لها وإيقاعهم إيَّاها في مَهَاوي الرَّدى.

ثم بيَّن تعالى أنَّ اليوم الذي يُنجِزُ فيه هذا الوعد والوعيد، هو يومٌ استأثر الله بالعلم به وبمجيئه، وقَرَنَه بدليل عِلمِه، فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، ثم أشفع ذلك ببيان عِلمِه الشامل، مُلْمِعاً إلى إحصائهم وما يعملون، فقال: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ من إنسان أو حيوان ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، والأكمام: جمع «كِمّ» بالكسر، وهو وعاء الثمرة. و﴿مِن﴾ الأولى بيانية. وفي الآية إيماءٌ إلى أنه خلق الخلق وأحصاهم عَدَداً، وإيذانٌ بأنَّ مَنْ هذا عِلمُه ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم ذكر خصائصَ ذلك اليوم الذي يُؤخَّرون إليه، وبعضَ ما يقع فيه ممّا يتعلَّق بالبحث، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾؟ تقريعاً لهم وتهكُّماً بهم، ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: أعلَمْناك ما منَّا من أحدٍ يشهد لهم بالشركة الآن، إذ تَبرَّأنا منهم لـمّا أدركنا الحق وعاينَّا الحال. فسجَّل عليهم بما يتضمَّن تأنيبهم وتنديمهم، فقال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي: وعلموا أنْ ليس لهم مَهْرَب ولا نَجاة من عذاب الله، أعاذنا الله.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

ثم ألـمع إلى أن منشأ معارضة هؤلاء المعارضين: حِرصُهم على حُطام الدنيا، وخوفُهم على مراكزهم من الضياع، ألـمع إلى ذلك وسبكه على التهديد ضمن بيان طبيعة الإنسان في شدَّة حبِّه للدنيا وطلب السَّعة فيها جاهاً ومالاً، وخَوْفِه من تبديل اليُسْر عُسْراً، فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: من طلب السَّعة في النِّعَم والرَّفاه وحُسن الحال، كما جاء في الحديث: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنَّى لهما ثالثاً»[1]، ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ وهو الضيق والضُّرُّ ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾، وهذا وصفٌ للجنس بوصف غالب أفراده، ومثل ذلك من خصائص اللغة، ويُسمِّيه البيانيون: المجاز المُرسَل، من ذكر العامِّ وإرادة الخاصّ.

ثم تابع البيان في وصف الجنس بوصف غالب أفراده، وضمَّنه الوعيد بعد النقد،

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨)، عن أنس بن مالك.

على نهج القرآن، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ بأنْ فرَّجْنا عنه، وبدَّلنا السيِّئة بالحسنة؛ ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: أحرَزتُه بعملي ومَقْدرتي، أو هو حقٌّ أستحقُّه، لِـمَا لي من الفَضْل والعمل، أو هذا لي على الدوام فلا يزول، ويقول الكافر: لو لم أكن على الحق لَـمَا أعطاني الله ما أعطاني.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ على تقدير قيامها وفَرْضِه ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ والكرامة. أي: لستُ على يقين من البعث، فإن كان الأمر على ذلك فسأنالُ الحُسنى أيضاً؛ لاعتقاده أنَّ ما أصابه من نِعَم الدنيا إنما هو لاستحقاقه لها بعمله أو من رضاء الله عنه، وأنَّ نعيم الآخرة تَبَعٌ لنعيم الدنيا، ولم يعلم هذا المخدوع أنَّ رزق الله في الدنيا لا يتمشَّى على رضاء الله وعَـدَمِه، كيف وقد قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]. وقد يتمشَّى على عكس ذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]، فهو تعجيلٌ لطيِّباتهم في الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق. وقال ﷺ عن المتنعِّمين في الدنيا من هؤلاء المشركين: «أُولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيِّباتُهم في حياتهم الدنيا»(١).

ثم ردَّ سبحانه وتعالى على أُولئك الزائغين وتوعَّدهم بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ أي: شديدِ الوقع أليم.

ثم أكمل الكلامَ عن سجيَّة الإنسان، وضمَّنه الوعيدَ للكافرين، فبيَّن أنه يُعرِض عن الله في السرَّاء، ويلتجئ إليه في الضرّاء، وضمَّن الكلام وعيداً، فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: أعرَض عن الشكر وتعاظم وتكبَّر، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ شبَّهه بما له عَرْضٌ؛ للإشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ من الطويل؛ إذ الطول أطول الامتدادَيْن، فإذا كان عَرْضُه كذلك، فما ظنّك بطوله؟

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

ثم عاد إلى سَنَنِ الكلام السابق عن أولئك القائلين: إنَّ قلوبهم في أكنَّة عن هذا القرآن، وفي آذانهم وَقْر وصَمَمٌ عنه، عاد إليهم فقرَّعهم على أبلغ وجوه التقريع، وبصَّرهم على أوضح وجوه التبصير، وخَتَم السورة بما بدأها به من أن هذا القرآن مُنزَّل من عند الله، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ أي: مَنْ أضلُّ منكم؟ فوضع الموصول موضع الضمير؛ شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم، وصدَّر الكلام بقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، على أسلوب القرآن في الإخبار عن الشيء المتحقَّق الوقوع، لأنَّ الرؤية أقوى سند الإخبار.

ثم ختم ما تقدَّم من البراهين القاطعة والبصائر اللامعة، في ردِّ الشرك وإثبات التوحيد والحشر، ختمها بالتنويه بشأنها والإيذان بأنه تعالى سيَجري في التنزيل والإيحاء على هذه الطريقة، حتى يتمّ الإقناع لأكثر هؤلاء المشركين، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1] أي: سنُريهم في هذا القرآن من

---

(١) القرآن العظيم يُلوِّن الخطاب، وينوِّع الدلائل، ويُرادف البراهين، على اختصاصه سبحانه بالألوهية، وقدرته على الحشر والحساب، وعلى تحقّق ذلك ووقوعه، ويأخذ هذه البراهين =

هذه الدلائل الكونيَّـة مرّةً بعد أُخرى، إلى أن تزول الشبهاتُ عن قلوب أكثرِهم، ويحصل لهم الجَزْم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم، المنزَّه عن الشبيه والنظير.

ثم استشهد على تحقيق ذلك والقدرة على إنجازه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾؟ أي: أفلا يُمكِنُه وهو العليمُ بكلِّ شيء أن يُظهِرَهم على كثيرٍ من الآيات البيِّنات، ويُنبِّههم عليها بأنواع من البيانات؟

ولا يخلو الاستفهام من الوعد والوعيد، يَتوعَّد الذين سيجمدون على إنكارهم وكفرهم ولم يسترشدوا بما يُنبَّهون إليه المرَّة بعد المرَّة من تلك الآيات في الأنفس والآفاق، الدالَّة على استحقاقه وحده لأن يُعْبَد، والمُبْرِهنة على إثبات الحشر والحساب، وقد قرَّر هذا فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: إنهم ـ رغماً عن تلك الآيات البيِّنات ـ في شكٍّ عظيم من البعث والجزاء، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ فيعلم كيف يُحييهم بعد الموت، ولا تَخْفى عليه منهم خافية، ولا يفوته منهم أحد، وسيُجازيهم جزاءً وفاقاً.

وأتى بكلمة ﴿أَلَآ﴾ في الجملتَيْن لزيادة التقرير والوعيد.

* * *

= من الآفاق، كخَلْق السماوات والأرض وما فيهنَّ من عِبَر وعَجَائب، ومن نفس الإنسان، مثل: خلقه من رحم واحد ذكراً وأنثى، وتطوُّره في الرَّحم، إلى أمثال ذلك. ومعنى الآية: أن الله سبحانه سيَجري في هذا التَّنزيل على هذه الوتيرة العلمية، ويستديم فيها، حتى يتبيَّن ويتَّضح لمن ألقى السمع وهو شهيد: أنَّ ما يقوله سبحانه من اختصاصه بالألوهية، وقدرته على الحشر والحساب، وتحقق ذلك منه، هو الحق المبين. (المؤلف).



مكيَّة، وهي ثلاث وخمسون آية

ومُلخَّص موضوعها:

ـ بيان اتِّفاق الشرائع المنزَّلة من عند الله في أُصول الدين التي منها عقيدة التوحيد والبعث والحساب.

ـ وتقرير الدعوة لذلك بالترغيب والترهيب، وشيء من البرهان والدليل.

فهي متناسبة مع ما قبلها فيما اشتملت عليه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة. وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها؛ اهتماماً به، ومنه هنا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ هذه السورة، أو: مِثلَ هذا الوحي ﴿يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ فبيَّن تعالى أنَّ مضمون هذه السورة ـ أو هذا الوحي ـ موافقٌ لِـمَا في الكتب المنزَّلة على الرسل المتقدِّمين، ومُتَّحِدٌ معها في أصول الدين، من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد للحق. وفي التعرُّض لصفة الحكمة تنبيهٌ لحكم ما جاء فيها أو في القرآن من الأحكام، وفي التعرُّض لصفة العزَّة حَمْلٌ على التمسُّك بتلك الأحكام والإرشادات.

ثم أيد مضمون هاتين الصفتَيْن بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إيجاداً

وملكاً؛ إيجاداً بمقتضى الحكمة، وملكاً بمقتضى العزَّة، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾ في ذاته وفي أعماله.

ثم صوَّر تلك العَظَمة والجلال بهذا التمثيل الذي يدلُّ على شدة الغضب، ولكن رحمته تصحب إمهالَه، فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: من ناحيتهنَّ الفوقية، أو من فوق بعضهن؛ فَرَقاً من عظمة الله وعُلوِّ ذاته وجبروته، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزِّهونه تعالى عما لا يليق به، بذِكرِ نِعَمِه العظيمة وصفاته العلية، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن تقصيرهم في ذلك، وقد جاء في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، فيجوز أن يكون المراد بـ«مَنْ في الأرض» هنا: المؤمنين منهم، من ذِكرِ العام وإرادة الخاص، أو من باب حَمْل المطلق على المقيَّد. ويجوز أن يكون الكلام هنا على عمومه، إيذاناً بكمال عنايةِ الملائكة بالمؤمنين، وبشدَّة حرصهم على إيمان مَنْ لم يؤمن من البشر، ويدعون له أن يُوفَّق للإيمان.

ثم قَرَنَ ذلك بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لهفوات المؤمنين، ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ بعباده، فيُرْجِئُ عقابَ المشركين، رجاءَ أن يؤمنوا.

ثم قابل غفران هفوات المؤمنين بمحاسبة المشركين المصرِّين على الكفر، ومجازاتهم على شركهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: آلهةً عبدوها من دون الله، واعتقدوها تتولى أمْرَهم، ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ورقيبٌ على أحوالهم، يُحصيها لهم ثم يُجازيهم عليها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ فلا يضيقنَّ صدرُك من شركهم، إذ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ وإنما أنت نذير لهم بين يدي عذابٍ شديد.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾[1] أي: مكّة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾،

---

(١) «وجوب تعلُّم اللغة العربية على المسلمين غير العرب»، يروى هذا القول عن بعض علماء =

فخصَّهم بالذكر لأنهم سيكونون الدعاةَ في الدعوة العامة لهذا الدِّين الذي أراده تعالى أن يكون ديناً عالمياً للأمم أجمعين. وجعل عليهم أن يتكلَّموا بلغة هذا الدين، الذي أُريد به توحيدُ البشر وتقاربُ شؤونه، ودخولُه في السِّلم كافَّة.

ثم ذكر ما يُنذِرُ به، فقال: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: يوم تُجمَعُ الخلائق للحساب، فإنه يومٌ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وليس هناك إلا فريقان من أولئك المجموعين: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ

= السلف، ومنهم الشافعي رضي الله عنه، وعليه جرى العمل في الصدر الأول، فلم يدخل الإسلام بلداً إلا وانتشرت فيه اللغة العربية لتفهم القرآن. ولولا فتنة الزنادقة والشعوبية التي سَعَت في هدم سلطان العرب وتمزيق كيانهم؛ لكان المسلمون كلُّهم اليوم يتكلمون بلسان واحد، هي اللغة العربية، وكان لهم بذلك رابطة قوية ووحدة عربية.

والقرآن نفسه يدلّ على هذا الوجوب دلالةً التزامية بما جاء فيه من الأمر بتدبُّره وتذكّره والاعتبار به إلى أمثال ذلك، فإن مثل هذا لا يتمّ إلا لمن يعرف اللغة العربية معرفةً جيدة. ولذلك كان أكثر مؤلِّفي العلوم العربية في الصدَّر الأول من الأعاجم أو الموالي، حيث اهتمُّوا بها اهتماماً كبيراً.

والترجمة للقرآن لا تُعَدُّ قرآناً وليست من كلام الله تعالى، بل لا تجوز أبداً، ولا بأس في التفسير للقرآن بأيِّ لغة كان. وإذا رجعنا إلى قواعد الدين الأصولية، فقاعدة: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، وقاعدة «إن حكم المقاصد نفس حكم الوسائل»، إذا رجعنا إلى هاتين القاعدتين، ظهر لنا أن اللغة العربية واجبة على البشر؛ لأن الدين الإسلامي أراده الله ديناً عالمياً، لمثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١]، وعلى مقتضى القاعدتين السابقتين، تكون اللغة العربية عالمية أيضاً، كالدين الإسلامي وقرآنه، يُسأل عنهما كلُّ فرد من أفراد البشر: لمَ لمْ يتعلم اللغة العربية مع لغته، ويدخل في هذا الدين؟

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧] يدلُّ بصراحة على أنَّ طبيعة الدين الإسلامي عربية صِرْفة، والدليلُ الواقعيّ على ذلك: أنَّ المؤلفين بالعربية في أنواع العلوم من المسلمين، هم من سائر الأقوام. (المؤلف).

﴿وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾، وقد قال ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، ما بعد الموت من مُسْتَعتب، ولا بعد الدنيا من دار، إما الجنة أو النار»[١].

ثم علّق سبحانه على قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ المُؤْذِنِ بشدَّة معارضة أُولئك المشركين، علَّق بما يُلمع إلى أنَّ معارضتهم ليست عن عَجْز في القدرة الإلهية لتقويمهم، ولكنَّها جارية بمقتضى السنة العامة في طبيعة البشر المَهْديّةِ للنَّجدَين، والميسَّرة للاختيارين، فقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ بأن يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة، كالملائكة ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ولكن حكمته تعالى اقتَضَت أن يكون الإنسان ذا علم واسع يتزايد، وذلك لا يمكن إلا بأن يكون مختاراً في أعماله، مزوَّداً بمواهبَ كلُّها خير، ما لم تَفسُد بمفاسد التربية وسوء العشرة والتصرُّف.

وقد عبَّر عن ذلك بلازمه، فقال: ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾، فلمَّح بهذه العبارة إلى طبيعة الإنسان الاختياريَّة التي شاء بحسب حكمته أن يخلقه عليها، وإلى النظام الذي قرَّره سبحانه في شأنه، وهو السعادةُ لمن يختار طريقَ السعادة، والشقاءُ لمن يُعرِضُ عنها.

وليس المعنى أنه سبحانه وتعالى يُجري ذلك جُزافاً واعتباطاً، كلا، فإنَّ مشيئته سبحانه لا تَجْري إلا بالحق والعدل الدقيق، وفي سُنن مُطَّردة لا تَتبدَّل، فلا يشاء سبحانه إلا رحمةَ من يستحقُّ الرحمة[٢] والهناء، وتعذيبَ مَنْ يستحقُّ التعذيبَ والشقاء؛ إذ قد

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٩٧)، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» ص١١٠٥: فيه انقطاع.

(٢) وهذا الاستحقاق بحسب وعد الله عز وجل تفضُّلاً منه، أما في نفس الأمر فلا حقَّ لأحد على الله تعالى. =

سبقت مشيئتُه الأزلية أن يرحم مَنْ حافظ على سلامة فطرته وزكَّاها، وهو المؤمن الطائع، وأن يعذِّب من أفسدها ودسَّاها، وهو الكافر والعاصي، وأن يكون للنفس ما كَسَبت وعليها ما اكتسبت، ولا يُجْزَون إلا بما كانوا يعملون، وجاءت بذلك الأنبياء والكتب المنزَّلة، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

فلا يُدخِلُ سبحانه وتعالى في رحمته وجنّته ـ والله أعلم ـ إلا مَنْ حافظوا ـ ولو في الجملة ـ على سَلامة فطرتهم، وصَرَفوا استعدادهم لصحيح الإيمان وصالح الأعمال. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بمَحْق نور الفطرة، وصَرْف استعدادهم في الكفر والعصيان: ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٨﴾، فلا تنصرُهم أولياؤهم عندما يأخذهم بذلك أخْذَ العزيز القدير. فهذه هي سُنَّة الله العامَّة في خِلْقة الإنسان، وهذه نتائجها.

ثم إنه ـ بعد أن توعَّدهم سابقاً على اتِّخاذهم من دونه أولياء ـ أعاد الجملة وقَرَنها بالإبطال، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ ينفعون ويضرُّون، كلا. والكلام معطوف على محذوف، حسب نهج إيجاز القرآن، والتقدير: أَقَنِعُوا بهذا البيان أم لم يَقنَعوا وأصرُّوا على اتِّخاذ أولياء من دونه؟! يُنكِرُ عليهم ذلك، ثم يُبرهِنُ على أنه تعالى هو المستحقُّ وحده للألوهية لاختصاصه بصفاتها، ويقول: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾[1]، فالجملةُ الأولى[2] من هذه الجمل الثلاث مضمونُ دعوى،

= ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ كلا وليس لديهِ سعيٌ ضائعُ
إن عذَّبوا فبعَدْلِهِ أو نُعِّموا فبفَضْلِه، وهو الكريمُ الواسعُ

(١) أي: اللهُ وحدَه هو الوليُّ بالحقِّ، المُتكفِّل بأمور الخلائق كلِّها، وهو الذي يجبُ أن يُتولَّى وحده دون سواه، وهو يُحيي الموتى يوم البعث، وهو على كلِّ شيء ـ يشاء إيجادَه أو إعدامَه أو إجراءَ أيِّ تصرُّف فيه ـ عظيمُ القدرة.

(٢) أي: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾.

والتاليتان[١] دليلٌ عليها[٢]، والثالثةُ[٣] دليلٌ على الثانية[٤].

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

وبعد أن قرَّر الألوهية والولاية لله وحده، وقرَّر الحشر والحساب، توعَّد المشركين والمكذِّبين، ووَعد المؤمنين بالفَصْل في الحكم بينهم وبينهم، فقال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ ﴾ فضَلَّ فيه الجائر عن الحق بإفساد استعداده الطبيعي للنظر والبحث الصحيح ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يثيبُ المُحِقَّ لمحافظته على سلامة استعداده لصحَّة النظر، ويُعاقِبُ المُبطِلَ لإفساده لنور بصيرته بمفاسد التربية وسوء التقليد، حتى ضلَّ عن سواء السبيل.

ثم أمر رسوله أن يردَّ على هؤلاء المشركين الذين اتَّخذوا من دونه أولياء، ويتحدَّاهم عن آلهتهم العاجزة المهينة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ﴾ أي: الذي له هذه الصفات، وهو على كل شيء قدير: هو ﴿ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في دفع كَيْدِكم، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ في كلِّ المهمّات، لا أتَّخِذُ معه ولياً.

ثم ذكر بعض صفاته تعالى، تأييداً لوثوق هذا التوكُّل، وتكميلاً للرد عليهم، ببيان اختصاصه تعالى بأفعال الألوهيَّة، وجَعَل ذلك تمهيداً لِـمَا يتضمَّن نفيَ الولد عنه سبحانه بعد أن ذكر ما يتضمَّن نفيَ الشريك، وبيَّن أن ما في شأنه أن يَتَناسل، جَعَلَ الله

---

(١) أي: ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

(٢) أي: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾.

(٣) أي: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

(٤) أي: ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾.

من جنسِه صنفَيْن: ذكراً وأُنثى، فقال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما على هذا النظام البديع، بمقتضى الحِكَم البالغة، وقد ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من البشر ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: جَعَلكم صنفَيْن ذكوراً وإناثاً، ﴿وَ﴾ جعل ﴿مِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: من جنسها ﴿أَزْوَٰجًا﴾ كذلك ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يُكثر المخلوقات الحيوانية على الإطلاق، ويُبقي نَسْلَها بهذا النظام الزوجي وهذا التدبير الإلهي، فهل شأن الله سبحانه كشأنكم حتى يكون له ولد؟!

ثم عقَّب سبحانه وتعالى على ذلك بما فيه إشارةٌ إلى تنزيهه تعالى عن الولد؛ لأنَّ التوالد مُخْتصٌّ فيما يحتاج إلى بقاء النسل والتكثير، ويكون الزوجان من جنس واحد، فنزَّه الله تعالى ذاته عن الولد، وعن الندِّ والشبيه والمثال، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] لأنه خالقُ كلِّ شيء، ولا يجوز أن يكون الخالقُ مِثلَ المخلوق، فكيف يكون له ولد أو شريك أو شبيه[2]؟ ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ فأتى بهذين الوصفين؛ لإفادة

---

(١) قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: هذا الكاف كالدليل على النفي، إذ هو بمثابة قولك: مِثلُ فلانٍ لا يكذب. حيث إنك تنفي عنه الكذب لما فيه من الصفات المضادة للكذب، فكانت دعوى مع البرهان، ولا يوهم هذا إثبات المثلية لله، بحُجة أن الكلام يؤول إلى مثل قولك: ليس مثل مثله شيء؛ لأن مثل هذا أسلوب من أساليب التعبير يُقْصَد منه تقرير النفي بدليله، على نهج القرآن في سَبْك الدعوى على البرهان وإدماجه فيها، فكأنك قلت: إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل المماثلة والتعدد.

وقيل: إن كلمة «مثل» تأتي بمعنى الذات، والمعنى: ليس كذاته شيء، ومفاد الآية ـ فوق نفي الصاحبة والولد ـ أن الله سبحانه ليس موضع بحث، وليست ذاتُه وكُنْهُها في متناول إدراك وعرفان؛ لأن الغائب لا تُدرَكُ حقيقته إلا بمماثِله، والله سبحانه ليس كمثله شيء. (المؤلف).

(٢) مفاد الآية: أن ذات الله سبحانه وكُنْهَها ليس موضع بحث، ولا هي في متناول إدراك؛ لأن طريقة معرفة الغائبات من طريق مشابهاتها، فيتوصَّل من المعلوم إلى المجهول، ولما كان سبحانه =

التهديد والتعليل معاً، فمَرْمى التهديد: أنه لا يَخْفى عليه من أمركم خافية، ومرمى التعليل: الإلماع إلى أن كلَّ أعماله مبنيَّة على العلم الواسع والحكمة البالغة، وهذا المعنى مأخوذ من حال المُخاطَبين، فإنَّ السمع والبصر مبدأ العلم والحكمة[١]، وأخذُ المعاني من أحوال المخاطبين هو من أساليب القرآن العظيم لتقريب المعنى إلى الأفهام.

ثم تابع دليل قدرته وإفضاله، فقال: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمقاليد: جمع مقلاد، وهو الخزانة، أو مفتاحها. أي: بيده مفاتيح خزائنها التي أنعم بها عليكم، وكلُّها تحت تدبيره وتقديره، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممن يتَّبع السنة الكوينة والنظام الطبيعي، الذي نظّمه تعالى في الحصول على هذا الرزق، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزقَ على مَنْ يشاء ممن لم يتبع ذلك النظام وتلك السنن[٢].

= ليس كمثله شيء، لا يمكن للعقول أن تدرك كُنْهَه، ولكن تدركه بآثاره العظيمة ومخلوقاته الجليلة، وأقوى الأدلة: دِلالةُ الأثرِ على المؤثِّر، فندرك صفاته كلَّها من آثاره، ندرك قدرته العظيمة، وحكمته الجليلة، وعلمه الواسع، وبقية صفاته من آثارها التي نجدها في المخلوقات.
وقد جاء عن ابن عباس وغيره ما يروى عن رسول الله ﷺ من قوله: «تفكَّروا في خلق الله، ولا تفكَّروا في الله فتهلكوا»، أي: لأنه منزَّه عما يخطر في الأفهام والأوهام. (المؤلف).
والحديث رواه أبو الشيخ في «العظمة» (١: ٢١٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والطبراني في «الأوسط» (٦٣١٩)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقد روي بألفاظ متعددة من طرق مختلفة، بأسانيد كلها ضعيفة، ولكن تعددها واجتماعها يكسبها قوة، والمعنى صحيح كما قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٣٤٢).

(١) السمع والبصر صفتان ثابتتان لله تعالى، وهما غير صفة العلم، كما هو مقرَّر في كتب العقائد، وسمعُه سبحانه ليس كسمع خلقه، وبصرُه تعالى ليس كبصر خلقه، وسمعُه وبصرُه بلا أدوات ولا آلات سبحانه وتعالى.

(٢) تقدَّم أنّ الرزق يقسمُه الله بمقتضى مشيئته التي لا تُفارِقُ حكمتَه، وربما وسَّع سبحانه بالرزق على مَن لم يأخذ بالسُّنن والأسباب، وضيَّق على مَن أخذ بالأسباب واتَّبع السُّنن الكونيَّة؛ لحكمة.=

ثم بيَّن تعالى أن ذلك النظام مبنيٌّ على العلم والحكمة، فقال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ إذ لو لم يكن هذا ـ بأن أفاض الرزق على كل أحد ـ لبَغَوْا في الأرض، ولم يتسخر بعض لبعض، وفسد نظام المجتمع، وجَعَل مفاتيح الرزق لكل من تمسَّك بالنظام الصحيح.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

ثم نعى على هؤلاء المشركين الذين اتَّخذوا من دونه أولياء، وسفّه معارضتَهم لهذا الدين المُشابه في أصوله لسائر الأديان الصحيحة السابقة، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ فذكر الأديان كلَّها بصورة إجمالية، البارز من أولها، وهو دين نوح عليه السلام، والبارز من آخرها، وهو دين محمد ﷺ، والبارز من وسطها القريب من محمد ﷺ، وهو دين إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

= والمؤمنُ مأمورٌ بصدق التوكُّل على الله، واتِّخاذ الأسباب التي أمر الله باتخاذها، والتسليم له والرضا فيما يختاره له.

وتفيد الآية: أنَّ الأديان السماوية كلَّها متَّحدةٌ في الأُسُس، وهي: التوحيد والبعث وما به تزكية النفوس، وإن اختلفت في بعض صور التزكية في هذه الأديان؛ لاختلاف الأزمان وأطوار الإنسان المتدرِّج في الوعي والعِرفان.

ثم ذكر ما وصَّى به هؤلاء الأنبياء، فقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1]، وهذه الوصية لهم إنما هي وصيّة لأتباعهم من بعدهم، يُوصيهم أن يحافظوا على معالم دينهم. بمعنى: أنَّ الله تعالى طَلَب من الجميع إقامة الدين على وجهه الذي شَرَعَه، من دون تحريف.

وبعد أن ذكر موافقة هذا الدين لسائر الأديان الصحيحة المُنزَّلة من عنده تعالى، ذكر معارضة المشركين له، مبالغةً في وصف عنادهم وجهالتهم وإفسادهم لطبيعتهم، قال: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[2] مع أنه دينٌ نصَّت عليه سائر الأديان، وموافق للعلم الصحيح في كل زمان.

ثم ألمع إلى أن منشأ ذلك فيهم إنما هو إفسادُهم لنفوسهم بمفاسد التربية وسوء التقليد، فقال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهم الذين حافظوا على سلامة فِطَرِهم، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ ويُقبِلُ عليه تعالى، وهُم الذين حافظوا على استعدادهم

---

(١) أو المعنى: نُوصيكم ـ أيها الناس ـ في رسالة محمد الخاتمة للرسالات، بإقامة الدين مستقيماً، والمداومة والثبات عليه، بتوحيد الله والإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر، وطاعة الله في أوامره ونواهيه، ولا تختلفوا في الدين الذي أمرتكم به إلى طوائف وفرق، واجتمعوا مُتَّحدين على التمسُّك بأصول الدين الكبرى، في العقائد، والأخلاق، والمعاملات.

(٢) أي: عَظُمَ على المشركين وَثَقُل عليهم ما تدعوهم إليه ـ يا رسول الله ـ من التوحيد ورفض الأوثان؛ لكراهيتهم ترك ما ألفوه، من دين آبائهم وأجدادهم، وترك منافعهم الدنيوية، والتنازل عن أهوائهم وشهواتهم.

الطبيعي في صحَّة النظر وسلامة التفكير، أو هم الذين قد بقي فيهم شيء من نور الفطرة، فانتبهوا وعادوا بعد الشرك إلى الدين المستقيم. وقد مرَّ الكلام آنفاً عن مثل هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الشورى ٨]، فارجع إليه.

ويجوز أن يُرادَ بالذين يجتبيهم: الأنبياء عليهم السلام، ويختصَّ وَصْفُ المهتدين وحده بالأتباع.

وبعد أن ذكر أنه أمَرَ الأممَ على لسان أنبيائهم أن يأخذوا الدين على وجهه الذي شَرَعَه لهم من دون تحريف، ذكر أن بعضهم تفرَّقوا واختلفوا فيه بعد أن جاءهم العِلمُ به على لسان رسولهم، لذلك صاغَ العبارة بصيغة الاستغراب، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ﴾ ذلك ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾ بواسطة الرسل المُرسَلة والكتب المنزَّلة، فاختلفوا وتفرَّقوا ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: تكبُّراً وحسداً وحرصاً على رياستهم أن تذهب، ومراكزهم المُغتَصَبة والمُحتكَرة أن تُسْلَب. وقد كان يتصدَّى الرؤساء لتغيير بعض معالم الدين حسب أهوائهم وأغراضهم، ويجعلون لهم مذهباً في الدين خاصاً، ويكون لهم فِرَقٌ خاصة بهم، يتكتَّلون حولهم، ويكونون أتباعاً ومرؤوسين.

ثم ذكر وَجْهَ أناتِهِ بهم مع عَمَلِهم هذا، فقال: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بتأخير العقوبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ يُمهِلُهم فيه رجاءَ أن يتوبوا؛ ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ عاجلاً، ولكنه يصبر عليهم حتى لا يبقى لهم عذر ولا مَعْتَبة، فيأخذهم بعد الموت أخذاً وبيلاً.

ثم بيَّن حال المتأخِّرين الذين ورثوا كتابهم من أولئك المُحرِّفين، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: من بعد أولئك الأقوام المحرّفين ﴿لَفِي شَكّٖ

﴿مِّنْهُ﴾ أي: من هذا القرآن ﴿مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾[1]، وذلك أنهم لـمّا ورثوا كتابهم على هذا التحريف المشين، وَجَدوا الفرق بعيداً بين هذا القرآن وبين ما هم عليه من دين، لا سيَّما وقد حذفوا من كتابهم وجوبَ اتباعهم لمحمد خاتمِ النبيين.

وقد حثَّه على الدعوة لهذا الدين الصحيح، فقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ الناسَ كافَّة إلى إقامة هذا الدين القويم المُساير لفطرة الله التي فطر الناس عليها. أو: فلذلك الدين القويم الذي شَرَعه الله لكم كما شرع لمن قبلكم، ادعُ الناسَ كافة للعمل به، ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: ولا تلاينهم، وردَّ عليهم تفريقَهم، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ بصورته المنزَّلة لا بالصورة التي عبث بها البشر وحرَّف وبدَّل؛ لأن ذلك ليس بكتاب الله.

وقد كان واجب العمل به قبل أن يُنسَخ بهذا القرآن، ولذلك قال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قال القَفّال: أي: إنَّ ربي أمرني أن لا أُفرِّق بين نفسي وأنفسكم، فلا آمُرُكم بما لا أعمله، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أُفرِّقُ بين العظيم وغيره منكم، ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فإنْ أصررتُم على الشِّرك فلا ضرر علينا منكم، إذ ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ لا يتخطَّانا جزاؤها، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا تُجاوزكم آثارها، ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا مُحاجَّة ولا خصومة، لأنَّ الحقَّ قد ظهر، ولم يبقَ للمُحاجَّة حاجة، ولا للمخالفة مجال سوى المكابرة، ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ فيظهر هناك حالُنا وحالُكم، ويُجازينا على أعمالنا، ويُجازيكم على أعمالكم، الخير بالخير، والشر بالشر.

---

(١) أي: إنَّ اليهود والنصارى الذين أُورِثوا التوراة والإنجيل من بعد أنبيائهم، لَـمُنغَمِسون في شكٍّ من أمر محمد ﷺ وكتابه المُنزل من عند الله، وشكُّهم هذا يُوقِعُ في الرَّيْب والتُّهمة بأنهم عالمون بالحقِّ وجاحدون به عناداً، ودوافعهم إلى الشكِّ نابعةٌ من أهوائهم وشهواتهم، ورغبات نفوسهم من متاعات الحياة الدنيا.

وبعد أن قال: لم يبق حاجة للمُحاجَّة بيننا وبينكم لظهور الحق، ذكر حُكمَ الذي يحاجُّون عِناداً ولَجاجاً من بعد ظهور الحق، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: من بعدما ظهر واستجاب له الناسُ، وتبيَّن أنه حقٌّ وصدقٌ، فهؤلاء معاندون و﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي: باطلةٌ مردودة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لعِنادِهم ومكابرتهم بعد ظهور الحق، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

ومفاد هذه الآية: أن الله سبحانه يجدِّد الشرائع المرة بعد المرة، ويُرسِلُ الرسل الواحد تِلْوَ الآخر؛ لحاجةٍ وحكمةٍ تقتضي ذلك، منها: تحريف الأمم للشريعة السابقة، ومنها: اقتضاء تبديل بعض الأحكام الفرعيَّة للشريعة السابقة، بحكم تبدُّل الزمن وارتقاء الفكر الإنساني المكتَسَب، إلى غير ذلك من الأسباب. فإذا تحقَّق أنَّ هذه الشريعة الجديدة هي شريعةٌ من الله، وَجَبَ أن يتَّبعوها ويتركوا الأولى بحكم النسخ، والذين يُنازعون في الشريعة الجديدة بعدما تبيَّن أنها حق، فحُجَّتهم باطلة عند ربِّهم، وعليهم غَضَبٌ من الله، ولهم عذاب شديد على عِنادهم هذا وتعنُّتهم ضدَّ الحق.

ويُماشي هذه الآيةَ قولُه تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ...﴾ [آل عمران: ٨١]. والله أعلم

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ

وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَٰتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

وبعد هذه المقدِّمة، نوَّه بشأن هذه الشريعة الجديدة وكتابها المنزّل بها، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أنزله مشتملاً على ما هو الحق. وقوله: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، من عطف الصفة على الموصوف، بمعنى: أنه أعدَلُ نظام للبشر، تُوزَنُ به أعمالهم، حتى تكون صحيحة ناجحة في الدنيا والأخرى؛ لأنه توجيهٌ للبشر في أمرهما معاً على أكمل الوجوه.

فعن ابن عباس وقتادة ومجاهد: أنه كناية عن العدل[1]، أو بمعنى: أن القرآن ميزان تُوزَنُ به الأعمال والأقوال، فما كان منها منطبقاً عليه فهو الحق، وما سواه باطل.

ثم أردف هذا البيان بما يحمل على التمسُّك به، والتهديد للمخالفين، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾[2] يهدِّد بصيغة هذا التعبير ويُنذِر.

---

(١) روى قول قتادة ومجاهد الطبري في «تفسيره» (٢١: ٥٢٠)، وذكر قول ابن عباس القرطبي في «تفسيره» (١٦: ١٥).

(٢) والمعنى: أيُّ شيء يُعلِمُك ـ أيها المُتلقِّي ـ متى تقومُ الساعة التي يكون فيها إنهاءُ ظروف الحياة الدنيا؟ فقد أخفى الله العِلمَ بقيام الساعة على كلِّ عباده في السماوات والأرض، ولكنْ ضَعْ في توقُّعِكَ احتمالَ أنّ وقتَ قيام الساعة قريبٌ، بالنسبة إلى ما سبق من عُمُرِ الحياة الدنيا.

ثم أنّبَ المنكرين المستهزئين، فقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استخفافاً بالوعيد وسخريةً به، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: من الساعة وتوابعها، فيحذرون مما يؤدي إلى غضب الله، ويحرصون على رضاه لنيْل السعادة فيها، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الواقعُ لا محالة.

ثم نعى على المنكرين، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾[1].

ثم أردف الكلام عن هذا الإنزال الذي هو من أكبر لطف الله على عباده، ببيان تمادي ألطافه المادية والمعنوية بعباده، وأنها معروضة لاختيارهم ومشيئتهم، فمَن اختارها وسعى لها سَعْيَها نجح وتجدَّى، ومَن أعرض عنها فشل وتردَّى، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ لا ينتهي لطفُه. ثم خصَّ من بينه الرزق؛ تنبيهاً إلى أنه لا يحرمه هذا الكافر أيضاً، فقال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن تمسَّكوا بألطاف الله تعالى في ذلك، وهي الأسباب المؤدِّية إليه حسب سُنَن الله في كونه، فكلٌّ من تعاطى أسباب الرزق الطبيعية رزقه الله ولو كان كافراً؛ لأنه تعالى لا يحرم الكافر من الرزق. وقد ألمع إلى أن تأجيل عقابه ليس عن عَجْز في القدرة، ولكنه اللطف والإمهال، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ فيُجازيه يومَ الحساب على كفره بالجزاء المعدّ لذلك، حسب سُنّتِهِ تعالى.

ثم فصَّل ما أجمَلَه من ذلك بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ فبيَّن تعالى أن جزاء الآخرة مُرتَّب ترتيباً طبيعياً على أعمال الإنسان الاختيارية[2]،

---

(١) أي: تنبَّهوا وتأكَّدوا أنَّ الذين يُجادِلون بزُخرُفِ أقوالهم في نبأ قيام الساعة ويشكُّون فيها، لَفي ضياعٍ في قَعْرٍ بعيد عن مَوْقع الحق، فهم فيه مُعرَّضون لعذاب شديد وشقاءٍ مديد.

(٢) ترتيب الجزاء يوم القيامة على عمل الإنسان في الدنيا ترتيب شرعي، أي: تابعٌ للخبر الوارد =

كما يترتَّب المحصول على الحرث جودةً ورداءةً، وقلةً وكثرةً، ومن فَضْلِه سبحانه أن خصَّ المحصول الجيِّد الأخروي بمضاعفته من منَّته العظمى وعطائه الجزيل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى ٢٣]، وكما قال تعالى في سورة البقرة تمثيلاً لذلك: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فمَنْ حَرَثَ للآخرة على مقتضى النظام الذي وضعه الله لذلك وأنزل فيه تعاليمه على لسان رسله، نال خيراً كثيراً من محصوله الجيِّد، ومن أخلَّ بذلك النظام أو لم يتمسَّك به، كان نتيجته الفشل والخسران.

ثم ذكر مِثلَ ذلك في أمر الدنيا، فقال: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ كذلك فإنَّ المحصولات الدنيويَّة أيضاً مرتبة بحسب سنة الله تعالى على الأعمال المنتجة لها ترتيباً طبيعياً[1]، مثل ترتيب المحصول على الحرث جودةً ورداءةً، ولكن من دون تضعيف، بل على قَدْر الإتقان في الحرث تكون جودةُ المحصول وكثرته، وبنسبة الإهمال تكون رداءته وقلّته، ولا فَرْقَ في ذلك بين المؤمن والكافر، إذ لا تعلُّق لنظام بنظام، ولا تَعَارُضَ بينهما. فمن تمسَّك بأسباب الدنيا والأخرى نالهما معاً، ومن انفردَ في التمسُّك بأحداهما لم يَنَل الأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾؛ لأنه لم يَسْعَ لها سَعْيَها.

وقد اكتفى ببيان هذا الحكم في أمر الدنيا عن بيانه في أمر الآخرة، على نهج القرآن في الاكتفاء. وقد فُصِّل هذا البحث في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ

= عن الله عز وجل في شرائعه، وليس ترتيباً ناتجاً عن سنة كونية أو قانون طبيعي، كما تقدَّم بيانه في مواضع. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم في أول الكتاب (١: ٤٣١).

(١) بل ترتيباً شرعياً كما تقدَّم آنفاً.

﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ...﴾ [آل عمران: ١٤٥]، فارجع إليه. وكذلك فُصِّل هذا البحث في (لاحقة المقدِّمة الثانية).

ثم علّق على قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ...﴾ [الشورى: ١٣]، علَّق بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا﴾، وهو معطوف على مُضْمَر، بحسب نهج القرآن في مثله. والمعنى: أَقَبِلُوا ما شَرَع الله لهم من الدين أم لهم آلهةٌ ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ولم يؤدِّ إلا إلى الفشل والخسران المبين؟ وهذا الاستفهام للاستخفاف بهم وتضليل طريقتهم والتأنيب لهم.

وبعد أن أنَّبهم توعَّدهم بقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ وهي تأخير الجزاء إلى يوم الحساب، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا.

ثم نصَّ على ما سيكون من عذابهم في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

ثم قارن بين حالة المشركين وحالة المؤمنين حينئذ، فقال: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: خائفين يوم الحساب من جزاء ما عملوا، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ لا محالةَ ولا مَناص، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ثم نوَّه بشأن ذلك النَّوال فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ الذي لا يُقدَرُ قَدْرُه. اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم زاد في التحسيس به، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾[1] هو ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ به ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ويدعو له سائرَ الناس، على اختلاف الطبقات والأجناس.

---

(١) النعيم في الجنة والفضل الكبير.

وبعد هذا البيان المفصَّل الذي ختمه بهذه البشارة العظمى، أمر سبحانه رسولَه أن يقول للمُعرِضين عنه: إني لم أسألكم عن هذا التبليغ أجراً حتى ترتابوا في الأمر، وتظنُّوا أنَّ لي بهذه الدعوة غرضاً شخصياً من ورائها، وأدمجَ في هذا القول الاستدراجَ والتأليفَ لهم، تقليلاً من إبائهم، وتهويناً من شرِّهم، وتليناً لعريكتهم[١]، فقال: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتَصِلوا الرَّحِمَ التي بيني وبينكم، وتحفظوها لي.

وعن ابن عباس[٢] وقتادة[٣] ومجاهد[٤] وغيرهم: أنَّ المراد: أنكم قومي وأحقُّ مَنْ أجابني وأطاعني، فإذ قد أبيتُم ذلك، فاحفظوا حقَّ القُربى، ولا تؤذوني ولا تُهيِّجوا عليَّ.

وقال القَسْطلّاني[٥] بعد بحث طويل: ومحمل الآية على أن تُوادُّوا النبيَّ ﷺ من أجل القرابة التي بينه وبينكم، فهو عامٌّ لقريش[٦]. وأما جَعْلُها في محبة عليٍّ ووَلَدِه، فهي من مماحكات الشيعة، وإن هذه الآية مكيَّة، وزواج علي بفاطمة إنما كان في المدينة.

---

(١) العريكة: الطبيعة، يقال: فلان ليِّن العريكة؛ إذا كان سَلِساً مطاوعاً منقاداً.. «لسان العرب» (عرك).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٤٩٥).

(٣) المصدر السابق (٢٠: ٥٠١).

(٤) المصدر السابق (٢٠: ٤٩٧).

(٥) هو: شهاب الدين أبو العباس، أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني القتيبي المصري، (٨٥١-٩٢٣هـ)، من علماء الحديث، له: «المواهب اللدنية في المنح المحمدية»، و«الكنز»، و«إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري». «الأعلام» للزركلي (١: ٢٣٢).

(٦) «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» (٧: ٣٣١)، وفيه: فهو خاص بقريش، بدل (فهو عام بقريش).

وإني أرى رأياً آخر، وهو أن الاستثناء منقطع، وحاصل المعنى: إلا أني لقرابتي منكم أودُّ أن لا يفوتكم هذا الخير. والله أعلم.

وعن الحسن والجُبّائي وأبي مسلم: أنَّ كلمة ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هنا من التقرُّب، لا من القرابة. والمعنى: لا أسألكم عن تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً إلا التودُّدَ والتحاب فيما يقرِّب إلى الله من العمل الصالح.

وبعد أن أمره تعالى أن يقول لهم ذلك، قال: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ حيث يضاعفها سبحانه بتفضُّله إلى أضعاف بغير حساب من خزائنه التي لا تتناهى أبداً، ثم علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ لمن تاب وأطاع. والمراد من الشكر: الزيادة في التفضُّل والإثابة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وبعد هذا البيان عاد إلى محور السورة، وهو أنَّ هذا الكتاب وحيٌ من الله، وأنه تعالى شَرَع للناس فيه ما وصَّى به الأنبياء من قبل، وأنكر على المكذِّبين، مقرِّعاً إياهم بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهذا معطوف على محذوف، بحسب نهج القرآن في مثله، والتقدير: أيُصدِّقون بما ذكر عن هذا الكتاب من أنه وحيٌ من الله، أم يُصِرُّون على الإنكار عليك ويقولون: افترى على الله كذباً في ادِّعاء أنَّ ما جاء به وحيٌ من الله؟

ثم علَّق على إنكارهم وإصرارهم بما فيه تسليةٌ له وتسخيفٌ وتسفيهٌ لهم، وقال: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال مجاهد: أي: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى

لا يشقَّ عليك قولهم: إنه مُفْتٍ كذَّاب[١]. يعني: على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

ثم وعده بالنصر عليهم، فقال: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ فينتصر لها، حتى تودِّي غَرَضَها، ولا يخفى عليه أمرُك وأمرُ المعارضين؛ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾، فقوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ ليس معطوفاً على جواب الشرط، وإنما هو فعلٌ مستأنف مرفوع، وقد أسقطت الواو منه في بعض نسخ المصاحف وكتب «يَمْحُ» تبعاً لإسقاطها في اللفظ؛ لالتقاء الساكنين، مثل: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١]، ومثل: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨].

وذكر الرازي للآية وجهاً آخر، وهو: أن المراد من قوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: إن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم مثلهم، حتى تفتريَ عليه الكذب كما يفترون، فإنه لا يجترئ على الله إلا مَنْ كان في مثل هذه الحالة. قال: والمقصود من هذا الكلام المبالغةُ في تقرير الاستبعاد عن الافتراء على الله. ومثاله: أن يَنسُبَ رجلٌ بعضَ الأمناء إلى الخيانة، فيقول الأمين: لعلَّ الله خذلني، وهو لا يريد إثبات الخذلان، وإنما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه[٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾[٣] أي: ومن سُنَّته تعالى إبطالُ الباطل وتقريرُ الحق، فلو كان محمَّدٌ مُبْطِلاً كذاباً لفضحه الله، ولكشف عن باطله، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤: ١٤٥).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٧: ٥٩٦).

(٣) أي: يُحِقُّ الحقَّ ويجعلُه ثابتاً في واقع الحياة، بكلماته التكوينيَّة التي يُنفِّذ بها ما قدَّره وقضاه، وبكلماتِه البيانيَّة التي يهتدي بها أهلُ العقل والرُّشد، وقد فعل الله ذلك، فمَحا باطِلَهم، وأعلى كلمةَ الإسلام.

وبعد أنْ سَلسَلَ الكلام عن أحوال المشركين وختمه بنسبتهم الافتراء إلى النبيِّ ﷺ، ذكر أنَّ بابَ التوبةِ مفتوحٌ لكلِّ قاصد، حتى لهؤلاء؛ استمالةً لهم واستدراجاً لهم، لعلهم يرجعون عن غيِّهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾﴾، وقد ضمَّن التوبة والعفو معنى الصفح، وعدَّاهما بـ(عن)، وقد قال ﷺ: «للهُ أفرَحُ بتوبة عَبْدِه من العقيم الوالد، والضالِّ الواجد، والظمآن الوارد»[1]. والضال الواجد: هو الذي يُضيع شيئاً غالياً ولا يجده إلا بعد حين.

وقد اختلفوا في لفظ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أفاعل أو مفعول به؛ على تقدير حذف اللام، أي: يستجيب الله لهم؟ كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣]، ويُسمَّى هذا عند النَّحْويين الحذف والإيصال.

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

وبعد أن ذكر في السياق أنَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، عاد فتعرَّض لحرْث الدنيا، وذكر صفحةً منه، وهو أنه لم يجعله كرزق الحيوان متساوياً، بل جعله متفاوتاً صعباً؛ لأنه ضخم رفيع الشأن، يحكم بتكريمهم ورفعهم عن درجة الحيوان، وقال: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ وجعل نظامه من دون كدٍّ وتعب، ولم يَقْرنه بالسَّعي والكَسْب، وجعلهم كلَّهم أغنياء؛ ﴿لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأفسدوها، إذْ لم يكن حينئذ لهم عمل يشغلهم،

---

(١) رواه ابن عساكر في التوبة (٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فينصرفون إلى اللهو والعبث والبغي والفساد، ولا يساعد بعضهم بعضاً ويخدمه، فلم يجعل الله الرزق هكذا، ﴿وَلَٰكِن﴾ جعل له نظاماً اجتماعياً حكيماً، فوق أسبابه الطبيعية، فهو ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ حسب الحكمة والعلم الدقيق، وبَنَاهُ على التعاون واتِّخاذ بعضهم لبعض سُخْرياً؛ ليشتغل كلُّ فرد بما يُحسِنُه ويميل إليه، ويقوم بحاجةٍ من حاجات المجتمع التي يسدُّها المجموع، ويكون كلُّهم خَدَماً له.

ولما كانت هذه الحاجات متفاوتة في المحاصيل والمراكز، كان فيهم الغني والفقير، والمأمور والأمير، والضعيف والقدير، حسب مواهبهم وهِمَمِهم وقِلَّة عِلمِهم وكثرته، وغير ذلك.

وأمر الله سبحانه أمراً جازماً أن يعطف الغني على الفقير، ويقوم بسَدِّ عَوَزِه وحاجته، وأبانَ للغني أنَّ رزق الفقير جعله في ماله، بحكم هذا النظام، وأوجَبَ عليه الزكوات والصدقات، ونَدَبَه إليها؛ ليكمل نقص حاجة الفقير في نفسه وعياله، فقال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال ﷺ: «أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله»؟ قالوا: يا رسول الله، ما منّا أحدٌ إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «مالُه ما قدَّم، ومالُ

وارثِه ما أخَّر»[١]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة والأحاديث، كلُّها تحض على الإنفاق؛ لتكميل نظام الرزق الذي وَضَعه الله بحكمته، وأمر بالإنفاق ونَـدَب إليه تتميماً للحكمة في تكوين نظامه، ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ فيجعل أنظمة شؤونهم حسبما تقتضيه الحكمة والمصالح العامَّة، لا كما يشتهون.

ولما كان من جملة أنظمة الرزق إنزال المطر بقدر ما يشاء، بمقتضى السنن الكونية والحِكَم الإلهية، وقد يُمسِكه للتخويف والانتقام من أرباب الزكوات والصدقات إذا لم يفعلوا، كما جاء في الحديث: «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القَطْرَ من السماء»[٢]، فلهذا كلِّه تعرَّض لإمساكه وإنزاله، مشيراً إلى أنَّ ذلك يكون أيضاً بحسب الحكمة البالغة، كنظام الرزق. وجعل صورة الكلام على التَّمنُّن والإنعام والفَضْل والإكرام، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ حيث تقتضي الحكمة العامة والسنة الكونية أو العقاب والتخويف ذلك التأخيرَ والتقطيع، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ بعد الإمساك حتى تعمَّ السَّهْل والجبل والنبات والحيوان، ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ الذي يتولّى عباده باللطف والإحسان، ويستحق الحمْدَ والامتنان، وبعض ما يرونه في ظاهره إجحافاً، لو اطَّلعوا على الغيب لرأوا ذلك ألطافاً.

واعلم أنَّ أعمال الله سبحانه وألطافه ليست مقصورةً على مصالح البشر وحدهم، ولكنها تعمُّ مصالح الكون كلِّه، بما فيه البشر أفراداً وجماعات، وقد تتضارب مصلحةُ أمة أو بلدة أو شخص مع المصلحة العامَّة أو السنن الكونية، والله سبحانه هو العليم الحكيم. على أنه قد يكون بعض تلك الشدائد المُجْحِفة تأديباً من الله سبحانه لشخص أو أُمة أو بلدة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٢)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، عن ابن عمر رضي الله عنه.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ثم أيَّد البحث بدليل القدرة، على نهج القرآن، وعاد بالكلام إلى الردِّ على أُولئك المشركين ببيان اختصاصه تعالى بأفعال الألوهية، وأدمج فيه البعث، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالَّةِ على استحقاقه وحده للألوهية: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على ما هُما عليه من الإبداع والإتقان، فإنهما بذاتهما وصفاتهما تدلَّان على شؤونه العظيمة البالغة، ﴿وَ﴾ كذلك خَلْقُ ﴿مَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تدبُّ عليهما، أو على الأرض فقط من أنواع الأحياء، إذ ما يكون في أحد الشيئين المحكي عنهما يجوز أن يُسْنَد إليهما.

ثم خَصَّص النتيجةَ بإثبات قُدرته على البعث، وبالردِّ على مُنكِريه، فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ بالبعث والنشور ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ أي: وقتَ أن يشاء ذلك ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ لأنَّ مَن يقدر على خَلْق السماوات والأرض وما فيهما من الأحياء، لا يعجز عن إعادة الناس بعد الموت.

وضمير ﴿جَمْعِهِمْ﴾ يعود إلى هؤلاء المنكرين للبعث والنشور، الذين انتظمهم السياق، والله أعلم، وفي صورة التعبير لونٌ من التَّهديد لهم والوعيد. وقوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ يُؤذِنُ بأنَّ وقت ذلك الجَمْع مما استأثر الله بعلمه، فلا يعلم وقت الساعة والبعث إلا هو.

ولما كان السِّياقُ مُتضمِّناً لِنِعَمِ الله تعالى على بني الإنسان، وقد يصيبه الشرُّ

والانتقام، أردفه ببيان أنَّ النِّقَمَ إنما تأتي من الإنسان نفسه، إيذاناً بأنَّ الله تعالى لا يفعل إلا الخير، ولكن الإنسان يُفسِدُه بعبثه به، فينقلب عليه شراً، فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾[1] فهذه الآية تمهيدٌ وتتمةٌ للبحث السابق بفَحْواها، وتمهيدٌ للبحث اللاحق، على نهج القرآن، وبيانٌ لسُنَّةٍ من سُنن الله تعالى بمَبْناها.

وتقرير هذه السنة: أنَّ المصائب التي تقع في العالم الإنساني ـ سواء كانت تتعلق بالشخص أو بالأمة ـ لا تجد لها علَّة سوى الـمَيْل عن قانون الفطرة والانحراف عن سُنن الله المسنونة في هذا الكون. وقد تكون تلك المخالفة جزئية قليلةَ الأثر، فلا يترتَّب عليها شرٌّ يذكر، وذلك مما يحدث بكثرة، ويندفع أثره بلطف الله.

ومحصَّل الكلام: الخير كلُّه بموافقة سنن الله، والشرُّ بمخالفة سنن الله، وأحكام الشريعة تنطبق على سنن الله، فكلُّها خير.

ثم بيَّن سبحانه سلطانه القاهر على عباده، فقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾[2]، ويجوز أن يكون هذا تهديداً ووعيداً للمشركين فقط الذين انتظمهم السياق.

---

(١) أي: وما أصابكم ـ أيُّها الناس ـ من مصيبةٍ مكروهة عامَّة، تشمل أمَّةً من الأمم أو قوماً من الأقوام، فبسبب ما كَسَبَت أيديكم من الذنوب والمعاصي؛ جزاءً، أو تربيةً، أو تذكيراً بالجزاء الأكبر، ويَمْحو من سِجِّل المُؤاخَذةِ كثيراً من الذنوب.

(٢) أي: وما أنتم ـ أيُّها الناس ـ بقادرين على الإفلاتِ في الأرض هرباً من عذاب ربكم، ولا تُعجِزون الله حيثما كنتم، إذا قَضَت حِكمتُه بأن يُنزِلَ بكم عذابَه، عقوبةً لكم على كُفرِكم وجرائمِكم، وما يوجد لكم من دون الله وليٌّ يتولَّى حمايتكم من عذاب ربكم، ولا يستطيع نصيرٌ أن يَنصُرَكم فيمنعَ نزول عذاب الله فيكم.

ثم تابع الكلام عن دلائل التوحيد والقدرة والامتنان، وأدمَجَ فيه الاستشهاد لِـمَا سبق عن الأرض من البيان، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: من آيات ربوبيَّته وقدرته وعظيم صُنعه: هذه السفن تَطْفُو على وَجْه الماء، وهي كالجبال الشامخة. يشير إلى سُنَّته تعالى في طبيعة الماء، كيف يحمل الأجرام الكبيرة الثقيلة إذا كانت على وَضْع خاص.

ثم خصَّ بالبيان السفن الشراعيَّـة؛ لأنها المعروفة في العالم القديم، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: على ظهر البحر، وهنا سارع بالتحسيس إلى ما في نظام العَوْم ونظام الريح من آياتٍ كونيَّة دالَّةٍ على اختصاص مُنشِئِها بأفعال الألوهية، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على التفكير في آيات الله ﴿شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ لِنِعَمِهِ وآلائه[1]. والصبرُ والشكرُ صفتا المؤمن، إذ هو المستعدُّ للنظر والتفكير في آيات الله.

ثم تابع البيان عن السفن، فقال: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أي: يُهلِكْهنَّ ويُتلِفْهنَّ بإرسال الريح العاصفة المُغْرِقة، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من تقصيرهم في إتقان العمل، أو انتقاماً لِـمَا اقترفوا من الذنوب، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ من المُخالفات التي لم يكن لها أثرٌ شديد.

ثم عطف على المعنى قولَه: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ لأنَّ المعنى: لينالوا جزاءهم وليعلمَ الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيد ولا مَهْرب عن عذابنا.

---

(١) أي: لا يصلُ إلى إدراك دقائق صُنع الله وتدابيره إلا كلُّ كثير الصبر في البحث العلمي، يعمل مُجتَهداً بدأب لبلوغ معرفة النظام السَّبَبيِّ الذي نَتَجَت عنه ظواهر الطَّفْو، وإجراء السُّفُن، ولا ينتفع من إدراكِ عظيم صفات الله ورحمته بعباده إلا كلُّ كثير الشكر لربِّه.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

ولما كانت مجادلة هؤلاء المشركين في آيات الله إنما هي بدافع الحِرص على مراكزهم ورياستهم؛ خشيةَ أن تُفقَدَ بظهور هذا الدين الجديد، زَهَّدَ في ذلك ورغَّب فيما عند الله، فقال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يتمتَّع به صاحبه قليلاً ثم يزول، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾؛ إذ هو لا يزول ولا يفنى، وهو ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ثمَّ تابع وَصْفَ المؤمنين بالصفات التي استحقّوا بها ما عند الله، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1]، والتأكيد بالضمير[2] لعزَّة منال هذه الصفة، فهم لحُسْن أخلاقهم لا يندفعون مع غضبهم، بل يعفونَ ويَصْفحون مع القدرة على الانتقام.

---

(١) أي: الذين يبتعدون عن كبائر ما نهى الله عنه، ممَّا تعظُمُ عقوبتُه، كالشِّرك والقَتْل والرِّبا والسرقة وشُرْب الخمر وشبه ذلك، ويجتنبون كلَّ ما عَظُمَ قُبحُه من الكبائر المُتعلِّقة بشهوات الفُروج، ومنها: الزِّنى وعمل قوم لوط، وإذا أساء إليهم مُسيءٌ واستثار غضبَهم مُؤْذٍ فأغضَبَهم، فإنهم يسترون إساءتَه وإيذاءَه، ويتجاوزون عن مؤاخذته.

(٢) في قوله: ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

والغضب من الرذائل الخلقية التي لها أسوأ الأثر في الفرد والمجتمع، فهو يُفقِدُ الرُّشْدَ والصواب، ويجعل صاحبَه وحشاً ضارياً لا يدري ما يفعل وما يقول، والانفعال الذي يثيره الغضب ضارٌّ بصحَّة الإنسان ومصلحته، والحِلمُ يُصْلِحُ الأمرين معاً.

ثم تابع الوصف فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ حين دَعَاهم إليه بواسطة رسوله وكتابه، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي أمرهم بها، وخصَّها بالذكر لأنها أهمُّ ما في الكتاب؛ لأنها الصلة بين العبد وربه، والمقرِّبة إليه.

ثم مدحهم بهذه الخصلة فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]، وهي المفاوضة والمجادَلة في الكلام عن أمرٍ من الأمور ليظهرَ فيه الحق والصواب. أي: لا يُـقدِمون على الأمر حتى يدرسوه درساً وافياً، بالشورى بينهم. وذلك مَظْهرٌ من مظاهر الكمال، وقد شهد لهم بذلك الأجانب أيضاً، والفضل ما تشهد به الأغيار، فقد قال أحد المستشـرقين أرمينيوس فامباري: كان الإسلامُ ـ وما برح ـ الدينَ الفائقَ سائرَ أديانِ العالم شورى وديمقراطيةً، الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشِرْعة السَّواء، فإن كان العالم قد شَهِدَ حقاً منذ أول عهد العمران البشري إلى اليوم حكومةً دستوريةً، فهي لَعَمْري حكومة الخلفاء الراشدين. انتهى.

ولا يخفى أن المجالس النيابية والانتخاب الصحيح الحر، هو صورةٌ من صُورِ الشورى، سواء كان للرئيس أو للنواب.

---

(١) قَرَنَ سبحانه وتعالى نظام الشورى بالصلاة؛ للدلالة على أنَّ التشاور بين ولاة الأمر هو من أُسس الإسلام؛ لأن الاستبداد ليس من شأن المؤمنين، وقد أمر سبحانه بها النبي ﷺ فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] مع أنه ﷺ ممتاز بكمـاله العقلي والروحي واتصاله بالوحي الإلهي، فلا شكَّ أنها على غيره أوجبُ. أما طريق الشورى فقد فوَّضها القرآن إلى أهل الزمان، ويجوز أن تكون بواسطة المجالس النيابية الآن. (المؤلف).

ثم تابع الوصف فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ في سبيل الخير. وأتى بجملة الصِّلة تَبْصرةً للنفوس؛ لأن ما يُنفَقُ إنما هو من الله وإلى الله، لتزداد سخاءً.

ثم تابع الوصف فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: يتكاتفون ضدّ العدو، يأبون الضَّيْم ويتناصرون عليه. وهذا وَصْفٌ لهم بالاتحاد والشجاعة، فالدين الإسلامي دينُ توحيدٍ واتِّحاد، ولا ينافي هذا وَصْفُهم سابقاً بالغفران، فإنَّ كلًّا منهما فضيلةٌ في موضعه، إذ الغفران إنما يكون مع القوة، وفيما يكون فيه العفو رفعةً وفضيلةً ومصلحةً اجتماعية، أما التناصر فيكون عند الضعف، وفيما لا يجوز فيه التسامح والتهاون. وإنما أتى بالضمير ﴿هُمْ﴾ في هذا الوصف أيضاً؛ لعزَّة مناله وعِظَم شأنه، كما في الغفران عند الغضب.

ثم نظّم سبحانه هذا التكاتف كي لا يكون فيه شيءٌ من الظلم والتجاوز عن قدر الحق، فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ من دون زيادةٍ وتجاوز، إلا أنَّ العفو في موضع العفو أرضى عند الله، ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المسيء مع قُدرته عليه إذا كان ذلك الظلم لا يَتعدَّى شخصَه، ولا يضرُّ العفو بالحالات الاجتماعية العامة، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بذلك العفو ولم يفسد، بأن لا يكون سبباً لتمادي المسيء في إساءته؛ ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

ثم بالغ في الترغيب فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾، وفي هذا التذييل والتعليل وَجْهٌ آخر، وهو عدم الترغيب في العفو عن المسيء الذي يستحقُّ الجزاء، ولا يصلح أمره إلا ذلك، لشدَّة ظلمه وانطباعه عليه. فلينظر العالم الغربي المدَّعي للتمدّن في هذا التثقيف والتأديب العالي، وهذا النظام العالمي السامي، فما أضلَّ المُعْرض عنه والمعارض له، وأبعَدَه عن النور! ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

ولما كان هذا الترغيب في العفو ربما يتسرَّب منه إلى بعض الأذهان أنّ المجازاة

نقيصة أو جريرة، دفع ذلك بقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾ لنفسه ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: بعد أن ظُلم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ أي: لا عَتْبَ عليهم ولا عقاب، و﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالعقاب الأليم ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ بأن يبدؤوهم بالإضرار أو يعتدوا عليهم في الانتقام ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1]؛ فأولئك عليهم السبيل و﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ بما كانوا يظلمون.

ثم عاد فرَغَّب الكُمَّل من الناس بالعفو في هذه الصورة أيضاً، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى، ﴿وَغَفَرَ﴾ لمن ظَلَمه مع القدرة عليه، إذا كان ذلك الظلم لا يتعدَّى شخصه، ولا يضرُّ العفو عنه بالحالات الاجتماعية العامة، فهو من أكمل الخصال، ومن مظهر الكمال، و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: إنَّ كَظْمَ الغيظ من صفات الكمال، ومن أعظم أخلاق الرجال.

ويُحكى أن رجلاً سبَّ رجلاً في مجلس الحسن، وكان المسبوب يكظم ويعرق، فيمسح العرق، ثم قام وتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها ـ والله ـ وفهمها، لـمَّا ضيَّعها الجاهلون[2].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن

---

(١) أي: ما السبيلُ الموصوف بالحقِّ والعَدْل المُوصِل إلى إقامة الجزاء العقابيِّ على مُسْتحقِّه، إلّا السبيلُ المُسلَّط بسلطان الحق والعَدْل على الذين يَبْدؤون بالظلم، ويعتدون بغاةً في الأرض بغير الحق، ويعملون فيها المعاصي.

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٢٣٠)، والرازي في «تفسيره» (٢٧: ٦٠٧).

يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

وبعد أن أتمَّ الكلام عن المؤمنين وصفاتهم العالية التي استحقُّوا بها ما عند الله تعالى من النعيم المقيم، وأدمج في ذلك إرشادَهم إلى الشُّورى في معاملاتهم، وإلى التكاتف ضدَّ الاعتداء عليهم، عاد بالكلام عن المشركين الذين يُعرِضون عن هذا الدين، فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حسب سُنَّته العامة في الإنسان، إذا دسّى نفسه بإفساده لغريزته وتشبُّعه بالشِّرك والضلال، فله عذابٌ أليمٌ بَدَلَ ذلك النعيم المقيم. وقد أقام مقام هذا الوعيد قولَه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يُصلح شأنه أو يُنجيه من العذاب. والمراد من هذه الجملة: تَيْئيسُه من النجاة.

ثم ذكر نَدَمَهم وسوء حالهم، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ يتمنَّون العودة إلى الدنيا لتلافي ما فرط منهم. وهذا التمنِّي لمجرَّد إظهار الندم، لعلمهم بامتناعه.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار المفهومة من فَحْوى السياق، ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ذالِّين صاغرين مخذولين، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ كالمحكوم عليه بالقصاص، ينظر إلى السيف عند إرادة التنفيذ، ﴿وَقَالَ﴾ حينئذ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إظهاراً لربحهم وفوزهم، وتبجُّحاً به، وتعريضاً بخسارة الكافرين: ﴿إِنَّ

﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ خسراناً عظيماً هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بتعرُّضهم مع أهليهم للشقاء الدائم والعذاب الشديد.

أما قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ فيجوز أن يكون من تمام كلام المؤمنين، أو تصديقاً من الله تعالى لهم، تابعَه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حسبما كانو يجدون مِثلَ ذلك التناصر في الدنيا.

ثم أنحى عليهم باللائمة، فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حسب سُنَّته العامة في غرائز الإنسان إذا أفسدها بتحريفه لطبيعته وانطباعه على الغَواية بسُوء التقليد، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ إلى الهُدى والرَّشاد، وذلك بمقتضى سُنَّة الله العامة في أخلاق البشر، وهي أنَّ من تَشَبَّع منهم بشيء لا يميل إلى ضدِّه[1].

وبعد هذا الوعيد والتأنيب، فتح لهم باب التوبة، واستدرجهم إليه بالإنذار، فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا تتمكَّنون يومئذٍ من إنكار ما اقترفتُموه، كيف وهو مُحصى عليكم ومكتوب!

ثم لفت الخطاب ووجَّهه إلى الرسول، مُسلِّياً له عن إعراضهم وعدم استجابتهم، فقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه، ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: رقيباً ومحاسباً، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد قُمْتَ بواجبك حقَّ القيام، فلم يبق عليك شيء.

---

(١) أو المعنى ـ وهو الأَوْلى بسياق الآيات في عذاب الكافرين ـ: وما كان لهؤلاء الكافرين حين محاسبتهم والحكم عليهم بالخلود في عذاب النار من نُصَراء من دون الله يُنقِذونهم من عذاب الله الأبديِّ، ومَنْ يحكم اللهُ عليه بالضلال والعذاب الأبديِّ، فما له من طريق يُوصِلُه إلى الخلاص والنجاة من عذاب الله.

ثم بيَّن تعالى أن سبب إعراضهم عن الحق إنما هو غرورُهم بما أنعم الله به عليهم، وتحريفُهم لطبيعتهم، فأصبحوا لا يُدركون الحقَّ من الباطل، والخطأ من الصواب، وطوى الكلام على الوعيد للمشركين، فقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ وبطر واغترَّ وأفسد وكفر، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وإن تُصِبْ أحدَهم سيِّئةٌ بانحرافه عن سُنن الله في كونه استاء وأنكر، فهو لا يشكر نِعَمَ الله، ولا يصبر على ما قدَّمت يداه، فسجَّل عليه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ وهذا وَصْفٌ للإنسان بصفة الصنف الغالب منه، وهو الجاهل المغرور، والمُعْرض الكفور. والتعبير عن الإنسان بصيغة المفرد نظراً للفظه، وبصيغة الجمع نظراً لمعناه.

ثم أيَّد البحث بما يدل على قوَّته سبحانه ومنَّته، على نهج القرآن في ذلك، وعاد بالكلام إلى محوره السابق في دلائل العزَّة والقدرة، وقَرَنَ ذلك بما يُلمع إلى أنَّ أموره سبحانه إنما تجري بحسب الحِكَم وبسنن كونية، فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرَّف فيه كما يشاء، ولكن مشيئته تجري بحسب الحِكَم والمصالح العامة، وبسُنَن ثابتة مستقرة.

وأيَّد ذلك بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ فقط، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ فقط، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يَقرِنُ بين الصِّنفَيْن لمن يشاء، فيَهَبُ له ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ قد ﴿يَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ لا يلد أبداً، وكل ذلك يجري على سُنن كونية ونواميسَ طبيعية ثابتة، أجرَتْها قدرة الله العظيمة بمقتضى الحكمة البالغة في نظام الرَّحِم وأحواله[1]، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ يضع السنن بعلمه وقدرته.

---

(١) ارجع إلى التعليق على قوله تعالى في آخر سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]. (المؤلف).

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم خَتَم السورة بما بدأها به، على نهج القرآن في ذلك، وقرَّر رسالته ﷺ، وردَّ عليهم إنكارهم لها واعتراضهم على اختصاصه بها دونهم، وذلك ضمن بيان طرق الرسالة فيمن يختارهم الله لها، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ ويُشعِرَه أو يُعلِمَه بشيء مما يرضى به، ﴿إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾.

والأول: بالرؤيا الصَّادقة أو الإلقاء في الرُّوع[1] والإلهام للأنبياء عليهم السلام، كقوله ﷺ لسُراقة: «لتلبسنَّ تاج كسرى وسواريه»[2]، فلما جاء حُليّ كسرى إلى عمر أرسل إلى سُراقة وألبسه إيَّاهما، وقولِهِ ﷺ: «ما أنزل الله من الفتن؟»[3] يرمز إلى فتنة عثمان رضي الله عنه وواقعة الجمل، وكان عمر رضي الله عنه يخشاها أن تكون في خلافته، ويتساءل عنها دائماً، ولكنها وقعت بعد مقتل عثمان. وكتبشير الصحابة العشرة بالجنة[4]،

---

(١) الروع: بِضم الراءِ القلب والعقل. «الصحاح» (روع).

(٢) سبق تخريجه ص١٥٤.

(٣) رواه البخاري (١١٥)، عن أم سلمة رضي الله عنها بلفظ: «ماذا أنزل الليلة من الفتن».

(٤) إشارة إلى قوله ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوّام في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة» وقال سعيد بن زيد: «ولو شئت لسمَّيتُ العاشر. قالوا: مَن هو؟ فسكت، فقالوا: مَن هو؟ فقال: هو سعيد بن زيد». رواه ابو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٣).

وكتبشيره ﷺ بفَتْح ممالك كسرى حين لمعت حَجَرةٌ بضربة ضارب أثناء حفر الخندق[١]، وأمثال ذلك.

وهذا الإيحاء الوجداني لا يكون إلا في الأنبياء والصِّدِّيقين، كأمّ موسى ومريم بنت عمران أم عيسى. والله أعلم.

والثاني: يتيقَّنُه الكليم ولا يعرف كيفيَّته، مثل تكليم الله لموسى عليه السلام، حتى طمع أن يراه، فهو عِرفانُ إيقانٍ دون إدراك لحقيقة الشأن[٢].

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إلى البشر ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ﴾ تعالى ﴿مَا يَشَآءُ﴾، وهذا في تكليف البشر بالكتب المُنزَّلة، وإرشادهم بواسطة الرسل المُرسَلة من الملائكة، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ لا يمكن لأحدٍ أن يعلم عنه على الصورة التي يعلم بها بعضُنا من بعض، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهو ﴿حَكِيمٌ ۝٥١﴾ يُرسل تعاليمه الحكيمة بوسائط حكيمة.

---

(١) إشارة إلى ما رواه رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «لما أمر النبي ﷺ بحفر الخندق، عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر، فقام رسول الله ﷺ، وأخذ المعول... »، وفيه: «فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لي مدائن كسرى... » رواه النسائي (٣١٧٦).

(٢) تيقَّن موسى عليه السلام ذلك التكليم، دون أن يُدرك كيف كان. وكثير من الأشياء المتيقّنة لا يُدرَك كُنهُها وحقيقتُها. فالعلم نفسه والإدراك نشعر بتعلقهما بالأمور شعوراً يقيناً، ولا نعرف كيف ذلك. وكذلك الخوف والخجل نشعر بهما، حتى من غيرنا، ولا ندرك سوى آثارهما، فلا يعظم عليك تيقّن موسى لكلام الله دون إدراكه كيفية ذلك، ودون سماع حرف أو صوت؛ لأنَّ كلام الله ليس كذلك، ولا تحاول إدراك ذلك بخيال؛ لأن عمل الخيال إنما هو في المحسوسات دون المُدْركات، ومع ذلك إنه فاشل في أكثر التقديرات، وأين أنت من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. (المؤلف).

فالآيةُ تُـؤذِنُ بأنَّ لله سبحانه سُنـناً خاصَّة في الاتصال بمن يختارهم من البشر لرسالته، ويُوحي إليهم بما يرتضيه من شريعته. وهي: اتِّخاذ الملائكة رُسُلاً بينه وبينهم، وهو الأكثر.

أو يُفهِمُ الله سبحانه مَنْ يُريد إفهامه بدون واسطة، على صورة مشابهة لإفهام الله تعالى للملائكة وفهمهم عنه تعالى، فيتيقَّن الكليمُ ذلك دون إدراك لكيفيَّته، فهو عِرفانٌ مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن، ويجوز أن يكون من فصيلة الإيحاء، ولكن بصورة أكمل، والله أعلم.

أو أن يُلقيَ الله سبحانه في رُوع مَنْ يريد من البشر أن يُعلِمَه بشيء ويُوحيَ به إليه عن طريقة الإلهام، والله أعلم.

ثم ربط هذا البيان العام ببيان وَحْيه تعالى لمحمد ﷺ على هذه الطريقة المقرَّرة، وذلك للردِّ على إنكارِهم رسالتَه واستبعادِهم لِـمَا يدَّعيه من أمر الوحي وإنزال الكتاب عليه، وعقد ذلك على التنويه بشأن هذا الوحي وهذا القرآن، وختم به السورة كما بدأها به، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: على إحدى الطرق التي أوحينا بها إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن، إذْ به حياةُ البشر الماديَّـة والروحيَّـة، الدنيويَّـة والأُخرويَّة.

ثم نوَّه بشأن هذه المنَّـة عليه وعلى البشر عموماً، فقال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم الذين حافظوا على سلامةِ فِطَرهم ونُور بصائرهم، فرأوه حقاً، وتَيقَّنُوه صدقاً، لأنَّ من أفسد طبيعتَه بالضلال ولم يبق في بصيرته شيءٌ من نور الفطرة، لا يُمكِنُه أن يُبصِرَ الحقَّ ولا يهتدي إليه. هكذا شاء سبحانه.

ثم نوَّه بشأن هذا الوحي وهدايته، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ﴾ بذلك النور الموحى به إليك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ يصل سالكه لسعادة الدارين، ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً ومُلكاً، وقد جعل في صراطه هذا السعادة لِـمَنْ سلكه، والشقاء لمن ضلَّ عنه، ينالُه ذلك في الحياة الدنيا وبعد النشور.

ثم رغَّب المُتمسِّك وتَـوَعَّد الـمُتَنكِّب، فقال: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ فيُجازي المحسنَ على إحسانه، والمسيءَ على إساءته. اللهُمَّ اجعلنا ممَّن سَبَقت لهم منك الحُسْنى يا أرحمَ الراحمين.

❊ ❊ ❊



مكية، وهي تسع وثمانون آية

ومُلخَّص موضوعها:

تقبيحُ الشِّرك وإبطاله، والوعيد عليه.

وقد جاء في السورة السابقة اتِّفاقُ الرسل على التوحيد، ولكن بعض أتباعهم بعد مرور الأزمان أدخل عقيدةَ الشِّرك في شرائعهم، فجاء في هذه السورة تنـزيهُ الله تعالى عن ذلك، وتبرئةُ شرائعالله من هذه العقيدة، وجرى الكلام بطريقة الترغيب والترهيب.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها، ومنه هنا: قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ يُقسِمُ به، ثم يُحدِّث عنه بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾[1] بلاغتَه وعلومَه وعُلوَّ شأنه وعِظَمَ توجيهاته،

---

(١) أثبت علماء اللغات أنَّ اللغة العربية أسمى جميع اللغات، إذ لا يُضاهيها لغة، حتى اللاتينية، في التعبير عن أدقِّ المعاني وقدرتها على الإفصاح عن أبعد المفاهيم وأسماها، ولذلك نزل بها القرآن العظيم، فلا يُفهَمُ المراد منه على الوجه الصحيح إلا باللغة العربية، كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقد اهتمَّ المسلمون بنشر هذه اللغة بين المسلمين اهتماماً كبيراً، وكثر علماء العربية من الأعاجم لنشرها في أممهم؛ لأنها وسيلةٌ لفهم القرآن، وحكم الوسائل حكم المقاصد، وكانت الحكومات الإسلامية على الإطلاق كالبويهيَّة والسلجوقيَّة والأتابكيَّة، حتى التتار والحكومة العثمانية في أولها حتى انتهى الأمر إلى عهد السلطان العاشر سليمان القانوني، فهو الذي أقدم على تبديل اللغة العربية في حكومته باللغة التركية، وتبعه سائر حكومات الأعاجم الإسلامية في تبديل =

فتيقَّنوا أنه مُنزَّل من عند الله، لا من وضع البشر. وفي الإقسام به على ذلك الجَعْل مبالغةٌ في التنويه بشأنه وشأن العربية.

وإنما خصَّ العرب بهذه الكرامة وإنزال هذا الكتاب المبين بلغتهم؛ لأنهم في مقدِّمة مَنْ يعلم أسرارَ الكلام ودقائقَه وتفوُّقه في أساليبه ومعانيه، فهم الذي يُمكِنُهم أن يُميِّزوا فَضْلَ هذا القرآن وإعجازه ودقائقه وأسراره وعلومه وآثاره، وما يُرشد إليه من مطالب الروح وكمال العقل وتزكية النفس، وتثقيف الوجدان والحسّ، وإصلاح الاجتماع العام الذي يعود بصلاح الحال وسعادة المآل، فيعرفون بذلك أنه من الله تعالى، لا من وضع البشر، ما لم يكن هناك مكابرةٌ وعناد. فيكوِّنون نواةَ الدعوة إلى هذا الدين، ومنبتَها الطيِّب، ومعدنَها الثمين. أما الغير فهم تَبَعٌ لهم، يَقْتفون آثارهم، ويسترشدون بفهومهم وآرائهم.

وفي هذا الجَعْل تمنُّن على العرب في إعطائهم هذه النعمة، وانتدابهم لهذه المهمَّة، وتشريفهم بالقيام لنشر الدعوة في الناس.

وفيه تشريعٌ بأن تكون هذه اللغة العربية لغة عامَّة، يتفاهم بها البشر هذا الهدى

= اللغة العربية بلغاتهم، وابتعدت بذلك عن القرآن، فلم تفهمه أُمَمُهم إلا بشكل بسيط وهزيل، لا يُدركون مراميه وأهدافه وإرشاده وآدابه، فضلاً عن دقائقه وإشاراته.

وقد أنزل سبحانه هذا القرآن ليكون ديناً عالمياً ناسخاً لجميع الأديان، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١]، وقد جعل لغته عالمية أيضاً؛ لأنه لا يفهم إلا بها، وليكون العالم وحدةً واحدةً في الدين واللغة، يتعلمها مع لغته، وما أعظم هذا الأمر وفائدته للبشر لو كان. (المؤلف).

الفيَّاض، ويدخلون في السِّلم كافَّة، فلا تعتدي أُمة على أُمة، ولا فردٌ على فردٍ، ويعيشون بوفاق ووئام، وهناء مستديم عام، طبق الفطرة البشرية والحاجات الإنسانية. هذا ما أراه في مدلول الآية. والله أعلم.

ولذلك بالغ في الثناء على هذا القرآن بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾[1]، و﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مصدره، والمراد بالكتاب: الجنس، فيعني بـ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ـ والله أعلم ـ عِلْمَه تعالى، الذي هو مصدر الكتب السماويَّة، والمراد بهذا التعبير: أنَّ هذا الكتاب في بيان علم الله وهدايته، يُعدُّ في الدرجة العُليا من درجات الكتب السماويَّة المنزلة؛ لأنه مشتملٌ على حِكَم عظيمة وتعاليم عالية لم يشتمل عليها غيرُه من تلك الكتب، ففيه ما يكفي البشر إلى يوم القيامة من تشريع دينيٍّ ومدنيٍّ وسياسيٍّ، وحِكَم ومواعظ وآدابٍ عالية، وأنباء غيبيَّة عن الماضي والمستقبل، ويُبيِّن كل ذلك بتراكيبَ بديعة، وأساليبَ عجيبة، وبلاغةٍ حاكمة على العقول والألباب، وفصاحةٍ مُسْتَعْذَبة في الأذواق والأسماع، ولا كذلك بقية الكتب السماويَّة. والله أعلم.

ثم ذكر الباعث على إنزاله، مُلْمِعاً إلى أنه تذكيرٌ للناس بما يجب عليه لِنَيْل سعادتهم في الدارين، وتوجيهٌ لِـمَا به تكون تلك السعادة، وسَبَك الكلام على التقريع للمُسرِفين في الضلال، فقال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ أي: أنُهمِلُ تذكيركم بما يجب عليكم وأنتم قومٌ مسرفون في الضلال؟ كلّا. وفيه إشعارٌ بأنَّ الله سبحانه يُجدِّد الرسالة للبشر، ويُكرِّر التذكير لهم كلّما اضمَحلَّت الشريعة

---

(١) المراد: إنّ القرآن مُثبَتٌ عند الله عزّ وجلّ في اللوح المحفوظ، في مكانٍ عليٍّ ذي منزلةٍ رفيعة؛ لأنَّ دلالاتِه تتعلَّق بكُبْريات الحقائق المبيِّنات لصفات الله، ومطلوباته من عباده، وهو أيضاً حكيمٌ مشتملٌ على حِكمةٍ بالغة في معانيه ومبانيه، وأغراضه ومراميه، مُحكَم لا يتطرَّق إليه الفساد والبطلان، ولا الاختلاف، ولا التناقض.

السابقة، وعَظُمَ الإسراف في الناس، لعَبَثِهم بها وإخلالهم وإتلافهم لها، فيُعيدُ إليهم هدايتَهم بالشريعة الجديدة؛ كي لا يكون للناس على الله حُجَّة بعد ذلك. والله أعلم.

فبيَّن تعالى أنَّ مثل هذا الإنزال على البشر لـهدايتهم وتكميل فِطَرِهم هو من سُنَّة الله تعالى، فقال: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦﴾.

ثم بيَّن إعراض الضالِّين منهم عن أولئك المرسلين، فقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧﴾.

ثم بيَّن تعالى ما نال تلك الأقوام من جرَّاء معارضتهم واستهزائهم، وبنى الكلام على تهديد مشركي قريش، وقال: ﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ أقواماً كانوا ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: أهلكنا أقواماً هم أشدُّ بطشاً من هؤلاء المُسرِفين من قريش، فما كانت قوتهم مانعةً لهم من بطش الله بهم لـمّا عارضوا الرسل وعاندوهم. فوصف أولئك بالشِّدَّة للمبالغة في وعيد هؤلاء وتهديدهم.

ثم أحال تفصيل هذا البيان على ما سَبَق من ذلك في هذا القرآن، فقال: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ أي: سَلَفَ في القرآن ذِكرُ الأمم السابقة وما حلَّ بهم من جَرَّاء معارضتهم لأنبيائهم ومعاندتهم لهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾.

ثم ساق دليلَ القدرة والتوحيد؛ تحقيقاً للدعوة، وتقريراً للقدرة على إنجاز الوعيد، وصدَّره بما لا ينكرونه، أو لا يمكن إنكاره، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ أي: لا ينكرون أنَّ الله سبحانه هو الذي خَلَقَهُنَّ. والتَّعرُّض لهذين الوصفين إنما هو من كلام الله تعالى لا من كلامهم، على نهج القرآن في الحكاية عن الغير، حيث يُراعي في التعبير دقَّةَ المعنى أو كمالَه، وإن كان ذلك غيرَ ملحوظ لهم ولا في متناول عقولهم. وإنما تعرَّض لهما للإشارة إلى ما في خَلْقِهنَّ من آثار هذا العلم الجليل، وللإيماء بالعزَّة إلى المبالغة في تهديدهم ووعيدهم على كفرهم وإعراضهم عن الحقِّ المبين، وهو اختصاصُه بالألوهيَّة، وفيه دليلٌ مُحرجٌ لهم لو كانو يعقلون.

ثم بالغ في ذلك، وتابع التنبيه إلى نِعَم الله تعالى وعظائمه التي لم يهتدوا باختصاصها به إلى اختصاصه بالألوهيَّة، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ تستقرُّون عليها بكل هدوء وراحة، رغماً عن حركتها اليومية والسنوية السريعة، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تَسْلكونها، حيث جعلها قابلةً لانطباع الأثر عليها، فلم تكن من مادةٍ غير قابلة الانطباع، كالرمال والصخور والسوائل، ولا على وَضْع غير قابل للسلوك، كأنْ جعلها كلَّها كالجبال الوعرة التي لا يمكن سلوكها بسهولة، وذلك من فَضْل الله ورحمته وإتقان صُنعه، لترتاحوا فيها وتستفيدوا من خيراتها و﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ بسُبُلها إلى المواضع البعيدة عنكم، وتهتدون بالتفكير في ذلك إلى اختصاصه سبحانه بالألوهية والتمجيد.

ثم تابع التوجيه والتنبيه إلى النظر والتفكير، فقال: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ إذ لو لم يكن هذا النظامُ المُحْكَمُ الضبطِ في إنزال المطر بقَدَر؛ لكان غرقاً هائلاً،

وبلاءً فادحاً. فانظروا في حِكَم الله وعظيم قدرته ودقَّة أنظمته، هل منْ إلهٍ غيرُه يعمل مِثلَ ذلك، فيستحقُّ أن يُعبَد؟!

ثم جاء بحَلْقة وَصْل تكون تكميلاً لسابقها وتمهيداً للاحقها، وقال: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: أحيينا به أراضي فاخضَرَّت بعد يبسها، وأنبتت بعد قحولها، و﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ من قبوركم، وتُبعَثون بعد موتكم، وتُنشَرون بعد خفائكم. فسَوَّى بين الأمرين في الحياة بعد الموت، والظهور بعد الخفاء، على نهج القرآن في الاستطراد إلى ذكر البعث بطريقة قياس النظير، كلّما ذكر إحياء الأرض بالنبات بعد يبسها، يشير بذلك إلى أنَّ طبيعة زمن الربيع في إحياء النبات بعد اليبس، كطبيعة زمن البعث في إحياء الأجسام من عَجْب الذَّنَب[1]، كما جاء في الحديث[2]. والله أعلم.

ثم تابع السياق إلى أعمال عظيمة أُخرى، فقال: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ من الحيوان والنبات؛ ليتمادى بقاء النوع بالتلقيح، وذلَّلها لكم بالانتفاع منها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ وقد قَرَنَ بين الفُلك والأنعام لِتَتْميم التحسيس بالنعمة، وللإشارة إلى التسوية بينهما براً وبحراً في هذه المهمة.

ثم أرشدهم إلى ما يجبُ عليهم من الذكر والشكر، وتَرْك الشِّرك والكفر، فقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، فإفراد الضمير وتذكيره نظراً للفظ ﴿مَا﴾، فإنه مفرد مذكر وإن كان معناه جمعاً، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن. أي: ظهور ما تركبون

---

(١) الطبيعة والزمان ليس لهما أيُّ تأثير، وإنما التأثير كلُّه لله سبحانه وتعالى، كما تقدَّم التنبيه إليه مراراً. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم أول الكتاب (١: ٤٣٩).

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»، رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

من ذلك، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ لا أن تشركوا بالله وتكفروا به وتُقابلوا النعمةَ بالكفران. وإقرانُ الشيء: القدرةُ عليه وضبطُه وإذلاله واستخدامه. يُذكِّر سبحانه الإنسان بالنعمة، حيث ذلَّل له كثيراً مما خلق؛ ليستفيد منه في أغراضه ومآربه.

وقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ فيه تذكيرٌ بالمآل وتحذيرٌ منه، بعبارة متناسقة مع السياق، ومعنى متناسب مع البحث والموضوع. وفيه دقَّة إشارة إلى أنَّ الركوب إنما هو للتنقُّل، والنقلة العظمى هي الانقلاب إلى الله، فاستَعِدُّوا لها.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن نَبَّههم إلى ما في هذا الكون من أعماله ونِعَمِه العظيمة، الدالة على اختصاصه بالألوهيَّة، أنَّبهم على شركهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي: لم يعتبروا بكلِّ ما ذكر من أدلة التوحيد الجليَّة الظاهرة، بل أشركوا وجعلوا له من عباده جزءاً.

وقد اختلفوا في الآية، فذكروا وجوهاً ثلاثة:

الأول: أن المراد منها إثبات الشركاء لله تعالى في عباده؛ لأن القول بالشركة يستلزم أنْ ليس كلُّ عباده له، بل بعضُها له وبعضُها لغيره، ولو بعضاً شائعاً، أو المعنى: جعلوا له شريكاً هو جزء من عباده.

والثاني: أنَّ المراد من الجزء: الولد مطلقاً، لأنَّ وَلَدَ الرجل جزءٌ منه. وقد قال ﷺ: «فاطمةُ بَضْعةٌ منِّي» (١). وإنما عبَّر بالجزء عن الولد؛ مُبالغةً في استحالته في حقِّ الواحد من جميع جهاته. فالمعنى: أنَّ ادِّعاء كونه ولداً له ادِّعاءٌ بأنه جزء منه، مع أنه عبدٌ من عباده. أو أنَّ الكلام يرمي إلى عقيدة التثليث، وأن الإله مُركَّب من الأب والابن وروح القدس. خابوا وخَسِروا.

والثالث: أنَّ المراد من الجزء: الولد الأنثى في لغة العرب. واستشهد أصحابُ هذا القول بقول الشاعر العربي:

إنْ أجزأتْ حُرَّةٌ يوماً فلا عَجَبُ ... قد تُجزِئُ الحُرّةُ المِذكارَ أحياناً(٢)

فتكون الآية مقدِّمةً إجماليةً وتمهيداً لِـمَا يأتي بعدها من مناقشة القائلين من المشركين بأن الملائكة بنات الله، وتبكيتهم والاستخفاف بعقولهم، بعد أن أَنَّبهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: واضحُ الكفر ظاهرُه. وهذا وصفٌ للإنسان باعتبار الصنف المُخِلِّ بطبيعته منه، وصفاً للجنس بطبيعة بعضه، وهو من خصائص اللغة.

ثم ابتدأ بالمناقشة، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ وفي هذه العبارة من التَّنَدُّر عليهم والاستهزاء بهم ما يعجز القلم عن تفصيله، وهذا على الوجه الثالث. أما على الوجه الثاني فتكون هذه الآية انتقالاً من بيان بطلان جَعْلهم لله ولداً، إلى بيان جَعْلهم ذلك الوَلَدَ من أدون الصنفَيْن عندهم الذي لا يرتضونه لأنفسهم، ويعدُّون الملائكة منه. فيكون مبالغةً في تسخيفهم والرد عليهم، كما قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٧١٤)، ومسلم (٢٤٤٩)، عن المِسوَر بن مخرمة رضي الله عنه.

(٢) أورده ابن قتيبة في غريب القرآن ص٣٩٦، والزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٤: ٤٠٧).

﴿أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي: إذا بُشِّر أحدهم بأنه وُلِدَ له مولودٌ أنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ لما يعتريه من الخَجَل والكآبة.

والآية استِهجانٌ لهذا الحال منهم، علَّق عليه استِهجانَ نسبةِ ذلك الممقوت عندهم إلى الله، إلزاماً لهم بما لا ينكرونه، وتسخيفاً لعقولهم التي لا تُدْرك التضاربَ والتضادّ، والهذر والسخافة، والنقص والفساد.

ثم بيَّن تعالى وَجْهَ هَذْرهم هذا بحكاية رأيهم ونظريتهم ومقالهم في ذلك، فقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: قائلين: أمَّن يُربَّى في الزينة ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أي: غيرُ قدير في الكلام والمجادلة، يعنون: صنف النساء. والخبر محذوف على نهج القرآن، أي: كمَنْ ينشأ ويُربَّى على القوَّة والبدن وشدَّة المعارضة في الكلام، وهو صنف الرجال. لأنهم يُربُّون الرجال على قوة المكالمة وشدَّة المعارضة والجدال، كما يربُّونهم على الشجاعة. هذا هو وجه نظرهم القاصر الذي لا يُدرك أنَّ هذا المفضول هو الذي يأتي بهذا الفاضل، ولا يتمُّ الجنس وبقاؤه إلا بالصنفين، ولكلٍّ منهما مُميِّزات ومُرجِّحات فيما يخصُّه، فالبيانُ تسخيفٌ لعقولهم من وجهين: الشركِ والحماقةِ[1].

ومن وجه البلاغة في الآية ودقائقها: أن قوله: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ إيماءٌ إلى وجه الرد بأن المخلوق لا يكون ولداً للخالق؛ لأنَّ الولادة غير الخلق. والالتفات من الغيبة في الكلام عنهم إلى الخطاب في قوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾، إنما هو لتشديد التوبيخ

---

(١) فالآيةُ من تما م مقولة الجاحدين الناسبين لله البنات، وهي معطوفةٌ على محذوفٍ تقديرُه: ويقول في نفسه عن المولود من الإناث: أأُبَشَّرُ بمَنْ لا يكسب لي رزقاً، ولا يُدافِعُ عني في قتال، ولا أفتخرُ به بين الناس، ومَنْ يُنشَّأُ في الزينة، وهو في المُخاصَمة غيرُ مُبينٍ بحُجَّة دامغة يقبلُها أهل الفكر والرشد والبيان؟!

واللّطْم على الوجوه، خطاباً بأنهم ليس لهم شيء من العقل ولا من الحياء، حيث يتقوَّلون على الله بهذه التقوُّلات السخيفة الناشئة عن غَبَاوتهم الشديدة.

وتفيدُ الآية أنَّ العرب تُربِّي الناشئ من البنين على قوَّة الكلام، كما تُربِّيه على قوَّة البدن والبسالة والإقدام، وإن كانت لا تَحرِمُ البنات من بعض التدريب على جيِّد الكلام، ولذلك نَبَغ فيهنَّ شاعرات مُجيدات، ومُتكلِّمات مثقَّفات بليغات، كما نجد ذلك في شعر الجاهلية ونثرها.

ثم أنَّبهم على هذه السَّخافة ـ وهي قولهم: الملائكة بنات الله ـ من وجه آخر، وهو تسميتهم بالبنات، أنَّبهم على ذلك بطريقة الهُزْء والسخرية، فقال: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ أي: عَمَدوا إلى أكمل عباد الرحمن، فجعلوهم من هذا الصنف الذي يستنقصونه إلى هذا الحد.

ثم هزأ بهم وتندَّر عليهم مُبكِّتاً، فقال: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾؟ أي: أحَضَرُوا عندما خلقهم الله وعرفوا أنهم إناث؟ يتهكَّم بهم، ثم يُهدِّدهم بقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ ﴾ هذه في سِجِلِّ أعمالهم ﴿وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ عنها يوم القيامة، وهي قولهم: إن الملائكة بنات الله. وعبَّر بالشهادة عن القول للمُشاكَلة والمناسبة مع قوله: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾، وللمبالغة في الوعيد والتبكيت والتجهيل.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ثم ذكر نوعاً آخر من كفرهم وضلالهم في استدلالهم على صحَّة عبادتهم لآلهتهم، وردَّه عليهم مع التجهيل والتسخيف، فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ وهذا صريحُ قولِ الجبْريَّة الذي ضلَّ به كثير من الناس، وهو: أنَّ الإنسان مَجْبورٌ في أعماله، نازلٌ عند إرادة الله تعالى ومشيئته. جهلاً منهم بمعنى الإرادة والمشيئة[1]، وعلى مثل هذه

---

(١) إنَّ إرادة الله سبحانه تنقسم ـ والله أعلم ـ إلى قسمين: إرادة تكوينيَّة، وإرادة تكليفيَّة طلبية، والأولى: لا تتخلّف أبداً، فلا يكون إلا ما أراده الله سبحانه. والثانية: إرادة تكليفيَّة، وهي لا تكون إلا في الإنس والجان. وعلى الإرادتين، فإنَّ الله سبحانه أراد أن يكون الإنسان ذا علم واسعٍ يتصرَّف به في مواهب الأرض وخزائنها وخفاياها، لحكمة من حكم الله اقتضت ذلك، وهذا لا يتمُّ له إلا أن يكون مختاراً في تصرُّفاته، فخلقه كذلك، وهداه بطبعه وبشرائعه إلى طريق الصواب، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ – ١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ – ٣٩].

فلما كان الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، ورائدُه إرادته فيما هو في مقدوره، فإن الله سبحانه ـ لما كلَّفه بهذا الهدى وأراده منه ـ عَلِمَ أنَّ أكثره لا يمتثل، وقليل منه من يمتثل، وهذا القليل كالشعرة في الثور الأسود، كما جاء في الحديث، ومعنى هذا: أنَّ أهل الجنة من الإنسان واحد من كل ألف، وهو الذي يعمل بما أراده الله في شريعته التي كلَّف بها كلَّ البشر؛ لأنَّ هذه الشريعة وحدها وسيلة السعادة الحقيقية في الدارين، وهي وحدها الوسيلة إلى دخول الجنة.

فتبيَّن من هذا البيان: أنَّ الإرادة التكليفية غير الإرادة التكوينية، والثانية هي التي لا تتخلَّف ولا يكون سواها، بخلاف الأولى؛ لأنها مجرَّد تكليف وليست بتكوين، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ – ١١٩]. هذا ما أراه. والله أعلم. (المؤلف). =

الشبهة يجري بعض الجهَّال اليوم من عُصاة المسلمين، يعتذرون بها عن ارتكابهم للآثام، وتضييعهم للأحكام.

فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يستندون إليه. ولا يخلو هذا الردُّ من التهكُّم بهم فوق تجهيلهم وتفنيدهم.

ثم مكَّن المعنى بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يتمحَّلون تَمَحُّلاً[1] باطلاً بهذه العقيدة.

وتوضيح الكلام في هذا الرد: أنَّ الله سبحانه لم يشأ أن يخلق البشر إلا أن يكون مُسخَّراً لإرادة نفسه، حَسْبَما يُنظِّمها له عقلُه، أو تدفعه لها عاطفتُه، وهو قادر أن يحفظ موازنته في إرادة الخير والصواب، إذا لم يُخْلِد إلى الشر والفساد، ويتشبَّع بالضلال والعناد، فإنْ جَنَح لذلك كان وبالاً على نفسه. فهكذا شاء الله أن يخلق الإنسان، لا كما يزعمون أنه مجبور على الأمور جَبْراً. والله أعلم[2].

= والحديث الذي أشار إليه: رواه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١) عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ في قُبّة، فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة...»، وفيه: «وما أنتم في أهل الشِّرْك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر».

(١) التمحُّل: الاحتيال، والمماحلة: المماكرة والمكايدة. «الصحاح» (محل).

(٢) إنما سيقت آية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: ٣٠]؛ لبيان الحكمة من جَعْل الإنسان مختاراً في تصرُّفاته لا مقْسوراً كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]. وحاصلها: أنه جعله كذلك ليكون ذا علم وإرادة وإيجاد واسعة المدى يتدرَّج في هذه الحياة إلى نهاية الدنيا، وهذا لا يمكن أن يكون عليه الإنسان إلا إذا كان مختاراً في تصرُّفاته، لا مَقْسوراً فيها كالملائكة، وحالته الواقعية الحاضرة تدلُّ على هذا، إذا قارنّا ما بين حاله اليوم في هذه الأمور الثلاثة، وحاله في أول أمره البدائي زمن الدور الحجري من الفرق العظيم والعلم الجليل الذي حصل عليه بالتدريج والاختيار. وبهذا الاختيار في التصرُّف كان =

= الذي يفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة يصير مُفسداً في الأرض كما قالت الملائكة. والذي يحافظ على طبيعته بحُسن تربيته يكون إنساناً بالمعنى الذي أراده الله منه علماً وإرادةً وإيجاداً وخُلُقاً كريماً كخُلُق الملائكة. ويؤيِّد هذا قصَّة يوسف عليه السلام التي قال عنها سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وتؤيِّد هذه الآيةَ في جَعْله مختاراً آياتٌ كثيرةٌ، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، فهذه العبارة بهذا التفصيل تدلُّ على أنه مفوَّض في التصرُّف في أمره ومختار فيه، يدلُّ على هذا دلالة صريحة واضحة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ – ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، وكثير من الآيات.

ولموضع هذا الاختيار في الإنسان الذي خلقه الله عليه ليكون واسع العلم والإرادة والإيجاد، قرن مع هدايته الطبيعية هدايةً تعليمية من الله سبحانه، أرسلها إليه مع رسله المتواصلة، والتي انتهت بنزول القرآن في العلوم العالية.

فمخلوقات الله سبحانه كلُّها من حيوان ونبات مهديةٌ هدايةً واحدة طبيعية إلا الإنسان؛ لمكان عقله وجَعْلِه خليفةً في الأرض ينتفع منها وتنتفع به، قرن مع هدايته الطبيعية هدايةً تشريعيَّة؛ كي لا يبقى له حُجَّة على الله بعد الرسل. وهذه الهداية التشريعية منطبقة على الهداية الطبيعية، كي تُحدِّد اختياره وتصرُّفه، وتَضْبط عقله وتُسلِّطه على شهوته وهواه، فيكونان معتدلَين، وذلك مُيسَّر بالتربية الصحيحة كي يكون إنساناً بالمعنى الصحيح، ولا يفسد في الأرض، إلا أن هذا الإنسان غلبت عليه الشهوةُ واستهواه الهوى فانحَطَّ إلى أسفل سافلين، وقد بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤ – ٦] الآيات.

فالإنسان مختار في تصرُّفاته ومسؤول عنها، يجزيه الله سبحانه بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وليس للمجرم حُجَّة على الله إذا عذَّبه أو أشقاه؛ لأنه هو الذي فعل بنفسه ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]. وهذا هو معنى قوله تعالى حكايةً عن الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. (المؤلف). =

وبعد أن حكى لهم هذا الرأي المزيَّف، وأبطَلَه بنفي أن يكون لهم به عِلمٌ من طريق العقل، أضرَبَ عنه إلى إبطال أن يكون لهم سَنَد من جهة النقل، فقال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قَبْل هذا القرآن، ينطق بصحَّة ما يدَّعونه ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾؟ والجملة معطوفة إما على محصَّل ما قبلها؛ لأنه بمعنى: أبَنَوْا قولَهم هذا على علم صحيح أم آتيناهم كتاباً؟ وكِلا الأمرَيْن باطل. وإما على محذوف، والتقدير: أهذا الذي ذكروه شيءٌ تخرَّصوه وتكهَّنوه، أم آتيناهم كتاباً من قَبْل هذا القرآن يَنطِقُ بذلك، فهم به مُستَمسِكون؟ فإذا انتفى الثاني المستهزأ به عليهم ثبت الأول، وهو الخرص. وعلى كلٍّ، فهو تَبْكيتٌ لهم وتجهيلٌ على أبلغ الوجوه.

ويجوز أن يكون معنى الآية: وقالوا... إلخ، احتجاجاً منهم بأنّ ما هم عليه من العقيدة والدين هو الحق؛ لأنه لو لم يكن كذلك لَـمَا مكَّنهم الله منه؛ لأنَّ كلَّ ما لا يُريدُه الله يمتنع وقوعه، وكلَّ ما هو واقع فهو بإرادته، وكلَّ ما هو بإرادته فهو حق. ويكون وجه الرد: أنَّ العقائد والأحكام لا يجوز أن تكون إلا بعلمٍ صحيح عن الله سبحانه وتعالى بواسطة الوحي والكتب المنزلة، فهل عندكم من ذلك شيء عن عقيدتكم هذه ودينكم هذا؟ يُلْزِمُهم ويُبكِّتهم ويُؤنِّبهم على قوله وتديُّنهم به.

وبعد هذا الردِّ ذكر حقيقةَ أمرهم في اعتقادهم هذا ومصدره فيهم، وقال: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ والأمة: الطريقة التي تُؤَمّ. وتقرير الكلام: أنْ لا حُجَّة لهم عقليَّة ولا نقليَّة من طرق العلم الصحيح فيما قالوا وما اعتقدوا، وإنَّما جَنَحوا في ذلك إلى تقليد آبائهم الجَهَلة، واتِّباع أثرهم فيه.

= قلت: تعبيره بـ«الإيجاد» فيما يكون من الإنسان غير صحيح، فالإنسان له قدرة الاكتساب لا قدرة الإيجاد، إلا أن يريد بالإيجاد: الصناعة وتحويل الأشياء من شكل إلى آخر، وتصييرها من حال إلى حال. وعلى كلٍّ، فاللفظ موهم ينبغي الابتعاد عنه.

ثم بيَّن تعالى أنَّ التقليد الأعمى للآباء والأجداد الجَهَلة هو أمرٌ فاشٍ في الأمم الجاهلة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ بهم. وإنما يُبادِرُ المُترَفون بالمعارضة والمعاندة، محافظةً على سُلطانهم المزوَّر أن يزول بظهور الدين الجديد وسلطانه الحق. وهذا شأن المُترَفين في كلِّ عصر وزمان تجاه المُصلِحين.

وإنما قال في الأولى: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾، وفي الثانية: ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾؛ لأن الأولى في معرض الاحتجاج على صحَّة ما هم عليه، وأنه هدىً من الله، والثانية في معرض البيان من الله تعالى.

ثم حكى ما يكون بين المُنذِرين والمُنذَرين من الجدال عند تعلُّلهم بتقليد آبائهم بقوله على قراءة: ﴿قَٰلَ﴾ أي: كلُّ مُنذِر من أولئك المُنذِرين لأممهم: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾؟. أي: أتُصِرُّون على البقاء فيما وجدتم عليه آباءكم، ولو جئتكُم بدين هو أهدى من دينهم؟ وعلى قراءةِ: (قُلْ) يكون الكلام انتقالاً من إجرائه على الأنبياء إلى إجرائه على الرسول، ومثل ذلك من نهج القرآن، على حدّ قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦]، على أحد القولين.

وصيغةُ التفضيل (أهدى) ليست على بابها، ولكن للمُجاراة معهم.

ولـمَّا لم يكن لهم حُجَّة تجاه هذا الإلزام، عَمَدوا إلى السَّفاهة، شأن أمثالهم في مثل هذا الموقف، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾. وهذا الكلام في منتهى العِناد في الجمود على التقليد، والبُعْد عن النظر والتفكير.

ثم ذكر ما كان من نتيجة ذلك، حيث أنزل بهم العذاب، وقال: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾، وفيه تسليةٌ له ﷺ ووعدٌ بنصره على كفار قومه بعد حين.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ولما ذكر سبحانه جمودَ كفار قريش على تقليد آبائهم الضَّالِّين، لـمَّحَ إلى أن الأَوْلى بهم ـ أو كان عليهم ـ أن يُقلِّدوا أباهم إبراهيم، وألمع إلى أنَّ دعواهم أنهم مُتَّبعون لملة إبراهيم عليه السلام غير صحيحة؛ لأنهم على الشِّرك وهو على التوحيد، وذكر ما كان من أمره، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾، و﴿ بَرَآءٌ ﴾: مصدرٌ نُعِتَ به مبالغةً.

ثم بيَّن بطريقة الاستثناء المنقطع ما يَعبُده، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ أي: خلقني، وقد أشار بهذه الصلة إلى وجه العلَّة في حَصْره بالعبادة، أي: لأنه مختصٌّ بأفعال الألوهية، ولذلك أردَفَه بقوله: ﴿ فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: سيُديم لي الهداية إلى طريقه المستقيم بوحيه إليَّ، وبتوفيقي الصحيح، والاستدلال السديد.

ثم أضاف إلى ذلك أن إبراهيم عليه السلام قد نشر الدعوة إلى الله، حتى انتشرت في أعقابه من بعده، فكان على هؤلاء المدَّعين الانتسابُ إليه أن يَقتَفوا أثره، فقال: ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي: الدعوةَ إلى الله أو كلمةَ التوحيد ﴿ كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أي: في ذُرِّيَّته من بعده، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ويجوز أيضاً في فاعل (جَعَل) أن يعود إلى الله، ويكون المعنى: أنَّ الله سبحانه جَعَل من ذريَّة إبراهيم أنبياء كذلك، يهدون الناس إلى الله وإلى كلمة التوحيد؛ ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ إليه ﴿ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ بترك الشرك وإثبات التوحيد.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾.

ثم أضرَبَ إلى بيان أنهم لم ينتفعوا بدعوة إبراهيم المنتشرة في أعقابه، وظلُّوا جامدين على الكفر حتى جاءهم محمد ﷺ بما جاءهم به، فأعرضوا وأصرُّوا على كفرهم بأنعُم الله، فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالنعيم وطِيب العيش، ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ وهو محمد ﷺ.

ومحصَّل الكلام: أنهم لم يجهلوا أنهم لم يكونوا على ملّة إبراهيم، وإنما هو الحرص على مراكزهم وثرواتهم أن يفقدوها، كما حكى عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ على يديه أعرضوا وكفروا به، و﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ يُؤثِّر على الناس بقوة إقناعه ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فضمُّوا إلى كفرهم السابق معاندةَ الحق بعد ظهوره، واستهانوا بأمر الرسول ﷺ، زاعمين أنَّ هذا القرآن، لو كان مُنزَّلاً من عند الله لنزل على عظيم من عظماء مكة والطائف.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ بالجاه والمال، كالوليد ابن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، فإنَّ الرسالة مَنصِبٌ عظيم لا يليق إلا بعظيم. ولم يعلموا أنَّ الرسالة رتبة روحيَّةٌ[1] تستدعي عِظَم النفس بالتحلِّي

(١) الرسالةُ محضُ تفضُّل من الله تعالى على عبد من عباده واصطفاء له واختيار، فإذا اختار الله تعالى أحد عباده لهذه المهمة رقّاه في مراتب الروح إلى أسمى مراتبها، فالرتبة الروحية للنبي تابعة لاختياره نبياً من الله تبارك وتعالى، لا مُسبِّبة لنيله هذه المنزلة الكريمة.

بالفضائل الروحيَّة والكمالات القدسيَّة، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية الزائفة، وأنَّ الله سبحانه لا ينظر الرجل بماله وجاهه المزيَّف، وإنما ينظره بروحه وأخلاقه وأعماله.

وإنهم ليقولون ذلك مع أنهم يقرُّون بشرفه ﷺ ونسبه وطهارة بيته ومَرْباه ومنشئه، حتى كانوا يُسمُّونه بالأمين، ويرونه ممتازاً بخصائص شريفة، فكان ينبغي أن يكون في ذلك مَقنَعٌ لهم بأنه أَوْلى من أولئك الأكابر بالرسالة، وبكلِّ ما فيه الكرامة والزُّلفى، ولكنه الحسد والبغي والتقليد الأعمى.

وقد ردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ يُنكِرُ عليهم ويُجهِّلهم ويَهْزَأ بهم بأبلغ الوجوه.

ثم يقرِّر الحق بقياس النظير فيقول: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ حسبما اقتَضَتْه الحكمة البالغة في نظام الاجتماع، لا بحسب الرغبة والتَّمنِّي، فإذا كان كلُّ شيء مبنيّاً على الحكمة البالغة، فكيف يكون أمر اختيار الرسول وإعطاء الرسالة دون ذلك؟ والرسالة من أهم الأمور الدنيوية والأخروية.

ثم بيَّن وجهاً من الحكمة في التفاوت بالرزق، وهو استِتباب نظام الاجتماع وتسخير العيش وتقسيم الأعمال فيما بينهم، فقال: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ وهذا اسم مصدر من التسخير بالعمل. وهذه قاعدة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها، فهي سنَّة كونيَّة، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

والمعنى: إنَّ من حِكَم اختلاف الرزق بين العباد في الضيق والسَّعة، تسخيرَ بعض العباد لبعض في الحوائج، لتنتظمَ بذلك أحوال البشر الاجتماعية، وتسيرَ مصالحه وشؤونه، وتندارَ أموره.

وتحرير ذلك: أنَّ الله سبحانه لم يجعل نظام رزق الإنسان كنظام رزق الحيوان،

مُتَّحِداً في السَّعي والنتائج، يسعى كلُّ فرد من أفراد الحيوان لتحصيل رزقه مستقلاً بنفسه إن كان وحشياً، وعلى عمله بصاحبه إن كان أهلياً، بل جعل نظام رزق الإنسان لا يتمُّ إلا بسعي مجموعهم ليؤمِّنوا حاجاتِ جميعهم؛ لأنَّ الإنسان اجتماعيٌّ في حاجاته يتعاون في تحضيرها.

أما اختصاص كلِّ فرد بمهنة من تلك المِهَن، فذلك أمرٌ يعود لهمَّة الفرد ونشاطه وعقله المكتسب ورغبته ومَيْله وظروفه وصورة تربيته ونشأته.

والقيام بأمر الحاجات على مقتضى هذا النظام: هو معنى قوله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: ليقومَ بعضُهم في حاجات بعض، ويَسُدَّ المجموع ما يحتاجه الجميع. وهذا النظامُ يجرُّ إلى تفاوت في أمر الرزق عظيم، مبنيٍّ على الحكمة البالغة، ومراعاةِ المصالحة العامة. وبمقتضى الحكمة أيضاً يكون اختيار النبيّ والرسول، لا بحسب رَغَبات البشر ونظراتهم السقيمة.

ثم هوَّن أمر القلَّة في الرزق على المُقِلِّين، فقال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ثوابُه في الآخرة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: خيرٌ من كَثْرة المتكثِّرين، إذ لا تُقاسُ زهادةُ هذه الدنيا وحطامُها بثَمانةِ نعيم الآخرة وخيراتها، إذ كل نعيم دون الجنة حقير، وكلُّ بلاء دون النار عافية. وقد أومأ سبحانه إلى إبطال ما يدَّعون من أن المال مقياسٌ لعظمة الرجال والتأهُّل للرسالة.

ثم بالغ في زَهَادة هذا الحُطام، وألمع إلى نَقْضِ عقيدةِ مَنْ يعتقد أن الله سبحانه لا يعطيه إلا لمن يرضى عنه ويرتضيه، كما هو شأن نعيم الآخرة، فقال: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ في الكفر، لو كان هو مناط الغنى، رغبةً في الغنى، ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: مَصاعِدَ ومَدارجَ من فضة أيضاً

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: يصعدون إلى تلك السُّقُف. وخصَّ المدارج لوطاءتها، فيدخل غيرُها بطريقة الأَوْلى، بمقتضى البلاغة العالية والفحوى.

ثم قال في إتمام البيان: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا﴾ من فضَّة ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ من ذهب ومجوهرات، تُزخرَفُ به تلك البيوت، وذلك ليَسْتَوفوا حظوظهم في هذه الحياة.

ثم نصَّ على زهادة ذلك بالنسبة إلى نعيم الآخرة، فقال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي لا يدومُ طويلاً، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ ونعيمُها الدائم الذي يَقصُرُ عنه البيان: هو ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وهو الذي يحقُّ أن يُحرَصَ على الحصول عليه، بمُعاطاة أسبابه.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه هذه القاعدة العامة في فساد النفوس واختلال الغرائز المفطورة على حُبِّ الخير، فبيَّن أنه إنما يكون ذلك بمفاسد التربية وبمخالطة قرين السوء، فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يَعْمَ ويُعرِضْ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي يُذكِّرُ به الناس بواسطة الرسل ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾، ومعنى هذا: أنَّ سُنَّة الله تعالى قد مَضَت

في أخلاق البشر وطباعهم أن يميلَ الإنسان إلى مَنْ يماثله في ميوله المكتسَبة، فيقتبس من أخلاقه وأحواله، فإذا مال الإنسان عن ذِكرِ الرحمن وعن الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه؛ مالَ إلى عِشْرة أمثاله من البشر في هذا النظر، فزادوه فساداً على فساده، وضلالاً على ضلاله.

والعُشُوُّ: فسادٌ في البصر يَعرِضُ من الانحراف عن سنن الله الصحيَّـة، فهو كغيره من الأمراض، يكون بصُنع الإنسان نفسِه، وقد استعاره لتحريف الإنسان لفطرته وإفساده لنور بصيرته بمفاسد البيئة والتربية، حتى مالَ إلى هذا الشيطان الذي تسلَّط عليه. والشيطان يُطلَقُ على الشِّرِّير الفاسد من الإنس والجن.

ويجوز أن يكون فِعلُ الشرط مُسبَّباً والجوابُ سبباً، على حدِّ قولك: ما يبس من الأشجار يلحقه عطش في الصيف، ويكون معنى الآية: ومَنْ يعشُ عن ذِكرِ الرحمن فإنما يحمله على ذلك قرينُ السوء.

وإسناد التقييض إلى الله سبحانه باعتبار السُّنن العامَّة في طبيعة الإنسان، على نهج القرآن في مثله، من إسناد الخَتْم والإضلال إلى الله سبحانه؛ لأنه يكون من معاكسة سُننه الكونية.

ويجوز أن يبقى الشرط والجواب على حاله، بمعنى: أنَّ الانحراف القليل يُهيِّئُ للشيطان أن يتَّصل به، فيزداد شرّاً بشرِّه.

ثم بيَّن الأثرَ الشديدَ لأولئك الشياطين على أولئك العاشين المفسدين لطبيعتهم ونور بصيرتهم، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

---

(١) أي: وإنَّ القُرَناءَ من الشياطين لَيَمنَعون قرناءَهم عن سبيل الله المُوصِل إلى النجاة والفوز والخلود في جنّاتِ النعيم، ويظنُّ كفارُ بني آدم ظنّاً ضعيفاً أنهم مهتدون إلى ما يُحقِّق سعادتهم.

وإنما يشعرون بالخسارة والندم يوم القيامة، كما حكى ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ﴾ لقرينه هذا: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾ والمراد من المَشرِقَيْن: المشرق والمغرب على التغليب، وهو مَثَلٌ يُضرَبُ لبُعْدِ المسافة البالغ، أي: يا ليتني لم أرك ولم أسمع بك. فيقال للصنفين جميعاً زيادةً في تنديمهم وتأليمهم: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ أنفسَكم بإفسادكم لها وتَدْسيتها في الضلال حتى صِرتُم إلى ما صِرتُم إليه، لن ينفعكم من ذلك ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾ أي: لن يحصل لكم الارتياح والتَّشفِّي من قرنائكم، ولو كانوا مُعذَّبين معكم، أي: لم يُخفِّف عنكم العذابَ هذا التلاومُ والسباب.

ولما وصفهم بالعُشُوِّ وبيَّن حالتَهم، أردف ذلك بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٤٠﴾ يُيئسُه من إيمانهم بمقتضى سُنَّته تعالى في خَلْقه، وهي أنَّ من انطبع منهم على الضلال، حتى أصبح له مَلَكةً وخُلقاً وديناً راسخاً، لا يميلُ إلى الهُدى إذن أبداً. وقد أضاف إلى وصفهم بالعَمى وَصْفَهم بالصَّمَم؛ مبالغةً في التيئيس.

ثم سَبَك تسليته ﷺ بتحقُّق نزول العذاب بهم قريباً، أو بعيداً، على نهج القرآن في تعقيب النقد بالوعيد، فقال: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ٤١﴾ أي: مُعاقِبونَ لهم بعدَك لا محالة، ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ بأن نُعذِّبهم بعذاب الاستئصال قبل وفاتك ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ٤٢﴾ لا مَناصَ لهم من قهرنا.

والمعنى: إما أن نعاقبَهم في حياتك فتراهم بعينك، وإما أن نعاقبَهم بعد وفاتك أو نؤجِّلهم إلى الآخرة. والمرادُ بهذا البيان: المبالغةُ في تحقُّق وعيدهم في وقتٍ ما، وفي تسليته ﷺ تمكينُ ثباته.

وفي هذا الإبهام لوقت عقابهم زيادةٌ في راحته ﷺ؛ لأنَّ الانتظار مُتعِبٌ للنفوس، فألمع بهذا البيان إلى أنَّ تنفيذ العقاب أمر مُحقَّق، أما وقته فقد استأثر الله بعلمه، وأتبع ذلك بأمره له بالدوام على الدعوة والاستمرار على العمل، وقال: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ يَصِلُ سالكه إلى النَّجاة والسعادة في الدارين، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لَشَرَفٌ عظيم أو تذكيرٌ بما يجب عليكم، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ عنه يوم القيامة، أي: تُسألون عن قيامكم بحقوقه وتبليغه.

وفي هذا بيانٌ لواجب العرب تجاه نشر هذه الشريعة بين الأمم، فهم المُكلَّفون بذلك من دون سائر الأجناس من البشر، وكلُّهم تَبَعٌ لهم في فهم هذه الشريعة والدخول في السِّلم كافَّة. والله أعلم.

وإنما خَصَّهم بكونه ذِكْراً لهم؛ لأنهم هم الذين يفهمونه جيداً. وجاء في «رسالة الشافعي» صحيفة (٤٨) رقم (١٦٧) ما مُحصَّله: إنَّ تعلُّم اللغة العربية واجبٌ على كل مسلم، كبقية الواجبات.

ثم عاد إلى تقريع هؤلاء المشركين العاشِين، وأفحَمَهم بلون من ألوان الإرشاد، على نحو أساليب القرآن، فقال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[1] ومفاد الآية: أنَّ الشرائع المُنزَّلة كلَّها مُتَّفقة على التوحيد،

---

(١) أي: واسألْ مَنْ أرسلنا من قبلك من رُسُلِنا الذين أرسلتُهم: أجعلنا ممَّن خلقنا من عبادنا من ملائكةٍ أو أنبياء ـ مهما عَلَتْ منزلتُهم ـ آلهةً يُعبَدون؟! بل كلُّ الرسل كانوا يأمرون أقوامهم بعبادة الله وحده.

وهذا الأمرُ صيغتُه عامّةٌ موجَّهةٌ لكلِّ فَرْد من أفراد أمةِ دعوة الرسول ﷺ. والمقصود به: مَن كان لديه شكٌّ أو توهُّم، فإذا أراد أن يدفعَ شكَّه أو توهُّمه فليسأل النصوصَ الصحيحة الثابتة، أما الرسول ﷺ فلا يحتاج أن يسأل الرسل السابقين؛ لأنَّ ما يُوحى إليه من أعلى مراتب اليقين =

فما بالهم يُشرِكونَ بالله ما لم يُنزِّل به سُلطاناً؟ وهذا الخطاب للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، على أسلوب القرآن في مثل ذلك، أو هو لمجرَّد إفادة التحقيق والتقرير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم جرى على ما ينهجه القرآن إثر سياق المشركين، من القصص على الرسل مع أممهم، لتسليته ﷺ بأنَّ ذلك سنَّة طبيعية في البشر الذين أفسدوا فِطَرَهم بمفاسد التربية، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ استهزاءً بها وسخريةً منها.

ثم إنه سبحانه والى إرسالَ الآيات إليهم، كما قال: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ فلم يؤمنوا ولم يُفِدْهم ظهور الحُجَّة شيئاً، فعالجهم سبحانه بالشدَّة، كما قال: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالقُمَّل والدم والضفادع والسِّنين وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عمَّا هم عليه من الكفر، فلم يرجعوا.

= الذي لا يعتريه شكٌّ أو توهُّم، ولكنْ خُوطِبَ الشاكُّ من أمةِ دعوته، من خلال خطابه ﷺ؛ إذ هو رأسُ هذه الأمة بعد بعثته إلى أن تقوم الساعة.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ لموسى لـمَّا رأوا العذاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ قال الجُبّائي: وهذا عنوانُ العلم عندهم؛ لشيوع السحر في علمائهم، أي: يا أيها العالم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي: بما ضَمِنَ لك أن يكشف عنا العذاب إذا اهتدينا، فها ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾، وأظهروا الهداية لما رأوا العذاب، ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ﴾ ذلك ﴿ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾، وذلك لأنَّ الذي ينطبع على الفساد لا يُقْلع عنه إلا مُؤقَّتاً عند الوقوع في الشدائد وهزِّها له، فإذا زالت عنه عادَ إلى ما كان عليه.

ثم بيَّن سبحانه كيف استدرج فرعون قومه حتى نكثوا، فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ يُنبِّههم إلى عَظَمته في مُلكِه، ويَستَنقِصُ موسى بقوله: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ أي: أنا خيرٌ أم هذا الضعيف الحقير الذي لا مُلكَ لديه ولا مال، ولا يُحسِنُ الكلام عند مُحاجَّة الرجال، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ ما يقوله ويُريد بيانه؟ يفتري بذلك ليُنقِّصَه من أعين الناس، ويريد: أنه لا يُحسِنُ المُحاجَّة، أو لا يكاد يُفصِحُ بكلامه، يُموِّه بذلك على الناس، كما مَوَّه بنقض نبوَّته بهذا الزعم الفاسد، حيث قال: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾[1] أي: لو كان صادقاً بدعوى النُّبوَّة؛ لَأُلقيَ عليه وسامها وشعارها. يُموِّه بعادتهم في تقليد الأوسمة من الذهب والجواهر على صُورة الأسورة وغيرها لمن يريدون تسويدَه أو تمليكَه أو تمييزَه عن الناس، يتخيَّل أنَّ للنبوةِ وساماً وشعاراً من الله، كما للمُلوكيَّة عندهم وللتمييز والتعظيم، وذلك لأنهم لم يعلموا عن العالَم الروحانيّ إلا ما يعلمونه عن العالَم الجسماني، فيقيسونه عليه.

---

(١) جاء في الأثر: أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست تاج كسرى وسواريه؟» فهذا يدل على أن لُبْسَ السوارَيْن كان من شارات الملوك. (المؤلف).
والحديث سبق تخريجه ص١٥٤.

ولذلك قال في إتمام النقض المزعوم: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: مُتَتابعين يُظاهِرونه ويُناصِرونه، فحيثُ لم يكن معه هذان الأمران أو أحدهما فليس صادقاً في دعواه النبوَّة.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ ﴾ فرعونُ ﴿قَوْمَهُۥ﴾ بمثل هذه التُّرَّهات والتمويهات، ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ في تضليله هذا، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: خارجين عن كمال الفطرة ونور البصيرة بإفسادهم لغرائزهم بمفاسد التربية وسوء التقليد. فأثَّر عليهم هذا التضليل وقبلوه.

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ وقد ضمَّن هذا الفعل معنى: أغضبونا، فهو شامل للمعنيين معاً؛ الغضب والأسف، أي: فلما آسفونا عليهم وأغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ في اليمِّ ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: عِظَةً لمن بعدهم وعبرةً يعتبرون بها، وقصَّةً تسير عند مَنْ بعدهم سَيْرَ الأمثال. وفي هذا وَعْدٌ له ﷺ ووعيدٌ لمعارِضيه ومُعانِديه من كفَّار قريش. والانتقام: من النقمة، وهي السطوة والعقوبة. وقد يُستعمَل في العرف العام بمعنى التَّشفِّي، وهو بهذا المعنى محالٌ على الله.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ

إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم عاد إلى سَنَن الكلام السابق في تَعْداد قبائح قريش الذين جعلوا لله من عباده جُزءاً، وجَعَلوا الملائكة إناثاً، واعترضوا بعدم نزول هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، فذكر لهم قبيحةً أخرى، فقال: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قال ابن عباس[1] ومقاتل[2]: وذلك لما نَزَل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال المشركون: قد رضينا بأن تكون آلهتُنا حيثُ يكون عيسى.

ومعنى ﴿يَصِدُّونَ﴾: يضجُّون فَرَحاً؛ لظنِّهم أنَّ رسول الله ﷺ صار مُلزَماً به. وقيل: لما ضرب الله للمسيح مثلاً بآدم، يردُّ به على النصارى في استحقاقه الألوهيَّة، استند على ذلك قومٌ من كُفَّار قريش، وقالوا: نحن أهدى وأصوَبُ من النَّصارى، لأنهم عبدوا آدمياً، ونحن نعبد الملائكة، فنزلت هذه الآية.

فيكون معنى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ على الأول: تفضيل عيسى على

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠: ٦٢٣).

(٢) نقله عنه الواحدي في «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» (٤: ٧٩).

آلهتهم، وأنهم يرضون أن يكون مصيرُها مصيرَ عيسى، وعلى الثاني: تفضيل آلهتهم على عيسى، يقولون ذلك جَدَلاً وإلزاماً بزَعْمِهم، كما قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾.

ثم أضرَبَ على كونه جَدَلاً إلى كونه خصاماً، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ يُعانِدون في الباطل.

ثم رَدَّ عليهم بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: قدوةً يقتدونَ به قولاً وفعلاً. قال النسفي: لما جادَلَ ابنُ الزِّبعرى رسولَ الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ...﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقال: رَضينا أن تكون آلهتُنا حيث يكون عيسى، رأى أنَّ كلام الله يحتمل لفظُه وَجْهَ العموم، مع عِلمِه بأنَّ المراد به أصنامُهم لا غير، فوجد للحيلة مَسَاغاً، فصَرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة لكلِّ معبود غير الله، على طريق اللِّجاج والجدَل والمُخاصَمة، وحُبِّ المغالبة والمكابَرة، وتوقَّح في ذلك، فتَوقَّر رسول الله ﷺ، حتى أجابَ عنه ربُّه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[1].

وقال أبو السُّعود في وجه الردِّ بهذه الآية ما توضيحُه: إنها تنزيهٌ له عليه السلام عن أن يُنسَبَ إليه ما نُسِبَ إلى الأصنام، يرمز بها إلى ما صرَّح به في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ...﴾، وتنبيهٌ على بطلان رأي مَنْ رفعه عن رتبة العبودية، وتعريضٌ بفساد رأيِ مَنْ يعبدون الملائكة من قريش؛ إذ غاية الأمر أنهم من عباد الله المُنْعَم عليهم. وهذا على نهج القرآن في الجَمْع بين المعاني في التركيب الواحد.

---

(١) «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٣: ٢٧٨- ٢٧٩)، وابن الزبعرى هو أبو سعد عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس السهمي القرشي (....- ١٥هـ)، شاعر قريش في الجاهلية أسلم في فتح مكة. «الأعلام» (٤: ٨٧).

ومُلَخَّص ذلك: ليس عيسى إلا عبداً كسائر العبيد. وقُصارى ما في الأمر: أنه ممَّن أنعَمْنا عليهم بالنبوَّة وخَصَصْناه ببعض الخواصِّ البديعة، بأن خلقناه بوجه بديع، كما خلقنا آدم بوجهٍ أبدَعَ منه[1]. وعلى كلٍّ، فهو مخلوقٌ، ولا يَتَجاوَزُ حدود البشريَّة والعبوديَّة، فأين هو من رتبة الربوبيَّة؟ وكيف يفتخر عَبَدة الملائكة بكونهم أهدى وأصوَبَ من عَبَدته، وكلُّهم في هذا الضلال وفساد التفكير؟

ثم حقَّق أنَّ عيسى عليه السلام ليس ببدع من قدرة الله، وأنه تعالى قادرٌ على أبدَعَ من ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: لو نشاء لخلقنا منكم ملائكةً يَخْلفونكم. وليس التخليق محصوراً بالطريق الذي تعرفونه، وإنما هناك عدَّةُ طرق وجملةُ صور للتخليق والتوليد.

أو المعنى: لجعلنا بَدَلَكم ملائكةً في الأرض يخلفون. فتكون الآية على التهديد بأن يستأصلهم ويجعل في محلِّهم ملائكة.

وعلى كلٍّ، ففيها معنى القدرة البالغة في الإيجاد، فهو قادرٌ على كلِّ شيء، وما خِلقةُ عيسى في جَنْب قُدرته تعالى إلا أمراً هيِّناً.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: إنَّ عيسى وأمْرَه يُسْتَدلُّ به على صِحَّة الساعة والبعث وقدرة الله عليه[2]، إذ منه يُعلَمُ أنَّ النواميس الطبيعيَّة في الخِلْقة والإيجاد والتطوير والتبديل ليست محصورةً في النواميس المعلومة لديكم، ولكن سنن الله تعالى في ذلك لا

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٨: ٥٢).

(٢) أو المعنى ـ وهو الراجح ـ: وإنَّ نزولَ عيسى عليه السلام قبلَ يوم القيامة لَدليلٌ يدلُّ على قُرْبها، ويؤيِّده قراءة: (وإنه لَعَلَمٌ للساعة) ـ بفتح العين واللام ـ وما ثبتَ من الأحاديث الصحيحة المتواترة في نزوله عليه السلام في آخر الزمان.

يُحصيها ولا يعلمها إلا هو، ومنها تلك السُّنَّة التي بنى عليها خَلْق عيسى[١]، وسنن البعث والساعة.

وقيل: إنَّ الضمير للقرآن؛ لأنه هو الذي يبيِّن أمر الساعة.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: فلا تَشُكُّنَّ في أمر الساعة والبعث، حيث لا تعلمون تلك السُّنَن المنوَّعة في الإيجاد والتبديل، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ في هُداي وما أقولُه لكم وما أُنذِرُكم به من أمر البعث ومرادفاته، ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ يصل سالكه إلى ساحل النَّجاة وموطن السعادة وهدف الرشاد.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عن اتِّباعي في ذلك، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ أي: شديد الإضلال لكم بوساوسه وإلقاءاته.

ثمَّ فصَّل ما كان من أمر عيسى عليه السلام وقومه واختلافهم عليه؛ تسليةً لرسول الله ﷺ في أنَّ ذلك من سُنن الله في أخلاق الإنسان وطبائعه إذا اختلَّت بالمؤثِّرات الفاسدة، وضمَّن ذلك أنه كغيره من الأنبياء جاء بالأمر بتقوى الله وعبادته وحده، وألمع إلى أنَّ أتباعَه أدخلوا الشرك بدينه واتَّخذوه ابناً للإله، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أحكام التوراة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾[٢].

---

(١) خَلْقُ عيسى عليه السلام لم يكن بسُنّة كونية أو طبيعية، وإنما كان معجزةً خارقةً للقوانين والنواميس، كما تقدّم التنبيه إليه.

(٢) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٤٩٤: «وحين جاء عيسى عليه السلام نبيّاً ورسولاً داعياً إلى الله في مجتمع بني إسرائيل، ومصحوباً بالمعجزات الواضحات الشاهدات له بأنه نبيُّ الله ورسوله، قال لقومه: قد جئتكم بالحكمة في السلوك، وفي الأخلاق، وفي الآداب، وفي كُلِّيّات =

ثم بيَّن لهم أهمَّ ما جاء به، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

أما قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ فيحتمل أن يكون من تتمَّة كلام عيسى، أي: ما جئتكم به من التوحيد والشريعة هو الطريق الموصل للسعادة، ويحتمل أن يكون استئنافاً من كلام الله تعالى، أردفَهَ بقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: فاختلفت الفِرَقُ المُتحزِّبة من بين قوم عيسى عليه السلام، فمنهم من آمن بهذا الصِّراط المستقيم وسَلَكَه، ومنهم من ظَلَم وكفر، ومنهم مَن حرَّف وغيَّر، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

ثم فصَّل أمْرَ ذلك اليوم بنعيمه وعذابه، تكميلاً للتحذير من شقائه والترغيب بهنائه، وبياناً لصُورة مجيء الساعة، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ﴾ غافلون مشتغلون بأمورهم عنها ﴿لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إلا وقد دَهَمهم أمرُها.

ثم ذكر ما يكون بعد ذلك من أمر الأحزاب والفِرَق بين الأديان، فقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ ولا سيَّما الذين تَناصروا على مُعاداة الحق ونُصْرة الباطل ﴿يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يلومُ ويُؤنِّبُ كلٌّ منهم صاحبَه على ما سَلَك به من سلوكٍ أدّى به إلى العذاب المهين.

ثم استثنى من عموم الأخلَّاء قولَه: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: الذين كانت خِلَّتهم في الدنيا لله، وما أمر به الله، فيقال لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾، اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

= المعارف والمفهومات الدينية، ولأُبيِّنَ لكم بعضَ الذي تختلفون فيه من قضايا كُلِّيّة كبرى من قضايا الدين التي انحرفتُم فيها عن دين الله الحق، فاتَّقوا عقوباتِ الله على انحرافاتِكم ومخالفاتِكم، وأطيعوني فيما آمُرُكم به».

ثم ذكر صفتهم التي استحقُّوا بها هذه الكرامة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: مُنقادِينَ إلى أوامر الله.

ثم تمَّم ما يقال لهم بقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: تُكرَمون وتُسَرُّون، وبالحُلَل الحِبَرِ تُزَيَّنون.

وقد فصَّل بعض ذلك الحبور بقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ كذلك، وهما أواني الطعام وأواني الشرب، ثم أجمل الحبور بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ من فنون الملذَّات، ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ في نعيم لا ينقطع. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

والالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب في هذه الجمل؛ للتشريف والمبالغة في التحسيس الذي أكمَلَه بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: في الدنيا من الأعمال الصَّالحة، فشبَّه جزاء العمل بالميراث للمبالغة في التقرير[1].

ثم زاد في البيان عنها بقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بأنواعها وأصنافها ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: لا ينقص من ثمرات الأشجار شيءٌ. هذا ما تُلمِعُ إليه كلمة ﴿مِّنْهَا﴾، والله أعلم.

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٤٩٤: «وتلك الجنّةُ الرفيعةُ المُنزلة، الجليلةُ القَدْر التي منحكم الله إيَّاها؛ بسبب ما وفَّقكم الله في الدنيا من الخيرات والأعمال الصالحة، ترثون فيها المنازلَ التي كانت مُعدّةً للكافرين، لو أنهم كانوا قد آمنوا وأسلموا في رحلة امتِحانِهم في الحياة الدنيا. فدخولُ المؤمنين الجنة ونعيمُهم فيها خالدين؛ مَحْضُ فضلٍ من الله، وعطاءٌ يشبه عطاء الميراث الذي يناله الإنسان دون جهد منه، بسبب ما قام به المؤمنون من أعمال يبتغون بها رضوان الله وثوابه، مع أن هذه الأعمال لا تكافىء بعضَ نِعَم الله التي أنعَمَ بها عليهم».

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

ثم قابل مصير المؤمنين بمصير الكافرين، مُبالغةً في الترغيب والترهيب، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُخفَّف عنهم، أي: لم يكن عندهم فتراتُ تهوين، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: ساكتون في يأسٍ وذلّةٍ وخُنوع.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بذلك ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ لأنفسهم؛ إذ حَرَموها السعادةَ التي كانت مُستَعِدَّةً لها لو لم يُفسِدوا عليها أمْرَها.

ثم ذكر سبحانه جَزَعَهم وهَلَعَهُم ويأسَهم من النجاة، فقال: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: لِيَمْتَنَّ بالقضاء علينا لنستريح، وهكذا يَتمنَّون الموت استراحةً من العَناء، فيأَّسهم من ذلك و﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ في العذاب، لا نَجاةَ لكم منه بموتٍ ولا بغيرِه. اللهمَّ جَنِّبنا هذا المصير يا أرحم الراحمين.

ثم وَبَّخهم سبحانه بما فيه تقريرٌ لجواب مالك، وبيانٌ للسبب الذي ساقهم لهذه التعاسة، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ في دار الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ أيُّها البشر ﴿لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾. وقال الجُبّائي: يجوز أن يكون هذا من كلام مالك أيضاً. وإنما قال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ لأنه من جنس الرُّسُل وطبقتهم.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وبعد أن أعلَمَهم بهذا المصير في الآخرة، نصَّ على بعض أعمالهم التي استوجبت ذلك، وسبكه على الإنذار إن لم يؤمنوا، فقال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ وهذا معطوفٌ على محذوف، على نهج القرآن، والتقدير: أتَحَذَّرَ واتَّعظَ كفَّارُ مكة بهذا الوعيد والإعلام عن المصير، واعتَبَروا وتقرَّبوا من محمد ﷺ، أم لم يلتفتوا إلى ذلك وتآمروا وأحكموا أمراً في كَيْد محمد والمكر به، ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ كيدَنا بهم ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ حين يتناجَوْنَ في صورة الكيد به ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظونَ عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ما يقولون وما يفعلون. وهذا للإيماءِ إلى أنَّ هناك شهوداً تشهدُ عليهم وتُحصي أعمالهم، فوق ما أنه سبحانه يعلم عنهم ما ظهر وما بطن، ويُحصيه عليهم.

والآية الأولى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ بمعنى قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

ويقول الأستاذ الإمام[1]: إن ﴿أَمْ﴾ هذه ليست للعطف، ولكنْ هي لمجرَّد ابتداء الكلام. والظاهر أنها للعطف على مُقدَّر في كلِّ موطن جاءت فيه من القرآن، على نهجه في ذلك.

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

ثم ردَّ ما يُصِرُّون عليه من الشِّرك ويدافعون عنه، ونَقَضَه بأبلغ الوجوه، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ وصفةُ (الرحمن) للإيذان بالصبر عليهم، وهذه الصِّيغة من أبلغ الصِّيَغ في نفي ذلك، وأنه ﷺ على يقين فيه؛ لأنه أعلمُ الناس بشؤون الله تعالى، وأَوْلاهُم بمُراعاة حقوقه، ومن واجب تعظيم الوالد تعظيمُ وَلَدِه[1].

ثم أردَفَ هذا الغَرَضَ بتنزيهه تعالى عنه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾[2] وإنما هو واحدٌ أحد، ليس له صاحبة ولا وَلَد، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً.

ثم توعَّدهم على ذلك بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في أباطيلهم، ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دينهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ فيه بما مرَّ ذِكرُه.

ثم بيَّن الحق عن الله تعالى، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[3]؛ إذ له تعالى فيهما من أفعال الألوهية ما يدلُّ على اختصاصه بالمعبوديَّة، ﴿وَ﴾ له فيهما من آثار العلم والحكمة ما يدلُّ على أنه ﴿هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.

---

(١) هذه الآيةُ مرتبطةٌ بالآية ٥٧ من هذه السورة: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ...﴾، ومعناها: قل ـ يا رسول الله ـ لهؤلاء المشركين الذين عبدوا الملائكة، وادَّعوا أنك قَصَدتَ بذِكر قصَّة عيسى أن يَعبُدَك المشركون كما عَبَدَتِ النصارى عيسى: إن كان هناك للرحمن وَلَدٌ يُعبَدُ ـ كما زعمتُم ـ فلا ينطبق ذلك عليَّ؛ لأنني أول العابدين من هذه الأمة، ومَنْ كان عابداً لا يمكن أن يكون معبوداً، ولا يطلب ذلك من غيره؛ لأنهم يرونه عابداً، فكيف يتقبَّلونه معبوداً.

(٢) أي: تنزَّه ربُّ السموات والأرض ربُّ العرش العظيم عمّا يدَّعيه المشركون والنصارى من نسبة الوَلَدِ إلى الله وعبادته!! كيف يكون له وَلَدٌ والسماواتُ والأرضُ والعرشُ وكلُّ ما سواه مخلوقةٌ له بأمر التكوين؟!

(٣) أي: هو الإلهُ الذي يُعبَدُ في السماء وفي الأرض، لا معبودَ بحقٍّ إلا هو.

فتعاظَمَ ﴿وَتَبَارَكَ﴾ أمْرُ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وتكاثَرَ خيرُه، ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تُوعَدون بها، ولا مَحَالة من وقوعها، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ للحساب.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا يملك شركاؤهم أن يشفعوا لهم عند الله، يردُّ عليهم عقيدتَهم التي يعتقدونها في شركائهم، ويتوعَّدهم بما سينالهم في ذلك اليوم الذي يُرجَعون إليه فيه، وأنهم لا يَنجَوْنَ من هَوْله.

ثم ذكر بطريقة الاستثناء المنقطع مَنْ ينجو من هَوْل ذلك اليوم، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فهذا استثناء منقطع أو مُستثنى من مضمون ما قبله، على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا ينجو إلا مَنْ رَحِمَ الله. وهكذا مفاد الاستثناء هنا، أي: لا ينجو من ذلك الهوْل إلا الذين شَهِدوا بالحقِّ على الله، فوَحَّدوه وهم يعلمون ذلك علمَ يقين وإتقان، لما تكرَّر في هذا القرآن من حُجَّة وبرهان، ذكر منه هنا ما لا يُمكِنُهم إنكاره، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ولا يُمكِنُهم إنكار ذلك، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ويُخْدَعون فيُصْرَفون عن عبادته إلى عبادة غيره أو الإشراك به؟

ثم ختم السورة بما أكمل به البحث مِن وَعْدِ المؤمنين ووعيدِ المشركين، فقال: ﴿وَقِيلِهِۦ[1] يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾، فقُرِئَ بالجر عطفاً على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾[2]،

---

(١) القيل والقال والمقال: هي والقولُ شيءٌ واحد، والواو للقَسَم، أي: وحقِّ قولِ محمَّدٍ وشكواه أنّ هؤلاء لا يؤمنون لأُذيقَهم ما يستحقّون.

(٢) وهي قراءة عاصم وحمزة، كما في «حجة القراءات» ص٦٥٥، ويمكنُ توجيه الجرِّ أيضاً بحرف الواو للقَسَم.

من قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: وعنده عِلمُ الساعة وعِلمُ قيله: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بمعنى: أنه عالمٌ بشكواه[١].

وقُرِئَ بالنَّصب عطفاً على: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾[٢]، بمعنى: أيحسَبون أنَّا لا نسمعُ سرَّهم ونَجْواهم، ولا نسمع قيلَه.

وعلى كلٍّ، فمُحصَّل المعنى: قد علم الله ما يقولُه الرسول ويشكو به إلى الله من أمر هؤلاء المشركين. فهو وَعْدٌ له بالنَّصر، ووَعيدٌ لهم بالخِذلان، لذلك أمره بما يليق به من الثبات، وقال: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ ولا تتألّم منهم ولا تهتمَّ بذلك، ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ وهذا سلامُ مُتارَكةٍ، بمعنى قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، فمعنى: ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾: اهجُرْهم وجانِبْهم ولا تكترث بعملهم، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ ما يحلُّ بهم من عذاب الدنيا وشقاء الآخرة. يُهدِّدهم ويتوعَّدهم بذلك.

* * *

(١) أي: هو سبحانه سامعُ قولِ الرسول محمَّد ﷺ في نفسه، شاكياً إلى ربِّه قومَه الذين كذَّبوه، متوجِّعاً قَلبُه من أجلهم، متلهِّفاً لإيمانهم ونجاتهم: يا ربِّ إنَّ هؤلاء المشركين المعاندين المصرِّين على باطلهم قومٌ ليسوا مُستعدِّين مستقبلاً أن يؤمنوا.

(٢) وهي قراءة العامّة إلا عاصماً وحمزة، كما في «حجة القراءات» ص٦٥٥، وتقدير النصب على المصدر، أي: قال قيلَهُ، مفعول مطلق لبيان النوع والتأكيد.

فهرس محتويات المجلد السادس

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة لقمان	٥-٢٦
تفسير سورة السجدة	٢٧-٤١
تفسير سورة الأحزاب	٤٣-٩٥
تفسير سورة سبأ	٩٧-١٣٢
تفسير سورة فاطر	١٣٣-١٦٠
تفسير سورة يس	١٦١-١٨٨
تفسير سورة الصافات	١٨٩-٢٢٣
تفسير سورة ص	٢٢٥-٢٦٤
تفسير سورة الزمر	٢٦٥-٣٠٧
تفسير سورة المؤمن	٣٠٩-٣٤٧
تفسير سورة فصلت	٣٤٩-٣٨١
تفسير سورة الشورى	٣٨٣-٤٢١
تفسير سورة الزخرف	٤٢٣-٤٦١

❊ ❊ ❊